

روايات عالمية روايات عالمية
العائلة
تأليف : الكاتب الصيني باچن
ترجمة : فاروق محمد سليمان البديوي
الثمن ٥٠ قرشاً
العدد ٥٠٩

سلسلة

روايات عالمية

تصدر عن :

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

روايات عالمية

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

الغلاف بريشة الفنانة
فريدة عويس

روايات عالمية

العدد ٥٠٩

من الأدب الصينى

العائلة

تأليف: الكاتب الصينى

باجين

ترجمة:

فاروق محمد سليمان البديوى

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

١٩٧١

نقلت الى العربية كاملة عن رواية

THE FAMILY

by

Pen-Gin

إهـــداء

الى أشقائى الثلاثة :

محمد وعبده وجلال

تحية تقدير وعرفان ؟

فاروق البديوى

الشخصيات الرئيسة فى قصة العائلة

١ ـ السيد جاو GAO رأس عائلة جاو

٢ ـ كا ـ منج KE MING الابن الثالث للسيد جاو

٣ ـ كا ـ آن KE AN الابن الرابع للسيد جاو

٤ ـ كا ـ دنج KE DING الابن الخامس للسيد جاو

٥ ـ جيا ـ شن JUE XIN الابن الأكبر لأكبر أبناء السيد جاو

٦ ـ جيا ـ من JUE MIN شقيق جيا ـ شن

٧ ـ جيا ـ خوى JUE HUI أصغر أشقاء جيا ـ شن

٨ ـ شو ـ خوا SHU HUA شقيقة جيا ـ شن

٩ ـ تشـن QIN ابنة عمة جيا ـ شن

١٠ ـ منج ـ فونج MING FENG جارية صغيرة تخدم فى عائلة جاو

مقـــدمة

تعريف بالكاتب :

ولد «لى ـ فى ـ كان» فى عام ١٩٠٤ بمدينة «تشينج ـ تو» بمقاطعة « صى ـ تجوان » فى أسرة ميســـورة الحال ، وقد كان والده حاكما لاحدى الولايات فترة من الزمن ، وتلقى الطفل أول قسط من التعليم فى البيت على يد معلم خاص ، وتأثر وهو غلام ناشىء بالأفكار الاشتراكية التى كانت منتشرة فى الصين فى ذلك الحين ، وكان تأثره بصفة خاصة بالاشتراكيين الطوباويين .

وفى عام ١٩٢٠ دخل « لى ـ فى ـ كان » ـ الذى عرف باسم « با ـ جن » واشتهر به ككاتب كبير ـ مدرســة اللغات الأجنبية بمقاطعة « ص ـ تجوان » حيث درس اللغة الانجليزية ، وعمل فى نفس هذه الفترة محررا فى عدد من المجلات الدورية التى تدعــو الى الأفكار الجديدة .

وفى عام ١٩٢٣ سافر « با ـ جن » ليتلقى العلم فى مدينة شنغهاى ، وفى نهاية عام ١٩٢٦ سافر الى فرنسا ليواصل دراسته وفى أثناء وجوده بفرنسا أكمل كتابه الأول « الدمار » عام ١٩٢٨ ، ثم عاد بعد ذلك الى شنغهاى حيث كتب ثلاثية «الحب» الضباب ، المطر ، البرق ، ثم كتب العائلة والربيع وهما الجزآن الأولان من ثلاثية « السيول الجارفة » .

وفي خريف عام ١٩٣٣ أصبح « با ـ جن » عضوا في تحرير « مجلة الأدب » بيكين ، وكانت هذه المجلة تصدر كل ثلاثة أشهر ، وفي نوفمبر عام ١٩٣٤ سافر الى اليابان ، ثم عاد في عام ١٩٣٥ الى شنغهاى ، وشغل منصب رئيس تحرير « الحياة الثقافية » ٠

وعندما اشتعلت فى عام ١٩٣٧ الحرب ضد اليابان ، قام « با ـ جن » بالاشتراك مع « ماو ـ تون » وعدد آخر من الكتاب التقدميين باصدار عدة مجلات في شنغهاى : مثل« المنار » و « الصيحة» وبعد ذلك اشتغل بشئون الأدب فى أماكن كثيرة فى جنوب غربى الصين ، وواصل الكتابة ، وأكمل الجزء الأخير « الخريف » من ثلاثية « السيول الجارفة » وأكمل كذلك روايته الطويلة « النار » وبالاضافة الى ذلك ترجم « الأب والابن » لترجنيف كما ترجم كتبا أخرى ٠

وبعد تحقيق النصر عاد فى عام ١٩٤٦ الى شنغهاى حيث استأنف عمله كرئيس لتحرير « الحياة الثقافية » ٠

وفى عام ١٩٤٩ تحررت شنغهاى من سيطرة « الكونتنانج » (الحزب الوطنى) وانتخب « با ـ جن » عضوا فى المؤتمرالسياسى الاستشارى الشعبى ٠ وفى عام ١٩٥٠ ذهب الى وارسو كمندوب فى مؤتمر السلام العالمى الثانى ، وذهب الى كوريا فى عامى ١٩٥٢ و ١٩٥٣ حيث عاش مع الجنود وكتب عن الحرب الكورية ، وفى عام ١٩٥٤ انتخب نائبا فى الدورة الأولى للمجلس الوطنى الشعبى

وشغل «با ـ جن» بعد ذلك منصب نائب رئيس الاتحاد العام لكتاب الصين ورئيس اتحاد كتاب شنغهاى ٠

والى جانب القصة الطويلة كتب « با ـ جن » القصة القصيرة والمقالة السياسية ، وقد نشرت مجلة « الأدب » التى تصدر فى

القاهرة فى العددين الخامس والسادس لعام ١٩٦١ احدى قصص «با ـ جن» القصيرة المترجمة عن اللغة الصينية (له أكثر من خمسين قصة قصيرة) ، وتروى القصة بطريقة مؤثرة مصير حوالى خمسين فردا من الكادحين ما بين رجل وشيخ وطفل، أغرق الفيضان قريتهم، واكتسح حصادهم ، ونهب الجنود ماتبقى من متاعهم،فخرجوا يبحثون عن مكان وعمل وطعام ، وقد استمروا يسيرون على أقدامهم نصف عام ، يمرون بالمدن ، ويجتـــازون المزارع ، ويعبرون الجبال ، ويخترقون الغابات ، ويصارعون الريح والبرد والجوع ، وكان على احدى النســاء أن تبيع طفلها لتحصل القافلة التعسة على وجبتين كاملتين مفتدية فى ذلك أحد رجال القافلة نفسها ، ومضت القافلة فى سيرها ولم تستسلم لليأس ·

وكتب « با ـ جن » مقالة بعنوان « خبر سار جدا » تحدث فيها عن نجاح الشعب المصرى فى صد العدوان الثلاثى ، وتحطيم هيبة الامبراطورية البريطانية ·

ومن مقالاته السياسية أيضا مقالة بعنوان « خطاب مفتـــوح موجه الى كتاب الغرب » أقدم للقارىء بعض فقرات منه :

« ··· بصفتى أحد الكتاب فاننى أعتبر أن مهمتى هى نشر الســلام ، ان مهمتى هى أن أقرب بين البشر جميعا لأجعلهم أكثر ترابطا ، وأملى هو أن يجد كل فم ما يكفيه من الخبز ، وتجد كل أسرة مأوى يحميها ، ويجد كل طفل فرصة كى يتعلم وتجد قدرات كل انســـان فرصة كى تنمـو وتتطور وبصفتى أحد أبناء الصين يمكننى القول : اننا نحب السلام ونقدره ونحتاج اليه أكثر من أى شعب آخر ، لأننا فى ظل السلام نستطيع أن نجد فرصة للبناء ، ولأننا حصلنا على السلام بعد أن خضنا غمار حرب طويلة ·

« ··· اننى أحب أبنائى ، اننى أحب جيل الشباب ، ويجب

أن نخلق من أجلهم عالما أجمل من عالمنا ونهيىء لهم مستقبلا أفضل، فاذا استطعنا أن نحقق السلام للشباب أمكننا القول : اننا أتممنا رسالة الآباء ، أتممنا رسالة الكتاب ، أتممنا رسالة الانسان » •

قصة العائلة :

العائلة هى الجزء الأول من ثلاثية « السيول الجارفة » ، وهى تنقل القارىء العربى عبر الآلاف من الأميال حتى يصل الى بلاد الصين ويتوغل فى عمر الزمن ما يقرب من خمسين عاما حيث وقعت أحداث هذه القصة •

لن يشعر القارىء بمشقة الرحلة وصعوبتها ، فهو سينتقل الى الصين مستمتعا بوسيلة رقيقة وممتعة هى قلم « با ــ جن » • ومع كلماته الرقيقة الصادقة سيعيش القارىء فى ضيافة عائلة « جاو » الثرية ، فى داره الفسيحة يتنقل فى حدائقها الجميلة ، ويشهد المناسبات والأعياد الصينية والاحتفالات بالسنة القمرية بتقاليدها الدنيوية وطقوسها الدينية •

والعائلة التى يعرضها « با ــ جن » فى قصته هذه ليست سوى المجتمع الصينى نفسه فى المرحلة التى يصورها الكاتب بكل طبقاته الاجتماعية وعاداته وتقاليده ومعتقداته وتياراته ؛ فالمجتمع الصينى حين ذاك كان يتكون من طبقات متمايزة : طبقة السادة الأشراف الاقطاعيين الذين يملكون الأرض ، ويستبدون بالسلطة السياسية ؛ ومن ثم يتربعون على قمة الهرم الاجتماعى ، أما قاعدة هذا الهرم فتتكون من الطبقة الدنيا ، طبقة العبيد والجوارى الذين يعملون فى اقطاعيات هؤلاء السادة وفى قصورهم ، يزرعون ويصنعون ويمارسون كل الحرف والمهن التى يرجع عائدها الى سادتهم ، ولا ينالون هم سوى الفتات ، ولا يملكون من أمر أنفسهم

شيئا • وفيما بين هاتين الطبقتين تقوم طبقة أخرى اتصلت بالعلم، واستنارت بالثقافة ، واستطاعت أن تدرك التناقض الصارخ بين الطبقة العليا والطبقة الدنيا واهتز وجدانها لذلك الوضع الظالم ، فهى تسخط عليه وتفكر فى اصلاحه • وهذه الطبقة تتكون فى معظمها من الشبان المستنيرين من أبناء الطبقة العليا الذين انتهت بهم ثقافتهم واتصالهم بالحياة العصرية الى التمرد على طبقتهم التى ينتمون اليها بحكم الميلاد والانسلاخ عنها والانضمام الى الطبقة الشعبية وتبنى قضية الشعب والمناداة بتحقيق العدالة والحرية والكرامة لهذا الشعب •

وعائلة « جاو » ليست الا هذا المجتمع ، وأشخاصها جميعا ليسوا سوى رموز تشير الى طبقات ذلك المجتمع وعلاقاته وأوضاعه : فرأس العائلة المبجل الذى يكاد يرتفع الى مستوى الآلهة والذى يتمتع بسلطة مطلقة بالنسبة لسائر أفراد العائلة يرمز الى الطبقة الاقطاعية ، وحملة المحفات والعبيد والجوارى الذين يعملون فى خدمة السيد « جاو » يرمزون الى الطبقة الشعبية المغلوبة على أمرها ، و « جيا ــ خوى » حفيد السيد « جاو » وأخوه « جيا ــ من » وابنه عمتهما « تشن » يرمزون الى طبقة المثقفين المستنيرين المتمردين • وكل مايدور فى القصة من جوادث يرمز الى ما كان يختمر فى المجتمع الصينى حين ذاك من عوامل الصراع الاجتماعى نتيجة للتناقض الحاد بين طبقات ذلك المجتمع ، والعلاقة العاطفية المتسمة بالسمو والتضحية التى نشأت بين «جيا ــ خوى» والجارية «منج ــ فونج» ترمز الى هذه الظاهرة المألوفة فى كل الثورات العالمية ، ظاهرة بزوغ المصلحين بل الثوار من بين الطبقات المستبدة المتسلطة وتمردهم على طبقتهم الأصلية وانضمامهم الى الطبقات المضطهدة المظلومة ، فقديما انسلخ « محمد » صلى الله عليه وسلم عن أرستقراطيته القرشية المتجبرة ، وانضم الى عبيد مكة يدعوهم الى

الثـورة على سـادتهم الظالمين • وحديثا نزل تولستوى عن أملاكه الواسعة ، ووضع قلمه فى خدمة قضية الشعب الروسى وتآليبه على القيصرية المستبدة • وفى كلمة : ليست عائلة «جاو» سوى المجتمع الصينى قبل الثورة •

ويشاهد القارئ رأس العائلة السيد « جاو » جالســا على كرسيه تحيــط به هالة من الرهبة والاحترام يخشـاه ويحترمه الجميع : أبناؤه وزوجاتهم وحفدته • وتنعكس هذه الرهبة وهـذا الاحترام على تصرفات الحفدة نحو آبائهم وأعمامهم ، هذه التصرفات التى تتميز بذلك الطابع الغريب من الأدب الجم الذى يلتزمه الأفراد طوال يومهم •فى الجلوس الى مائدة الطعام ، وفى تناولهم طعامهم، وحتى فى ساعات لهوهم ومرحهم •

فجميع أفراد العائلة كانوا يعيشون فى ذلك الحين فى ظل نظام اجتماعى صينى يعرف باسم « النظام الأبوى الاقطــاعى » والعائلة هى الوحدة الأساسية لهذا النظام •

والكتابات السياسية التى تتولى تحليل المجتمع الصــينى القائم فى تلك الفترة توضح أن الفرد فى الصين كان يخضع عادة لسيطرة ثلاثة أنظمة من السلطة :

١ ـ نظام الدولة : وهو يمثل السلطة السياسية •

٢ ـ نظام العشيرة : وهو يمثل السلطة العشائرية ويمتد نظام العشيرة من المعبد المركزى للأســلاف وفروعه حتى رأس العائلة •

٣ ـ النظام الروحى (الســلطة الدينية) : ويمتد من ملك الجحيم الى آلهة المدن حتى آلهة القرى الذين ينتمون الى العــالم السفلى ، ومن امبراطور السماء الى مختلف الآلهة والأرواح الذين ينتمون الى عالم الأرواح السماوية •

وهذه الأنواع الثلاثة من السلطة ـ السلطة السياسية ، والسلطة العشائرية ، والسلطة الدينية ـ تمثل النظام « الأبوى الاقطاعى » والنظام الأبوى الاقطاعى له جذوره الاقتصادية والثقافية الضاربة فى أعماق المجتمع الصينى فى ذلك الحين ، وله تقاليده الراسخة .

وفى قصة العائلة يقف الشيخ المبجل « جاو » بوصفه رأس عائلته حاميا مخلصا لهذا النظام داخل عائلته الكبيرة ، وهو معتز بمكانته داخل العائلة فخور بها .

والشيخ المبجل « جاو » ابن مخلص للثقافة القديمة ، يتذوقها ويسهم فيها ، ويقرأ الأعمال الكلاسيكية ، ويكتب الشعر ، ويقتنى التحف واللوحات الفنية النادرة ، يتذوق الخط الجميل ـ وهو من الفنون الجميلة ذات المكانة البارزة فى الصين ـ ويميل السيد المبجل « جاو » الى تعليم أولاده وحفدته داخل داره على يد معلم خاص ، ويعارض بشدة تعليم أبناء العائلة فى المدارس العامة ، ولا يقبل ذلك الا بعد الحاح شديد .

لكن ما موقف باقى أفراد العائلة من سلطان ذلك الشيخ المبجل ؟

« جيا ـ خوى » حفيد الشيخ «جاو» يجلس مع الخدم العاملين فى دار « جاو » ، ويستمع الى قصصهم وهو طفل صغير ، ويلهو مع الجارية « منج ـ فونج » ويكبر « جيا ـ خوى » ويتفتح قلبه على حب تلك الجارية وعلى الأفكار التحررية السائدة فى مجتمع تلك الأيام خارج أسوار دار « جاو » . و « جيا ـ خوى » فتى ذكى متفتح الذهن سريع التأثر بما يقرأ ، لذلك تراه عندما يقرأ مقالا ينادى بنظام التجنيد والغاء نظام المرتزقة يفكر فى ترك الدراسة والالتحاق بالجندية ، وعندما يقرأ عن المساواة والاشتراكية وكرامة

المواطن يؤمن بما قرأ أشد الايمان ، ويأبى ركوب المحفات التى يحملها آدميون مثله ، ويشترك فى مظاهرات الطلبة وفى تحرير مجلة تقدمية يصدرها الطلبة • انه يريد التغيير ، ويسعى من أجله دون أن يهديه عقله الصغير الى الطريق العلمى والعملى للقضاء على كل ما هو قديم وسيىء •

يتحدث«جيا ـ خوى»عن كتاب أعطاه له جده ليقرأه حين لاحظ انحرافه وميله الى الأفكار الجديدة فيقول :

لقد وجدت الكتاب عبارة عن دروس تعلم الانسان كيف يتصرف كعبد ، وهو ملىء بعبارات مثل : الوزير الذى لايقبل الموت تنفيذا لأمر الحاكم انسان غير مخلص ، أحط الجرائم الفسق ، أكبر الفضائل اطاعة الآباء • وازداد غضبى مع استمرارى فى القراءة حتى فقدت صوابى ، فمزقت الكتاب اربا اربا فلو تخلص العالم من نسخة من هذا الكتاب لقل عدد المصابين بسمومه •

ويستمر الصراع طوال القصة عنيفا بين الحفيد وجده : الجد بمكانته المادية والاجتماعية والثقافية ، والحفيد بشبابه وايمانه بالمستقبل •

أما « جيا ـ شن » وهو الأخ الأكبر « لجيا ـ خوى » ، فهو من طراز آخر : انسان مستسلم يريد أن يعيش فى هدوء ، لكن استسلامه لا يجلب له الهدوء ، وينتهى به الأمر الى أن يكون هذا الاستسلام سببا فى تحطيم مستقبله ، ثم يتركه ليعيش فى مرارة وألم ؛ ومع ذلك يستمر فى استسلامه محاولا ارضاء الجميع ، فكانت النتيجة هى الفشل التام فى ارضاء أى انسان •

و « جيا ـ شن » شخصية مملوءة بالتناقضات : فهو يقرأ الكتب الحديثة ، ويتأثر بقراءتها وبما فيها من أفكار تقدمية ، لكنه فى نفس الوقت يقبل فى استسلام هذا اللون من الحياة الذى

يفرضه النظام الأبوى الاقطاعى ؛ فيبدو أمام كبار العائلة ابنا مطيعا لهم وللتقاليد القديمة ويتحدث الكاتب فى القصة عن التناقض الذى يعيش فيه « جيا — شن » :

« فى الواقع وجد جيا — شن » فلسفة الانحناء والاستسلام وسياسة عدم المقاومة أمرا مريحا بالنسبة له ؛ فبفضلها استطاع أن يتوازن هو وحقيقة وضعه بسهولة ، أما النظريات التى تتناولها مجلة الشباب الجديد ، وتهاجم فيها أوضاع أسرته — فلها فوائدها أيضا بالنسبة له ، فهى على أية حال سلوى وتعزية له عن مستقبله الضائع ٠

وهكذا آمن بالنظريات الحديثة ليستخدمها فى تعزية نفسه ، وتقبل فى نفس الوقت الفكر الاقطاعى القديم معتمداً على فلسفة سياسة عدم المقاومة والانحناء والاستسلام ٠

ولقد وقعت حادثة هزت كيان هذه العائلة فى عنف ، وصدمت رأس العائلة صدمة قوية وهددت أحلامه عن مستقبل عائلته ٠ ولم يكن السبب فى هذه الحادثة أحد حفيديه « جيا — خوى » أو « جيا — من » الثائرين على الأوضاع فى عائلته ، كما يتبادر الى الذهن ، بل جاءت الصدمة من حيث لايتوقع أحد من كبار العائلة المحترمين : من العم « كا — دنج » فبين عشية وضحاها اكتشف أفراد العائلة أن هذا العم المحترم يسرق حلى زوجته ، ويستأجر شقة خاصة يؤوى فيها عاهرة محترفة ، ويدخن الأفيون ، ويستدين النقود باسم رأس العائلة ! ويصدم الشيخ « المبجل « جاو » حين يدرك مصدر الخطر الحقيقى الذى يهدد كيان عائلته ومكانتها ، ويصدم كذلك حين يعلم أن أحد أبنائه « كا — آن » متواطىء مع « كا — دنج » فى هذه التصرفات ، ويثور الشيخ « جاو » ثورة عنيفة تزيد من بشاعة هذه الفضيحة ، فيضرب ابنه « كا — دنج »

أمام زوجته وابنته الكبيرة وتحت سمع وبصر باقى أفراد العائلة ، ثم يأمره بأن يركع على الأرض ، ويلطم خديه ، فينفذ« كا ـ دنج » أوامر أبيه « رأس العائلة » ! ٠

ويعرض الكاتب صورا من الفساد الذى يجعل كيان هـــذه العائلة الكبيرة نخرا ، كما يعرض الخصومات الدفينة الكـــامنة فيها برغم تماسكها وهدوئها الظاهرى ٠ وتظل مع الكاتب ننتقل داخل حجرات دار «جاو» الجميلة وحدائقها الغناء ، لكنه لاينسى أن يدفعنا أحيانا الى ركن مظلم قذر بهذه الدار حيث تخيم الكآبة واليأس على المقيمين فيه من خدم وجوار ، وتجلس الجارية الصغيرة الجميلة « منج ـ فونج » ، التى لم تتجاوز ستة عشر ربيعا من عمرها فى غرفتها الكئيبة المظلمة تتأمل حياتها التعسة ٠٠٠ لقد تعودت هذا الشقاء ، وأصبح جزءا مكملا لوجودها الكئيب ٠٠ فهذا هو قدرها لا يمكنها الهرب منه ٠ لم تقبل اطلاقا هذا اللون من الحياة ، لكنها تحملته ٠ كل ما يحدث فى العالم قدر مكتوب ، القدر أراد لها أن تبقى حيث شاء ، وأن تصبح كما يشاء ، آمنت بهذا ، واتفق ايمانها مع ما قاله لها الآخرون ٠

ويصور لنا الكاتب بعض الأحداث الهامة فى حياة المدينة التى تعيش فيها عائلة « جاو » : مظاهرات الطلبة والحملات التى يقومون بها ضد من يتاجرون فى بضائع مستوردة من دول معــــادية ٠

ويخيم شبح الحرب على المدينة وعلى دار « جاو » ، وفى ساعات الخطر يظهر الضعف الحقيقى الكامن فى عائلة « جاو » المتماســكة فى مظهرها العام ؛ فكل أسرة من عائلة «جاو» تحاول النجاة بنفسها دون أى تفكير فى باقى أفراد العائلة ٠

و « با ـ جن » كاتب صادق أمين ، تشعر بصدقه فى عرضه للأحداث التى تقع فى عائلة «جاو» ؛ فبرغم أن الاتجاه العام للقصة

يهاجم الأوضاع السائدة فى عائلة « جاو » فانه يعرض لنا ساعات الهدوء والسعادة التى قد ترفرف على أفراد هذه العائلة ، ويعرض أيضا مظاهر الثراء والنعمة التى يتمتع بها أفرادها ، كما يعرض بعض العواطف الانسـانية الرقيقة التى تربط بين بعض أفراد العائلة .

و « با ـ جن » حين يتحدث عن أى شىء عادى مهمـا تكن بساطته ، قادر على عرضه بطريقة جذابة مؤثرة تثير فى الانسان أنبل المشاعر وأرقها :

فى كل أمسية يجلس « جيا ـ شن » الى جوار زوجته وولده عندما يأويان الى فراشهما ، وينظر الى طفله وهو نائم على ذراع أمه، فيدفع هذا الوجه الصغير الى قلب أبيه العزاء والسلوى والأمل ، وينسيه كل متاعبه ، فلا يستطيع مقاومة رغبته فى طبع قبلة على خده الرقيق ، ويهمس فى رقة بكلمات الشكر والأمل والحب ... كلمات غامضة ... ولكنها كانت تتدفق تلقائية كما يتدفق المـاء من النبع ... لم يكن « جيا ـ شن » يعلم أن والديه أحباه بنفس الحماس عندما كان طفلا ، وأنهما همسا فى أذنيه بكلمات الشكر والأمل والحب .

ويتحدث « با ـ جن » عن أمسية فى دار « جاو » الثرية ، ويصف عزف الناى والكمان ... والضحكات :

وبعد فترة أرخى الليل سدوله مرة أخرى ، وتهـادت على موجات البحيرة أنغام الناى العذبة ، فارتجفت لها هبات النسيم ، واحتضنت أنغام الناى أنغام « مكتومة منبعثة من وترين جرحتهما لمسات قوس عازف ، فهدهدت تلك الأنغام العـذبة المسـتمعين وسحرتهم كأسطورة خيالية قديمة ، وجعلتهم ينسون اهتماماتهم

التافهة الصغيرة ، وأثارت أحلامهم القديمة ... أحلامهم التى لم تتحقق قط ...

« توقف الناى ، واخترقت الضحكات وصيحات الاستحسان سطح البحيرة الهادىء ، لكن مياه البحيرة ابتلعت هذه الضحكات والصيحات ، ودفعتها الى الأعماق حيث ألقى عليها الصمت شباكه السوداء ، ولم ينج منها سوى بضعة أصوات قليلة طفت الى سطح البحيرة وقفزت على أجنحة النسيم ، فحملها الى آذان السامعين ضعيفة منهكة ضاعت مع صدى النغمات الأخيرة للحن الجميل » .

أسلوب الكاتب :

وأسلوب الكاتب يتميز باليسر . وهذا اليسر سمة من سمات أدب الكتاب الكبار ؛ فجميع الكتاب العالميين تمتاز كتابتهم « بالبساطة » الشديدة بجانب عمقها وجمالها . و « با ـ جن » فى قصته هذه يتناول عددا كبيرا من الأشخاص المختلفين سنا ونفسية ومركزا اجتماعيا ، ويصف الكثير من الأعمال والمناظر الطبيعية والمناسبات ، ويحرص على ذكر تفصيلات كثيرة وصغيرة ، وبالرغم من ذلك فان قدرته المدهشة على التعبير « البسيط » الواضح تجعل القصة تمضى فى يسر وتشويق دون أن يشعر القارىء مطلقا بأنه قد ضل طريقه بين التفصيلات الكثيرة أو التبست عليه الشخصيات المختلفة . ويضاف الى ذلك أن «با ـ جن » ككاتب كبير تحفل قصته باللمسات الانسانية التى تدل على خبرته بالنفس الانسانية وقدرته على سبر أغوارها .

مكانة قصـــة العــــائلة :

ذاعت مؤلفات « با ـ جن » ، وخاصة قصة العائلة بين شباب الصين الذين قرءوها وانفعلوا بأحداثها ، وكان لقصصه تأثير كبير على الشباب فى أثناء الثورة الديمقراطية على الامبريالية والاقطاع ٠

وكشفت قصة العـــــائلة عن الشر والرياء الكـــامنين فى المجتمعات الاقطاعية ، كما كشفت عن الجوانب المتعارضة للعلاقات التى تربط بين أفراد العائلة الاقطاعية ، وقامت القصة بدور ايجابى حيث انها حثت الشباب المثقفين على محاربة النظام الاجتمـــــاعى المتعفن القائم فى ذلك الحين ٠

و « با ـ جن » كتب قصصا كثيرة من واقع حياته وتجاربه الخاصة قامت جميعها بدور هام فى الثورة الديمقراطية على الاقطاع والامبريالية فى أيامه ، وتقف قصة العائلة على رأس هذه الأعمال٠

الأدب الصينى والقارىء العربى

ان الأدب الصينى من أعرق الآداب العــــالمية ، وهو حافل بالآثار الرائعة الخالدة فى القصة والشعر والحكمة ٠ ومن المؤسف أن القارىء العربى مازال حتى اليوم بعيدا بعدا شديداً ان لم نقل جاهلا جهلا تاما لهذا الأدب الانسانى العريق سواء من حيث أعلامه أو من حيث آثاره ، فى حين أن المجتمعات الأخرى قد التفتت الى هذا الأدب ، ونقلت الكثير من عيونه الى لغاتها ، وكل ما نقل الى اللغة العربية من التراث الصينى الثقافى ـ وهو قليل قلة تبلغ حد الندرة ـ لم يترجم عن اللغة الصينية مباشرة ، وانما ترجم عن لغات أخرى مثل الانجليزية ٠ وتتميز المرحلة الحاضرة من حياتنا

الثقافية بظاهرة هامة جدا هى اشتغال عدد من الشبان المصريين بدراسة اللغة الصينية واجادتها قراءة وكتابة · وعلى هؤلاء النفر من المتخصصين فى اللغة الصينية يقع واجب ثقافى وقومى خطير جدا ، وهو أن يقيموا صلة مباشرة وحية بيننا وبين التراث الثقافى الصينى العريق عن طريق الترجمة المباشرة لروائع هذا التراث الى لغتنا العربية · ولست أطمع فى أكثر من أن تكون قصة العائلة هذه مجرد اسهام متواضع فى هذا السبيل ، وشق للطريق الى هذه المهمة الجليلة ·

فاروق محمد سليمان البديوى

العائلـــة

الفصـل الأول

هبت الرياح فى عنف ، وأخذت حبات الثلج تسبح من الرياح وكأنها كرات صغيرة من القطن الناصع البياض • تراكمت حبات الثلج على جانبى الطريق مكونة طبقات من الجليد الأبيض على جدران المباني ، أخذت تزحف على منتصف الطريق الموحل المظلم •

وقاوم السائرون فى الطريق وحملة المحفـات برودة الثلج والهواء ، لكن محاولاتهم ذهبت سدى ، وبدا عليهم الارهاق حيث ازداد تساقط الثلج بغزارة فى كل مكان : فوق المظلات والمحفات ، وعلى وجوه السائرين فى الطريق ، وحملة المحفات •

تلاعبت الرياح بالمظلات ، وأخذت تتقاذفهـا فى شـتى الاتجـاهات ، واقتلعت اثنتين من أيدى حامليهما ، وألقت بهما بعيدا •

أخذت الرياح تدوى فى حزن ، وامتزج دويها والصـوت المنبعث من خطوات السائرين على الجليد ، وكونا معا لحنـا مثيرا غريبا مقبضا • ان هذه العاصفة الثلجية ستستمر زمنا طويلا ، انها توحى الى السائرين فى الطريق أن شمس الربيع الدافئة لن تعود أبدا ••••

بدأ الظلام يرخى سدوله ، وكانت مصابيح الطريق لم توقد بعد ، فأخذ الظلام يطوى كل شيء ، وامتلأ الطريق بالماء والوحل، واشتدت برودة الهواء ، وبرغم هذه الظروف الموحشة المقبضة كان

هناك شيء يحفز همة السائرين ؛ فقد داعبهم أمل فى قرب عودتهم الى ديارهم حيث ينعمون بالدفء والنور ٠

صاح شاب فى الثامنة عشرة من عمره :

« جيا ـ خوى » ! أسرع والا تأخرنا عن العشاء !

كان الشاب يحمل مظلة واقية من المطر باحـــدى يديه ، ويمسك بالأخرى حافة ثوبه المبطن بالقطن وقد احمر وجهه من شدة البرودة ، وانحدرت نظارته الذهبية على أنفه ٠

كان « جيا ـ خوى » يسير خلف أخيه مرتديا ثيابا مماثلة لملابس شقيقه وان بدا أصغر منه قليلا ، وكان وجهه أكثر نحافة، وتتميز عيناه ببريق جذاب ٠

أجاب « جيا خوى » أخاه قائلا :

ـ لا ، لن نتأخر ؛ فقد أوشكنا أن نصل ٠

ثم أسرع فى سيره وتناثر الوحل على سرواله ٠

دلف الشقيقان الى شارع أهدأ من الشوارع الأخرى ، أضيئت مصابيح الزيت المتراصة على جانبيه ، فعكست أشعتها الكئيبة ظلالا شاحبة لأعمدة المصابيح فوق الجليد كانت تبعث احساسا بالوحدة وسط هذا الجو العاصف القاسى ، وعلى الطريق كان يظهر أفراد قلائل يسيرون فى خطى سريعة ، ثم يختفون فى صمت تاركين على الجليد آثار أقدامهم التى تظل على الأرض كأنما شلها الارهاق عن الحركة ، فاستسلمت حيثاستقرت حتى تطأ الجليد أقدام أخرىفتبعث بأنات خافتة ، وتتحول الى أشكال غريبة ٠ ومع الوقت تحولت آثار الأقدام المنتظمة المنتشرة على هذا الطريق الطويل الممتد الى لا نهاية

المكسو ببساط أبيض من الثلج - الى حفر صغيرة سوداء شائهة الشكل ٠

وقفت الدور المتراصة على جانبى الطريق شامخة بأبوابها الخشبية الضخمة المطلية باللون الأسود وسط تلك العاصفة الثلجية الهوجاء ، وعلى جوانب مداخل الدور جثمت أسود قدت من حجر ساكن سكون القبور ، وبدت البوابات كأفواه حيوانات خرافية تؤدى الى كهوف مظلمة لا يستطيع أن يرى الانسان ما بداخلها ٠

لكل دار من هذه الدور تاريخ طويل : فدور تعاقب عليها ملاك كثيرون ، ودور أخرى لها أسرارها وخفاياها ٠ وحينما يتشقق الطلاء الأسود ، ويتساقط من فوق البوابات الكبيرة - يعاد طلاؤها من جديد ٠ ومهما يحدث من تغييرات فان أسرار هذه الدور وخباياها لا يكشف سترها أبدا ، ولا يستطيع أى انسان من خارج هذه الدور معرفة شيء عنها ٠

توقف الأخوان فى منتصف الطريق أمام بوابة بيت كبير ضخم ، ونفضا على حجر ما علق بأحذيتهما ، وأزالا الثلج من فوق ثيابهما حتى يتمكنا من فرد معطفيهما ، وأمسك كلاهما بمظلته فى يده ، وتقدما الى المدخل الطويل المؤدى الى البيت وهما يسيران فى خطوات واسعة الى أن ابتلع هذا الكهف المظلم صوت خطواتهما ، وساد الصمت الطريق مرة أخرى ٠

كان مظهر الدار من الخارج يماثل الدور الأخرى من حيث قيام هذين الأسدين الحجريين على جانبى المدخل ووجود الفانوسين الأحمرين المصنوعين من الورق المعلقين فى أعلى البوابة ، لكن

يميزها من الدور أن لوحة حجرية ضخمة قائمة الزوايا موضوعة أمام البوابة ، وقد علقت على الجانب الآخر من حائط المدخل من أعلى الى أسفل ـ لوحات منقوش عليها باللون الأسود عبارات رمزية تقرأ من أعلى الى أسفل ، وتبدأ الكتابة من أعلى اللوحة المعلقة جهة اليمين ، ثم تليها اللوحات المعلقة جهة اليسـار ، وكانت هـذه اللوحات تحمل عبارات الأمنيات الطيبة :

حكام محبون للخير ... حياة سعيدة ... عمر مديد ... محصول وافر ...

الفصل الثاني

انتهت العاصفة وسكنت الرياح ، ولكن الهواء ظل على برودته ، وقد أقبل الليل دون أن ينشر ثوبه الأسود على الكون ، فظلت السماء محتفظة بلونها الرمادى ، وامتد على الأرض بساط من الثلج الناصع البياض ، وكانت أزهار البرقوق بلونها الذهبى منتشرة على جانبى الممر المرتفع المبلط بالأحجار ، واكتست أفرع الأشجار بالثلج الأبيض ، فبدت رائعة الجمال ·

تقدم الأخ الأكبر « جيا ــ من » الى سلم جناح من طابق واحد فى الجانب الأيسر من الفناء ، وعندما هم بعبور عتبة الباب سمع فتاة تنادى :

ــ سيدى الفتى الثانى ، سيدى الفتى الثالث ، وصلتما فى الوقت المناسب ، بدأ العشاء الآن ، أسرعا فلدينا ضيوف ·

كان المتحدث هو الجارية « منج ــ فونج » فتاة فى ربيعها السادس عشر ، أرسلت شعرها على ظهرها فى ضفيرة واحدة ، وتحرك جسدها المتناسق فى ثوب أزرق ، ولها غمازتان تتألقان على وجنتيها عندما تبتسم فتضيئان وجهها الناضر الجميل البيضاوى الشكل ·

أخذت « منج ــ فونج » تنظر الى الشقيقين فى براءة بعينيها البراقتين المتألقتين بلا خجل أو تردد ·

ابتسم « جيا ــ خوى » لها وهو واقف خلف أخيه الأكبر ، أما « جيا ــ من » فقال لها وهو يدخل حجرته دون أن يلتفت اليها :

ـ حسنا ! سنتخلص من تلك المظلات ، ونحضر فورا ٠

لكن « جيا ـ خوى » ناداها وهو على السلم :

ـ « منج ـ فونج » ! من ضيوفنا ؟

ـ السيدة « تشانج » والآنسة « تشن » ، أسرعا !

أنهت الفتاة حديثها ، ثم اتجهت الى المبنى الرئيسى ٠

لاحقت ابتسامة « جيا ـ خوى » الفتاة وهى تتبتعد حتى أغلق الباب خلفها ، فاستدار وهم بدخول غرفته ، فاصطدم عند خروجه بأخيه الذى سأله :

عم كنت تتحدث أنت و « منج ـ فونج » طوال هذا الوقت ؟

أسرع ، فان الطعام سينفد اذا تأخرنا أكثر من ذلك ٠

ـ سأذهب معك ؛ فلست فى حاجة الى تغيير ثيابى ؛ فهى ليست شديدة البلل ٠ ثم قذف بمظلته على الأرض ٠٠

ـ أحمق لماذا تعجز عن أداء الأشياء على وجهها الصحيح ؟ ان المثل القديم أصاب عين الحقيقة ٠٠ « ان نقل جبل من مكانه أسهل من تغيير طباع رجل ! »

كانت قسمات وجه « جيا ـ من » تنطق بالفرح برغم لومه لأخيه ، ثم التقط المظلة المبتلة من على الأرض وفتحها ، ووضعها بحرص شديد على الأرض مرة أخرى ٠

قال « جيا ـ خوى » وهو يرقب الأمر فى سخرية :

ـ ماذا أفعل ؟

ـ تصرف مثلي ، انك انسان متسرع ، ودائما تصــــدمنا بتصرفاتك ٠

ـ انك سليط اللسان ولايفوقك انســــان في قدرتك على الكلام !

خرج « جيا ـ من » من الغرفة وهو في غاية الغضب ، ولكن الشقيقين يفهم كل منهما أخاه جيدا ، فلم ينزعج « جيا ـ خوى » لغضب أخيه المصطنع ، وابتســـم وسار وراءه وفكره مشـــغول بالجارية ، غير أن أفكاره لم تلبث حتى توارت أمام ما تراءى له عند دخوله المبنى الرئيسى ٠

كان حول المائدة المربعة ستة أشخاص في الجانب البعيد عن الباب ـ حيث كراسي الشرف ـ جلست زوجة أبيه السيدة «تشوو» وعمته السيدة « تشانج » ٠ وعلى اليسار ابنة عمته « تشن » ، و « رواجيا » زوجة أخيه الأكبر « جيا ـ شن » وأختهم الصغرى « شـــو ـ خـــوا » ، أما المقعـدان اللذان في الجانب الأيمن فكانا شاغرين ٠

انحنى « جيا ـ خوى » وأخوه للسيدة « تشانج » وحييـــا الآنسة « تشن » ، ثم استقرا على مقعديهما الشاغرين ، وأسرعت الخادمة ، وقدمت لهما أطباق الأرز ٠

أمسكت السيدة « تشوو » بطبقها وسألتهما في رقة :

ـ لماذا تأخرتما اليوم ؟ لولا حضور عمتكما في زيارة لنا لكنا انتهينا من تناول الطعام منذ زمن ٠

أجابها « جيا ـ من » :

ـ لم يكن لدينا دراسة بعد الظهر ، فطلب منا السيد «تجو» اجراء تجربة على القاء المسرحية واستغرق هذا وقتا طويلا ·

قالت السيدة « تشانج » فى أسلوب جمع بين اهتمامهما بأمرهما والالتزام بآداب الحديث :

ـ ان تساقط الثلج جعل الطقس باردا جدا · هل أخذتما محفة فى عودتكما الى الدار ؟

أجاب « جيا ـ خوى » بسرعة :

ـ لا ، لم نفعل ذلك ·

وعلق « جيا ـ شن » على اجابة أخيه الصغير بابتسامة ساخرة وقال :

ـ « جيا ـ خوى » لايسمح بأن يقال عنه انه من راكبى المحفات ، انه محب للانسانية !

ضحك الجميع من هذا التعليق ، وتملكت الحيرة والغضب « جيا ـ خوى » ، فلم يرفع رأسه وركز اهتمامه فى الطعام ·

رد « جيا ـ من » على عمته فى أدب وقال لها :

ـ الجو ليس باردا فى الخارج ، هدأت الرياح ، وقطعنا الطريق نتحدث ، فلم نشعر بأى ضيق أو ارهاق ·

وسألته « تشن » :

ـ متى تعرض المدرسة هذه المسرحية ؟

كانت « شن » تصغر « جيا ـ من » ببضعة أشهر ، وهى تعد أجمل فتيات عائلة « جاو » وأنشطهن ، وقد دخلت مدرسة البنات

فى سن مبكرة ، وهى الآن طالبة فى السنة الثالثة فى مدرسة المعلمات للبنات بالمديرية ·

أجابها « جيا ـ من » :

ـ ربما تعرض فى بداية الفصل الدراسى الثانى فى فصل الربيع ؛ فالفصل الدراسى الحالى لم يبق منه سوى أسبوع تقريبا، وأنت متى تبدأ اجازتك الشتوية ؟

ـ لقد بدأت فى الأسبوع الماضى ، ويقال : ان المدرسة تعانى عجزا ماليا ؛ ولهذا بدأت اجازتنا فى وقت مبكر هذا العام ·

انتهت « تشن » من تناول طعامها ، ووضعت طبقها على المائدة ·

قال « جيا ـ من » :

ـ لقد استخدمت ميزانية التعليم فى المديرية للأغراض العسكرية ، وجميع المدارس تعانى المشكلة نفسها ، والاختلاف الوحيد بين مدرستنا والمدارس الأخرى يكمن فى ارتباط ناظر مدرستنا بعقود مع مدرستين أجانب ، وهذه العقود تضمن للمدرسين رواتبهم سواء انتظمت الدراسة أو تعطلت ، لذلك استمرت الدراسة حتى نتجنب الخسارة · هذا الى جانب ما يقال عن علاقة ناظر مدرستنا بالحاكم ، وقد أدى هذا الى عدم ضغط ميزانيتنا كثيرا ·

ثم وضع طبقه ، فناولته « منج ـ فونج » منشفة صغيرة مبللة ، وهنا علق « جيا ـ شن » على حديثهما قائلا :

ـ يكفيك حصولك على حق الذهاب الى المدرسة · والأمر

لايختلف بعد ذلك كثيرا .. سألت السيدة « تشانج » ابنتهـــا « تشن » :

ـ ما اسم مدرستهما ؟ لقد نسيتها .

أجابتها « تشن » وهى تضحك :

ـ ذاكرة والدتى ضعيفة ، انهما فى مدرسة اللغات الأجنبية، لقد سألتنى السؤال نفسه أكثر من مرة .

ـ أصبت فيما قلت يا « تشن » ، اننى أتقدم فى السن ، وكثيرا ماتخوننى ذاكرتى .

لقد كسبت اليوم فى أثناء لعبى « الما ـ جيانج »(١) ، ونسيت ما كسبته .

وبعد أن انتهى الجميع من تناول الطعام دفعت السيدة «تشوو» مقعدها الى الخلف ودعتهم للذهاب الى الغرفة المجاورة ، فتوجهوا اليهـــا .

وهمس « جيا ـ من » فى أذن « تشن » وهما يســـيران فى مؤخرة الجماعة :

ـ مدرستنا ستقبل طالبات فى العام الدراسى القادم .

اهتزت « تشن » من الفرح ، وحـــدقت بعينيهـــا الكبيرتين الصافيتين فى وجهه فرحة بما قاله :

حقـــا ؟

---

(١) « الما ـ جيانج » لعبة كانت منتشرة بالصين ، وتتكون من ١٥٢ قطعة من العظم عليها أرقام وعلامات وهى تشبه لعبة (الكوتكان)

نطقت « تشن » بهذه العبارة والشك يساورها فى أن « جيا ـ من » يحاول اثارتها والتلاعب بها ٠

ـ حقا ! ماذا تقولين ؟ وهل كذبت عليك من قبل ؟

نظر « جيا ـ من » الى أخيه الأصغر الواقف الى جواره ، واستمر فى حديثه قائلا :

ـ اذا كنت لا تثقين فى فاسألى « جيا ـ خوى » !

أجابت « تشن » ضاحكة :

ـ ليس الأمر عدم ثقة ، لقد فوجئت بهذا الخبر السار ٠

قال « جيا ـ خوى » :

ـ الخبر صحيح ، أما امكان تنفيذه فمسألة أخرى ٠ ان لدى « صى ٠ تجوان » كتابا ملتزمين بالأخلاقيات وعلى جانب كبير من النفوذ ، ومن المؤكد أنهم سيعارضون هذا الأمر ٠٠٠٠ الأولاد والبنات فى مدرسة واحدة ؟ ٠٠٠٠ هذا أمر لا يتخيلونه حتى فى أحلامهم المزعجة ٠

بدا الانفعال واضحا على وجه « جيا ـ خوى » ، وهنا تدخل « جيا ـ من » ليطمئن « تشن » ٠

لاتهتمى كثيرا بأمرهم ؛ فلنناظرنا وسائله الخاصة ، وهى كفيلة بتحقيق ما يريد ٠

أجابت « تشن » فى حزم :

ـ سأكون أول المتقدمات ٠

قطعت السيدة « تشانج » حديثهم :

ـ « تشن » ! لم تأخرت عن الانضمام الينا ؟ ولم تقفين بجوار الباب ؟

همس « جيا ـ من » :

ـ اطلبى من والدتك السماح لك بالحضور الى غرفتنـــا ؛ لأخبرك بجميع التفاصيل ٠

أومأت « تشن » برأسها ، ثم اتجهت الى والدتها ، وهمست فى أذنها ببضع كلمات ضحكت لها السيدة « تشانج » وقالت :

ـ حسنا ! لكن لا تتغيبى طويلا ٠

عندما كانت الفتاة والشابان يغادرون المبنى الرئيسى سمعت « تشن » وقع قطع العاج وهى تنقل فوق المنضدة الخشبية ، فأدركت أن الأمور ستجرى على مايرام حتى تنتهى على الأقل أربع مباريات من لعبة « الما ـ جيانج » ٠

الفصل الثالث

تحدث « جيا ـ من » الى « تشن » وهما يهبطان السلم وقد علت وجهه ابتسامة مشرقة :

ـ لقد انتهينا فى هذه الفترة الدراسية من قراءة « جزيرة الكنز » ، وفى الفصل الدراسى القادم سندرس البعث «لتولستوى»، وسندرس الأدب الصينى على يد كاتب مقالة « أخلاقيات كونفشيوس البربرية » فى مجلة الشباب الجديد : أليس هذا رائعا ؟ ·

صاحت « تشن » :

ـ انكم محظوظون ، اننــــا ندرس دائمــــا أعمال الأدباء الكلاسيكيين ، فمدرس الأدب عندنا من ذلك الطراز المغرم بمختارات الأدب الصينى القديم ، وفى اللغة الانجليزية درسنا خلال السنوات الماضية كتب « تشامبر » للمطالعة ، وعلمت أننــــا سننتقل الى روايات شكسبير ·· ليس لدينا سوى تلك الأشياء القديمة المملة ·· أنا مستعدة لعمل أى شىء اذا أعلنت مدرستكم حق الطالبات فى الالتحاق بها ·

سأل « جيا ـ خوى » فى سخرية :

ـ ما عيب كتاب المطالعة الانجليزية ؟ لقد ترجم الى الصينية ·
فرمقته « تشن » بنظرة قاسية وقالت :

ـ انك تمزح دائما ، ونحن الآن نناقش الأمر بجدية ·

قال « جيا ـ خوى » بضحكة مفتعلة :

ـ اذهبا وتحادثا فيما يحلو لكما ! ٠

ثم أبطأ خطاه ليتيح لهما دخول الجنـــــاح قبله ، توقف « جيا ـ خوى » أمام المدخل ، وأخذ يتأمل الفناء ٠

تلألأت الأنوار فى جميع أرجاء المبنى ، وترددت الأصوات فى جنبات الدار ٠٠ وبدت الحديقة رائعة الجمـــال وهى مكســـوة بالثلج ٠

غمر « جيا ـ خوى » احساس فياض بالســـعادة والفرح ، فتاقت نفسه الى اطلاق ضحكاته لتزغرد فى هذا الجو الخلاب ، وفرد ذراعيه تحية للجمال الممتد أمام عينيه ، وشـــعر بأنه انسان حر بلا قيود ٠

تذكر « جيا ـ خوى » دوره فى تمثيلية جزيرة الكنز التى مثلها فريق مدرسته ٠ وقام فيها بدور كلب البحر العجوز ، تخيل نفسه وهو يسحق المائدة فى الحانة ويزأر بصوته الأجش طالبـــا الخمر ، وامتلأت نفسه باحساس طاغ بالنشـــوة والفرح ، فدفع رأسه بقوة الى الخلف وصاح :

ـ « منج ـ فونج » ، أحضرى ثلاثة أكواب من الشاى ! ٠

استجاب لندائه صوت رقيق ، وبعد دقائق قليـــلة خرجت فتاة من الجانب الشمالى للمبنى الرئيسى ، وجاءت اليه تحمل كوبين من الشاى ٠

اتجهت الفتاة اليه ويداها ترتعشان من الخوف والارتباك ٠ فانسكب قليل من الشاى ٠

ـ كوبان فقط ؟ طلبت منك ثلاثة ٠

أجابته وقد ظفرت الى وجهها ابتسامة مشرقة :

ـ لى يدان فقط ! •

ـ يالك من ماهرة ! ألم يكن فى استطاعتك احضار صينية ؟ •

ثم ضحك وقال لها :

ـ حسنا ، قدمى الشاى للآنسة « تشن » وسـيدك الفتى الثانى ، ثم أسند ظهره الى الجانب الأيسر من الباب ، وأفسح لها الطريق •

بعد لحظات سمع الفتى وقع خطواتها وهى تقترب منه ، فمد ساقيه وسد بها مدخل الباب ، وتشاغل بالنظر الى الفناء • سارت الفتاة فى هدوء الى أن اقتربت منه ، ثم توقفت برهة قصيرة وقالت فى صوت واضح :

ـ سيدى الفتى الثالث ، دعنى أمر •

بدا « جيا ـ خوى » وكأنه لم يسمع أى شىء ، وان كان واضحا أنه يتظاهر بذلك • استمر فى وقفته ، ولم يتحرك من مكانه •

وفجأة تردد صوت السيدة « تشوو » مناديا :

ـ « منج ـ فونج » ! •• « منج ـ فونج » ! •

ـ دعنى أمر ، السيدة « تشوو » تنادينى وستؤنبنى اذا تأخرت •

استدار « جيا ـ خوى » نحوها ، وابتسم قائلا :

ـ وما يضيرك لو فعلت هذا ؟ أخبريها أنك كنت تؤدين لى بعض الأعمال •

— لن تصدقنى ، واذا أغضبتها فستعاقبنى بعـــد انصراف الضيوف ٠

سرت همساتها الى أذنيه دون أن يسمعها انسان ســواه ، وفى تلك اللحظة سمت صوت « شو ــ خوا » شقيقة « جيا ــ خوى » وهى تنادى :

— « منج ــ فونج » ! السيدة تريد طباقا للنرجيلة ٠

أفســـح « جيا ــ خوى » الطريق « لمنــج فونج » فخرجت مسرعة ٠٠ اقتربت « شو ــ خوا » ، وسألت منج ــ فونج » :

— أين كنت ؟ لماذا لا تجيبين حينما ينادى عليك ؟ ٠

حنت « منج ٠ فونج » رأسها ، أجابت بصوت خفيض :

— كنت أحضر الشاى لسيدى الفتى الثالث ٠

— احضار الشاى لا تستغرق كل هذا الوقت ! وأنت لست خرساء ، لماذا لم تردى حينما ناديتك ؟ ٠

و « وشو ــ خوا » هذه لم تتعد الرابعة عشرة من عمرها ، ولكنها تعلمت كيـــف تؤنب الجوارى كما يفعـل الكبار ، فقامت بدورها بطريقة طبيعية جدا ٠

— اذهبى الى هناك ، لو علمت السيدة « تشوو » بامتناعك عن الرد لعرفت كيف تتفاهم معك ٠

استدارت « شو ــ خوا » ، وعادت الى الجنـــاح الرئيسى ، وتبعتها « منج ــ فونج » فى صمت ٠

سمع « جيا ــ خوى » هذا الحوار ، وكان له عليـــــه وقع السياط ، اكتوى وجهه بنار الخجل ٠٠ انه الســـبب فيما حل

« بمنج ـ فونج » ، وزاد من ألمه صرامة شقيقته ٠٠ هم بالدفاع عن « منج ـ فونج » ، لكن شيئا ما منعه عما أراد ٠٠ ووقف في صمت تحت ستر الظلام يرقب ما يجرى وكأنه لا علاقة له بالأمر ٠

وقف « جيا ـ خوى » بمفرده فى الفناء ، تراءى له وجـــه « منج ـ فونج » الجميل الذليل المستسلم مثل البحر ، يقبل كل شيء ، ويبتلع كل شيء في صمت ٠٠

وصل الى سمع « جيا ـ خوى » صوت فتاة أخرى قادما من غرفته ، وهنا مثلت أمامه صورة أ خرى ٠٠ وجه جميل يعـــكس انطباعات أخرى ٠٠ الحماس ٠٠ المقاومة ٠٠ التصميم ٠ تعبيرات وجهين جميلين ، أحدهما يشرق بحظه السـعيد ، والآخر يصرخ بمصيره المحتوم ٠٠ وبرغم تمتع من بغرفته بقسط وافر من الجمال وخفة الروح وراحة البـــال ٠ فان الفتاة الأخرى استحوذت على ما فى قلبه من حب وعطف وحنان ٠

زاره طيف « منج ـ فونج فى وحدته ، وتضرع اليه وجهها الوديع الذليل ، هفت روحه الى مواساتها والى أن يخفف عنهـــا ما ألم بها ٠

لكن كيف يستطيع ذلك ؟ لقد تحدد مصيرها قبل أن تولد ٠ هناك فتيات أخريات مثلها يشربن من نفس الكأس ، ولن يختلف مصيرها عنهن ، أراد « جيا ـ خوى » أن يصرخ وجه هذا الحظ الظالم ، ويتحدى القدر المكتوب ٠٠ وفجأة سيطرت عليـــه أفكار غريبة سوداء ، فندت عنه ضحكة واهية ، وقال لنفسه في صوت ضعيف :

ـ لن يحدث هذا أبدا ٠٠

استغرق « جيا ـ خوى » فى تأملاته وراوده بصيص من الأمل فى امكان تحقيق ما تصبو اليه نفسه ، لكنه عندما فكر فيما سينجم عن ذلك ـ خذلته شجاعته ٠٠ أنه حلم ٠٠ مجرد حلم ! حلم ! ٠٠ فليكن ٠٠ لقد سحرته الفكرة ولم يأبه سواء كانت حلما أو حقيقة ، فاحتضنها ، ورفض التخلى عنها ، أخذته نشـــــوة عارمة وحدثته نفسه ٠٠ هذا أمر لا جدال فيه ! ٠

وبدت له « منج ـ فونج » فتاة مثل « تشن » علاقته بهـــا أمر طبيعى ٠٠

هذا محال ٠٠ ثم ضحك ساخرا من نفسه

« من قال : انى أحبها ؟ ٠٠ مجرد لهو ٠٠ »

اختفى وجه « منج ـ فونج » المستسلم ، وحل مكانه وجـه آخر ممتلىء حماسا وعنادا ، لكنه اختفى أيضا ٠

« أيبقى المرء فى داره دون أن يتم القضاء على الغزاة ! » ٠

كان « جيا ـ خوى » لا يهتم بهذه الحكمة القديمة التى خطرت بباله ، لكنها بدت له الآن مخرجا سحريا لكل مشاكله ، فأطلق هذا النداء فى شجاعة ٠

لكن « الغزاة » الذين نادى بالقضاء عليهم ليســـــوا غزاة أجانب ، لم يكن ينوى استلال سيفه ليقضى عليهم فى ميدان القتال٠ هذه الصيحة تعنى بالنسبة له صورة تحرر الرجل المقدام من قيود أسرته ، ودعوة لأن يقدم للعالم أعمالا عظيمة ٠٠ لـــكن ما تلك الأعمال العظيمة ؟ ٠٠ لم يكن لديه سوى احساس غامض بها ، ثم تقدم الى غرفته وهو يردد هذا النداء ٠

وقف « جيا ـ من » بجوار مكتبه ، ونظر حوله حينما سمع نداء أخيه ، ثم ضحك وقال « لتشن » الجالسة على مقعد بجواره :

ـ جن مرة أخرى ! •

نظرت « تشـــن » الى « جيا ـ خوى » وتساءلت بابتسامة مرحة :

ـ ألا تعلم أنه بطل عظيم ؟ •

ـ أرجح هذا ، انه كلب البحر العجوز ، وكلب البحر بطل عظيم •

قال « جيا ـ من » هذه العبارة وهو يضـــحك ، فشاركته « تشن » فى ضحكه • فغضب « جيا ـ خوى » لذلك ، وقال لهما :

ـ على أية حال كلب البحر العجوز أفضل بكثير من الدكتور ليفرسى ، الدكتور ليفرسى مجرد شخص من الأعيان ! •

سأله « جيا ـ من » فى دهشة :

ـ ماذا تعنى ؟ ألن تصبح واحدا من هؤلاء الأعيان ؟ •

صاح « جيا ـ خوى » فى غضب :

ـ لا ، لن أكون ! ان أجدادنا وآباءنا من الأعيان ، فهل يعنى هذا أننا لابد أن نصبح من الأعيان مثلهم ؟ •

ثم التزم الصمت منتظرا رد أخيه •

كان « جيا ـ من » يمزح فى البداية ، وعندما شعر بغضب أخيه حاول ايجاد كلمات مناسبة ليهدئه ، فلم ينجح فى ذلك ، ونظر اليه فى ذهول على حين جلســـــت (تشن) فى صـــمت ترقب الشقيقين •

لم يستطع « جيا ــ خوى » السيطرة على نفسه ، واندفع فى حديثه :

ــ لقد ســـئمت هذه الحيـــاة ! لماذا تفتك الحسرة والندم (بجيا ــ شن) كل لحظة ؟ أليس هذا راجعا الى عدم احتماله حياته كواحد من الأعيان ونفوره من هذا الجو الخانق بين أهله الأثرياء ؟ أنت تعلم هذا جيدا ·· عاشت عائلته أربعة أجيال تحت سقف واحد ، وبذلك تقل جيلا واحدا عن العائلة المثالية ، ومع هذا لا يمضى يوم واحد دون نزاع علنى أو صراع خفى · الجميع يحاولون الحصول على أكبر قدر من ممتلكات العائلة ··

مزق الغضب « جيا ــ خوى » ، ولم تسعفه الكلمات ليقول كل ما لديه ، فمصير أخيه لم يكن شاغله الوحيد · ان ما أشعل نيران الغضب فى قلبه هو الوداعة والاستسلام والضعف المرتسم على وجه تلك الفتاة التى شعر « جيا ــ خوى » بجدار خفى يفصل بينه وبينها ويحرمه اياها · هذا الجـــدار هو أسرته الثرية ، ان مكانة أسرته تحرمه ما يشتهيه ، فشعر بكراهية عنيفة لها ·

رأى « جيا ــ من » احمرار وجه أخيه من شدة الغضـــب ، فسار اليه وأمسك بيديه وربت على كتفه ، ثم قال له فى ود :

ــ لم أقصد مضايقتك ، أنت على حق فيما قلته ، ان ما يؤلمك يؤلمنى ··

سنقف معا الى الأبد كل يساند أخاه ··

كان يتحدث وهو لا يدرك ما بقلب أخيه ·

هدأ « جيا ــ خوى » وأومأ برأسه ·

وقفت « تشن » واتجهت اليهما ، وتحدثت الى « جيا ــ خوى » فى صوت مضطرب :

ـ آسفة لما بدر منى ، وسأقف دائما الى جواركما وأناضـــل معكما ٠٠ ان أحوالى أشد سوءا ٠

نظر اليها الشقيقان ، فوجدا سحابة من الحزن تحوم حول عينيها الجميلتين ، فانطفأ بريقهما ، كشفت تلك السحابة الحزينة عما يعتمل بنفسها وان كانا لم يشاهداها على هذه الحال من قبل ، أدركا سبب قلقها ، فقد جعلها الحزن تبدو فى حالة غريبة ٠ كان الفتيان على استعداد ليفدياها بروحيهما ليحققا لها أحلامها ، لكن ما جدوى هذا الاحساس وليس أمامهما شيء محدود يســــتطيعان القيام به من أجلها ؟ ٠٠ وبرغم كل شيء كانا يشعران أنهمـــــا مسئولان عن مساعدتها ، فنسيا متاعبهما وانشــــغلا بما تعانيه « تشن » ، وطيب « جيا ـ من » خاطرها قائلا :

ـ اطمئنى ، ســــنجد حلا ! اننى مؤمن بأن ارادة الانسان ستقهر كل الصعاب ، تذكرى موقف جدنا حينما أردنا الذهاب الى مدرسة عامة ، لقد عارض هذه الفكرة باستماتة ، لكننا حققنـــــا ما أردنا فى النهاية ٠

استندت « تشن » باحدى يديها الى المكتب ، ونظرت اليهما وكأنها فى حلم ٠

قال « جيا ـ خوى » بحماس وتفاؤل :

ـ أصاب « جيا ـ من » فيما قال ، لا تخافى ! اهتمى بمراجعة دروسك وكرسى جزءا كبيرا من وقتك للغة الانجليزية ٠ اذا نجحت فى امتحان القبول فسنحاول التغلب على باقى المشاكل ٠

ابتسمت « تشن » وهى تسوى شعرها بأطراف أصابعها ، لكن القلق بدا واضحا فى صوتها :

ـ أرجو ذلك ، أنا متيقنة من موافقة والدتى ، لكننى أخشى اعتراض جدتى وما سيثيره أقاربى من أراجيف . ولنأخذ عائلتكما مثلا لذلك .. من سواكما سيتقبل هذا الأمر ؟ .

دهش « جيا ـ خوى » عندما ذكرت « تشن » موقف عائلته المحتمل تجاهها فقال :

ـ وما شأنهم بك ؟ ان ذهابك الى المدرسة أمر يخصك أنت ، الى جانب أنك لست من أفراد عائلتنا ! .

فبرغم أن والدة « تشن » هى احدى بنات السـيد المبجل « جاو » فانها حينما تزوجت أصبحت تحت ولاية عائلة زوجها طبقا للعادات المتبعة ، ولا دخل لها بشئون أسرتها الأصلية .

ـ أنت لا تعلم ما عانته والدتى عندما دخلت مدرسة المعلمات للبنات ! .

قال أقاربنا : فتاة كبيرة فى سنها تخرج الى الشارع يوميا ، فماذا سيقول الناس ؟ كيف يمكن أن تقوم بهذه التصرفات ؟ فتاة أحسنت تربيتها ؟ .. ان والدتى « دقة قديمة » ، لكنها مفتوحة الذهن أكثر منهم ، وتلتزم حدودا معينة لا تتعداها . لقد تقبلت ما أصابها من أذى وسخرية لأنها تحبنى وليس اقتناعا منها بصواب فكرة الذهاب الى المدرسة ، لم يكن سهلا على نفسـها السماح لى بالذهاب الى المدرسة . والآن أطالب بالذهاب الى مدرسة بنين والجلوس فى نفس الفصل مع الطلبـة الذكور ! أتعتقد أن فردا واحدا فى أسرتى يجرؤ على الموافقة على مثل هذا الأمر ؟ .

ازداد انفعال « تشن » ، وأخذت تتحدث وهى منتصـبة القامة ، وتطلعت عيناها الى « جيا ـ من » وكأنها تبحث فى وجهه عن اجابة لأسئلتها .

قال « جيا ـ من » .

ـ أخونا الأكبر لن يعارض .

ـ لو كان « جيا ـ شن » هو الوحيد الذى سيؤيد الفكرة فما جدوى تأييده ؟ فخالتى « تشوو » ستعارض ، ولن يزيد الأمر عن كونه مادة للثرثرة والقيل والقال بالنسبة للخالة « وانج » والخالة « شن » :

فقاطعها « جيا ـ خوى » قائلا :

ـ دعيهم يتكلمون ! ليس لديهم ما يفعلونه سوى حشو بطونهم طوال اليوم ، والثرثرة بالنسبة لهم أمر طبيعى .. واذا لم يفعل المرء ما يشينه فسيخترعون شيئا ما ، ثم يقومون بانتقاده ، ومادام الأمر كذلك فلندعهم يفعلون ما يحلو لهم ! .

شجعها « جيا ـ من » قائلا :

ـ يجدر بك التفكير فيما قاله يا « تشن » ، ثم اتخذى قرارك بعد ذلك .

تألق وجه « تشن » فجأة ، وعادت اليه حيويته وثباته .

ـ حسنا ! أنا أعلم أن ثمنا غاليا لا بد أن يدفع فى سبيل تحقيق أى اصلاح ، وسأضحى بما أستطيع لأحقق ما أرجوه .

قال « جيا ـ من » فى هدوء :

ـ بهذه الارادة ستحققين ما تريدين .

فابتسمت « تشن » وعاد اليها عنادها القديم :

ـ لا يهمنى النجاح أو الفشل ، المحاولة هى أهم .

نظر اليها الشقيقان فى اعجاب ، وعند ذلك دقت الساعة فى الغرفة المجاورة معلنة التاسعة .

صففت « تشن » شعرها وقالت :

ـ سأذهب الآن ، لقد قاربت مباريات « الما ـ جيانج » الأربع أن تنتهى ، وسارت تجاه الباب ثم استدارت ، وقالت وهى تبتسم :

ـ تفضلا بزيارتنا فى أى وقت ، فأنا بالبيت طوال النهار ، وليس لدى ما أفعله ·

أجاب الأخوان فى نفس واحد :

ـ سنفعل ·

سارا معها حتى الباب ، وراقباها حتى دخلت المبنى الرئيسى · كان الجو باردا فى الفناء ، ولكنهما عادا الى الغرفة والدفء يملأ قلبيهما ·

قال « جيا ـ من » فى شرود :

ـ « تشن » فتاة شجاعة ·· فتاة على هذا القدر من الحيوية وخفة الروح تواجه مشاكل ! شىء عجيب ! ·

ـ لكل شخص متاعبه ، ولدى ما يكفينى ! ·

نطق « جيا ـ خوى » بهذه العبارة دون وعى ، فسأله أخوه فى دهشة :

ـ لديك متاعب ؟ ماذا يضايقك ؟ ·

فاحمر وجه « جيا ـ خوى » خجلا ، واستطرد قائلا :

ـ لا شىء ·· انه مجرد لغو ·

فنظر « جيا ـ من » اليه فى شك ·

وفجاة انساب صوت واضح رقيق ينادى :

ـ محفة السيدة « تشانج » ٠

انه صوت « منج ـ فونج » ٠

ثم تلا هذا الصوت الرقيق صوت خشـــن قوى انبعث من حنجرة الخادم الكبير « ييان ـ تشينج » :

ـ محفة السيدة « تشانج » ! ٠

بعد دقائق معدودة فتحت البوابات الداخلية ، ودخل رجلان الفناء وهما يحملان محفة وضعاها الى جوار سلم المبنى الرئيسى ٠

وعلى الطريق دق ناقوس دقات عميقـة حزينـة ٠٠ دقة ٠٠ دقتين ٠٠ انها العاشرة مساء ٠٠

الفصل الرابع

كان الليل فى سكون المونى ، وقد أخـــذت المصابيح تلفظ أنفاسها الأخيرة ، وانقض عليها الظلام ، فندت عنها صرخة حزينة خافتة مقبضة أخذت تتلوى مع نسمات الليل ، وبرغم ما بهـــذه الصرخة من ضعف وخفوت فانها انتشرت فى كل مكان · تجاوبت أركان الغرفة المظلمة وهذه الصرخة ، فأرسلت بدورها نواحـــا ضعيفا ·· لقد انقضى وقت الفرح والمرح ، وجاءت ساعات الدموع ·

استلقوا جميعا على سررهم وتجردوا من الأقنعة التى ارتدوها طوال يومهم ، وجاءت ساعات الحساب حيث يفتح الناس قلوبهم ، ويتأملون خباياها ، ويسترجعون ما تهفو اليه أرواحهم ·· يصدمهم الندم واللوعة ، فيبكون اليوم الذى مر وما جنوا منه ·· المرارة ·· الضياع ·· الفشل · وبطبيعة الحال يـــكون بينهم قلة ســـعيدة راضية ، لكن تلك القلة تكون غارقة فى نوم هادىء · أما الآخرون فهم مخلوقات يائسة حزينة ملقاة فى سرر باردة يبكون فيها قدرهم المشئوم ·

فى ضوء النهار ·· فى ظلام الليل ·· هناك دائما اتجاهان يسودان العالم ·· السعادة والحزن ·· ويرجع هذا الى وجود نوعين من الناس ·

فى غرفة الخادمات بعث فتيل طاف فى إناء فخـــــارى مملوء بالزيت بومضات واهية تزداد عتامة شيئا فشيئا فتعمق الظلال فى هذا المأوى الحقير ، وفى الجانب الأيمن من الغرفة رقدت سيدتان

على سريرين من الخشب ، وأخذتا تغطان بشدة ، ووضع فى الجانب الأيسر سريران آخران نامت فوق أحدهما ماما « خوانج » ، وهى خادم عجوز وخط الشيب شعرها ، أما السرير الآخر فكان لجارية فى ربيعها السادس عشر • جلست « منج - فونج » فوق سريرها تحملق فى بلاهة الى فتيل المصباح •

انقضى يوم من العمل الشاق ، وخيم السكون على الدار بعد أن أوت سيدات العائلة وآنساتها الى مضاجعهن • فى تلك اللحظة فقط استعادت « منج - فونج » حريتها •• ان المنطق السليم يحتم النوم المبكر ، لكنها بدأت فى لياليها الأخيرة تشعر باعزاز خاص لساعات الحرية الغاليات التى تنعم بها فى أثناء الليل • كانت تقدر كل لحظة فى تلك الساعات ، وتستعيد فيها ذكرياتها ، وتســـبح أفكارها فى بحر الخيال وهى آمنة مطمئنة • لن يتطفل عليها انسان فقد انتهت الأوامر الصاخبة والاهانات الجارحة بحلول الليـــل الأمين •

كانت « منج - فونج » تضع فى أثناء النهار قناعا على وجهها شأنها فى ذلك شأن الآخرين ، وتندفع مسرعة فى جنبات الدار وقد رسمت على وجهها ابتسامة •• انها تستطيع الآن التخلص من هذا القناع الكاذب ، وتســـتمتع بساعات الحرية الغاليـات ، وتحطم الأغلال التى تكبل أفكارها ومشاعرها •• وتتسلل أسرارها لتناجى قلبها الصغير •

سبع سنوات مضت وأنا فى هذا المكان ، كانت هذه أول فكرة خطرت لها ، فعذبت روحها •• سبع سنوات زمن طويل ! روعها انقضاء هذه السنوات من عمرها بلاأحداث مثيرة • لقد سكبت طوال هذه الفترة دموعا غالية ، وتحملت اهانات وصفعات •• تعودت هذا الشقاء ، وأصبح جزءا مكملا لوجودها الكئيب •• هذا قدرهـــا

ولا يمكنها الهرب منه · لم تقبل هذا اللون من الحيـــاة ، لكنها تحملته ·· كل ما يحدث فى العالم قدر مكتوب ، القدر أراد لها أن تبقى حيث شاء وأن تصبح كما يشاء · آمنت بهذا ، واتفق ايمانها مع ما قاله لها الآخرون ، لكن احساسا جديدا بدأ ينمـــو فى قلبها ·· مشاعر غريبة غامضة لم يفهمها عقلها الصغير ، وبرغم ذلك تفتح لها قلبها وأشرق بالأمل ·

انتى هنا منذ سبع سنوات ، وقريبا تصبح ثمانى سنوات ·· بكت « منج ـ فونج » تلك السنوات العجاف كما تفعـــل أخريات يشاركنها فى نفس المصير · لقد حدثتها الأخت الكبيرة قبل أن تموت عن بيت يخص الفتاة وحدها ·· من يدرى : أين يخبىء لى القدر بيت المستقبل ؟ ·

شعرت « منج ـ فونج » أن حيـــاتها مجـرد قفـــار موحشة ، وطاف بخيالها وجه الأخت الكبيرة ·· آه لو كانت على قيد الحياة ! كنت سأنعم بوجود انسان يرعانى · لقد ساعدتنى على فهم أمور كثيرة ، وعلمتنى القراءة والكتابة ·· لقد ماتت ·· ان الخير لا يبقى طويلا ·· انهمرت الدموع من عينى « منج ـ فونج » وسألت نفسها فى مرارة :

ـ الى متى سأستمر على هذه الحال ؟ ·

تذكرت يوما عاصفا مضى عليه الآن ما يزيد على ســـبع سنوات ·· يوم جاءت الى دارهم امرأة قبيحة الشكل ، وانتزعتها من والدها المفجوع بفقد زوجته ، وسلمتها لعائلة «جاو» الثرية ·

منذ ذلك الحين أصبح وجودهـا يقوم على عنـــاصر ودعائم رئيســـية ·· الدموع ·· اللعنات ·· الصفعات ·· الارهاق ·· الرتابة ·· الملل ·

حلمت « منج ـ فونج » أحلاما جميلة كغيرها مع الفتيات الصغيرات ، لكن هذه الأحلام كانت تمضى كومضات من نور تضيع فى ظلمات الواقع ، حلمت بلعب جميلة وملابس فاخرة وطعام شهى وفراش دفىء .. لم تكتف بالتحليق فى عالم الأحلام . فراودتها آمال فى تملك هذه الأشياء الرائعة ..

لكن الأيام توالت تحمل لها الألم .. ولم يأت جديد الى حياتها .. حتى مجرد طيف أمل جديد .

كانت تلجأ الى تعزية نفسها حينما تضرب وتهان بالاستسلام ، فهذه هى مشيئة القدر .. القدر وحده يحدد كل شىء .. لنفرض أن القدر شاء لى أن أكون من طبقة الأعيان ! .. تخيلت « منج ـ فونج » نفسها مرتدية ثيابا جميلة ، ولها والدان يحبانها ويدللانها وتحوز اعجاب الشبان الأثرياء ، فيأتى أحدهم ويأخذها الى داره ، ويعيشان معا فى سعادة .

ثم تعود « منج ـ فونج » لتؤنب نفسها .. ياللسخافة ! لن يكون لى بيت كهذا .. فتخبو ابتسامتها ويتدلى رأسها .. انها تعرف جيدا ما سيحدث لها ، فعندما تصل الى سن مناسبة ستستدعيها السيدة وتقول لها :

ـ لقد خدمت زمنا طويلا فى هذه الدار وفى هذا الكفاية .

ثم توضع فى محفة ، وتحمل الى دار رجل اختارته لها السيدة ، رجل لم تره « منج ـ فونج » من قبل .. قد يكون فى الثلاثين أو الأربعين من عمره ، تعمل فى بيته وتحمل له الأطفال ، وربما تعود بعد أسابيع لتخدم نفس الأسرة الثرية ، والميزة الوحيدة التى تجنيها من وضعها الجديد أنها لن تضرب ولا تهان دائما كما هو الحال الآن ، وستأخذ أجرا يسيرا تعطيه زوجها . لقد حدث هذا « لشيار » خادمة السيدة « شن » .

ارتعدت « منج ـ فونج » لهذه الأفكار وصاحت :

ـ ياللفظاعة ! مكان هكذا ليس بيتا على الاطلاق ! ٠

تذكرت « شيار » يوم عودتها بعد زواجها وقد لفت ضفيرتها الطويلة فى شكل دائرى خلف رأسها ، لقد رأتها « منج ـ فونج » تجول فى الحديقة وحيدة باكية ، حدثتهم « شيار » عن وحشية زوجها وبهيميته ، وكان هذا بمثابة صورة مخيفة لما يخبئه القدر « لمنج ـ فونج » ٠

لقد فكرت « منج ـ فونج » فى مرارة ويأس :

ـ الظلام ٠٠ لا شيء سوى الظلام ٠٠ الموت أفضل ٠٠ ففيه نهاية لآلامها ٠ وقد سبق له تخليص الأخت الكبيرة من آلامها ، تآكل فتيل المصباح ، وخبا نوره فطواها الظلام تحت جناحيه ٠٠ ولكن سكون الغرفة كان يمزقه غطيط رفيقاتها النائمات ٠ قامت « منج ـ فونج » فى فتور وسأم ، وأصلحت الفتيل فأضاء الغرفة وشعرت بشيء من السكينة ، ونظرت الى الأخت « تشانج » البدينة وهى نائمة مدفونة فى فراشها ، ولا يبدو منها سوى جزء من شعرها المجعد وجانب من وجهها السمين :لقد استغرقت تلك الخادم البدينة فى نوم عميق ، وبدا جسدها ككتلة ضخمة من اللحم ملقاة فوق السرير دون حراك ، وانبعث من هذا الجسم الساكن شخير غريب منتظم ٠

ابتسمت « منج ـ فونج » ابتسامة باهتة وهى تنظر اليها ٠٠ انها تشبه الخنزير ، ثم أطبق عليها الظلام دافعا أمامه وجوها متجهمة شريرة انقضت عليها فاغرة أفواهها وقد جنت من الغضب وصرخت فى وجه « منج ـ فونج » ٠٠ فذعرت الفتاة ، وارتعدت فرائصها فتقوقعت فوق السرير ، وأخفت وجهها بين يديها ٠

دوت الرياح ، وهزت النوافذ المغلقة فى عنف ، ونفذ الهواء البارد من الأوراق الملصقة على جوانبها ، فندت عن تلك الأوراق الرقيقة صرخات حزينة • تأرجح ضوء المصباح ، وسرت قشعريرة فى جسدها ، أنزلت « منج ـ فونج » يديها من على وجهها ، وأخذت تحملق فيما حولها فى فتور وملل •

ـ يجب أن أنام ! ثم فتحت أزرار ردائها المبطن وخلعته ، فاندفع بروزان من اللحم الناضر ، وأخذا يضغطان بشدة على قميصها الداخلى •

تنهدت « منج ـ فونج » :

ـ لقد كبرت •• ولا أعلم شيئا عن بيتى المرتقب •• فى تلك اللحظة ظهر لها وجه شاب وسيم ابتسم لها فى ود •• انها تعرفه •• تفتح قلبها له ، وهزتها نشوة الأمل ، فتوسلت اليه أن يمد اليها يده لينقذها من واقعها المر •• لكن الوجه حلق بعيدا فى سماء الليل الصافية ، وأخذ يرتفع ويرتفع الى أن تلاشى ، واصطدمت عيناها الحالمتان وسقف الغرفة القذر •

لفح الهواء صدرها العارى ، وأعادها مرة أخرى الى واقع حياتها ، ففركت عينيها وتنهدت •• مجرد حلم ! •

ألقت « منج ـ فونج » نظرة أخيرة فيما حولها ، ثم استجمعت شجاعتها ، وخلعت سروالها القطنى المبطن ، وكومته مع سترتها المبطنة أعلى السرير ، ثم اندفعت بسرعة تحت الأغطية •

لم تفكر فى شىء ، وجالت بخاطرها عبارة كانت الأخت الكبيرة تستخدمها دائما فى حديثها عن حظها : «زمن ظالم حقير» ، آلمتها هذه العبارة فبكت فى هدوء تحت فراشها حتى لا تزعج الآخرين •

ثم شحب ضوء المصباح ، وأخذت الرياح تنوح فى حزن ! •

الفصل الخامس

دوت فى الطريق المغطى بالثلج ضربات ناقوس الحارس فى صوت وقور فى سكون الليل . وتردد الصوت فى الهواء البـارد طاويا فى جوانبه وقع أقدام حملة المحفات .

سار حملة المحفات فى بطء شديد وكأنهم يخشون الابتعاد عن صـــوت الناقوس ، فيفقدون مؤنسهم الوقور . وما أن قطعوا مسافة قصيرة حتى ابتعد الناقوس مخلفا وراءه صوتا حزيناً واهيا استقر فى آذان حملة المحفات وراكبيها .

سار الخادم العجوز « تشانج ـ شنج » حاملا فانوسه وقد حنى رقبته بين كتفيه ليحتمي من البرد ، وكان سعاله المتقطع يمزق هذا السكون المخيف .

وضع حملة المحفات حملهم الثقيل فوق أكتافهم فى صـــمت ، وساروا فى خطوات نشيطة واسعة . كان الجو قارس البرودة . فلسع الثلج الأجزاء العارية من أقدامهم التى لا تقيها نعالهم المصنوعة من القش . لقد تعودوا ذلك وهم يدركون أيضا أن الطريق قصير ، وسيصلون الى هدفهم بعد لحظات حيث يمكنهم قضاء وقتهم الى جوار مائدة لعب الورق .

ساروا فى صمت تام حتى ضربات أقدامهم على الأرض لم يكن يسمع لها صوت ، لقد استقرت القضبان الخشـبية على أكتافهم ، ونادرا ما كانوا ينقلونها من كتف لأخرى طلبا للراحـة والتماسا لشيء من الدفء بنفخ أنفاسهم الحارة فى أكفهم الباردة ، فقد دفع

الاجهاد دماء حارة فى عروقهم ، تتصبب عرقهم وتنفذ من ستراتهم المبطنة القديمة الممزقة •

جلست السيدة « تشانج » والدة « تشن » فى المحفة الأولى ، وبرغم أنها جاوزت الأربعين بقليل فان أمارات الشيخوخة ظهرت عليها بوضوح •• لقد أرهقتها مباريات « الما — جيانج » الأربع ، فجلست شاردة الذهن ، ولم تلحظ أن الهواء كان يكشف أحيانا ستائر محفتها • وعلى النقيض من ذلك جلست « تشن » نشيطة متحمسة وقد استغرقت فى تفكير عميق يدور حول أهم حدث سيقع فى حياتها • انها تتخيل هذا أمام عينيها •• شىء رائع جذاب ! انها تريد أن تحتضن هذا الأمل ، لكنها تعلم أن الناس ستحول بينها وبين ما تصبو اليه نفسها •• ستحاول بكل ما لديها من قوة برغم أن نجاحها غير مؤكد •• انتهت « تشن » الى هذا القرار ، الا أن احتمال فشلها سبب لها بعض القلق ، وفوق ذلك اعتراها شىء من الخوف ، وتقاذفتها هذه المشاعر المعقدة بين نشوة السعادة وكآبة اليأس ، فوقعت « تشن » أسيرة لمشاكلها ، ونسيت كل ما حولها ولم تنتبه الا بعد أن مرت محفتها من بوابة المنزل ، ووضعت أمام القاعة الرئيسية •

وعلى حسب القواعد المتبعة قامت « تشن » أولا باصطحاب والدتها الى غرفتها ، وراقبت الخادمة وهى تغير ثيابها ، ثم تولت « تشن » بنفسها وضع الثياب فى أماكنها •

ارتدت السيدة « تشانج » سترة من الحرير المبطن بالفراء . وجلست مسترخية فى أحد الكراسى بجوار السرير وتنهدت قائلة :

— لست أدرى : لماذا أنا متعبة اليوم ؟ •

جلست « تشن » على كرسى مواجه لأمها وابتسمت :

ـ لقد لعبت كثيرا اليوم يا أماه ، ان مباريات «الما ـ جيانج» تستغرق وقتا طويلا ، لقد لعبت اثنتى عشرة مباراة ٠

ـ انك تؤنبيننى دائما على لعبى « الما ـ جيانج » ، لكن هل هناك شيء آخر تفعله امرأة فى مثل سنى ؟ ٠

ضحكت السيدة « تشانج » ، واستمرت فى حديثها :

ـ هل أجلس طوال اليوم أحفظ كتاب بوذا المقدس كما تفعل جدتك ؟ اننى لا أطيق ذلك ٠

ـ لست أقصد أن تمتنعى عن اللعب ، ان ما أقصده هو ألا تلعبى وقتا طويلا ٠

ـ اننى أعرف ٠٠

ثم لحظت وقوف الخادمة الى جوارها بالقرب من دولاب الملابس نصف نائمة ، فقالت لها :

ـ الأخت «لى» ٠٠٠ لست فى حاجة اليك ، اذهبى الى فراشك٠

استدارت السيدة « تشانج » الى ابنتها بعد انصراف الخادمة ، وسألتها :

ـ ماذا كنت تقولين ؟ ٠

آه ! لقد تذكرت ! يجب ألا أكثر من لعب « الما ـ جيانج » ٠ اننى أدرك هذا ، لكننى أشعر بتعب حتى ولو لم أعمل شيئا ٠ ان الحياة تصبح مملة ثقيلة اذا استمرت طويلا دون أن يكون للانسان ما يعمله ،ان من يعمرون طويلا لا فائدة من بقائهم ٠

أغلقت السيدة « تشانج » عينيها ، وثنت ذراعيها فوق صدرها ، فبدت كأنها قد استغرقت فى غفوة ·

ساد الغرفة سكون تام ، ولم يقطع هذا الصمت سوى دقات الساعة الرتيبة المنتظمة ، وشعرت « تشن » أنها لن تستطيع مناقشة والدتها فيما يشغل بالها هذه الليلة ، فوقفت وهمت بايقاظ والدتها كى تنتقل الى سريرها خشية أن تصاب ببرد ، ولكن ما كادت « تشن » تتحرك حتى فتحت الأم عينيها وقالت لها :

ــ عزيزتى « تشن » ، أحضرى لى قليلا من الشاى ·

أخذت الفتاة ابريق الشاى من فوق الفحم المشتعل فى الموقد ، ثم صبت كوبا من الشاى ، ووضعته على كرسى صغير بجوار والدتها :

ــ الشاى يا ماما ·

ووقفت « تشن » منفعلة ، وقد شعرت أن الفرصة سانحة لها كى تحدث أمها ، لكن الكلمات لم تسعفها ··

ــ أنت متعبة أيضا يا « تشن » ، اذهبى الى فراشك ·

وترددت « تشن » بادىء الأمر ، ثم استجمعت شجاعتها ونادت أمها ، وصوتها يرتعد انفعالا :

ــ ماما ··

ــ ماذا ؟ ·

ــ ماما ··

كررت الفتاة هذه الكلمة وحنت رأسها ، وأخذت تعبث بطرف سترتها ، ثم استأنفت حديثها فى تؤدة :

ـ لقد قال لى « جيا ـ من » : ان مدرستهم ستقبل طالبات فى العام القادم ، وأود دخول امتحان القبول ٠

ـ ماذا تقولين ؟ بنات فى مدرسة بنين ؟ تريدين الذهاب الى هناك ؟ ٠

لم تستطع السيدة « تشانج » تصديق أذنيها :

أجابت « تشن » فى خجل :

ـ ما الخطأ فى هذا ؟ لقد دخلت جامعة بكين ثلاث فتيات ، وهناك مدارس مشتركة للبنين والبنات فى « نانكين - و « شنغهاى ٠

تنهدت السيدة « تشانج » :

ـ الى أين يسير العالم ؟ ألا يكفى وجود مدارس بنات ؟ والآن تريدين مدارس مشتركة ٠٠ عندما كنت فتاة لم أتخيل قط حدوث مثل هذا الأمر ! ٠

هبطت هذه الكلمات على « تشن » كالماء البارد ، فارتعدت فرائصها ، ووقفت صامتة فى ذهول ، لكنها لم تفقد الأمل ، واستعادت شجاعتها :

ـ ماما ، لقد تغير الزمن ومضى أكثر من عشرين عاما منذ أن كنت فى مثل سنى ٠٠ الحياة تتجدد دائما ، ان الفتيات والفتيان ينتمون الى جنس واحد ، فهم بشر ، فلماذا لا يتعلمون فى فصل واحد ؟ ٠

فقاطعتها السيدة « تشانج » ضاحكة :

ــ أنا لا أحاول مناقشة عدالة القضية ، فلن أفوقك فى قدرتك على الحديث ، أنا واثقة أنك ستجدين الكثير من الحجج فيما تقرئين من كتب جديدة وتستخدمينها ضدى ، انك تعتقدين أننى متخلفة ورجعية ! .

ضحكت « تشن » وألحت عليها :

ــ ماما ، دعينى أذهب . كنت دائما موضـــع ثقتك ، ولم ترفضى لى طلبا من قبل .

ضعفت السيدة « تشانج » أمام الحاح ابنتها :

ــ لقد تحملت اساءات كثيرة لنفس السبب . اننى لا أخشى الثرثرة والشائعات ، فأنا واثقة منك ، اننى أفعل دائما ما يرضيك ... لكن هـــذا الأمر يختلف عن غيره ، ان جدتك ستكون أول المعارضين ، أنت لا تقبلين حدوث قطيعة بينى وبينها لهذا السبب ! ولن نسلم من ألسنة جميع أقربائنا .

ــ ألم تقولى : انك لا تخافين الشائعات ؟ وجدتى فى الدير ، وهى تزورنا مرة فى الشهر ولا تبقى عندنا سوى يومين أو ثلاثة ، ولم تأت الينا اطلاقا فى الشهور الماضية . الى جانب هـــذا من سيأبه لما تقول ؟ انها لا تهتم بشئون العائلة ، ان الأمر بيدك . لقد فعلت هذا عندما سمحت لى بدخول مدرسة المعلمات ، ولم يكن لدى أقربائنا أى سبب لمعارضة قرارك هـــذا .. واذا ما أطلقوا ألسنتهم ، فسنتجاهل ما يقولون .

صمتت السيدة « تشانج » برهة قصيرة ، ثم قالت فى صوت ضعيف :

ــ أسعفتني شجاعتي حين ذاك ، أما الآن فقــد تقدمت بي السن ، ولا أريد أن أصبح هدفا لألسنة أقربائنا . أريد أن أعيش في سلام بضع سنوات أخرى ، أنت تعلمين أنني كنت لك أما بارة ، لقد مات والدك وأنت طفلة صغيرة ، وألقى على كاهلي تبعة تربيتك ... لم أقيد قدميك مثل الفتيات الأخريات ، وتركتك تتعلمين على يد المعلم الخاص بأولاد خئولتك في منزل جدك « جاو » ، وبعد ذلك أرسلتك برغم كل شيء الى مدرسة البنات ، لقد قيدت أقدام ابنة عمك « شو ــ شن » فلم يكتمل نموها ، وحتى القراءة لم تجدهــا اجادة تامة ، وابنة خالك « شو ــ خوا » لم تنل سوى قدر ضئيل من التعليم . باختصار يجب عليك الاعتراف بأنني أحسنت معاملتك لأقصى حد .

كانت السيدة « تشانج » مرهقة فلم تستطع الاستمرار في الحديث ، لكنها لمحت أن ابنتها على وشك البكاء ، فرق لها قلبها . وقالت بحنان :

ــ عزيزتي « تشن » ، اذهبي لتنامي فالوقت متأخر ، لدينا متسع من الوقت لنتحدث مرة أخرى في أمر سيحدث في الخريف القادم ، أعدك بأني سأبذل قصارى جهدي .

أومأت « تشن » بالموافقة ، وخرجت وقد خاب رجاؤها ، ثم عبرت الصالة الصغيرة ، وذهبت الى غرفتهــا . حطمت الأم آمال ابنتها ، لكن الفتاة لم تلمها على ذلك ، ولم تحمل لوالدتها سوى شعور بالامتنان والعرفان بالجميل لما تقدمه لها من حب ورعاية .

كانت غرفة « تشن » كئيبة موحشة خالية من أي شيء يبعث في نفسها البهجة ، وبدت لها صورة والدها المعلقة على الحائط باكية حزينة ، شعرت فجأة بالدموع تسيل على خديها .. خلعت « تشن » سروالها وألقتــه على السرير ، وسارت الى مكتبها وأدارت شريط

المصباح المصنوع من الزنك ، وجلست الى جواره ، ثم التقطت مجلة الشباب الجديد وتصفحتها ، فجذب انتباهها الكلمات التالية :

« أعتقد قبل كل شيء أنني مخلوق بشرى مثلكم تماما ، ان لم يكن الأمر كذلك فوجودى يحتم على أن أحاول أن أكون كذلك ·· لن أرضى بما يقوله الناس ·· يجب أن أكتشف الأمـــور بنفسى وأحاول التيقن من حقيقتها » ·

كانت هذه الفقرات جزءا من مسرحية لأبسن « بيت الدمية » ، هبطت هذه الكلمات كالوحى على « تشن » ، فتجددت آمالها فى تحقيق رغبتها وآمنت بأنها لو بذلت الجهد الكافى لتحققت جميع مآربها ·· ان الأمل موجـــود ، ولن يحقق هـــذا الأمل شخص سواها ·

هرب اليأس أمام هذه الأفكار الشجاعة ، فالتقطت فى فرح قلمها وكتبت خطابا الى « جيان ـ رو » زميلتها فى الفصل :

« أخبرنى اليوم أبناء خئولتى بأن مدرسة اللغات الأجنبية ستقبل طالبات فى الخريف القادم ، وأنا مصممة على دخول امتحان القبول فما رأيك ؟ هل ترغبين فى الذهاب معى ؟ ان أملى كبير فى انضمامك الى هذه المحاولة ، يجب أن نحارب مهما كلفنا ذلك من تضحيات لـكى نفتح الطريق أمام أخواتنا فيما بعد ، أرجو أن تتفضلى بزيارتى اذا كان لديك وقت ، فلدى الكثير أود أن أخبرك به ، ووالدتى ترحب بك أيضا ·

« تشن »

راجعت « تشن » الخطاب ، وكتبت التـــاريخ ، ثم أضافت علامات التوقف التي شاعت أخيرا • ان والدتها تأنف من الخطابات المـكتوبة باللغة الدارجة وتقول عنها : انها أطول من الـكتابة الكلاسيكية وسوقية بطريقة لاتحتمل ! لكن « تشن » تحب اللهجة الدارجة برغم كل شيء ، وقد درست الخطابات الموجهة الى المحرر والتي نشرت بمجلـة الشباب الجـديد كوسيلة لتحسين أسلوبها العامى •

الفصل السادس

«جيا ـ شن» هو الأخ الأكبر «لجيا ـمن» و «جيا ـ خوى» وبرغم أنه أخ شقيق لهما نشأ فى نفس البيت الذى تربيا فيه فان مكانته تختلف عنهما تماما · فهو الابن الأكبر لأكبر أبناء عائلة جاو ، ولهذا السبب رسم له القدر مصيره لحظة مولده ·

كان « جيا ـ شن » شابا وسيما أنيقا مهذبا ، وهو أحب الأبناء الى قلب أبيه ، كان معلمه الخاص يعتز به ويحترمه · تكهن له الجميع بمستقبل باهر ، ورأى والداه كلاهما أنهما محظوظان لأنهما رزقا ولدا مثله ·

نشأ « جيا ـ شن » محاطا بالرعاية والحب ، وتعلم على يد مؤدب خاص عدة سنوات ، ثم دخل المدرسة الثانوية ففاق جميع الطلبة ، ثم تخرج بعد أربع سنوات وكان أول الناجحين وقد شغف « جيا ـ شن » فى أثناء الدراسة بالطبيعة والكيمياء ، وعقد العزم على الذهاب الى جامعة بكين أو شنغهاى أو السفر الى ألمانيا لتكملة دراسته ، وقد عاش فى ظل هذه الأحلام الجميلة ، وحسده زملاؤه على مايتمتع به ·

ولكن « جيا ـ شـــــن » فقد والدته وهو فى عامه الأخير بالمدرسة الثانوية ، وتزوج والده بعد ذلك امرأة صغيرة تمت بالقرابة الى والدته ، وأدرك «جيا ـ شن» مدى الخسارة التى لحقته بوفاة أمه ، فهو يعلم أن لاشىء يعوض حنان الأم ، لكن هذا الحادث لم يترك فى قلبه جرحا لايحتمل ، فقد خففت أحلامه وآماله ألم هذا الجرح ، وواسته بنت العم « مى » ـ زهرة البرقوق ـ وكانت تعرفه وتقدر على مواساته ·

ولكن أحلامه تحطمت .. تحطمت بقسوة ومرارة ، فذات مساء حمل شهادته وعاد الى بيته ومديح مدرسيه وزملائه يتردد فى أذنيه . استدعاه والده الى حجرته وقال له:

ـ لقد تخرجت الآن ، وسأدبر أمر زواجك ، فجدك يتوق الى أن يرى ابن حفيده . وأنا كذلك أود أن يكون لى حفيد أضمه بين يدى ، لقد بلغت سن الزواج ، ولن يهدأ لى بال الا بعد اتمام التزامى نحو ايجاد زوجة مناسبة لك ، لم أجمع الكثير من المال من وظيفتى ، لكن لدى ما يكفينا للاستمرار فى حياتنا . ان صحتى ليست على ما يرام ، لذا أفكر فى قضاء أيامى فى البيت ، وتساعدنى أنت على ادارة شئون العائلة . ومن الصواب أن تكون لك زوجة، لقد رتبت الأمر مع عائلة « لى » ، والثالث عشر من الشهر القادم موعد مناسب لذلك ، وسنعلن الارتباط فى ذلك الحين ، ويمكنك الزواج فى خلال هذا العام .

صدم « جيا ـ شن » بعنف .. فهم كل ماقاله والده . وبرغم وجود بعض النقاط غير الواضحة بالنسبة له فانه أبدى موافقته ، ولم يجسر على سؤاله أو حتى مجرد النظر فى عينيه . ولو فعل لوجد أباه ينظر اليه فى عطف وحنان .

لم تفلت من شفتى « جيا ـ شن » كلمة احتجاج ، ولم يخطر بباله شىء من هذا القبيل . وحنى رأسه فقط ليعبر عن موافقته على رغبات والده ، لكنه بعد أن عاد الى غرفته وأغلق الباب خلفه ألقى بنفسه على السرير ، وأخفى وجهه تحت الوسادة وأخذ يبكى. بكى أحلامه الضائعة .

لقد سمع شيئا عن الارتباط بعائلة « لى » ، لكن لم يسمح له بمعرفة جميع التفاصيل ، فلم يعر المسـألة أى اهتمام ... أعجب بعض السـادة الذين لهم بنـات فى سن الزواج بمظهره

الطيب ونجاحه فى دراسته ، لذلك تردد على دارهم عدد من وسطاء الزواج • قارن جده بين المتقدمين واختار منهم اثنين • كان من الصعب تفضيل أحدهما ، فكلاالشخصين المتقدمين على نفس المستوى من حيث المكانة الاجتماعية ، وأخيرا قرر أن يلجأ الى فتح البخت ، فكتب اسم الفتاتين على ورقتين حمراوين ، ثم طواهما على شكل كرتين صغيرتين ، وبعد أن صلى طالبا النصح أمام صور أسلاف العائلة التقط احدى الورقتين •

هكذا تقرر الارتباط بعائلة «لى» ، ولم يعرف «جيا ـ شن» بهذه النتيجة سوى الآن •

حلم بالحب ، وكانت بنت العم «مى» هى فتاة أحلامه تفهمه وتواسيه ، ظن أن زواجه منها أمر مؤكد ، وهنأ نفسا بسهولة تحقيق حلمه حيث ان الزواج من الأقارب أمر شائع فى عائلته •

وأحب «مى» حبا عميقا ، لكن والده اختار له فتاة أخرى ، فتاة لم يرها من قبل ويجب أن يتم زواجه بها فى خلال هذا العام، وتلاشت آماله فى الدراسة كفقـــاعة هـــواء •• انتهـت آماله وتحطمت أحلامه ، وبكى خيبة أمله ويأسه •• لـكن الباب كان مغلقا ورأسه مدفون فى فراشه ، فلم يسمعه أحد • لم يقاوم لم يفكر قط فى المقاومة ، واكتفى بالنواح على قدره ومصيره ، وافق على رغبة والده ولم تصدر منه بادرة تدل على استيائه ، لكنه بكى فى قلبه حياته وآماله ، حبه وفتاة أحلامه « مى » زهرة البرقوق •

فى يوم خطبته كظم غيظه وأخذ يتحرك كدمية ، وبدا للآخرين كأنه مقبل على امتلاك كنز ثمين ، لم تبد عليه سمات السعادة أو الاكتئاب وكان يفعل ما يطلب منه كما لو كانت هذه المسألة أحد الواجبات التى كلف القيام بأدائها ، وفى سكون الليل وبعد انتهاء المهزلة وانصراف الضيوف ذهب الى فراشه ونام من شدة الارهاق •

ومرت أيامه بعد ذلك بلا هـــدف أو طعم ، ودفن كتبه فى صندوق ، ولم تخرج الى النور بعد ذلك مطلقـا ٠٠ لعب « الما ـ جيانج » وذهب الى الأوبرا وشرب الخمـر ، قام « جيـا ـ شن » باعداد الترتيبات الضرورية لزواجه بناء على تعليمات والده ، ولم يعمل فكره فى شيء الا فيما ندر ، وانتظر فى هدوء مقدم زوجته ، وبعد أقل من ستة أشهر وصــلت ٠٠ وبنى والد « جيا ـ شن » وجده مسرحا داخل البيت ليؤدى عليه الممثلون أدوارهم ٠

لم يكن حفل الزواج باليسر الذى توقعه ، وتحول هو أيضا الى ممثل ، ظل يمثل ثلاثة أيام قبل أن يحصـــل على عروسه ، وتحرك مرة أخرى كالدمية ، وبدا للآخرين كأنه ســيحصل على كنز ثمين ٠٠ لم تبد عليه سمات الحزن أو السعادة ٠٠ كان متعبا فقط واحمر وجهه من شدة الانفعال ، وفى يوم زفافه ، وبعد الانتهاء من أداء دوره ورحيل الضيوف ـ لم يســتطع « جيا ـ شن » أن ينسى كل ما مر به طوال يومه وينام كعادته ٠٠ فهناك فى فراشه ترقد فتاة غريبة ، وكان لزاما عليه أن يستمر فى أداء دوره ٠

تزوج«جيا ـ شن»، وسيحصل جده على ابن لحفيده، وسيحصل والده على حفيد له ، استمتع الآخرون بفترات قصيرة من المرح ، ولم يكن الزواج خسارة من جميع النواحى بالنسبة « لجيا ـ شن » لقد ارتبط بفتـــاة رقيقة حنون ولا تقل جمالا عن فتاة أحلامه ، ورضى بقسمته ٠ وكان فى بعض الأحيان ينعم بألوان من السعادة لم يكن يتصـــور امكان حدوثها ٠ كان ينسى أحيانا فتاة أحلامه ومستقبله الضائع ، كان راضيا نشوان ، لقد أسكرته رقة زوجته ومحبتها له ، واستغرق فى نشوة الرضا ولاحت بشائر السعادة على وجهه ، وكان يقضى اليوم كله معتكفا فى غرفته ، حسده الناس على ما ينعم به من سعادة ورأوه محظوظا ٠

وانقضى الشهر الأول ..

وفي احدى الأمسيات استدعاه والده الى غرفته وقال له :

ـ لك الآن زوجة ، ويجب أن تكسب قوتك حتى لا ينتقدنا الناس ، لقد ربيتك حتى صرت رجلا وأوجدت لك زوجة صالحة ، قمت بواجبي كوالد ، عليك من الآن فصاعدا الاهتمام بنفسك .. لدينا نقود تكفي ارسالك للجامعة لتتعلم ، لكن لك الآن زوجة ، وممتلكات العائلة لم تقسم بعد بيني وبين أشقائي ، وأنا أشرف على الحسابات ، واذا أنفقت عليك نقودا من أموال الأسرة عد هذا نوعا من المحاباة ؛ وعلى هـذا فان جدك لن يوافق .. وجدت لك وظيفة في شركة « صي ـ تجوان » التجارية ، المرتب ليس كبيرا ، لكنه يكفي مصروفاتك أنت وزوجتك ، هناك فرصة أمامك لتتقدم في عملك اذا عملت بجد واجتهاد ، ستبدأ غدا ، سأذهب معك الى هناك ، ان عائلتنا تمتلك بعض الأسهم في الشركة ، وبعض مديري الشركة أصدقاء لي وسيهتمون بأمرك .

تحدث والد « جيا ـ شن » بصوت هادىء وكأنه يتحدث في أمر عادي جدا . أما « جيا ـ شن » فقد استمع ووافق ، لم يفه بما يدل على موافقته أو اعتراضه . وتسلطت عليه فكرة واحدة .. انتهى الأمر .. كان لديه الكثير ليقوله ، لكنه لم يفه ببنت شفة .

في اليوم التالي تناولا الافطار ، وشرح والد « جيا ـ شن » لابنه كيف يتصرف كرجل يواجه الحياة العامة ، أبدى «جيا ـ شن» بعض الملاحظات .. استقل « جيا ـ شن » ووالده محفتين حتى مدخل شركة « ص ـ تجوان » التجارية ، قابل « جيا ـ شن » أولا المدير « خوانج » وهو رجل في الأربعين من عمره ذو شارب صغير وظهر منحن ، ثم قابل « تشين » كاتب الحسابات وهو رجل أمرد . التقى لذلك و «وانج» محصل الفواتير الطويل النحيف وثلاثة آخرون

من الموظفين العاديين بالمكتب. سأله المدير بضعة أسئلة ، فأجاب عنها في يسر وكأنه يسمع قطعة محفوظات ، عامله الجميع بأدب جم ، لكنه أدرك لأول وهلة من طريقة حديثهم وتصرفاتهم أنهم يختلفون عنه تماما ، وقد أدهشه عدم مقابلته أناسا على هذه الشاكلة من قبل .

ترك الأب ابنه ، فشعر هذا بالخوف والوحدة كما لو كان قد ألقى في جزيرة مهجورة ، لم يكلفوه أى عمل ، فجلس فى مكتب المدير يستمع الى مناقشاته مع أشخاص مختلفين .. وبعد قضاء ساعتين على هذه الحال تنبه المدير الى وجوده فجأة فقال له :

ـ لايوجد ما تعمله اليوم أيها الأخ الكريم ، أرجو التفضل بالحضور غدا .

خرج « جيا ـ شن » ، وطلب محفة وهو فى غاية السعادة وكأنه مسجون أفرج عنه ، دل الحمال على طريقه ، وأخذ يحثه على الاسراع في السير ، وشعر فى تلك اللحظة أن لا مكان فى العالم أكثر بهجة وجمالا من دار « جاو » .

ذهب « جيا ـ شن » الى جده فور وصوله الى الدار ، فزوده ببعض النصائح والوصايا ، ثم ذهب لرؤية والده ، فزوده ببعض النصائح ، وأخيرا عاد الى شقته ، وأخذت زوجته تسأله فى اسهاب وشغف أسئلة كثيرة ، فأعاد حديثها الهدوء الى قلبه ، وشعر بالراحة والطمأنينة وهو الى جوارها ، وفى اليوم التالى تناول افطاره ثم ذهب الى الشركة ، ولم يعد الى داره حتى الخامسة مساء ، وفى هذا اليوم أعطى مكتبا ، وبدأ عمله تحت اشراف المدير وزملائه .

بدأ هذا الشاب البالغ من العمر تسعة عشر عاما خطوته

الأولى فى الحياة العملية ، وعلى مر الأيام ألف « جيا ـ شن » وسطه الجديد ، وتعود أسلوبا جديدا فى الحياة . وبالتدريج نسى ماتعلمه فى السنوات الأربع من حياته الدراسية ، بدأ يشـــعر فى أثناء العمل كأنه فى بيته .. وعندما تسلم أول مرتب له «اثنين وثلاثين» « بيانا » مزقه الفرح والندم ، انها أول مرة فى حياته يكسب بها نقودا ، لكن هذا المبلغ هو أول ثمرة من بيع آماله فى الحيــاة ، وعلى مر الشهور أصبح تسـليم مبلغ الاثنين والثلاثين « بيانا » لا يثير فى نفسه أى انفعال .

ان الحياة بلا سعادة أو حزن يمكن أن تكون مقبولة محتملة .. وبالرغم من أنه يشاهد نفس الوجوه كل يوم ويسمع نفس الكلام الممل ويقوم بنفس العمل الكئيب فانه كان يحيا فى سلام وأمن ، لم يضايقه فى بيته أى فرد من أفراد عائلته ؛ وبذلك تمـكن من الحياة فى هدوء الى جوار زوجته .

مضى على هذه الحال ما لا يقل عن ستة أشهر ، ثم وقع حدث كبـير فى حياته ؛ فقد أصيب أبوه بمرض خطير .. لم تنقذه كل الدموع التى ذرفها « جيا ـ شن » ، وأشقاؤه وشقيقاته ، وبعد وفاة والده تحمل « جيا ـ شن » جميع أعباء عائلته ، فالى جانب مسئوليته عن رعاية زوجة أبيه هو مسئول كذلك عن رعاية شقيقتيه الصغيرتين وأخويه الطالبين ، وكان فى ذلك الحين فى العشرين من عمره ..

حزن « جيا ـ شن » لفراق والده ، لم يكن يتصور أن القدر سيكون قاسيا الى هذا الحد ، ومع الزمن تبدد حزنه .. نسى والده بعد دفنه . ليس والده فقط ، بل نسى كل ما مضى ، ونسى شبابه، وحمل على كاهله فى هدوء مشاكل عائلته .

لم يكن الحمل ثقيلا فى الأشهر الثلاثة الأولى ، فلم يكن فى ذلك الحين مدركا لما يحيط به ، لكن بعد فترة قصيرة بدأت السهام توجه اليه ، بعضها واضح صريح ، وبعضها خفى خبيث ، استطاع « جيا ـ شن » التفادى من بعض السهام ، وأصابه منها قدر غير يسير ، واكتشف أشياء جديدة فى حياة عائلته الأرستقراطية ، فتحت غلالة رقيقة من السـلام والمحبة تكمن تيارات عنيفة من الكراهية . وهو اليوم قد أصبح هـدفا للهجوم ، وبالرغم من أن الظروف جعلته ينسى شبابه فان حمـاس الشـباب كان يغلى فى عروقه .. انفعل وغضب وتشاجر ؛ لأنه كان يعتقد أن الحق فى جانبه ، لكن نضاله جلب له المزيد من المتاعب والمزيد من الأعداء .

تنقسم عائلة « جاو » أربع أسر : فالشيخ المبجل « جاو » له خمسـة أبناء ، وقد مات ثانى أبنائه منذ زمن بعيد ؛ والعم « كا ـ منج » رب الأسرة الثالثة على علاقة طيبة بالأسرة الأولى التى يتولى أمرها الآن « جيا ـ شن » ، لكن الأسرتين الرابعة والخامسة عادتاه عداء شديدا ، شنت عليه السيدات فى هاتين الأسرتين حربا لا هوادة فيها ، ونشرن حوله الكثير من الاشاعات !

أضناه النزاع ولم يؤد الى نتيجة حاسمة ، فبدأ يتساءل :

ـ ماجدوى نزاع لانتيجة له ؟ انهن لن يتغيرن ولن يستسلمن؛ فلماذا يضيع جهده فى الجرى وراء المتاعب ؟

اتبـع « جيا ـ شن » أسلوبا جديداً فى معالجته الأمور .. ويمكن القول : انه غير طريقته فى تعامله مع أفراد العائلة ، أنهى معاركه مع النساء ، وتظاهر بالموافقة على رغباتهن قدر استطاعته ، وعاملهن بطريقة مختلفة .. لعب معهن « الما ـ جيانج » وساعدهن فى شراء حاجاتهن . ومجمل القول ، ضحى « جيا ـ شن » بجزء

من وقته لكسب رضائهن ٠٠ وكان كل ما يرجوه من وراء ذلك هو أن يترك ليعيش فى سلام وهدوء ٠

وبعد وقت قصير ماتت كبرى شقيقتيه مصابة بالدرن ، حزن « جيا ـ شن » عليها وبكاها ، الا أنه شـعر بشىء من الراحة ، فموتها أزاح عن كاهله بعض المسئوليات ، ثم رزق « جيا ـ شن » بأول أبنائه الذكور ، فشعر بامتنان شديد لزوجته ، أسعده هذا الحادث ، انه رجل يحيا بلا أمل ، ولن تتاح له فرصـة لتحقيق أحلامه ، ان وظيفته الأولى فى الحياة حمل عبء ثقيل على اكتافه ، والمحافظة على وجود الأسرة التى تركها له أبوه ٠٠ انه الآن يحمل بين يديه ابنا له من لحمه ودمه ٠٠ سيحقق فيه أحلام مستقبله ٠٠ انه منه وسعادة الطفل ستكون سـعادة له ، وجد « جيا ـ شن » عزاء له فى هذه الأفكار ، وشعر بأن تضحياته لم تضع هباء ٠

وبعد مرور عامين ، وفى عام ١٩١٩ بدأت حركة الرابع من مايو ، أيقظت المقالات العنيفة القـاسية المنشورة فى الصـحف ذكريات الشباب فى نفسه ، وألهبت حماس شقيقيه ، قرأ « جيا ـ شن » فى الصحف المحلية أنباء الاشتباكات العنيفة فى مدينة بكين والاضراب الكبير الذى تلا ذلك فى الرابع من يونيو فى مدينة شنغهاى ، وعندما أعادت الصحف المحلية طبع المقالات المنشورة فى مجلة الشباب الجديد ومجلة العرض الأسبوعى دأب « جيا ـ شن » على شرائها من المكتبة الوحيدة فى المدينة التى تبيع هذه المجلات ، وأشعلت تلك المقالات مشاعر عنيفة فى قلوب الأشـقاء الثلاثة ، وحركت عباراتها السـهلة الحارة نخوة الشباب فى عروقهم ، ووجدت آراء كاتبيها مرتعا خصبا فى عقولهم المتفتحة ٠

منذ ذلك الحين دأب الأشقاء الثلاثة على شراء كل ما تقع عليه أيديهم من اعداد حديثة أو قديمة من المجلات التقدمية ، ثم بدءوا

يجتمعون ليلا ويقرءونها بصوت مرتفع لا يتركون منها كلمة واحدة بما فى ذلك رسائل القراء الى المحرر ، ثم تجرى بينهم مناقشات حية تتناول ما قرءوه٠كان الفتيان الصغيران أكثر تطرفا من أخيهما ، وعندما انتقدا فلسفة «الانحناء والاستلام»للأستاذ المحافظ «ليو ــ بان ــ تونج » صرح « جيا ــ شن » أمامهما بأنه يميل الى « سياسة عدم المقاومة » لتولستوى ، وفى الواقع فان « جيا ــ شن » لم يقرأ شيئا من كتابات تولستوى فى هذا الموضوع وان كان قد قرأ عنه فى رواية « ايفان العبيط » ٠

فى الواقع وجد « جيا ــ شن » فلسفة الانحناء والاستلام » و « سياسة عدم المقاومة » أمرا مريحا بالنسبة له ، فبفضـــلها استطاع أن يتوازن هو وحقيقة وضعه بسهولة ، أما النظريات التى تتناولها « مجلة الشباب الجديد » وتهاجم فيها أوضـــاع عائلته فلها فوائدها أيضا بالنسبة له ؛ فهى على أية حال سلوى له وتعزية عن مستقبله الضائع ٠٠ وهكذا آمن بالنظريات الحديثة ليستخدمها فى تعزية نفسه ،واستساغ فى نفس الوقت الفكر الاقطاعى القديم معتمدا على فلســـفة « الانحناء والاستســلام » و « سياسة عدم المقاومة » ٠

أصبح « لجيا ــ شن » شــخصية مزدوجة ؛ فهو فى المجتمع القديم ووسط عائلته من السادة الشبان المسالمين المستكينين ، أما فى رفقة أشقائه فهو شاب من الطراز الحديث ٠

لم يستطع شقيقاه فهم أســلوبه فى الحياة ولاماه كثيرا على ذلك ، تقبل نقدهما فى استكانة ، وبرغم ذلك اســتمر فى قراءة الكتب الحديثة والمجلات الدورية مع عدم تخليه عن أسلوبه القديم فى الحياة ٠

راقب « جيا ــ شن » صــــغيره وهو يحبو ، ثم وهو يسير وينطق بكلمات قليلة ، كان الطفل جميلا ذكيا ، فأحبه وأفرغ فيه كل عواطفه !! سيفعل كل ما عجزت عن تحقيقه · وأصر « جيـا ــ شن » على عدم تأجير مرضعة لصغيره ، وجعل أمه ترضعه · وكان لديها لحسن الحظ ما يكفيه من اللبن ، وكانت مسألة الرضاعة هــذه بدعا فى عائلته الثرية ، فأثارت موجة شـــديدة من النقد والتجريح ، فتحملها فى صبر لاعتقاده بأن مافعله فيه خير لولده ·

وكان « جيا ــ شن » يجلس كل أمســـية الى جوار زوجته وولده عندما يأويان الى فراشهما ، وينظر الى طفله وهو نائم على ذراع أمه ·· كان هذا الوجه الصغير يدفع الى قلب أبيه العــزاء والسلوى والأمل ، وينسيه كل متاعبه ، فلا يستطيع مقاومة رغبته فى طبع قبلة على خده الرقيق ، ويهمس فى رقة كلمات الشـــكر والأمل والحب ·· « جيا ــ شن » يعــلم أن والديه أحباه بنفس الحماس عندما كان طفلا ، وأنهما همسا فى أذنيه بكلمات الشــكر والأمل والحب ·

الفصل السابع

ذهب « جيا ـ شن » الى شركة « صى ـ تجوان » التجارية ، وكان ذلك يوم أحد ، فمكتبه لا يتعطل فى هـذا اليوم ـ ، ولما جلس على مكتبه لم يكد يتناول بضع رشفات من كوب الشاى حتى دخل عليه شقيقاه ـ وهما يزورانه عادة فى مكتبه يوم الأحد ، وقد أحضرا معهما بضع مجلات ٠

والشركة التى يعمل بها « جيا ـ شن » تقوم بتأجير المحال التى تمتلكها فى البواكى الى جانب ادارتها جهازا لتوصيل الكهربا الى المستأجرين وأصحاب المحال المجاورة ٠ ومنطقة البواكى كبيرة جدا ، وبها مختلف أنواع الحرف والأعمال ٠ مكتب مدير شركة « ص ـ تجوان » بهـذه البواكى ، وبالقرب من المدخل الخلفى للبواكى ، وعلى اليسار ـ مكتبة متخصصة فى المطبوعات الحديثة ، وكان الأشقاء الثلاثة يترددون على هـذه المكتبة لقربها من مكتب « جيا ـ شن » ٠

استلقى « جيا ـ خوى » فى كرسى من الخيزران بجوار نافذة مكتب أخيه ، وأمسك باعتزاز كبير مجلة ذات غلاف أبيض مكتوب عليه بضع كلمـات باللون الأحمر ٠ قال « جيا ـ خوى » وقد أشرق وجهه بابتسامة كبيرة :

ـ لم يصل المكتبة سوى أعداد قليلة من مجلة «التيار الجديد» تمكنت من الحصول على النسـخة الوحيدة الباقية ، ولو تأخرت قليلا لبيعت هى الأخرى ، وضاعت منا فرصة الحصول على نسخة منها حتى لو انتظرنا قرنا من الزمن ٠

رفع « جيا ـ شن » عينيه عن دفتر الحسابات وقال :

ـ لقد أبلغت أنا بائع الكتب أن يحتفظ لنا بنسخة من كل شيء جديد يصله ٠

قال « جيا ـ خوى » فى انفعال :

ـ التبليغ ليس كافيا : هناك أناس كثيرون ينتظرون هذه المجلة ومعظمهم من المشتركين ، وقد تلقت المكتبة هذه المرة أعدادا قليلة نفذت جميعها فى أقل من يومين ؛ ثم انصرف لقراءة احدى المقالات ٠

نهض « جيا ـ من » من مقعده ، واتجه الى المكتب ، والتقط احدى النسخ من مجلة « الصين الفتاة » ثم جلس جهة اليمين بجوار الحائط ٠ كان مقعده أحد مقاعد ثلاثة مصطفة فى خط مستقيم ، وأمام هذه المقاعد مائدتان للشاى ، انتقى منها المقعد القريب من الحائط ، أما مقعد « جيا ـ شن » الدائرى الحركة فوضع بجوار احدى النوافذ ٠ قال « جيا ـ من » وهو يجلس :

ـ ستأتى أعداد أخرى ، ألم يخبرك بائع الكتب بذلك ؟ أما الأعداد التى نفذت فهى مرسلة بطريقة استثنائية ٠

التزم الاخوة الثلاثة الصمت ، فبدت دقات الآلة الحاسبة التى يستخدمها « جيا ـ شن » واضحة وسط هذا السكون ٠ تسللت أشعة الشمس الدافئة داخل الغرفة من خلال الستائر الزرق الحائلة فرسمت ظلالا متعرجة ، كان صرير الأحذية الجلدية اللامعة وهى تتهادى على الممرات المصنوعة من الأسمنت يعلو أى صوت آخر فى البواكى ، اقتربت تلك الخطوات وصعدت السلم ، ثم دخلت من باب الشركة ٠ وبعد لحظة انفرجت الستائر التى على

مكتب « جيا ـ شن » وظهر شاب طويل نحيل نظر اليه الأشقاء الثلاثة وحياه « جيا ـ شن » :

ـ أهلا « جيان ـ ين » ٠

حيا « تجن ـ جيان ـ ين » الأشقاء الثلاثة ، ثم أخذ نسخة من الصحف المحلية ، وجلس بجوار « جيا ـ من » ، وبعد أن ألقى نظرة على الأخبار المحلية وضع الجريدة على مائدة الشاى وسأل :

ـ متى تبدأ مدرستكم الاجازة الشتوية ؟

ـ انتهت الدراسة بالفعل ، وستبدأ الامتحانات فى الأسبوع القادم ٠ ألقى « جيا ـ من » بهذه الاجابة فى اختصار وجفاء ، ثم استأنف قراءة مجلة « الصين الفتاة » ٠٠

سأل « جيان ـ ين » :

ـ سمعت أن اتحاد الطلبة سيقدم اليوم بعض المسرحيات فى مسرح « وان ـ جوين » ؛ ليجمع نقودا للمدارس المجانية الخاصة بالطلبة الفقراء ٠

فرفع « جيا ـ من » رأسه قليلا وأجاب فى برود :

ـ يحتمل ، لم أهتم بهذا الأمر ، ليس من المحتم أن يكون اتحاد الطلبة وراء هذه الفكرة ، وعلى ما أعلم هناك ثلاث مدارس ستشترك معا فى تقديم العرض ٠

و « جيا ـ من »لا يسهم فى النشاط المدرسى الا نادرا ، فهو يذهب الى المدرسة فى الصباح ، ويغادرها الى بيته فور انتهاء الحصص ٠ كان دافعه الوحيد للقيام بدور الدكتور « ليفر ساى » فى رواية جزيرة الكنز التى ستقدمها مدرسته فى احتفالات الربيع القادم هو أن مدرس اللغة الانجليزية قد اختاره للقيام بهذا الدور٠

قال « جيان ـ ين » :

ـ ألن تذهبوا يارفاق ؟ يقال : انهم سيعرضون مسرحية « خو ـ شى » «عندما تتزوج فتاة» ومسرحية « بيت الدمية »لأبسن. سيكون هذا شيئا رائعا ٠

أجاب « جيا ـ من » دون أن يرفع رأسه هذه المرة :

ـ المكان بعيد ، ثم اننا نستعد للامتحان ، وليس لدينا وقت للتفكير في المسرحيات ٠

فقاطعه « جيا ـ شن » وهو مازال منهمكا فى تشغيل آلته :

ـ انهما مسرحيتان رائعتان ، وكنت أود الذهاب ، لكن لسوء الحظ ليس لدى وقت لذلك ٠

فضحك « جيا ـ خوى » وأغلق المجلة التى بدأ فى قراءتها ، ووضعها على قدميه :

ـ أريحوا أنفسكم ، فالعرض بدأ فعلا ٠

ودفن « جيان ـ ين » رأسه بهدوء فى جريدة أخذها من فوق احدى مائدتى الشاى ، وأخذ يقلبها فى فتور ٠

انتهى « جيا ـ شن » من حساباته ، ولاحظ سلوك « جيان ـ ين » الغريب فسأله فى تودد :

ـ أمازلت تعلم أطفال عائلة « وانج » ؟ ما هذه الغيبة الطويلة ؟

ـ أصبت بنزلة برد فى الفترة الأخيرة منعتنى من الحضور اليكم ، أصبحت الآن على ما يرام ٠٠ ما زلت أعلم أطفال عائلة « وانج » ، وكثيرا ما ألتقى أنا والآنسة « تشن » ٠

وقد دأب « جيان ــ ين » على ذكر اسم « تشن » مسبوقا بلقب الآنسة سواء كان يتحدث اليها مباشرة أو يتحدث عنها للآخرين ·· و « جيان ــ ين » يمت بقرابة بعيدة لعائلة « جاو »، وهو يصغر « جيا ــ شن » بعدة أشهر وبرغم ذلك دأب على تسميته بالأخ الكبير كما يفعل الصبية الصغار · لقد فقد « جيان ــ ين » أبويه وهو طفل صغير ، فكفله عم له ، وبعد تخرجه فى المدرسة الثانوية لم يكن فى مقدوره الذهاب الى الجامعة ، ولم يجد أمامه سوى وظيفة معلم · فكان يدرس الانجليزية والرياضة لأطفال عائلة « وانج » التى تمت بصلة قرابة لوالدة « تشن» · وكلتا العائلتين تعيش فى منطقة واحدة · وأتاح له هذا فرصة الالتقاء كثيرا « بتشن » · قال « جيا ــ شن » فى عطف :

ــ لونك شاحب ، وعودك نحيف للغاية ، لقد أصبحت شديد الحساسية ، يجب أن تعتنى بنفسك ·

أجاب « جيان ــ ين » وقد تأثر باهتمام « جيا ــ شن » به :

ــ أصبت فيما قلت أيها الأخ الكبير ·

ــ اذن لماذا تبدو دائما هكذا منكسرا ذليلا ؟

أغتصب « جيان ــ ين » ابتسامة وارتجفت نبرات صوته الباكى ، ولم يكن هناك أثر للدموع فى عينيه :

ــ كثيرا ما سئلت هذا السؤال ، أنا نفسى لا أعرف سببا لهذا ، ربما يرجع هذا الى ضعف فى نفسى أو ليتمى وأنا طفل صغير ·

رفع « جيا ــ من » رأسه ، وأجابه فى خشونة :

ـ اذا كنت ضعيفا فقوم نفسك ، وأصلح من شأنك ، وبدلا من الاكتئاب والاستسلام أعمل شيئا مفيدا ·

وقبل انتهاء « جيا ـ من » من حديثه سمعت خطوات فى الخارج ، وتردد صوت نسائى رقيق :

ـ ابن عمى « جيا ـ شن » !

لاحت رنة فرح فى صوت « جيان ـ ين » ، وأشرق وجهه بالسعادة :

ـ انها الآنسة « تشن » ·

وقف « جيا ـ شن » ورد فى فرح :

ـ مرحبا !

انفرجت ستارة الباب ودخلت « تشن » تتبعها أمها والخادمة « تشانج ـ شينج » ، وبعد أن أوصلتهما الخادمة انسحبت خارجة بسرعة ·

كانت « تشن » ترتدى سترة من الحرير الأزرق الفاتح المبطن وسروالا أزرق قاتما ، وقد وضعت على خديها قليلا من المساحيق وتدلت على أذنيها ضفيرتان من الشعر زادتا من جمال وجهها المستطيل ، وانحنى حاجباها الجميلان فوق جبينها الأبيض، وبرز أنفها الدقيق بين عينيها الواسعتين المتألقتين ببريق جذاب دافىء ، فزاد ذلك من تألق وجهها وحيويته · ودفء عينى «تشن» يحمل معه النور والأمل الى كل مكان تحل فيه · حيت « تشن » كل من بالغرفة وجذبت انتباه الجميع ، كما حيت أمها الموجودين ·

قدم « جيا ـ من » و « جيان ـ ين » لهما مقعد يهما ، لكنهما

أسرعتا بأخذ مقعدين ، وجلستا بعيدا عن النافذة · ثم أمر « جيا ــ شن » باحضار الشاى ·

اندمج الجميع فى مناقشة قصيرة قطعتها السيدة « تشانج » بسؤال وجهته « لجيا ــ شن » :

ــ سمعنا أن محل « شن ــ فا ــ شيانج » لديه بعض الأقمشة الجديدة ، أهناك أنواع ممتازة يمكننا شراؤها ؟

أجاب « جيا ــ شن » :

ــ لديهم مجموعة ممتازة معظمها من الحرير ، لقد رأيتها بنفسى ·

ــ متى يمكنك الذهاب معى الى هناك ؟

ــ يسرنى ذلك ، يمكننا الذهاب الآن اذا لم يكن لديك مانع·

ــ لا مانع اذا لم يكن هناك ما يشغلك ·

نهضت السيدة « تشانج » ، ونظرت الى « تشن » فى تساؤل وابتسمت « تشن » وقالت :

ــ سأنتظرك هنا يا أماه ·

نهض « جيا ــ شن » ، وأزاح ستارة الباب للسيدة «تشانج» التى التفتت وهى خارجة وقالت « لتشن » :

ــ لن أتغيب طويلا ·

ولاحظت « تشن » المجلة التى فى يد « جيا ــ خوى » فسألته :

ــ ماذا تقرأ ؟

نظر اليها « جيا ــ خوى » ، وضـــم المجلة فى يديه باعتزاز كبير ، وقال لها بصوت ينم عن الرضا :

ــ « التيار الجديد » ··· نسخة حديثة !

ضحكت « تشن » وقالت :

ــ لاتمسكها هكذا ، لن أخطفها منك ·

ضحك « جيا ــ من » وقال :

ــ لدى عدد جديد من « الصين الفتاة » يا أختى « تشن » ، فهل تريدين قراءتها ؟

وهب « جيا ــ خوى » واقفا بسرعة وقدم المجلة « لتشن » :

ــ خذيهـــا ··· لا أريدك أن تدعى أننى بخلت عليك بمجلة جديدة ·

هزت « تشن » رأسها فى هدوء :

ــ سآخذها الى البيت وأتصفحها بعد أن تنتهى من قراءتها ·

استلقى « جيا ــ خوى » فى مقعده واستأنف القراءة ، وبعد لحظة سألها فى فرح :

ــ هل نجحت يا أختى «تشن» ؟ أنت فرحة اليوم ··· أحصلت على موافقة والدتك ؟

كانت « تشن » تجلس على مقعد « جيا ــ شن » الدائرى تعبث بصفحات دفتر الحسابات الذى على مكتبه ، فأجابته :

ــ ليس بعد ، لست أعلم سببا لسرورى اليوم ، أما موافقة والدتى أو عدم موافقتها فلا أهمية لهما ، أنا أستطيع اتخاذ قراراتى بنفسى ، ولى شخصيتى مثلكما تماما ·

صاح « جيا ـ من » :

ـ أحسنت القول ، حديثك حديث امرأة عصرية أصيلة ·

ابتسمت « تشن » :

ـ لا تسخر منى ·

ثم حنت رأسها ، وقالت بلهجة مختلفة :

ـ لدى أخبار خاصة ، لقد عادت عمتك السيدة « جيان » ·

كانت هذه أنباء خاصة فعلا ·· ســـاد الغرفة بعد ذلك جو جديد · سأل « جيا ـ خوى » فى قلق :

ـ وهل عادت ابنة العم « مى » ؟

ـ لقد مات زوج « مى » بعد عام من زواجها ، وأساءت حماتها معاملتها ، فعادت الى أمها ، وعادتا معا الى « تشينج ـ تو » ·

نظر اليها « جيا ـ من » من وراء نظارته الذهبية ، وسألها :

ـ كيف عرفت كل هذه التفاصيل ؟

أجابت « تشن » فى بطء :

ـ زارتنى « مى » أمس فى المنزل ·

سألها « جيا ـ من » :

ـ جاءت الى منزلك ؟ ··· ألا تزال كما هى ؟

كانت تبدو شاحبة ، أما جسمها فليس نحيفا جدا وان كانت أنحف قليلا مما كانت·لكن عينيها الشفافيتين تجعلان المرء يدرك أنها فقدت الكثير ، لم أجرؤ على سؤالها خوفا من اثارة ذكرياتها القديمة،

حدثتني « مى » عن المدينة التى كانت تعيش فيها وعن أهل تلك المدينة ، لم تتحدث عن نفسها الا قليلا ، ولم تذكر « جيا ــ شن » ولا عائلة « جاو » •

بدا صوت «تشن» حزينا ••• وفجأة سألت بلهجة مختلفة :

ــ ما شعور الأخ الكبير نحوها ؟

أجابها « جيا ــ من » :

ــ يبدو أنه نسيها منذ زمن بعيد ، لم يذكر اسمها قط ، انه قانع بزوجته •

هزت « تشن » رأسها وقالت فى صوت حزين :

ــ ان « مى » لم تنسه بنفس السهولة ، عيناها تقولان : انها مازالت تفكر فيه•• لقد طلبت منى أمى ألا أخبر «جيا ــ شن» بعودة « مى » •

ــ قال « جيا ــ خوى » :

ــ لا أهمية لذلك • على أية حال فلن تأتى « مى » ووالدتها الى دارنا ، ولهـــذا فهما لن يلتقيا ، لقد نسى الأخ الكبير الأمر كله ، والزمن يغير كل شىء ، ليس هناك ما يدعو للقلق •

قال « جيا ــ من » :

ــ أفضل عدم اخباره بذلك • ان كان نسيها حقـا فلا داعى لتذكيره بها ، ثم كيف نضمن أنه نسيها حقا ؟

أومأت « تشن » :

ــ أصبت • من الأفضل عدم اخباره •

انكمش « جيان ـ ين » فى أحد الأركان ، وكشفت قسماته عن احساس عميق بالتعس والقلق ، وتقلصت شفتاه عدة مرات وهم بالحديث ، لكنه لم ينطق بكلمة واحدة ... استقرت عيناه على « تشن » هو يستمع الى حديثها ، لكنها لم تنظر اليه قط . وكان يحملق أحيانا فى « جيا ـ من » و « جيا ـ خوى » فى اعجاب شديد ، لكنهما لم يلتفتا اليه . وانفعل « جيان ـ ين » بما قالته « تشن » وبما كان يعتمل فى نفسه من مشاعر أخرى فتنهد قائلا :

ـ لو تزوج الأخ الكبير الآنسة « مى » لكان هذا زواجا سعيدا من جميع الوجوه !

نظرت اليه « تشن » فى عطف ، ثم انصرفت عنه قائلة :

ـ هذا هو شعورنا جميعا .

فرح « جيان ـ ين » بتلك النظرة العابرة وكأنه أنعم عليه بشىء عظيم ، واستعذب ردها الرقيق .

قال « جيا ـ خوى » فى غضب :

ـ لست أعلم من الذى أثار النزاع بين زوجة أبى والسيدة « جيان » ، لقد دمرتا سعادة الأخ الكبير و « مى » الى الأبد .

ـ لست تعرف ؟ ... اننى أعلم كل شىء ، أخبرتنى والدتى بالقصة كاملة . ان الأخ الكبير نفسه لا يعرف شيئا عن هذا الموضوع .. أرسل والدك أحد وسطاء الزواج الى السيدة «جيان» ، فوافقت فى بادىء الأمر ، ثم أخذت طالعيهما ، وذهبت للعراف فقال لها : ان زواجها شؤم ومحال ، واذا تزوجا فستموت « مى » وهى صغيرة .

لذلك رفضت السيدة « جيان » الخطبة ، وكان هناك سبب آخر : لقد غضبت السيدة « جيان » من زوجة أبيك فى أثناء لعب

« الما ــ جيانج » ، وشعرت السيدة « جيان » ، وساءت العلاقات بين السيدتين ، وانقطعت الصلة بينهما ·

دهش « جيا ــ من » لما سمعه وقال ·

ــ لم نكن نعرف حقيقة ما حدث ، لم نعرف أن مسألة زواجهما قد أثيرت ، ولمنا والدنا وزوجته لتجاهلهما مشاعر الأخ الكبير وعدم حرصهما على سعادته ·· الخطأ لم يكن خطأهما ·

وصاح « جيا ــ خوى » في انفعال :

ــ أصبت : كنــــا جميعا نريد زواج الأخ الكبير من « مى » · وعندما علمنا بخطبته من عائلة « لى » شعرنا أن خطأ كبيرا قد ارتكب فى حق « مى » ··· كنا نعتقد أن الأخ الكبير سيعترض ، لكنه بدلا من ذلك استسلم كأى أحمق ·

وامتنعت «مى» عن الحضور الينا ، ثم غادرت بعد ذلك «تشينج ــ تو » وعندما تزوج الأخ الكبير تألمنا من أجل « مى » ، ولمناه ، أمر يدعو للسخرية ··· كنا نعتقد أن القــدر يربط بين « مى » و « جيا ــ شن » ·

وبعد أن انتهى من حديثه افلتت منه ابتسامة بالرغم منه ·

قال « جيا ــ من » وهو شارد الفكر :

ــ ربما لم يكن يربط بينهما حب حقيقى ولم تخرج المسألة عن كونهما متقاربين فى السن والطباع ، وكل منهما مناسب للآخر ·

قال « جيا ــ خوى » :

ــ أوضحت المسألة ··· « متقاربان فى السن ومتناســبان » ·· ماذا تريد أكثر من ذلك ؟

تحسر الجميع بما فيهم « جيان ـ ين » ، فسأله « جيا ـ من » في ضيق :

ـ ما شأنك أنت يا « جيان ـ ين » ؟

لم يجب « جيان ـ ين » بكلمة واحدة ، وبدا كأنه لم يسمع شيئا ، قال « جيا ـ خوى » وهو يضحك :

ـ انه دائما هكذا ٠

وتنبه « جيان ـ ين » فجأة الى أن جميع العيون مسلطة عليه، فحنى رأسه ثم رفعه بسرعة ورمق « تشن » بنظرة حزينة ٠٠ لم تحاول « تشن » تفادى نظرته ، فغض بصره وهز رأسه ، وقال في هدوء :

ـ لم يفهم أحـــدكم الأخ الكبير ، انه لم ينس « مى » قط ، أدركت ذلك منذ أمد بعيد ، انه يفكر فيها دائما ٠

وعندئذ اعتقد « جيا ـ من » أن « جيان ـ ين » يتخبط في حديثه فقال له :

ـ اذا كان الأمر كذلك فلماذا لم نر أى دليل على ذلك ؟ انه لم يذكر اسمها قط ، واذا طبقنا كلامك على حالة الأخ الكبير أمكننا القول : انه كلما زاد الحب في قلب انسان زاد من اخفائه لمشاعره ٠

أجاب « جيان ـ ين » :

ـ نعم ، وان كان هذا الأمر يجب عدم التحدث عنه بلا أو نعم، يجب أولا يجب ، ففى بعض الأحيان ربما لا يعرف الانسان حقيقة مشاعره ٠

قال « جيا ـ خوى » في حزم :

ـ لا أعتقد ذلك ٠

وقالت « تشن » فى حماس :

ـ ولا أنا ـ لا يمكن تفسير الأمر بهـذه الطريقة ٠ ان الحب صريح وحق لا أسرار فيه ، اذا أحب الرجل بقلبه فكيف يبدو باردا غير مهتم ؟

شحب وجه « جيان ـ ين » كأنما أصيب بضربة قاسـية ، فارتعشت شفتاه ، واختلجت عينـاه ، واسـودت الدنيا أمامه ، وحملق فى الحائط فى ذهول ، ثم حنى رأسه والتزم الصمت ٠٠

لم تلحظ « تشن » الانفعالات العنيفة التى طرأت على « جيان ـ ين » ، وشغلت عنه بتصفح كتاب جديد على المكتب، كذلك لم يلحظه الشقيقان اذ كانا مشغولين عنه « بتشن » ٠ تنبهت « تشن » بعد فترة لما أصابه ، فنهضت قائمة وصاحت فى دهشة :

ـ « جيان » ! ماذا دهاك ؟

انتفض « جيان ـ ين » ، ووجه الى « تشن » نظرة ملؤهـا الشك، ثم ابتسم ولمعت عيناه مرة أخرى ٠ كان بريقهما كئيبا ٠٠٠ وبعد لحظة تلاشت ابتسامته ، وعاد الوجوم والكآبة الى وجهه ، وبدا كأنه لم يبتسم قط ٠

انتقلت نظرات الشقيقين من عينى « تشن » ، واستقرت على وجه « جيان ـ ين » ، فلاحظا اضطرابه ، لكنهما لم يجـدا مبررا لحالته تلك ٠

أجاب « جيان ـ ين » فى صوت حزين :

ـ لا شىء ، لا شىء ٠٠٠ ثم عادت الابتسامة الى وجهه وقال :

ـ كنت أفكر فى بعض الأمور ولا أستطيع تفسيرها ٠

سألته « تشن » وهى تبتسم :

ـ أيمنكك أن تخبرنا بالذى كنت تفكر فيه ولا تستطيع تفسيره ؟

بدأ لهم « جيان ـ ين » كمريض يجتاز دور النقاهة ، كانت عيناه مركزتين على وجه « تشن » الجميل ، ولم يستطع النطق بكلمة واحدة ، احمرت وجنتاه خجلا ، وأخيرا أخذ يتلعثم ويتهته وقد علت وجهه ابتسامة واهنة :

ـ اننى لا أستطيع فهم نفسى، عقلى متعب ، وفى بعض الأحيان لا أستطيع السيطرة على أفكارى ، ولا أدرك حقيقتها !

فابتسمت « تشن » وقالت :

ـ لماذا أنت متواضع الى هذا الحد ؟ لسنا غرباء .

ـ ليس هذا تواضعا ، اننى فى الحقيقة انسان ضائع محطم .. الفارق بينى وبينكم كبير ولست جديرا بصحبتكم .

أحمر وجه « جيا ـ ين » ، لكن هذا الاحمرار لم يكن مبعثه الارتباك فى هذه المرة ، بل يرجع الى انفعاله بالخطبة التى ألقاها ، وكان يتحدث بحماس وقوة خشية ألا يصدقوه ..

ـ لا تتحدث هكذا ، ولا نريد سماع مثل هذا الحديث ... لنتكلم فى مسائل أخرى .

قالت « تشن » هذه الكلمات بطريقة ودية لأنها كانت تعلم أن « جيان ـ ين » انسان غريب الأطوار وأن مناقشته لا تجدى .

التزم « جيا ـ من » الصمت ، وكانت عيناه ترقبان « تشن »، تنتقلان أحيانا الى « جيان ـ ين » ، وكان يصغى فى اهتمام الى حديثهما ، ويبتسم فى رضا وسعادة .

أما « جيا ــ خوى » فلم ينتبه للمناقشة الدائرة ، واستغرق في قراءة مجلة « التيار الجديد » ، أخذت انفعالات « جيان ــ ين » تتغير بسرعة حتى أصبح من الصعب ادراك ما يجول بخاطره ٠٠ وظل يردد عبارة «تشن» ٠٠٠ لقد جرحنا احساسه ٠٠٠ في صوت خفيض لم تتمكن «تشن» نفسها من سماعه ٠

ــ حسنا ، لن أقول شـيئا ٠٠٠ يجب أن أذهب ٠٠٠ لدى بعض الأعمال ٠

انتفض « جيان ــ ين » واقفا واتجه نحو الباب ٠

وراقبته « تشن » في دهشة ولم تنطق بكلمة ، لكن « جيا ــ من » ألح عليه قائلا :

ــ لماذا لا تبقى قليلا ؟ اننا نستمتع بالحديث معا ، والأخ الكبير سيحضر حالا ٠

أجاب « جيان ــ ين » في ثبات :

ــ شكرا جزيلا ، أنا مضطر للخروج ٠

وتردد « جيان ــ ين » لحظة ثم انحنى لهم وانصرف ٠

تساءلت « تشن » في قلق :

ــ ما الذى يشغله ؟

وأجاب « جيا ــ من » في اقتضاب :

ــ الله وحـــده يعلم ! ثمة شيء يقلقه ، والا فما السر وراء تصرفاته الغريبة ؟ ، لقد كان أحسن حالا فيما مضى ٠

أجابته « تشن » :

ـ انه يزداد غرابة على مر الأيام ، ولا أعرف سببا لمتاعبه ، قد يرجع هذا الى فقره ، فقد قاسى كثيرا فى حياته ، وهذا ما انتهى به الى هذه الحال ٠

حاولت أن أكون لطيفة معه ، لكن كلما لاقيته التزم الصمت كالصخرة الصماء ، ويخيل الى أنه يخفى عن الناس سرا رهيبا يخشى اكتشافه ٠

ووجدت « تشن » الشقيقين يصغيان اليها فواصلت حديثها :

ـ كيف التقرب الى انسـان كهذا ؟ عندما نلتقى أشـعر أنه يحاول حصر حديثنا فى ثرثرة تافهة ، واذا حاولت الحديث معه فى أمر له أهميته بذل قصارى جهده ليغير دفة الحديث وكأنه يخشى شيئا رهيبا ٠

قال « جيا ـ من » فى سخرية :

ـ ربما يخفى مأساة غرامية غامضة ، انه سيىء الحظ ، فهو ينتمى الى عالم آخر ، والحياة العصرية لا تناسـبه ، ثم قال فى استغراب :

ـ انه يقرأ الكتب الحديثة أحيانا ٠

أغلق « جيا ـ خوى » المجلة ، ووضعها على ركبتيه وقال :

ـ دعك منه ! العالم ملىء بأمثاله ٠ أيمنكك أن تشغل نفسك بهم جميعا ؟

وساد الغرفه صمت تام ، ثم ظهر شخص نظر فيما حوله ثم انسحب وهو يد مدم :

ـ لقد خرج السيد « جاو » الصغير ٠

قطعت « تشن » هذا الصمت وأعلنت فجأة :

ـ لقد قررت دخول امتحان مدرستكم وأستذكر الآن فى جد ، هل لك أن تساعدنى فى دراسة اللغة الانجليزية ؟

أجاب « جيا ـ منَ » فى مرح :

ـ طبعا ٠٠٠ وهل تشكين فى ذلك ؟

ـ حسنا ٠٠٠ على أن يكون ذلك فى المساء لأن كلينا يذهب الى المدرسة فى الصباح ، لا داعى للانتظار وتضييع الوقت ، فبوسعنا أن نبدأ من الآن ٠

ـ موافق ٠ سـأزورك فى المنزل فيمـا بعد ، ونتفق على التفاصيل ٠٠٠

سمع « جيا ـ من » أصوات « جيا ـ شن » والسيدة «تشانج» وهما قادمان من الخارج ، أزاح « جيا ـ شن » الستارة ، فدخلت السيدة « تشـانج » يتبعها « جيا ـ شن » ثم الخادمة ، وجلست السيدة « تشانج » ، وتناولت قليلا من الشاى ، ثم قالت لابنتها :

ـ لنذهب ، لقد تأخرنا ٠

ثم قالت « لتشانج ـ شينج » :

ـ استدعى لنا محفتين وأعدى كل شىء ٠

خرجت « تشانج ـ شينج » بناء على أمر سيدتها ، وبعد دقائق قليلة انصرفت « تشن » ووالدتها وصحبهما « جيا ـ شن » حتى باب مكتبه ، وسار الشقيقان معهمـا حتى مدخل البواكى الى أن استقلتا محفتيهما ٠

الفصل الثامن

افترق « جيا ـ من » و «جيا ـ خوى » بعد أن غادرا شركة « صى ـ بجوان» التجارية . ذهب «جيا ـ من» لزيارة «تشن»، وذهب «جيا ـ خوى» لزيارة أحد أصدقائه ، وبينما هو يسير فى الطريق لمح «تشانج ـ خوى ـ رو» أحد زملائه فى الفصل وهو يجرى لاهثا وقد تدلى رأسه فوق صدره ، فأمسكه «جيا ـ خوى » من يده وسأله:

ـ ما الخبر؟ لماذا تجرى هكذا ، وتتجاهل أصدقاءك ؟

نظر الشاب الى «جيا ـ خوى» والعرق يتساقط من وجهه ، كان يلتقط أنفاسه بصعوبة ، فلم يتمكن من الكلام ،وأخيرا قال بأنفاس متقطعة :

ـ حدث .. شىء .. مؤلم !

فسأله « جيا ـ خوى » فى فزع :

ـ ماذا حدث؟

فانتظمت أنفاس «خوى ـ رو» قليلا ، وأخذ صوته يرتجف من الغضب والانفعال .

ـ تشاجرنا اليوم والكلاب فى مسرح « وان ـ تجون » ...

تجمد الدم فى عروق «جيا ـ خوى» وهز زراع «خوى ـ رو» بيده المرتعشة :

ـ ماذا ؟أخبرنى بسرعة ·· هل هاجم الجنود الطلبة ؟ أخبرنى بالتفاصيل !

ـ أنا ذاهب الى المدرسة لأخبر باقى الطلبة،تعال معى،سأخبرك ونحن سائران ·

أخـذت عينا « خوىـرو » تتوهجان من شدة الغضب ، وسار «جياـخوى» معه وقلبه يخفق بشدة وجسده يحترق ، وظل يعض شفتيه فى صمت ·

قال«خوىـرو» فى انفعال وهما يسيران بسرعة :

ـ كنا نعرض مسرحياتنا على مسرح «وانـتجـون» ، كنت جالسا ضمن المتفرجين · وعندما بدأت المسرحية الأولى حاول ثلاثة من الجنود الدخول بلا تذاكر، فأخبرهم عامل الباب أن هذا عرض خاص، وليس مثل عروض مسرح «وانـتجون»العادية، ولايمكنهم الدخول الا اذا دفعوا، ولكنهم أصروا على الدخول بعجرفة، فطردهم الناس ولم يمض وقت طويل حتى عادوا ومعهم مجموعة من الجنود ، وطالبوا بالدخول مجانا·خشينا ازعاجالمتفرجين بالضجة التى يحدثونها فسمحنا لهم بالدخول حتى يهدءوا · وبعد أن جلسوا فى مقاعدهم أخذوا يضحكون ويمزحون ويتصرفون بأسلوب أقذر من أسلوبهم المعتاد فى المسارح ، لم نتحمل تصرفاتهم،وطلبنا منهم التزام الهدوء ولكنهم استمروا فى غيهم ، فحذرناهم لكى يهذبوا من سلوكهم أو يخرجوا ··· فجن جنونهم بدءوا العراك · اعتـلى بعضـهم خشـبة المسرح ، وحطموا الأعمدة ، واستمرت أعمال الشغب حتى جاءت جماعة من معسـكر القيادة ، لكن المسرح كان قد تحـول الى مجزرة وأصيب عدد من الطلبة وفر المشاغبون ·· ولم يقبضوا على

أحدهم ··· فرقة كاملة السـلاح لم تستطع القبض على كلبين مجردين من السلاح ·· أى أحمق يستطيع تصديق ذلك ؟ انها مسألة مدبرة ···

ضم«جيا ـ خوى» ذراعيه الى صدره المتفجر بالغضب ثم قال:

ـ لقد انتشرت فى الفترة الأخيرة اشاعات بأن السلطات تدبر شيئا فى الخفاء ضد الطلبة ··· لقد سببنا لهم الكثير من المشاكل فى السنوات الأخيرة ··· طالبنا بالتفتيش على المحال للتيقن من عدم اتجارها فى البضائع اليابانية ، وقمنا بمظاهرات ·· كانت حركتنا تكبر وتقوى على مر الأيام ··· انهم يريدون شل حركتنا لذلك حرضوا الكلاب ضدنا ·· انها الخطوةالأولى لننتظر ونر ··· سنرى الكثير !

قال «خوى ـ رو» :

ـ عقد كل الموجودين هناك اجتماعا فى حديقة «شاو ـ تشنج»، فقررنا دعوة جميع طلبة المدارس للخروج فى مظاهرة لتقديم وثيقة بمطالبنا للمحافظ ، وقد وافق الجميع على هذه المطالب ، فهل أنت معنا ؟ ثم زاد من سرعته فى السير

أجاب «جيا ـ خوى» :

ـ هذا أمر لا جدال فيه ·

وصل الفتيان الى المدرسة واندفعا الى داخلها وهما فى أشد حالات الغضب ، وتجمع حشد كبير من الطلبة فى الملعب فى شكل مجموعات صغيرة ، وأخذوا يتناقشون بصوت مرتفع · كانت المدرسة ثائرة ،وكان واضحا أنهم سمعوا بما حدث مع الجنود · وشاهد «خوى ـ رو» بين الموجودين «خوانج ـ تسون ـ رن» الذى قام بدور الأب فى مسرحية « عندما تتزوج فتاة » أولى المسرحيات التى

عرضت فى ذلك اليـوم ، وقد انتهت هذه المسرحيـة قبل أن تبدأ أعمال الشغب ، فأدرك «خوى ـ رو» أن «تسون ـ رن» سـبقه الى المدرسة وحمل معه أنباء ما حدث •

انضم «جيا ـ خوى» و «خوى ـ رو» الى احدى الجماعات واستمعا الى ما يقوله الطلبة وروى «خوى ـ رو » لزملائه كل ما يعرفه عن المسألة ، وظل يتحدث بحماس الى أن بدأ الطلبة فى التحرك •

كانت حديقة «شاو ـ تشينج» مركزا للتجمع ، وعندما وصل طلبة مدرسة «جيا ـ خوى» وجـدوا هناك طلبة من مدارس أخـرى لم يكن من المستطاع تبليغ جميع الطلبة لأن اليوم يوم أحد ، علاوة على أن هناك مدارس كثيرة بدأت أجازتها الشتوية ، كان الموجودون قلة بالنسبة لمجموع عدد الطلبة ومعظمهم من طلبة المدارس الراقية ، ولهـذا السبب كان عددهم أقل بكثير من المظـاهرات السابقة ، فقد بلغ عددهم حوالى مائتى طالب •

أرخى الليل سدوله ، فأوقدت المصـابيح وسط الظلام الذى أخذ يحشـد قواه ، ويطبق على كل شىء ، وفى تلك اللحظة بدأ الطلبة سيرتهم الى مكتب المحافظ •

سار «جيا ـ خوى» وأخذ ينظر فيما حوله وهو مشدود الأعصاب أخـذت مجموعات من الناس تقف على جانبى الطـريق تحملق فى الطلبة باهتمام شديد ، وأبدى عدد منهم فى حذر بعض الملاحظات فأسرع الآخرون بالابتعاد عنهم •

انهم يقـومون بحملة مفاجئة للتفتيش على بضائع العدو ••• الى أى محل سيتجهون هذه المرة ؟

سـمع «جيا ـ خوى» هذه الكلمات وأدرك من طريقة نطقها أن قائلها من خارج المدينة • فأخـذ «جيا ـ خـوى» يبحث بعينيه عن

تائلها فالتقتا وعينان صغيرتان ماكرتان تتوسطان وجها صغيرا مستديرا ، تجهم وجه «جيا ـ خوى» وعض على شفتيه ، لكنه لم يجزم بأنه لم يخطىء السمع ، فاستمر فى سيره ٠

حل الظلام عندما وصل الطلبة الى مقر الحاكم ، زاد الظلام الحالك من توتر أعصاب الطلبة ، ودفع الى قلوبهم خوفا غامضا ، وسادهم شعور غريب بأن هذا الظلام ليس من صنع الليل وحده، بل صنعه أيضا المجتمع والأوضاع السياسية ، لكنهم برغم كل شىء وضعوا قلوبهم مع عامة الناس ، ولم يبالوا شيئا ٠

وقفت جماعة من الجنود بسنابكهم المتوازية اللامعة وصدورهم المتفخة سألهم الطلبة السماح لهم بالدخول ، فنظروا اليهم فى صمت مخيف ، ولم يتراجع أى من الطرفين ٠ عقد الطلبة مؤتمرا قرروا فيه ارسال وفد من ثمانية أفراد ، لكن الجنود منعوهم كذلك٠ وأخيرا ظهر ضابط صغير تحدث اليهم فى جفاء :

ـ أيها السادة أرجوكم الانصراف ٠ المحافظ قد عاد الى بيته ٠

أجاب المندوبون فى أدب وحزم ٠٠٠ اذا لم يكن المحافظ موجودا فهناك من يحل محله ، ولكن كلامهم ذهب أدراج الرياح٠ هز الضابط رأسه فى برود وعظمة ولسان حاله يقول ٠٠٠ القوة فى جانبى ، وأستطيع التفاهم معكم بنفسى ٠

ونقل المندوبون هذه النتائج الى زملائهم فازداد غضبهم وصاحوا :

ـ يجب أن يخرج الحاكم ٠٠٠ والا فسندخل بأنفسنا ٠٠٠ اذا لم يكن الحاكم موجودا فليخرج من ينوب عنه ٠٠٠ اهجموا !لندخل أولا ، ثم نتحدث فيما بعد ٠

اهتزت رؤوس الطلبة وتمايلت ،اندفع بعضهم تجاهمقر الحاكم ولكن زملاءهم منعوهم ، وصاح أحد المندوبين :

ـ الهـدوء يارفاق ·· النظام ·· يجب أن نحافظ على النظام

وترددت هذه الصيحة :

النظام ··· النظام ··· النظام ·

وهتف بعضهم :

ـ ما جدوى النظام ؟ لندخل أولا !

ـ هذا مستحيل ، فلديهم بنادق !

صاح عدد كبير من الطلبة :

ـ النظام ! النظام! استمعوا للمندوبين

هدأت الضوضاء بالتدريج، وبدأ رزاز خفيف يتساقط ، وصاح أحد المندوبين من أعماقه وبأعلى صـوته حتى يسمعه الجميع ، فدوى صوته مجلجلا :

ـ يا رفاق ، لن يسمحوا لنا بالدخول ، ورفض الحاكم ارسال أى شخص للاجتماع به ؛ ماذا نفعل ؟نعود منحيث أتينا أو ننتظر؟

هتف عدد من الطلبة :

ـ لن نعود ··· اننا نصرعلى مقابلة أحد المسئولين ··· يجب الاستماع الى مطالبنا ولن تجوز علينا أية حيلة ·

اقترب الضابط الصغير من المندوبين ، وقال فى لهجة مسالمة:

ـ السماء تمطر ، أنصحكم بالعودة الى منازلكم ، وأعد بتسليم

طلباتكم الى المحافظ ٠لا فائدة ترجى من انتظاركم هنا طوال الليل- رقام المندوبون بنقل ما قاله للطلبة ، وتلا ذلك ضجة عنيفة :

ـ لا ٠ لن نعود !

ساد الاضطراب الميدان أجمع ، ثم ساد الهدوء مرة أخرى، وصاح أحد المندوبين وقد رفع يديه متشابكتين :

ـ أصبتم ٠ سنبقى حيث نحن ٠٠ نحن مندوبوكم وسنحاول التفاهم معهم مرة أخرى ٠ لن نرحل حتي يستجيبوا لمطالبنا !

صفق عدد من التلاميذ ، وانفجرت بين الطلبة هتافات التأييد فذهب المندوبون ٠ وفى هذه المرة سمح لثمانية منهم بالدخول الى مقر المحافظ ٠

أخذ«جيا۔خوى» يصفق بكل قوته ، بلل المطر رأسه العارية وبرغم أنه كان أحيانا يحمى عينيه بيده أو يرفع معصمه فوق جبهته فان المطر سال فوق عينيه ٠ فنظر الى الجنود والى الفانوسين المعلقين على المدخل ، وتأمل الرءوس التى تموج من حوله كالبحر ، فألهب الغضب كيانه وشعر باختناق ؛ وود لو صرخ من أعماقه٠٠ لقد كان هجوم الجنود على المسرح أمرا مفاجئا لهم برغم الاشاعات التى ترددت بأن السلطات تعد شيئا خفيا ضد الطلبة ، لم يخطر ببال أحد أن الأمور ستتطور الى ما هى عليه الآن ٠

وتساءل «جيا۔خوى» :

ـ ياللحقارة ! لماذا يعاملوننا هكذا ؟ هل حب الوطن جريمة ؟ هل الشباب النقيون المخلصون شر على بلدهم ؟ ٠٠٠ انه لا يعتقد ذلك ٠

دق ناقوس الحارس مرتين من مكان بعيد ٠٠٠ انها العاشرة مساء ، تساءل الطلبة وهم فى ثورة عارمة :

ـ لماذا لم يعد المندوبون ؟ لماذا لم نسمع نبأ جديدا ؟

تساقط المطر بغزارة وبللهم من قمة الرأس الى أخمص القدم شعر «جيا ـ خوى» بالبرد يسرى فى عظامه ، فارتجف وجال بخاطره ... أتخور عزيمتى أمام هـذه الأشياء التافهة ؟ .... ثم وضع يديه فى أكمامه وشمخ بصدره عاليا .

ووقف الطلبة حوله وقد انحنت أكتافهم ، والتصق الشعر فوق الجباه بفعل المطر ، لم ينل هذا من عزائمهم ! وقال طالب لزملائه :

ـ اذا لم نصل الى نتيجة فاننا لن نعـود ، يجب أن نكون فى شـجاعة طلبة جامعة بكين ، فعندما خرجوا لالقاء الخطب أخـذوا معهم حقائب بها ملابسهم استعدادا للذهاب الى السجن .. أليس فى امكاننا أن نبقى هنا ليلة واحدة لنحقق مطالبنا ؟

استمع «جيا ـ خوى» الى هذه الكلمات فتأثر بها حتى كاد يبكى أراد التحقق من شخصية المتكلم ، غير أن الضباب حال دون ذلك. ولكنه أعجب بالشاب بالرغم من أنه لم يقل شيئا غير عادى . فما قاله لا يزيد فى شىء على ما يشعر به هو ، نسى «جيا ـ خوى» كل شىء .. بيته المضىء وفراشه الدفىء . كان على استعداد لعمل أى شىء يكلفه القيـام به هذا الطالب حتى لو طلب منه اقتحام النار وعبور الأنهار !

الثالثة صباحا .. لم يعد المندوبون ولم تصل أخبـار جديدة عنهم ، ازدادت برودة الجو .. الجوع والبرد ... ومزقتهم الحـيرة وبدءوا يتساءلون :

ـ الى متى سننتظر؟

كانت حراب الجنود المصطفة أمام المدخل ترسـل بريقا كئيبا كأنها تنذر وتحذر . اقترح بعض الطلبة الضعاف :

ـ لنعد ، ولنقرر خطوتنا القادمة ، ان البقاء هنا لن يجدى نفعا .

لم يجبهم أحد ، وبدا أن الأغلبية عازمة على البقاء ، وبعدفترة طويلة قلقة قال أحدهم :

ـ خرج المندوبون .

ساد الميدان كله صمت عميق ، ثم أعلن أحد المندوبين أن مسئولا سيتحدث اليهم .

وتحدث الى الطلبة شخص بصوت غريب متقطع :

ـ أيها السادة ، لقد ذهب المحافظ الى منزله منذ ساعات ، وأبدى أسفى لأنى تركتكم تنتظرون طوال هذا الوقت ، لقد تباحثت مع مندوبيكم نيابة عنه ، وتسلمت مطالبكم ، سأقدمها غدا الى الحاكم ؛ ومن المؤكد أنه سينظر فيها ، يجب عليكم أيها السادة الاطمئنان الى هذا . ووعد الحاكم بارسال مندوب عنه لزيارة المصابين . الوقت متأخر الآن ، لذا أرجوكم العودة الى بيوتكم ، فلسنا نريد أن يصاب أحدكم بالبرد . أنتم تعلمون أن السيد الحاكم مهتم بأمركم جميعا أيها السادة .. عودوا الى بيوتكم ، فلسنا نريد أن يصاب أحدكم بسوء .

وبمجرد انتهاء حديثه بدأ الطلبة يتناقشون فيما بينهم ،سأل أحد الطلبة «جيا ـ خوى» :

ـ ماذا يقول ؟ ماذا يقصد بقوله : يصاب أحدكم بسوء ؟

أجاب «جيا ـ خوى» فى سخط :

ـ يقول : ان الحاكم سيبحث مطالبنا ، ولهذا علينا الذهاب الى بيوتنا ، انه لم يتعهد بشىء ؛ ياله من لبق !

ـ يجب أن نعود الى بيوتنا ! ان وقوفنا هنـــا لاطائل من ورائه ٠٠ يجب الانتباه الى تلك العبارة التى ختم بها حديثه ٠

ثم جاء مندوب آخر وتحدث الى الطلبة :

ـ هل سمعتم ما قاله يا رفاق ؟ لقد أخـذ طلباتنا وسيبحثها الحاكم ، لماذا لا نصبر ونرى ؟ لقد حققنا بعض النتائج ، ونستطيع العودة الى بيوتنا

ـ نتائج ؟ أى نتائج!

لكن الغالبية صاحت :

ـ لنعد الى بيوتنا !

لم تنبع صيحتهم هذه من اقتناعهم بما قاله المسئول ، بل كان الدافع الى ذلك اقتناعهم بأن الوقوف طوال الليل فى العراء سيكون تضحية لا طائل من ورائها ٠ ازداد الجو برودة وهطل المطر بشدة ، آلمهم الجوع ، وارتعدت أجسامهم من البرد ٠٠٠ لقد تحملوا ما فيه الكفاية :

ـ حسنا ، لنعد الى بيوتنا وان غدا لناظره قريب ٠

كان هذا شعور الأغلبية ، تمنع عدد قليل منهم ، وأصروا على عنادهم ، لكنهم قلة فخذل رأيهم ٠

وبدأ الطلاب المئتان فى مغادرة الميدان ، وتساقط المطر عليهم بلا رحمة ، وأخذت قطرات المطر تضرب وجوههم وأجســـامهم فى وحشية كأنها تريد أن تبقى ذكريات تلك الليلة فى اذهانهم أبد الدهر ٠

الفصـــل التاســـع

مر يومان ولم يحقق الحاكم شـيئا من وعوده ، ولم يف حتى بوعده فى ارسال مندوب عنه لزيارة الطلبة ، وتوقف طلبة جميع المدارس عن الدراسة ، ولم يكن لهذا تأثير كبير اذ ان معظم المدارس كانت فى اجازتها السنوية ٠

وفى اليوم الثانى من الاضراب ، وبنـاء على اصرار مدرســة اللغات الأجنبية ومدرسة المعلمين العليا ـ صدر بيان الاضراب وقد احتوى بعض تلميحات بها اهانة للحاكم وتلا ذلك ايام ســادها الرعب وقعت فيها مصادمات كثيرة بين الجنـود والطلبة ، وأدرك المدنيون فى الحال أن الجنود قد ينقلبون مرة أخرى الى جماعات من الفوضويين ، ولم يجرؤ الطلبة على السير فى الطريق وهم فرادى؛ فساروافى مجموعات صغيرة قوامها خمسة أفراد أو ستة ٠ وفى أحد الأيام وبالقرب من البوابة الجنـوبية للمدينة ، وفى ســتر الظلام وحمايته ـ اعتدى ثلاثة جنود بقسوة على أحد الطلبة تحت سمع أحد رجال البوليس وبصره وقد آثر الســلامة وخشى أن يتدخل ٠

سادت الفوضى فى كل مكان ، ولكن المسئولين تغابوا٠ ويبدو أن الحاكم قد نسى الطلبة كلية ، وربما كان ذلك راجعا الى انشغاله فى الاحتفال بعيد ميلاد والدته ٠ وازداد الجنود عجرفة ،وخصوصا الجنود المصابين المسرحين من الجيش ، لقد قذف بهم الى المدينة دون أن يكون لهم ضابط أو رابط ، فقد هام المقاتلون المصــابون فى الشوارع كما يحلو لهم ، ولم يجرؤ أحد على التدخل ٠

لكن الطلبة لم يستكينوا تحت وطأة هذه الموجة من العربدة والشغب ، فشرعوا فى انشاء (حركة الدفاع عن النفس للمحافظة على كرامة الطلبة) ، وأصدروا منشورات وألقوا الخطب ، وقام اتحاد الطلبة بارسال برقيات الى المنظات الاجتماعية الرائدة فى جميع أنحاء البلاد طلبا للتأييد ، وأرسلوا المندوبين الى البلدان الأخرى لشرح موقف الطلبة ، وكان أكبر نجاح للاتحاد انما هو تحقيق التعاون مع الاتحادات الطلابية الأخرى • نمت الحركة ووصلت الى درجة كبيرة من الفاعلية والتأثير ، لكن الحاكم لم يحرك ساكنا •

كان «جيا-خوى» أكثر ايجابيةمن أخيه «جيا-من» فىالمشاركة فى هذه الأحداث ، فقد انهمك «جيا - من» فى مساعدة «تشن» فى دراسة اللغة الانجليزية ، وشغله ذلك عن كل شىء فى الوجود •

وفى احدى الأمسيات استدعى «جيا-خوى» الى غرفة جده فور عودته من اجتماع لاتحاد الطلبة •

كان الرجل العجوز الذى تعدى الستين من عمره مستلقيا فى أحد المقاعد فبدا فى عينى (جيا - خوى) عملاقا طويلا مديد القامة، ونبتت فى وجهه الطويل المكفهر بضع شعيرات بيضاء ، وأحاطت برأسه الأصلع خصلتان من الشعر الأبيض • استلقى السيد المبجل « جاو » فى كرسيه مغمض العينين مستغرقا فى اغفاءة قصيرة ، وأخذ غطيطا خفيفا •

وقف « جيا - خوى » فى استحياء ورهبة أمام جده ، ولم يجسر على ايقاظه ، وفى نفس الوقت لم يجرؤ على مغادرة الغرفة شعر « جيا - خوى » فى البداية بعدم ارتياح ، فجو الغرفة يخنقه •• وقف فى صمت يداعبه الأمل فى استيقاظ جده حتى يتمكن من مغادرة هذا المكان بسرعة ، ومع الوقت تلاشى هذا

الخوف ٠٠ وأخذ يحدق باهتمام فى وجه جده المكفهر ورأسه الأصلع ٠٠٠ كان فى ذهن « جيا خوى » صورة عن جده عالقة منذ أمد بعيد ٠٠ رجل جهم قاس متحكم مرهوب الجانب يحترمه الجميع، ونادرا ما كان « جيا خوى » يتبادل هو وجده بضع كلمات ، ولم تتح له فرصة اتصال وثيق بجده للتعرف به ، ولقاءاته به كانت تتم مرتين يوميا ، فى الصباح وفى المساء حيث كان يستدعى رسميا لتقديم فروض الاحترام لجده • ولقد تحاشاه «جيا ـ خوى» قدر استطاعته لما يشعر به من حرج ورهبة فى حضوره ، واعتقد أن جده انسان مجرد من العاطفة •

فى تلك اللحظة كان الجد مستلقيا فى مقعده فى ضعف وقد بدا عليه الارهاق • دارت بخلد « جيا ـ خوى » بعض الأفكار ان جده لم يكن دائما مجرد انسان جاف الطباع ، فان كثيرا من أشعار جده تغنت بها المطربات ٠٠ وابتسم عندما تخيل صورة جده وهو شاب • لاشك أنه كان شابا جسورا مندفعا ، لكنه اتخذ أخيرا هذا المظهر المهيب الورع ٠٠ كان ذلك منذ أكثر من ثلاثين عاما مضت ، وعندما تقدمت به السن تحول الى كاتب اخلاقى متزمت من أتباع كنفوشيوسى •

ولقد دأب جده حتى هذا اليوم على السمر مع الممثلات الشابات فى المسرح ، وقد دعا احدى الممثلات ذات يوم الى البيت، وأخذت له معها صور وهى ترتدى ثيابا خاصة بهذه المناسبة ، ومازال « جيا ـ خوى » يتذكر منظرها وهى تضع المساحيق والشعر المستعار فى غرفة استقبال الضيوف •

لم يكن هناك أحد فى « تشينج ـ تو » يستنكر هذه الأمور وقد أثار منذ وقت قريب بعض المتزمتين ممن كانوا يعملون موظفين فى عهد « تشينج » البائد ، ويعتبرون حماة مجتمع الأخلاق

والآداب الكنفوشوسية ـ ضجة فى الصحافة المحلية ، ونشروا قائمة بأسماء أجمل ممثلات الاوبرا ، وأيدوا الممثلين الذين رأوهم رمزا للثقافة ، ولم يقف جد «جيا ـ خوى» ضد هذا الاتجاه بوصفه من الشخصيات المعروفة ، فقد نشرت له عدة دواوين من الشعر كما أنه يعد خبيرا فى الكتب والرسوم القديمة •

لم يستطيع « جيا ـ خوى » أن يتصور أن هناك توافقا ما بين الدفاع عن الثقافة وبين الدفاع عن الآداب الـكنفوشيوسية فى آن واحد •

لدى جد « جيا ـ خوى » محظية تدعى السيدة « تشين » اشتراها بعد وفاة زوجته ، وهذه المحظية سيدة ضخمة التـكوين تكثر من استعمال العطور ، وترسم على وجهها ابتسامة مفتعلة عندما تتحدث ، لم تكن تتمتع بأى قدر من الجاذبية ، وبرغم ذلك أحبها جده ، وقد عاشا معا قرابة عشر سنوات أنجبت له فيها ابنا مرض ومات بعد أن بلغ من العمر خمس سنوات ، وعندما يقارن « جيا ـ خوى » بين حاسة جده الفنية الرقيقة وتذوقه للكتب والرسم وبين حبه لهذه المرأة الخشنة الفظة لا يستطيع منع نفسه من الضحك •

تعجب « جيا ـ خوى » لهذا التناقض الذى فى طباع البشر، وكلما ازدادت حيرته قل فهمه لهذا الرجل العجوز ، وبدا جده سرا لايسبر غوره •

وفجأة فتح الرجل العجوز عينيه وحدق فى « جيا ـ خوى » بدهشة وكأنه لا يعرفه ، ثم أشار له بمغادرة الغرفة • ياللغرابة ! أيستدعيه جده ويجعله يقف طوال هذا الوقت كى يأمره بالخروج دون أن ينطق بكلمة واحدة ؟ وهم بسؤال جده ، لكنه تردد عندما لحظ غضب جده وهم بالانصراف ، وعندما اتجه الى الباب ناداه جده •

ـ عد ، فلدى ما أقوله لك ٠

امتثل للأمر وعاد الى حيث كان ٠

اعتدل الجد في جلسته ، وتحدث في صوت خفيض فيه الكثير من القسوة والجفاف :

ـ أين كنت ؟ لقد بحثنا جميعا عنك ٠

فوجيء « جيا ـ خوى » بهذا السؤال ، فلم يستطع بطبيعة الحال اخبار جده أنه كان فى اجتماع اتحاد الطلبة ، ولم تسعفه بديهته فى اختلاق اجابة لهذا السؤال فقد كانت عينا جده المتجهمتان مسلطتين عليه ، فشعر بالدماء تندفع الى خديه ، ولكنه تمكن أخيرا بعد جهد جهيد وتردد شديد من الوصول الى اجابة :

ـ كنت أزور بعض أصدقائى من التلاميذ ٠

ضحك الرجل العجوز فى برود ، وتفرست عيناه وجه حفيده وصاح :

ـ لاتكذب ، فأنا أعرف كل شيء عنك ، لقد أخبرنى الناس بكل ما تفعل ٠ تشاجر الطلبة والجنود فى الأيام الأخيرة واشتركت أنت فى ذلك ، انتهت الدراسة ، ولكنك تذهب كل يوم الى اتحاد الطلبة وأماكن من هذا القبيل ، قالت لى السيدة « تشين » : ان واحدا من حملة محفتى أخبرها بأنه رآك توزع منشورات فى الشارع ٠٠ ازداد طيشكم أيها الطلبة ٠٠ تقومون بتفتيش المتاجر بحثا عن البضائع اليابانية ، وتقبضون على التجار وتعرضونهم فى الشوارع ٠٠ أعمال خارجة على القانون ٠٠ ان الجنود محقون فى ضربهم اياكم ٠ لماذا تستفزونهم بسخافاتكم ؟ ٠٠٠ سمعت أن المسئولين يستعدون لاتخاذ اجراءات عنيفة ضد الطلبة ،

واذا واصلت القيـام بأعمال الشغب هـذه فانك ستدمر حياتك بلا شك !

كان الشيخ العجوز يتوقف ليسعل كلما انتهى من القاء عدة جمل ، وكلما هم « جيا ــ خوى » بالرد يستأنف حديثه فورا ٠٠ انتهى الجد من القاء محاضرته ، ثم أصابته نوبة سعال حادة ، وأسرعت السيدة « تشين » اليه من الغرفة المجاورة وربتت ظهره بخفة ، فهدأت نوبة السعال التى فاجأت الشيخ العجوز ، لـكنه ثار غاضبا عندما شاهد «جيا ــ خوى» مستمرا فى الوقوف أمامه ٠

ــ أنتم أيها الطلبة لاتتعلمون شيئا سوى اثارة المتاعب ، المدارس فى حال بشعة ٠ انها لاتقدم لنا سوى المشاغبين ٠ لم أكن موافقا أصلا على ذهابكم الى المدارس ٠ أفسدت المدارس العامة أخلاقـكم ، انظر الى عمك « كا ــ دنج » انه لم يذهب مطلقا الى المدرسة ، وتعلم فى المنزل على يد مدرس خاص ، وهو برغم ذلك يجيد قراءة الأعمال الكلاسيكية ، ويكتب أفضل منكم جميعا ٠

أجاب « جيا ــ خوى » فجأة وفى غيظ دفين :

ــ لم نكن سبب هذه المتاعب ، كنا منهمكين فى دراستنا ، وقمنا بهذه الحركة لمجرد الدفاع عن النفس ، لقد هاجمنا الجنود دون مبرر ، وتصدينا لهم أمر طبيعى ٠

ــ كيف تجرؤ على مناقشتى ٠٠ أنا أتكلم وأنت تسمع ٠ انى أمنعك من الخروج من الآن فصاعدا حتى لاتتشاجر مرة أخرى ٠٠ أيتها السيدة « تشين » ، استدعى أخاه الكبير ٠

اختلجت نبرات الشيخ العجوز وبدأ يسعل من جديد ، ثم شهق وجذب نفسا عميقا مرتعشا ٠ وقالت السيدة « تشين » وقد أسود وجهها العابس وبدا أكثر طولا :

ـ أيها الفتى الثالث ، انظر الى ما فعلت بجـدك ! كف عن مناقشته ودعه يستريح • صدم « جيا ـ خوى » لتدخلها الجائر ، لـكنه لم يشأ أن يرد الاهانة فى حضرة جده الذى دهمته نوبة السعال ، فحنى رأسه فى صمت وعض على شفتيه •

وتوقف الجد عن السعال ، وقال فى صوت أكثر هدوءا :

ـ استدعى أخاه ياسيدة « تشين » •

نفـذت السيدة « تشـين » الأمر وغادرت الغرفة تاركة « جيا ـ خوى » واقفا بمفرده أمام جده ، التزم الشيخ الـكبير الصمت ، وأخذت عيناه المظلمتان تجولان فى الغرفة بلا هدف، ثم عاد وأرخى جفنيه فصارتا نصف مغلقتين •

أخذ « جيا ـ خوى » ينظر الى جده فى عناد ، وتأمل جسمه النحيل الطويل • ودارت بخلده أفكار غريبة وبدا له أن الجالس على هذا المقعد ليس جده ، بل انسان يمثل جيلا بأكمله • أدرك « جيا ـ خوى » استحالة التفاهم بينه وبين جده ، فكلاهما يمثل جيلا مختلفا •• تساءل عن السر الخفى الـكامن فى هذا الجسم الطويل النحيل الذى يجعل أى حديث بينهما وكأنه جدال بـين خصمين لدودين وليس مجرد حديث بين جد وحفيده ••• ياله من أمر محزن كئيب ! وهز « جيا ـ خوى » رأسه فى تحد !

عادت السيدة « تشين » أخـيرا تحمل على وجههـا المثقل بالمساحيق ابتسامة مصطنعة ، فنظر « جيا ـ خوى » الى عظام خديها المرتفعة وشفتيها الرقيقتين وحاجبيها الأسودين المرسومين• كانت تفوح بالعطر ، ثم دخل بعدها « جيا ـ شن » وتبادل الشقيقان نظرات حزينة ، أدرك « جيا ـ شن » أن شقيقه فى مأزق حرج ، لكنه برغم ذلك اقترب من جده فى هدوء •

ومع اقتراب وقع خطواتهما فتح الشيخ العجوز عينيه وسأل السيدة « تشين » :

ـ أين السيد الثالث الـكبير ؟

ـ ذهب الى مكتبه القانونى ·

علق الشيخ العجوز فى ضيق :

ـ انه يهتم بقضايا الناس أكثر من اهتمامه بشئون أسرته ·

ثم وجه حديثه الى « جيا ـ شن » قائلا :

ـ اننى أعهد اليك بالفتى الثالث ، فضعه تحت رعاية يقظة وهو غـير مسموح له من الآن بمغادرة الدار ، وأحملك مسئولية ذلك ، وبالرغم من أن صوت الجد كان مازال يحمل طابعه الجاف ، فانه صار أكثر تلطفا ·

وعبر « جيا ـ شن » عن موافقته بكلمات مملوءة بالاحترام والتبجيل ، ثم رمق أخاه بنظرة تنصحه بألا يحاول المناقشة ، وبالتزام الصمت · وبدا وجه الفتى الصغير خاليا من أى تعبير ·

ـ حسنا ، خذه معك ، لقد صدع رأسى بما فيه الكفاية ·

نطق الشيخ العجوز هذه العبارة فى اهمال وفتور ، وبعد فترة قصيرة أغلق عينيه · وعبر « جيا ـ شن » عن امتثاله للأمر مرة أخرى ، ثم أشار الى أخيه وغادر الاثنان الغرفة ·

مر الشقيقان بالصالة الكبرى حتى وصلا الى الفناء ، وهناك جذب « جيا ـ خوى » نفسا عميقا وقال فى تهكم :

ـ أخيرا يمكننى الآن الشعور من جديد بأننى سيد نفسى ·

فرمقه « جيا ـ شن » بنظرة فاحصة ، ولكنه لم ينتبه لها وفجأة سأله « جيا ـ خوى » فى اهتمام :

ـ حسنا يا أخى الكبير ، ما رأيك فى هذا الأمر ؟

فرد « جيا ـ شن » ذراعيه فى استسلام وقال :

ـ ما الذى فى وسعنا عمله ؟ سننفذ أوامر جدنا · عليك أن تبقى فى المنزل بضعة أيام ·

وبدأ « جيا ـ خوى » يشعر بخطورة الأمر فصاح فى يأس :

ـ ان حركة الطلبة وصلت الى أعنف مراحلها · كيف يمكننى الاستكانة فى البيت فى وقت كهذا ؟

كان « جيا ـ شن » فى الفترة الأخيرة لايطيق أن يزعجه شىء مهما علا شأنه أو صغر فقال بلا اهتمام :

ـ هذا هو مايريده السيد الكبير ، وما باليد حيلة !

أطلق « جيا ـ خوى » العنان لكل الانفعالات الكامنة فى نفسه نتيجة لاساءات جده :

ـ انك تعود مرة أخرى الى سياسة عدم المقاومة ! لماذا لم تصبح مسيحيا وديعا لطيفا ، فعندما يصفعك أحد على خدك الأيسر تدير له خدك الأيمن ؟

أجابه « جيا ـ شن » فى ابتسامة وديعة :

ـ انك تنفعل ، لماذا تغضب منى ؟ وماجدوى هذا ؟

ضرب « جيا ـ خوى » الأرض بقدمه فى جنون وصاح :

ـ اننى أصر على الخروج ! سأغادر هذا المكان الآن ! وسنرى ماذا فى استطاعته أن يفعل ٠

قال « جيا ـ شن » فى نبرة كئيبة وكأنه يتحدث الى نفسه وليس الى أى انسان آخر :

ـ كل ما سيحدث هو أنى سأنال قدرا لا بأس به من اللوم والتأنيب ، علاوة على عدد لا بأس به من المحاضرات ٠

فنظر اليه أخـوه فى صمت ، واستمر « جيا ـ شن » فى حديثه :

ـ لنتحدث بصراحة ٠٠ اننى آمل أن تبقى فى البيت بضعة أيام ، ولا تغضب جدك ٠٠ انك ما زلت صغيرا ومندفعا ٠ عندما يتحدث اليك جدك فأصغ اليه واتركه يسترسل فى حديثه ٠ وبعد أن ينتهى ويهدأ قليلا قل له : نعم مرتين ، ثم انصرف ، وبعد ذلك يمكنك أن تنسى الأمر كله ٠ ولو سرت على هذا النهج فسوف تصبح المسائل أكثر سهولة ، أما النقاش معه فلن يؤدى الى نتيجة ٠

لم يجب « جيا ـ خوى » ، ورفع رأسه وأخذ ينظر الى السماء وبرغم أنه لم يقبل ما قاله أخوه فانه لم يشعربأية رغبة فى استمرار المناقشة ٠ وهناك شىء أثار تساؤله فى حديث أخيه « جيا ـ شن » متى يمكن اعتبار الجهد المبذول لعمل شىء ما جهدا ضائعا لاطائل من ورائه ؟ ٠٠ كيف يمكن عقله الغض تقدير هذه المسائل الدقيقة المتعلقة بالمكاسب والخسائر الشخصية المحتلة ؟

من الواضح ان أخاه الكبير لم يفهمه مطلقا ٠

تألم « جيا ـ خوى » وهو يرى السحب القاتمة تتراكم أمامه، مزقته رغبات متعارضة ، ووصل أخيرا الى قرار فقال لأخيه :

ـ لن أغادر الدار بضعة أيام لا اطاعة لجدى ، لكن لأجنبك المتاعب !

قال « جيا ـ شن » وقد اكتسى وجهه بابتسامة دلت على رضاه وارتياحه ٠

ـ شكرا لك ، وبطبيعة الحال فلن أعترض طريقك اذا رغبت في الخروج ، وأبقى أنا عادة في مكتبي طوال النهار ، وقد جئت اليوم مصادفة في وقت مبكر ، وأقحمت في هذه المسألة اقحاما ، وانصافا لجدنا فانني أؤكد لك أنه يريد بقاءك في المنزل لمصلحتك الشخصية ٠

أجاب « جيا ـ خوى » بطريقة آلية :

ـ أعلم ذلك ٠

وقف « جيا ـ خوى » وسط الفناء يرقب أخاه وهو يبتعد، ثم أخذ يحملق بلا هدف الى الورود التي في الأصص على جانبي الممر ، كانت هناك بضع زهرات ما زالت تتعلق بأغصانها فوق أشجار البرقوق ، وتسلل شذاها الرقيق الى أنفه ، كسر فرعا صغيرا وقسمه الى أجزاء ، ثم التقط زهراته وسحقها بين راحتيه ، وحولها الى عجينة لزجة فاصطبغت يداه بلون رحيقها الأصفر وتندتا بعطرها ٠

ارتاح « جيا ـ خوى » لتدميره هذا الغصن ٠٠٠ في يوم ما عندما تكبر يداه سيشعر بسعادة غامرة لو تمكن من سحق الأوامر البالية بين هاتين اليدين كما سحق هذه الزهرات ٠

الفصل العاشر

انك تستطيع تقييد جسم الانسان ، لكن قلبه يظل حـــرا طليقا . فبالرغم من عدم مغادرة « جيا ـ خوى » داره عدة أيام فان أفكاره عاشت مع زملائه فى المدرسة وباركت نضالهم ، وهذا ما لم يضعه جده فى الحسبان .

لقد حاول « جيا ـ خوى » معرفة المدى الذى وصلت اليـه حركة الطلبة ، فبحث فى الصحف المحلية عن أنباء جديدة ، ولسوء حظه لم يجد فيها ما يشفى غليله ، لكنه تمكن من الحصـــول على نشرة اسبوعية يصدرها اتحاد الطلبة ، تحتوى على أخبار مشـجعة وعدد من المقالات المثيرة .. وعلى مر الأيام خفت حدة التـــوتر ، ورضخ الحاكم ، وانتهى به الأمر الى ارسال أحد المسئولين لزيارة الطلبة المصابين فى أعمال الشغب ، وأصدر بيانين رقيقين ،وعلاوة على ذلك أمر سكرتيره بكتابة خطاب باسمه يعتذر فيه لاتحادالطلبة ويتعهد فيه بسلامة الطلبة فى المستقبل .

ثم نشرت الصحف المحلية بعد ذلك أمرا من قائد المعسكر يمنع الجنـود من الاحتكاك بالطلبة ، وزعم أن جنديين اعترفا بأنهما اشتركا فى معركة المسرح ، وأنهما عوقبا على ذلك عقابا صارما ، فقد شاهد « جيا ـ شن » بنفسه بلاغات المحافظ معلقة فىالشوارع وأخبر أخاه بذلك .

وعلى مر الأيام تزايدت الأنباء المشجعة ، فازداد ضـــيق « جيا ـ خوى » السجين فى بيته ، وأخذ يجول وحيدا فى غرفته ،

ثم بلغ منـــــه الضيق حدا جعله غير قادر حتى على القراءة ، فكان يستلقى فى فراشه ، وينظر بلا هدف الى سقف الغرفة ٠

ثم ينفجر من الغيظ ويظل يردد :

داری یا داری ٠٠ ما أحلاك !

كان « جيا ــ من » يستمع اليه ، ثم يبتسم ويلتزم الصمت، وفى احدى المرات غضب « جيا ــ خوى » وقال له :

ــ ماذا يضحكك ؟ أنت تخرج كل يوم طليقا كالطير ! ولكن انتظر ٠٠ سيأتى يوم رائع جميل تجد فيه نفسك مكانى ، وتنعم بما أستمتع به !

أجاب « جيا ــ من » فى سخرية :

ــ أنا لا أضحك سخرية منك ٠٠ وهل أصبح الضحك من المحرمات ؟

ــ لا ، لن تفعل هذا ٠٠ لا أسمح لك بالضحك ، ولن أسمح لأى انسان بذلك !

فأغلق « جيا ــ من » كتابه ، وغادر الغرفة فى هدوء متجنبا الدخول فى مناقشة ٠

فصاح « جيا ــ خوى » وهو يجول فى الغرفة :

ــ بيت ! بيت جميل ! ٠٠ انه مجرد قفص ضيق ٠ سأخرج، يجب أن أخرج وليكن ما يكون !

ثم اندفع خارجا من غرفته ٠٠ هبط « جيا ــ خوى » السـلم ووصل الى الفناء ، فلمح السيدة « تشين » والسيدة « شـــين » زوجة عمه « كا ــ دنج » تجلسان فى الشرفة خارج حجرة جده ،

فتردد ثم استدار حول جناح أخيه « جيا ــ شن » ودخل الحديقة الكبيرة ٠

مر « جيا ــ خوى » من بوابة القصر ووصل الى تل صناعى٠٠ سار فى ممر ضيق مرصوف يتفرع الى فرعين ٠ ثم سار شــمالا متجها الى منحدر ضيق يتعرج حتى ينتهى الى نفق ، فعبر النفق حتى وصل الى الجانب الآخر منه حيث يبدأ الممر فى الانحدار بشدة الى أسفل ثم بدأ يستنشق شذا عطر رقيق تسلل اليه من بعيد ، فسار تجاه مصدر هذا العطر الخلاب ، وأخذ يتحرك فى بطء بين الأغصان الكثيفة المتشابكة ، واكتشف فى أثناء سيره ممرا صغيرا يتجه الى الشمال ، فاتجه نحوه ٠٠ وفجأة ظهر أمامه بحــر من زهرات القرنفل وفى أسفل هذا البحر وفوق المنحدر كانت هناك شجرة برقوق انتشرت فوق أغصانها هالة من الأزهار المتفتحة ، فتقدم نحو تلك الشجرة ووطئت قدماه أوراق الزهور الملقاة على الأرض ، وأخذ يدفع بيديه الأفرع الحانية على الأرض ٠

لمح « جيا ــ خوى » لونا أزرق يتألق بين ظـلال أزهــار البرقوق ٠

اقترب منه فرأى شخصا يرتدى ثوبا أزرق يسير متجهــا نحوه فوق الجسر الحجرى المتعرج ٠٠ فتاة تتدلى على ظهرها ضفيرة طويلة ٠٠ انه يعرفها ٠٠ انها الجارية « منج ــ فونج » ٠

لم يناد « جيا ــ خوى » الفتاة ، واندفع الى أيكة فوق الجزيرة التى وسط البحيرة وقبع فى مكانه حتى تقترب منه ، وظل فى مكانه بضع دقائق دون أن يظهر لها أثر ، فتملكته الحيرة ، وأخيرا ظهرت وفى رفقتها فتاة أخرى ترتدى سترة قصيرة ، كان واقفـا خلف الفتاة الطويلة وهى تحادث « منج ــ فونج » ، لم يتمكن من

رؤية وجهها وكل ما رآه منها هو تلك الضفيرة الطويلة ، واقتربت الفتاتان من الجسر المتعرج المؤدى الى البحيرة فتمكن من رؤيتها .. انها الجارية « تشيار » التى تعمل لدى عمه « كا ـ آن » .

واقتربت الفتاتان من الشاطىء ، فأسرع بالاختباء وسط أشجار البرقوق وسمع « منج ـ فونج » وهى تقول بصوتها المتهدج .

ـ لا تنتظرينى وعودى أنت ، سأجمع بعض الأزهار للسيدة « تشو » .

ـ حسنا ، سيدتى « وانج » ثرثارة، واذا ما تأخرت فستبرطم وتدمدم عدة ساعات .

وعادت « تشيار » مارة بالطريق الذى جاء منه « جيا ـخوى » منذ لحظات .

ولما رأى « تشيار » تدلف الى أحد المنعطفات تقدم الى « منج ـ فونج » ، وكانت حين ذاك تقطع فرعا من شجرة ، فقال لها وقد أشرق وجهه بابتسامة عذبة :

ـ « منج ـ فونج » ! ماذا تفعلين ؟

كانت « منج ـ فونج » منهمكة فى عملها ، فلم تلحظه وهو يقترب .. فأجفلت عندما سمعت صوتا يناديها ، واستدارت نحو مصدر الصوت ، فلما رأته رقصت على شفتيها ابتسامة اطمئنان وفرح :

ـ لم يخطر ببالى أن من ينادينى هو أنت ٠٠ أنت ٠٠ سيدى الفتى الثالث ٠

ثم استأنفت قطع الأفرع ٠

ـ من طلب منك جمع الزهور فى هذه الساعة ؟ ألا تعلمين أن الفجر هو أنسب الأوقات لذلك ؟

ـ طلبت منى السيدة « تشوو » جمع بعض الزهور ليأخذها الفتى الثانى للسيدة « تشانج » ٠

ومدت « منج ـ فونج » يدها الى فرع ملىء بالزهور ، لكنها لم تتمكن من الوصول اليه برغم وقوفها على أطراف أصابعها ٠

فقال « جيا ـ خوى » وقد ارتسمت الجدية على ملامحه :

ـ سأحضره لك ، أنت ما زلت قصيرة ، وقد يمكنك الوصول الى الفرع بعد عام أو ما يقرب من ذلك ٠

ـ حسنا اقطعه لى ولا تخبر السيدة بذلك ، ثم ابتعدت قليلا لتخلى له المكان ٠

ـ لماذا تخافين السيدة « تشوو » ؟ انها ليست شريرة الى هذا الحد ٠ هل آذتك فى الأيام الأخيرة ؟

أخذ « جيا ـ خوى » فى أثناء حديثه يهز الفرع بشدة حتى كسره وقدمه الى « منج ـ فونج » فتقبلته شاكرة ، وأجابت فى صوت خفيض :

ـ لا ، انها لا تهمنى كثيرا ، لكننى أخاف دائما الوقوع فى خطأ ما دون قصد ٠

وقال دون أن يقصد الى السخرية من « منج ـ فونج »

– يقولون : ... من كان يوما عبدا ، ظل دوما عبدا .

فدفنت الفتاة وجهها وسط الزهور التى جمعتها فى يديها .. قال « جيا – خوى » فى فرح .

– انظرى .. هناك زهرات رائعة !

رفعت « منج – فونج » رأسها وابتسمت :

– أين ؟

– ألا ترينها ؟ هناك ...

أشار الى غصن قريب ، فتلمست عيناها الطريق على هدى يده :

– حقا ! انها زهرات رائعة ، لكنها عالية .

تأمل « جيا – خوى » الشجرة بعينيه :

– عالية ؟ سأتدبر الأمر ...

وبدأ فى خلع معطفه المبطن .. قالت « منج – فونج » .

– لا ، لا تفعل .. قد تسقط وتصاب بأذى .

– لا تخافى .

علق معطفه على فرع شجرة ، وكان يرتدى تحته ثوبا أخضر مبطنا .

ثم قال « لمنج – فونج » وهو يتسلق الشجرة :

– ابقى حيث أنت وأمسكى الشجرة بقوة .

وضع « جيا ـ خوى » قدميه على فرعين متينين ، ومد يده الى الغصن الملئ بالزهور ، فلم يتمكن من الوصول اليه ٠٠ وهزت محاولته الشجرة ، فأمطرت وريقات من الزهور تهادت الى الارض تحت قدمى « منج ـ فونج » ٠

صاحت « منج ـ فونج » :

ـ احترس ! احترس يا سيدى ٠

ـ لا تخافى !

ثم انتقل فى حرص الى موقع آخر مكنه من الامساك بالفرع المشاكس ، وهزه عدة مرات حتى كسره ، ثم نظر الى أسفل فوقعت عيناه على وجه الفتاة المتطلع اليه ٠

ـ « منج ـ فونج » ، أمسكى بالفرع ٠

ثم قذف به اليها فتناولته ، ثم نزل من فوق الشجرة فى بطء قالت « منج ـ فونج » فى سعادة :

ـ كفى ، حصلت الآن على ثلاثة ٠٠ هذا كثير ٠٠٠

ضحك « جيا ـ خوى »وهويرتدىمعطفه وقال :

ـ أصبت ٠٠ والا عجز الفتى الثانى عن حملها ٠٠ هل رأيته هنا ؟

ـ انه يستذكر الى جوار بحيرة السمك ٠ سمعت صـــوته هناك ٠

كانت « منج ـ فونج » تتحدث اليه وهى ترتب الزهـور ، لكنها لحظت أنه وضع معطفه على كتفه فقالت له :

ـ لا تفعل هذا ٠٠ البسه والا أصبت بالبرد ٠

فأخذ « جيا ـ خوى » يدخل ذراعيه فى أكمام معطفه ، وفيما هو مشغول بذلك ابتعدت عنه الفتاة وسارت فى الممر ، فناداها :

ـ «منج ـ فونج » !

فوقفت الفتاة واستدارت نحوه وابتسمت متسائلة :

ـ ماذا تريد ؟

فوقف « جيا ـ خوى » فى مكانه دون حراك ،وابتسم لها فى ود دون أن ينطق بكلمة ٠٠ وأشاحت « منج ـ فونج » بوجهها مبتعدة عنه واستأنفت سيرها٠

أسرع « جيا ـ خوى » خلفها ، وهتف باسمها ، فتوقفت مرة أخرى والتفتت نحوه :

ـ نعم !

ـ تعالى ٠

تقدمت نحوه ٠٠ فسألها وهو يضاحكها ، ويعبث بأحد الأغصان ٠

ـ بدأت تخافيننى فى الأيام الأخيرة ، انك لا تريدين حتى مجرد الحديث معى ٠

ماذا حدث ؟

أجابته « منج ـ فونج » وهى تضحك من أعماقها :

ـ من يخافك ؟ اننى مشغولة من الصباح حتى المساء ، وكل ما فى الأمر أنه لا وقت عندى للكلام ٠

ثم استدارت وسارت فى طريقها ٠

ـ انك تخافيننى فعلا ٠٠ واذا كنت مشغولة الى هذا الحد فمن أين أتيت بالوقت لتلعبى مع « تشـــيانر » ؟ شاهدتكما الآن فى سلاملك الجزيرة ٠

أجابت « منج ـ فونج » فى جفاء :

ـ بأى حق نتسامر أنا وأنت ؟ أنت السيد الصغير ، وأنا مجرد جارية ٠

قاطعها « جيا ـ خوى » فى حماس :

ـ لقد تعودنا اللعب معا منذ الصغر ، لماذا تغيرت الآن ؟

تفرست الفتاة فى وجهه بعينيها المتألقتين ، ثم حنت رأسهـا وأجابته بصوت خفيض :

ـ لقد كبرنا ٠

ـ وما الفرق ؟ ان قلوبنا نقية طاهرة ، ولم يتسرب اليهـــا الشر ٠

ـ سيتكلم الناس اذا شاهدونا دائما معا ، هناك فضوليون كثيرون ، وهذا لن يسىء الى فى شىء ٠ أما أنت فعليك الحرص على سمعتك ٠ يجب أن تحافظ على شخصيتك كواحد من السادة ٠الكلام لن يضرنى فى شىء ، كتب على أن أكون جارية حقيرة رخيصة ! ٠٠٠ هذا قدرى ٠٠٠

كانت « منج ـ فونج » تتحدث فى هدوء ، لكن يشوبصوتها رنة أسى ٠

ــ لاتذهبى ، سنجد مكانا نجلس فيه ، ونتحـــــدث فى كل الأمور ، هاتى الزهور •

انتزع « جيا ــ خوى » الأفرع من يدها دون أن ينتظر اجابتها وشد عليها فى عصبية ، فانكسر بعضها ، وألقى بها بعيدا •

سار « جيا ــ خوى » على ممر صغير محصور بين حانة البحيرة وحديقة أشجار البرقوق •• فتبعته « منج ــ فونج » فى صـــمـت ، وكان فى أثناء سيره يداعبها ببعض الاسئلة ، فتجيبه فى اختصار بكلمة أو ابتسامة •

تركا الحديقة ومرا بمشتل للورد ، ثم اجتازا بوابة صغيرة وكان أمامهما على بعد خطوات نفق قصير مستقيم معتم ، وكان خرير مياه النبع يتردد فى وضوح وهدوء داخل النفق ، وفى الجـــانب الآخر من النفق أخذ الممر يرتفع الى أعلى • صعدا معا حوالى اثنتى عشرة سلمة حجرية ، وسارا فى بعض المنحنيات والمنعطفات حتى وصلا الى قمة ربوة عالية •

فى وسط تلك الربوة المكسوة بالحصى وضعت منضدة صـغيرة من الحجر وحولها أربعـة مقاعد حجرية ، وعلى سـطح الربوة نمت احدى شجرات السرو ، وقد امتدت أفرعها فصارت كخميلة تظلل من يلجأ اليها وتستره •

ساد المكان صمت هادىء وان تخللته همسات وضحكات مياه جداول خفية ، تتدفق حيث تشاء تحت الصخور •

قال « جيا ــ خوى » :

ــ ما أروع هذا السكون !

وضع « جيا ــ خوى » الزهور على المنضدة ، وجلس على أحـد

المقاعد بعد ازالة التراب من فوقه ، وجلست « منج ـ فونج » فى مواجهته ·· اعترضت نظراتها مجموعات الزهور الملقاة على المائدة وفرقت بينها ، ضحك « جيا ـ خوى » ، وقام بنقل الأفرع الى المقعد الذى على يمينه ، ثم قال « لمنج ـ فونج » وهو يشير الى المقعد الذى على يساره :

ـ اجلسى هنا · أتخشين الاقتراب منى ؟

وفى صمت انتقلت الى حيث أراد ·· والتقيا وجها لوجه ، وتركا عيونهما تتحدث عنهما ، فقالت العيون ما يعجز عنه اللسان ·· ثم وقفت « منج ـ فونج » :

ـ يجب أن أذهب ، لا أستطيع البقاء فى الحديقة ، ستؤنبنى السيدة اذا علمت بذلك ·

فأمسك « جيا ـ خوى » بيدها ، وأعادها الى مقعدها ·

ـ لا تهتمى بذلك ، لن تقول أى شىء ، لا تذهبى ، لقد أتينا الى هنا منذ لحظات قليلة ، ولم نتبادل كلمة واحدة ·· لا أود فراقك ·

ارتعش جسد الفتاة من لمسة يده ·· واستسلمت لمشيئته · تظاهر « جيا ـ خوى » بالضيق وحاول اثارتها :

ـ لماذا لا تتكلمين ؟ ان أحدا لن يسمعنا ، ألم تعودى تحبينني ؟

لزمت الفتاة الصمت وكأنها لم تسمع شيئا مما قاله ـ قال « جيا ـ خوى » بتكاسل وقد تصنع عدم المبالاة :

ـ أنت تعبت من العمل عندنا ، سأخبر السيدة أنك كبرت لتخلى سبيلك ·

شحب لون « منج ـ فونج » ، واسودت الدنيا فى عينيها ، لكن شفتيها المرتعشتين لم تنطقا بكلمة واحدة ، تحجرت عيناها كقطعة من الزجاج ، وارتعش جفناها .

ـ أتعنى ما تقول ؟

ثم انهمرت الدموع على خديها ..

أدرك « جيا ـ خوى » أن مداعبته اياها قد جاوزت الحد ، انه لم يرغب فى جرح مشاعرها ، وانما قصد بحديثه اختبارها واثارة عواطفها نحوه ، ولم يخطر بباله أن كلماته ستؤلمها الى هذا الحد ، لكنه كان راضيا برغم أسفه وألمه عن النتائج التى أدت اليهـــا محاولته ، فضحك وقال لها :

ـ اننى أمزح معك ، وهل تصدقين أننى أريد ابعادك حقا ؟

كانت ضحكة مفتعلة ، فقــــد تأثر الى حد بعيد لانفعالهـــا وحزنها .

ـ من يعلم ؟ أتريد أو لا تريد ؟ أنتم أيها السادة متقلبـــون كالرياح !

وعندما تغضبون لا يمكن أى انسان التكهن بما ستفعلون !

ثم بكت قائلة :

ـ اننى أعلم هذا جيدا .وعاجلا أو آجلا سأذهب الى حيث ذهبت « شيار » .

لكن لم الاسراع فى هذا ؟

سألها « جيا ـ خوى » بلطف :

ـ ماذا تعنين ؟

ـ أعنى ما قلته ! ...

واستمرت فى بكائها

قال فى حماس :

ـ اننى أداعبك فقط .. لن أدع شيئا من هذا يحدث لك أبدا ...

ثم أخذ يدها ووضعها على ركبته وربتها فى هدوء .. رفعت « منج ـ فونج » وجهها المبلل بالدموع وسألته :

ـ لنفرض أن السيدة « تشوو » أرادت ذلك ؟

نظر « جيا ـ خوى » الى عينيها دون أن يجيبها بشىء ثم قال بعزم واصرار :

ـ سأتدبر الامر ، سأجعلها ترضخ لمطالبى ، سأقول لها : اننى أريد الزواج من ...

وضعت «منج ـ فونج» يدها على فمه ، ومنعته من الاسترسال، كان مخلصا فيما يقول برغم أنه لم يتدبر المسألة جيدا .

ـ لا ، لا .. لا تفعل هذا ، لن توافق السيدة « تشوو » ، سيؤدى هذا الى ضياع كل شىء ، يجب ألا تفاتحها فى هذا الامر ، ان مصيرى ليس ...

نحى « جيا ـ خوى » يدها من على فمه وقال لها :

ـ لا تخافى الى هذا الحد ، وجهك مبلل بالدموع . دعينى ! .

ومسح وجهها فى حرص بمنديله٠٠ لم تجفل منه هذه المرة ، وبعد أن أزال آثار الدموع ضحك فى مرارة وقال لها :

ـ النساء يبكين هكذا دائما بسرعة !

ابتسمت « منج ـ فونج » فى حزن وقالت فى تأن :

ـ لن أبكى بعد اليوم ، لقد ذرفت الكثير من الدموع وأنا أخدم أسرتك ، أما هنا وأنا معك ٠٠ فلا دموع ٠٠٠٠

قال لها مطمئنا وهو يربت يدها :

ـ ما زلنا صغارا ٠٠ فى المستقبل ستعتدل الأمور ٠ سأفاتح السيدة « تشوو » فى الوقت المناسب ، وسنجد حلا لذلك ٠٠ وأنا أعنى ما أقوله لك الآن ٠

أجابت فى تأثر :

ـ أعرف طيبة قلبك ٠

هدأت نفس « منج ـ فونج » ، واستمرت فى حديثها وهى شاردة الذهن :

ـ حلمت بك كثيرا فى أيامى الأخيرة ٠٠ كنت أحلم بقطيع من الوحوش الضارية يطاردنى وأنا أمامها أجرى أجرى وسط الجبال ، وعندما توشك أن تلحق بى يظهر انسان من أسفل المنحدر ويبعدها عنى ٠٠ هذا الانسان هو أنت ٠٠ أنت منقذى فأنا دائما أفكر فيك على أنك مخلصى وفى يديك نجاتى ٠

هزت كلمات الفتاة مشاعر « جيا ـ خوى » فى عنف ، فاهتزت نبرات صوته :

ـ لم أكن أعلم أنك تثقين بي الى هذا الحد • لقد أهملتك ولم أعطك ما تستحقين من رعاية • ألست غضبى منى ؟

هزت الفتاة رأسها وابتسمت :

ـ كيف يمكنني ذلك ؟ أحببت في حيـــاتي ثلاثة •• أمي ، والثانية الأخت الكبيرة التي علمتني الكتابة والقراءة وساعدتني على فهم أشياء كثيرة •• ماتت الاثنتان ولم يبق لي سوى انســـــان واحد •••

ـ « منج ـ فونج » ! عندما أفكر فيك أخجل من نفسي •• انني أعيش في راحة على حين تقضـين أنت أوقاتا عصـبية فحتى أختي الصغيرة تهينك !

ـ تعودت هـذا بعد سبع سنين ، وأصبح الأمر محتملا أكثر منه في الأيام الماضية ولم أعد أهتم بذلك كثيرا •• ان رؤيتك والتفكير فيك يجعلانني أحتمل كل شيء • وكثيرا ما أردد اسمك في وحدتي فأنا لا أستطيع أن أهتف به أمام أي انسان آخر •

قال « جيا ـ خوي » في أسى :

ـ « منج ـ فونج » انك تقاسين الكثير : فتاة جميلة في مثل سنك ، كان من الواجب أن تكون الآن في مدرسة • أراهن على أنك ستكونين أروع من « تشن » •• ليتك ولدت في أسرة غنية ، أو حتى في أسرة مثل أسرة « تشن » !

ـ لم أتمن ذلك يوما في حياتي ، ولا أتطلع الى أن أكون كذلك يوما ما • لست من المحظوظات • كل ما أريد هو أن أبقى بينكم ما حييت جارية لكم ••• أنت لا تعلم كم أسعد برؤيتك ! قربك مني راحة قلبي وقرة عيني •• أنت لا تعلم مدى ما أشعر به نحوك من

احترام وتقدير ٠٠ لكنك أحيانا تبدو لى كالقمر فى السماء وأنا عاجزة عن الوصول اليك !

ارتجف « جيا ـ خوى » وتدفقت الدموع من عينيه :

ـ لا تقولى ذلك ؛ لست سوى انسان عادى مثل أى فرد آخر

أمسكت « منج ـ فونج » يده فجأة وهمست :

ـ اسكت ! اسمع ! هناك شخص ما ٠

أرهف الاثنان السمع ، فوصل اليهما صوت ضعيف امتزج بخرير مياه النبع ، فلم يستطيعا تمييزه بوضوح ، وأخيرا تبينا أنه صدى غناء « جيا ـ من » ٠

نهض « جيا ـ خوى » وسار الى حافة الربوة ، فشـــاهد شخصا يرتدى ثوبا رماديا يتحرك وسط الظلال الوردية لأزهـار البرقوق ٠ استدار الى « منج ـ فونج » وقال :

ـ انه الفتى الثانى ٠

نهضت « منج ـ فونج » مسرعة وقالت :

ـ يجب أن أعود ، تأخرت كثيرا ٠٠ اقترب موعد العشاء ٠

ناولها « جيا ـ خوى » أزهار البرقوق :

ـ اذا سألتك السيدة « تشوو » عن سبب تأخيرك فاعتذرى لها بأى شىء ٠

قولى لها : اننى طلبت منك عمل أى شىء ٠

فابتسمت « منج ـ فونج »

ـ حسنا ، سأعود أولا حتى لا يشاهدونا معا ٠

ثم بدأت فى النزول على المنحدر ٠

سار « جيا ـ خوى » معها بضع خطوات ، ثم وقف وتبعها بعينه وهى تهبط فى بطء على السلم الحجرى الى أن اختفت ٠

سار « جيا ـ خوى » على قمة الربوة وهو يفكر فى « منج ـ فونج » بكل جوارحه :

ـ ٠٠٠ انها طاهرة نقية ٠٠ انها طيبة ٠

ثم اتجه الى المنضدة الصغيرة وجلس فى مواجهة المكان الذى كانت تجلس فيه « منج ـ فونج » ٠٠٠ واستند الى مرفقيه وألقى برأسه بين كتفيه ، ونظر الى الفضاء وهمس ٠٠ أنت نقية ٠٠ أنت طاهرة ٠٠٠

مرت لحظات وفجأة نهض وكأنه أفاق من حلم ، نظر فيما حوله ، ثم أسرع بالنزول على الممر ٠

• • • • • • • •

كان ضوء القمر ساحرا فى تلك الامسية ، لم يطرق النوم جفن « جيا ـ خوى » ، وأخذ يجول فى الفناء حتى الواحدة صباحا ٠

ـ أخى الثالث ، لماذا لم تنم حتى الآن ؟ الجو بارد هنا ٠

كان « جيا ـ من » يتحدث الى أخيه وهو واقف على السلم ، وأجابه » جيا ـ خوى » ٠٠ بلا اكتراث :

ـ النوم وفى السماء قمر جميل كهذا ضياع لحياة الانسان ٠

نزل « جيا ـ من » من فوق السلم ، وذهب الى الفناء ، فارتعش جسده ٠٠٠ الجو بارد ٠٠ ثم رفع رأسه ونظر الى القمر ٠

وفى تلك الليلة خلت السماء من السحب ، وتهادى القمر فى تواضع جميلا وحيدا فى الفضاء اللانهائى ، وأخذت أشعته تهدهد

الوجود كله فى هجوعه وغفوته ، ثم سترت الأرض بردائها الفضي على حين أن الليل يكسوه السكون الوديع ·

تنهد « جيا ـ من » :

ـ رائع ، نموذج رائع لضوء القمر الساحر ·

ثم أخذ يجول فى الفناء مع أخيه ، فى حين التزم الفتى الصغير الصمت · لم يستطع « جيا ـ من » السيطرة على نفسه والامتناع عن الحديث ، فقال وقد علت وجهه ابتسامة :

ـ « تشن » فتاة ذكية وشجاعة ·· وجميلة ·

لم ينطق « جيا ـ خوى » بكلمة ، ففكره مشغول بفتاةأخرى سار خلف أخيه فى بطء ، وفجأة أمسكه « جيا ـ من » من ذراعه وسأله :

ـ هل تحبها ؟ هل أنت مغرم بها ؟

أجابه « جيا ـ من » بطريقة آلية :

ـ طبعا ·· لكنه استدرك قائلا على الفور :

ـ عمن نتحدث ؟ الأخت « تشن » ؟ اننى لا أعرف حقا ·· لكن أعتقد أنك تحبها ·

ظل « جيا ـ من » ممسكا بذراعه ·

ـ نعم أحبها ، وأعتقد أنها تبادلنى نفس الحب وان كنت لم أفاتحها فى شيء ·

أنا حائر لا أدرى ماذا أفعل ·· ؟ وماذا عنك ؟

أدرك « جيا ـ خوى » من نبرات صوته ومن ارتعاش أصابعه الممسكة بذراعه مدى اضطراب أخيه وانفعاله دون النظر الى وجهه فربت ذراع « جيا ـ من » وابتسم قائلا :

ـ اذهب اليها ، أنا لا أنافسك فى حبها ، وأتمنى لك النجاح اننى أعتبر « تشن » أختى الكبيرة ·

التزم « جيا ـ من » الصمت ، وأخذ يتطلع الى القمر زمنا طويلا ، وأخيرا قال لأخيه بعد أن هدأت نفسه :

ـ أنت أخ طيب كريم ، أخطأت فى حقك وتألمت لذلك ، اننى لا أدرى سببا لغيرتى العنيفة فى الأيام الأخيرة · فحتى عندما أرى « جيان ـ ين » و « تشن » يتحدثان معا أتألم لذلك كثيرا · هل تظن أن هذا سخف منى ؟ هل تسخر منى ؟

أجابه « جيا ـ خوى » فى ود :

ـ لا ، اننى لا أسخر منك ، بل أقدر مشاعرك ، فلا تقلق وأعتقد أن « جيان ـ ين » لا ينافسك فى حبك ·· اســـتمع ، ما هذا ؟

فقد ترامى الى سمعهما صوت كأنه أنات بكاء هادىء عميق مؤثر حمل ضوء القمر معه ، هذا الصوت الباكى الحزين وســط الليل الساكن لم يكن صوت انسان ولا صرخة طير ولا أنين حشرة ، لذا تردد الصوت سهلا واضحا ، وأخذت نغمـــاته ترتفع بأنات صادقة مؤثرة نابعة من الروح ، ثم عاد هذا الصـــوت يخفت فى بطء حتى صار من الصعب سماعه وكأنه خفق الهمسات ، لكن هذا الصوت ترك بصماته على السكون ، فقد ملأ الكون بالحزن والأسى

تساءل « جيا ـ خوى » مرة أخرى :

ـ ما هذا ؟

ـ الأخ الكبير يعزف على ناى من الغاب ، لقد دأب منذ ليال على العزف فى ساعة متأخرة من الليل ·

ـ ماذا ألم به ؟ لقد تغيرت أحوانه • ما أقسى نواح هذا الناى !

ـ لا علم لى بهذا ! وان كنت أرجع هذا الى سماعه بعـــودة ابنة العم « مى » الى « تشينج ـ تو » ، أظن ذلك ! فقد دأب على عزف هذه الأنغام الحزينة فى ساعة متأخرة من الليل ••• يحتمل أنه ما زال يحبها • لقد جافانى النوم فى الليالى القليلة الماضية، ودأبت على سماع نايه الحزين ••• انه يحذرنى ويهددنى ••• ان موقفى مع « تشن » الآن يشبه تماما مأساته مع « مى » • عنـدما أستمع الى صدى الناى أخشى لقاء نفس المصـــير ، ولا أقوى على مجرد تخيل مثل هذا الأمر • سأعجز عن احتمال الحياة لو حدث لى هذا ، لست مثله •• وبدأ صوت « جيا ـ من » يرتجف ، وفاضت الدموع من عينيه •• فواساه « جيا ـ خوى » قائلا :

ـ لا تخف ، لن تلاقى نفس المصير • تغير الزمن •

ثم تطلع الى القمر وهو يشق دياجير الظلام باشراقه اللانهائى واندفعت فى عروقه قوة خارقة عندمـــا فكر فى « منج ـ فونج » ، ثم هتف قائلا :

ـ أنت نقية طاهرة مثل القمر !

الفصل الحادى عشر

هدأت العاصفة التى أثارها اشتباك الجنود بالطلبة ، وعاد الطلبة القادمون من خارج المدينة الى بيوتهم لقضاء اجازة العام الجديد ، أما الطلبة المقيمون بالمدينة فقد عكف معظمهم على الاستعداد للامتحان ٠

وبذلك انتهى اضراب الطلبة وصفى المسئولون عن المدارس أعمالهم استعدادا للاحتفال بالعام الجديد ، وحقق الطلبة فى الواقع انتصارا شكليا على أقل تقدير ٠

دأب « جيا – من » فى خلال هذه الفترة على التردد على منزل عمته كل مساء ليعلم « تشن » الانجليزية ، وعكف « جيا – خوى » فى منزله على قراءة الصحف التى كانت تفيض بأنباء لا تثير اهتمامه ، فقد تضاءل اهتمامها بتغطية أنباء اضراب الطلبة حتى لم تعد تذكر عنه شيئا ، فكف « جيا – خوى » عن قراءتها ، وكثيرا ما اجتاحته نوبات غضب يصيح بعدها :

– هل تسمون هذه حياة ؟ سجين فى قفص ضيق !

بلغ به الغضب حدا جعله يرفض مقابلة أى فرد من أفراد عائلته ، وزاد من ألمه احساسه بأن « منج – فونج » تتحاشى لقاءه ، فنادرا ما تتاح له فرصة الحديث اليها على انفراد ٠

وواظب « جيا – خوى » كالمعتاد على الذهاب الى جده فى الصباح والمساء ليقدم تحيته الرسمية ٠٠ لم يستطع منع نفسه

من تأمل وجه الشيخ العجوز المظلم المرهق ووجه السيدة « تشين » المثقل بالمساحيق ، وعلاوة على ذلك كثيرا ما كان يصدم بوجوه جامدة غامضة ، فيأكل الغيظ قلبه ، ويكاد ينفجر من شدة الغضب .

انتظر ... ستحين الساعة !

ماذا سيفعل عندما تحين الساعة ؟ انه لا يعرف ! وكل ما يعرفه هو أن كل شيء سيهدم .. سيدمر كل ما يكره .

أمسك بمجلتي « الشباب الجديد » و « التيار الجديد » ، وقرأ مقالة تحت عنوان « انطباعات حول العائلات المحافظة » تضمنت هجوما عنيفا على تلك العائلات ، فطار فرحا بها وكأنه حقق انتقامه

لكن سرعان ما تبدد سروره ، فبعد القائه المجلة وخروجه من غرفته اصطدم حينئذ وكل ما تكرهه نفسه .. فعاد الى غرفته وحيدا مهموما .. وعلى هذه الوتيرة مرت به الأيام .

بالرغم من اشتراك « جيا ــ خوى » و « جيا ــ من » فى نفس الغرفة فان الأخ الثانى كان فى شغل بشئونه الخاصة ، وعندما يكون بالمنزل فانه يقضى معظم وقته فى الحديقة ، انه مشغول البال بمساعدة « تشن » فى دروسها ، ولم يشأ « جيا ــ خوى » ازعاجه

ثم ظل يردد فى فترات وحدته القاسية :

ــ يا له من مكان موحش كئيب !

امتنع « جيا ــ خوى » عن قراءة المجلات عدة أيام ، وفقد اهتمامه بها . فقراءتها تزيد من شعوره بالوحدة ، وأخذ يقلب فى تكاسل صفحات يومياته ، وكان قد أهملها منذ زمن بعيد ، ثم أمسك بقلمه وبدأ يكتب :

في هذا الصباح ذهبت لأحيي جدى ٠٠ وجدته في المكتبة يتحدث الى عمى « كا ـ آن » ، ويطلب منه أن ينقل على ورقتين تحية عيد ميلاد حررها العم « كا ـ دنج »لارسالها الى الشيخ العجوز « منج ـ لى ـ شان » بمناسبة احتفاله بعيد ميلاده الستين ٠ وبعد خروج العم « كا ـ آن » وقد ارتسمت على وجهه المكدود المكفهر ابتسامة واهية ـ أعطانى جدى كتابا وقال لى ٠٠ اقرأه بدقة ٠٠ خوافقته ٠ وفى أثناء خروجى رأيت السيدة « تشين » فى الغرفة المجاورة وهى تصفف شعرها ٠٠ فأسرعت بالخروج ٠ وأنا أشعر دائما بالسعادة لحظة خروجى من غرفة جدى ، ولا أدرى سببا لذلك ٠٠ لعلها تذكرنى بغرفة قاضى التحقيقات ٠

وبمجرد النظر فى عنوان الكتاب الذى أعطانيه شعرت بصداع غموضـوعه « طاعة الأبنـاء وتجنب الفساد » ٠ قذفت بالكتاب على المنضدة ، وخرجت لأجول فى الحديقة ٠

رأيت زوجة شقيقى فى حديقة الزهور تجمع بعضا منها مع ابنها الصغير « خاى ـ أر »الذى لم يتجاوز الرابعة ٠ شعرت بانتعاش عندما رأيت وجهها الناضج وعينيها الجميلتين الواسـعتين الممتلئتين بالحنان ، قلت لها :

ـ لقد خرجت فى وقت مبكر يا زوجة أخى هذا الصباح ، اذا كنت تريدين زهورا فلماذا لم تطلبى من « منج ـ فونج » جمعهـا لك ؟

قطعت « روا » فرعا آخر ، وابتسمت قائلة :

ـ ان أخاك الكبير يحب زهور البرقوق ، ألم تشاهد غرفته ؟ ان لديه زهريات مملوءة بها ٠٠ انا أفضل جمعها بنفسى بدلا من تكليف « منج ـ فونج » بذلك ، أخشى أن تختار زهورا لا يحبها ٠

وطلبت زوجة أخي من « خاي ـ أر » أن يحييني ويتمنى لى يوما طيبا ، و « خاي ـ أر » طفل شديد الذكاء مطيع يحظى بحبنا جميعا ·· خطرت ببالى فكرة فقلت :

ـ ان أخي الكبير كان مولعا دائما بزهور البرقوق ·

أجابت فى استحياء :

ـ لقد رسمت زهرة البرقوق ، وزينت بها الاطـــار الداخلى لستائر السرير ، يجب أن تأتى وتراه ···

وابتسمت فى فخر ، فظهرت غمازتا خديها وامتلأ صوتها بالدفء وهى تتحدث عن الأخ الكبير ، وأنا أعلم أنها تحبه كثيرا ·· ساورنى القلق نحوهما ، فلو علمت سبب حبه الشديد لزهـــور البرقوق وما ترمز اليه لتألمت كثيرا ·

ـ أخى الثالث ، انك تبدو تعسا · اعـــلم أن الأيام القليلة الماضية كانت قاسية بالنسبة لك · لقد حبسوك فى المنزل ولم يسمحوا لك بالخروج ، لقد انتهت ثورة غضب جدك الآن ، وستكون حرا طليقا بعد يوم أو يومين ، لا تهول الأمر على نفسك ، ان كثرة التفكير تمرضك ·

انها تواسينى على حين أنى مشغول بالتفكير فى مأساتها ·· انك لا تعلمين أن الأخ الكبير الذى تحبينه الى هذا الحد مغرم بامرأة أخرى ، امرأة اسمها زهرة البرقوق ! ·· لكن وجههـــا الهادىء العطوف حال بينى وبين اخبارها بالحقيقة ·

أمسكت زوجة أخي بيد « خاي ـ أر » ، وابتسمت لى قائلة :

ـ يجب أن أعود لأسلق البيض لأخيك الكبير · تعال الينا بعد قليل لنلعب الشطرنج معا ، فأنا أعلم أنك سئمت الاقامة الدائمة بالبيت ·

انحنيت لها وراقبتها وهى تبتعد ، شعرت بحب جارف لها ، لكن هذا لا يضير أخى الكبير ؛ فقد أحببتها كأختى الكبيرة ، وكنت بطبيعة الحال أتحرج من الافضاء الى أى انسان بذلك ، حتى « جيا ـ من » الذى أثق فيه ثقة تامة ٠

« جيا ـ من » يحب « تشن » بعنف ، لقد أخبرنى بذلك ، وعلمت مما قال لى أنه لم يبح لهابمشاعره نحوها ، لقد أصبح غريب الأطوار فى الأيام الأخيرة ٠ فلم أتحدث اليه بشىء ٠ كان يذهب الى دار « تشن » فى الصباح الباكر ولا يعود للبيت حتى لتناول الطعام ، خشية أن يلحظ مروجو الاشاعات ذلك فيتحدثون عنه آجلا أو عاجلا ٠٠٠

هو لا يتحدث الآن الا عن « تشن » ، ويترك عندك احساسا بأنها ملكه وحده ٠٠٠ حسنا ، لا دخل لى فى هذا ٠ انه لم يهتم اطلاقا باضراب الطلبة ٠ « فتشن » تملأ عالمه كله ، وهو سعيد بذلك ٠٠ أخشى أن ينتهى حبه الى كارثة ٠ ولكن أتمنى ألا يحدث ذلك ٠

سرت فى حديقة الزهور فترة طويلة ، لحق بى « جيا ـ من » ، وأخذنا نتسامر معا زمنا ، وبقيت فى مكانى بعد ذهابه حتى جاءت « منج ـ فونج » تدعونى لتناول الطعام ٠

بدا لى أنها تتجنبنى فى الأيام الأخيرة ، ولم أجد مبررا لذلك ٠٠ فاليوم على سبيل المثال رأتنى قادما ، فاستدارت وسارت فى طريق آخر ، ولكنى جريت خلفها وسألتها :

ـ لماذا تتجنبيننى ؟

فوقفت ونظرت الى فى خجل وخوف ، والتمع فى عينيها نور دفىء ، ثم حنت رأسها وقالت فى صوت خفيض :

ـ انني أخاف ٠٠ أخاف أن تعرف السيدة والآخرون ٠٠٠

تأثرت بما قالت ، فرفعت رأسها وابتسمت لها :

ـ لا تخافي ٠ اننا لم نفعل ما نخجل منه ٠٠ ان حبنا طاهر ،

ثم تركتها تذهب وفهمت أخيرا سبب ابتعادها عني ٠

بعد تناول الغداء ذهبت الى غرفتي ، وبدأت قراءة الترجمة الانجليزية لرواية « البعث » التي اشتراها أخي أخيرا ، وفجأة بدأ الخوف يتملكني ، ولم أستطع الاستمرار فيها : كنت أخشى أن يصبح مصيري كمصير بطل الرواية برغم اختلاف ظروف بطل الرواية عن ظروفي ٠٠ وفي الأيام الأخيرة كنت أصاب بنوبات من الشرود ، وأتألم للمصير الذي ستنتهي اليه عائلات مثل عائلتنا ٠

لقد كنت وحيدا ، ودارنا كالصحراء الجرداء ٠٠ قفص ضيق ٠٠ وأنا أريد الحركة ٠٠ أريد الحياة ٠٠ وفي دارنا لا أجد حتى انسانا واحدا أتحدث اليه ٠

كان الكتاب الذي أعطانيه جدي « في طاعة الأبناء وتجنب الفساد » ما زال على المنضدة ٠٠ فأخذته وتصفحت جزءا منه ، فوجدته عبارة عن دروس تعلم الانسان كيف يتصرف كعبد ٠ وهو ملىء بعبارات مثل « الوزير الذي لا يقبل الموت تنفيذا لأمر الحاكم انسان غير مخلص ، أحط الجرائم الفسق ، أكبر الفضائل طاعة الأبناء ٠ كان غضبي يزداد كلما مضيت في القراءة حتى فقدت صوابي ومزقت الكتاب اربا اربا ، لو تخلص العالم من نسخة من هذا الكتاب لقل عدد المصابين بسمومه ٠

ذقت ألوانا من العذاب ، فكل ما بداخل الغرفة مقبض ولا طعم له ، وما بخارجها ليس أفضل مما بداخلها ، كل شيء مظلم وكئيب ٠ تمنيت أن تنبت لي أجنحة أطير بها ، لكن البيت الساكن احتواني كالقبر ، فارتميت على السرير ، وأخذت أبكي ٠

ـ أيها الأخ الثالث ، هل تأتي وتلاعبني الشطرنج ؟

انها زوجة أخي تناديني من الشقة المجاورة • أجبت :

ـ حسنا ، سأحضر فورا •

لست من المغرمين بالشطرنج ، لكن كنت أعلم أنها تحاول مواساتي ، ولم يكن بوسعي رفض مجاملتها ، فذهبت اليها وانهمكت في اللعب ونسيت كل شيء • كانت زوجة أخي تلعب أفضل من أخي الكبير ، لكنها لم تكن في مثل براعتي في اللعب • هزمتها ثلاث مرات متتالية ، لكنها لم تتأثر بذلك ، ولم تفارقها ابتسامتها •

أحضرت المربية « خاي ـ أر » ، فأخذت تلاعبه وهي تبادلني الحديث • تأملت الغرفة ووقعت عيناي على ستائر السرير المشغولة برسم زهرة البرقوق ، فقلت لها :

ـ رسم رائع !

لقد كنت معجبا بالرسم فعلا بالرغم من عدم خبرتي به الا أني اعتقدت أن هذا الرسم هو أروع ما صنعته يداها •

ـ انني لا أجيد الرسم ، لقد بذلت الكثير من الجهد في رسم زهرة البرقوق ، لقد ألح على أخوك كثيرا كي أرسمها ، وأنا مثله أحب زهور البرقوق •

وعلت وجهها ابتسامة مرحة •

قلت محاولا اثارتها :

ـ تقصدين أنك تحبينها لأن الأخ الكبير يفعل ذلك ؟

اكتسى وجهها بحمرة الخجل وابتسمت :

ـ لن أخبرك بذلك الآن ، عندما تتزوج ستعـــرف كل شيء بنفسك • تغابيت وسألتها :

ـ ما الذى سأعرفه ؟

ـ لا تلح على هكذا ! يمكنكفى المستقبل سؤال زوجتك !

نسقت مجموعة من زهور البرقوق فى الزهرية الصغيرة التى على المائدة ، وكذلك الزهرية الكبيرة القائمة على المكتب •• كان لون الزهور يجرح عينى •• وتخيلت وجه ابنة العم « مى » الجميـــــل الحزين « مى » •• زهرة البرقوق ! وودت أن أقول لزوجة أخى :

ـ خذى حذرك من زهور البرقوق ؛ فقد تسلبك جزءا كبيرا من حب الأخ الكبير •• لكن شجاعتى خانتنى •

ـ لم أرسم شيئا منذ زمن بعيد ، ففى السنوات الثلاث الماضية شغلت بأمر « خاى ـ أر » ونسيت كل ما تعلمته •

تعثرت الكلمات فى فمها وطافت بعينيها ذكريات أحـــــلام خلت •

تساءلت •• هل تذكرت حياتها قبل الزواج ؟ الايام الجميلة المرحة كلون قوس قزح • بدا لى أن مظهرها لم يتغير كثيرا ، لكن تصرفاتها أصبحت أكثر جرأة ؛ فقد ذهب عنها حياء العذارى ••• سألتها :

ـ هل تفكرين فى الأيام التى قضيتها بين والديك ؟

هزت رأسها وقالت :

ـ أحيانا •• وان بدا لى الآن كل شيء كالحلم ، كان كل شيء مختلفا عما هو عليه الآن ، كانت لى أخت تكبرنى بثلاثة أعوام ، كنا

نمارس معا هواية الرسم وكتابة الشعر ، كان والدى حين ذاك يشغل منصب رئيس مقاطعة « كوان ـ يان » ، وكنا نقيم فى مسكن حكومى ، وعشت مع شقيقتى فى غرفة بالطابق العلوى تطل على حديقة ضخمة بها الكثير من أشجار التوت ، كانت طيور العقعق تقف على أغصانها ، وتوقظنا بتغريدها فى الفجر ٠

وفى الليل يتسلل ضوء القمر الى شرفتنا والكون ساكن ، كانت والدتى تأوى دائما الى فراشها فى وقت مبكر ، أما أنا وأختى فكنا نعشق ضوء القمر ، ونسهر معه حتى ساعة متأخرة من الليل ٠٠ نفتح النافذة ونتسامر أو نكتب الشعر على ضوء القمر ، وفى بعض الأحيان كنا نسمع فى سكون الليل صوت نفير آتيا من بعيد كان ذلك يعنى أن حامل الرسائل قادم ، وأنت تعلم أنه فى تلك الأيام كانت جميع الوثائق الرسمية الهامة ترسل مع رسول خاص يستبدل الخيل فى محطات متتالية ، ولذا يطلق نفيره من بعيد حتى يتمكن رجال المحطات من اعداد جواد آخر ، لقد كان صوت النفير كئيبا ، وكثيرا ما أيقظنا صوته الكئيب فى جوف الليل ، فنظل مسهدتين حتى مطلع الفجر ٠

دأبت والدتى على تربية دود القز وكنا نساعدها فى ذلك ، وأحيانا كنا نأخذ الفانوس فى ساعة متأخرة من الليل ونهبط السلم ونذهب الى خلايا دود القز لنرى : هل التهمت كل ما لديها من أوراق التوت وتحتاج الى المزيد منه أم لا ؟ كنت صغيرة فى تلك الايام وأقترب من سن النضج ٠٠ أيام رائعة ٠٠٠

ثم جاءت ثورة عام ١٩١١ ، فاستقال والدى من وظيفته وعاد بنا الى « تشينج ـ تو » ٠ كنا فتاتين يافعتين فى ذلك الوقت ، وقال لنا والدنا : ان رسومنا جيدة فتعاقد لنا وأحد محال صنع المراوح الذى كلفنا رسم المراوح له ٠ وكنا نشترى بما نكسب الألوان ومختارات من الشعر ٠

وتزوجت شقيقتى ، وكنا لا نطيــق الفراق ، وفى الليلة السابقة لرحيلها بكينا طوال الليل ، وبعد مالا يزيد على عام أسقطت جنينا وماتت .. وعلمنا أن حماتها كانت تسيء معاملتها وتثيرها . وكانت أختى حادة الطبع قد أفسدها تدليل أمى اياها . فلم ترضخ لاساءات حماتها الى أن قضى ذلك عليها .

وارتعش صوتها حزنا ، وفاضت عيناها بالدموع ، وختمت حديثها قائلة :

ـ عندما أتذكر هذه الأشياء ، يخيل الى أنها أحداث أحــلام مضت .

خشيت استسلامها للبكاء ، وكنت من الغباء بحيث لم أجـد ما أواسيها به وسألتها :

ـ هل تلقيت أنباء عن والدتك وأخيك فى الفترة الأخيرة ؟

فظهر الحزن على وجهها وقالت :

ـ كتب لى أخى أنهما بخير ، لكنهما لن يتمكنا من العودة الى « تشينج ـ تو » خلال عام أو عامين .

وانتقلنا بالحديث فى موضوعات أخرى ، وأخيرا قلت لهــا : اننى مضطر الى مراجعة دروسى ، وعدت الى غرفتى .

ظللت أفكر فيما قالته لى ، وأخيرا هدأت نفسى ، وبدأت فى قراءة «جزيرة الكنز» ، وبعد أن قرأت أكثر من عشرين صفحة تعبت، ثم استلقيت على سريرى ونمت .

عندما استيقظت كان الليل قد أرخى سدوله ، شـــعرت بالبرد . ولم ينجح الضوء الشاحب المنبعث من مصباح قوته ستة عشر (واتا) فى ادخال الدفء الى قلبى . شعرت بالضيق مرة أخرى

من كآبة الحياة بين عائلتي ، فأخذت أذرع الغرفة جيئة وذهابا وأنا أفكر فيما يحدث في الخارج من أشياء رائعة مثيرة ، انني لن أقبل هذه الحياة بعد الآن ، القهر شيمة هذه الدار ... يجب أن أحارب للنهاية .

في أثناء تناول العشاء سمعت زوجة أبي وأخي الكبير يضعان خطط المعركة ضد العمة « وانج » والعمة « شين » ، كانا يتحدثان بجدية ، وبرغم ذلك لم أستطع منع نفسي من الضحك ، وبعد ذلك ناقشت مع أخي الكبير مسألة طاعة الأبناء ، فوجدته ضعيفا متحفظا ، واستأت كثيرا ؛ لأنه يزداد تخلفا يوما بعد يوم . وبينما نحن منهمكان في المناقشة جاءت خادمة العمة « شين » تدعوه ليلعب « الما – جيانج » مع السيدات ، فوافق بلا تردد .. طلبت منه تفسير ذلك ، فأجاب في يسر :

– وماذا أفعل ؟

ثم خرج مع « شيار » ... هذه هي خطته في المعركة .

لي شقيقان : أحدهما يلعب « الما – جيانج » ليحظى برضى بعض الأشخاص ، والآخر يظل طوال يومه في منزل عمته ليعلم « تشن » الانجليزية ولا يعود للمنزل حتى لتناول طعامه ... لن أكون مثلهما أبدا .

ما أغرب الحياة ! حياتي الآن على هذه الوتيرة ، ولو سرت على هذا المنوال دائما فلاشك في أني سأفقد شبابي كله .

لن أستسلم ... سأقاوم وسأتحدى أوامر جدي ، سأرحل عن هذه الدار .

ماسبق هو حصيلة ما كتبه « جيا – خوي » في مذكراته في يوم واحد . وفي صباح اليوم التالي قبع في داره ، ولم يغادرها ،

الفصـــل الثـــاني عشر

أخذ موعد الاحتفال التقـليدى بعيد رأس السـنة يقترب مسرعا ، ويعد هذا الاحتفال أول الأحداث الهامة فى العالم الجديد، تطلع الجميع اليه بلهفة وفرحة ، وان شذ عن هذا الاجمـاع كل المثقلين بالديون الواجبة السداد قبل نهاية العام كما تقضى بذلك القوانين • وكل يوم يمضى يحمل معه بشـائر العيد • تفجرت المدينة بالنشاط والحياة ، فازدحم الناس فى الشوارع التى امتلأت بالفوانيس واللعب ، وانتشرت أصوات أبواق العيد فى كل مكان•

دار عائلة « جاو » فى أحد الشوارع الهادئة ، وبرغم تحفظ هذه العائلة الثرية وهدوئها الظاهرى فانها بدأت تموج بالحركة استعدادا للاحتفال بالعام الجديد ؛ فقد كان هناك أشـياء كثيرة يجب اعدادها : كان الخدم مشغولين تماما كسادتهم ، وينتظرون على أحر من الجمر احتفالات العيد والعيديات النقدية التى يحصلون عليها عادة فى بداية كل عام •

ففى كل مساء ينهمك الطباخ فى اعداد أصـناف الحلوى المصنوعة من الأرز ، وفى أثناء النهار تتجمع نساء العائلة صغيرات وكبيرات فى غرفة الشيخ المبجل « جاو » ويطوين أوراقا ذهبيـة وفضية على هيئة سبائك ، ثم يرسلنها الى أسلافهن ليستخدموها فى العالم الآخر ، وتقص النساء أيضا صورا ، ويصممن رسـوما من الورق الأحمر والأخضر ، ويلصقنهما على النوافذ وزجاج مصابيح الزيت •

نادرا ما يبقى الشيخ المبجل « جاو » فى داره فى أثناء النهار، فهو اما فى المسرح أو مشغول بزيارة أصدقائه ولعب «الما ـ جيانج». وقد كون مع أصدقائه مجموعة أطلقوا عليها اسم « نادى الشيوخ التسعة الكبار » ، وكان كل فرد منهم يقوم بدور المضيف لأصدقائه بطريقة دورية ، ويعرض عليهم كتبه القيمة ورسومه الجميلة وتحفه النادرة .

شغل « جيا ـ شن » مع عمه « كا ـ منج » فى الاشراف على تلك المجموعة الضخمة من خدم العائلة والاستعداد للعام الجديد ، علقت الفوانيس الحمراء الضخمة فى القاعة الرئيسية ، وعلى جانبى الحائط وضعت لوحات مشغولة بالحرير الأحمر ، وأخرجت صور الأسلاف الراحلين من صناديقها ، وعلقت بحرص على الحـــائط الأوسط بالقاعة حيث ستحظى بالتحيات والاحترامات التى تقدم لها فى الاحتفال بالعام الجديد .

كان من تقاليد عائلة « جاو » اعداد وليمة ضخمة فى الليلتين السابقتين على بدء العام الجديد ، فذهب «جيا ـ من» و «جيا ـ خوى» لزيارة أخيهما فى اليوم المحدد لاقامة الوليمة ، وأخذوا معهما بضع مجلات جديدة ، اشترياها من المكتبة ، واشتريا أيضا ترجمة كتاب ترجينيف « حواء » .

وعندما اقتربا من مكتب « جيا ـ شن » سمعا ضربات آلته الحاسبة ، فدفعا الستارة جانبا ودخلا .

نظر اليهما « جيا ـ شن » ، ودهش لرؤية « جيا ـ خوى » فسأله :

ـ خرجت ؟

أجابه فى سخرية وهو راض عن نفسه :

ـ منذ عدة أيام ٠

ـ واذا علم جدك ؟

لم ينتظر « جيا ـ شن » الرد ، وانحنى على آلته الحاسبة ٠ أجابه « جيا ـ خوى » فى برود :

ـ أنا لا أهم بهذه التفاهات ٠ وسيان عندى علم أو لم يعلم !

نظر « جيا ـ شن » اليه فى صمت ، ثم تجهم وجهه ، واستمر فى حساباته ٠

قال « جيا ـ من » مهدئا :

ـ لا داعى للقلق ، من المؤكد أن الجد نسى الأمر كله الآن ٠

ثم فرد جسمه على الكرسى الخيزران بجوار النافذة ٠

جلس « جيا ـ خوى » بجوار الحائط ، وأخذ يقرأ بصوت عال من كتاب : « حواء » ، « عالم عظيم » ، احساس جميل ٠٠٠٠ الحب !

أى نوع من الحب ! أى نوع من الحب تهواه ٠٠٠ أى حب !

أعترف أنه ليس هناك ـ فى رأيى ـ أنواع من الحب ٠

عندما تحب ٠٠٠٠٠٠ هب روحك للحب ٠

نظر اليه الشقيقان فى دهشة ، لكنه لم ينتبه لهما ، واستمر فى القائه : نحن شباب ، ولسنا وحوشا ولا حمقى ٠

وسنحقق السعادة لأنفسنا ٠

سرت فى جسد « جيا ـخوى » لمسات من الدفء ، وارتعشت يداه من الانفعال فلم يقو على الاستمرار ٠ أغلق الكتاب وتناول

بضع رشفات من كوب الشاى الذى أمامه ، وفى تلك اللحظة دخل « جيا ـ ين » فى بطء ، وسأل « جيا ـ خوى » فى صوت جاف متقطع :

ـ ما الذى كنت تقوله بهذا القدر من الانفعال والحماس ؟

أجاب : « جيا ـ خوى » بضحكة جافة :

ـ كنت أقرأ ٠

ثم فتح الكتاب مرة أخرى ، وأخذ يقرأ بصوت عال :

« لقد أحبت الطبيعة الرغبة فى الحب ، لكنهـــا عجزت عن ارضاء هذه الرغبة »

كانت الغرفة ساكنة ، وتوقفت الآلة الحاسبة ٠

« الطبيعة هى الحياة والموت

الحب هو الحياة والموت » ٠

سأل « جيان ـ ين » بصوت خفيض :

ـ مامعنى هذا ؟

لكن أحدا لم يجبه ، وظهر الشك على وجهه ، ثم تحول الى خوف ، ثم اختفت هذه التعبيرات جميعا بسرعة ٠

ساد الغرفة الصغيرة توتر غامض ، لكنه زال بالتدريج ٠٠ وتملك الشبان الأربعة احساس بالتعس ، وانفجر « جيا ـ خوى » غاضبا :

ـ ما الحياة التى يمكن الانسان أن يتطلع اليها فى مجتمع كهذا ؟ ان ما نفعله ضياع لشبابنا وحياتنا ٠

في الأيام الأخيرة كان « جيا ـ خوى » يعانى من العـــذاب والحيرة : فمنذ طفولته وفى قلبه حنين الى أن يصـــبح انســـانا مختلفا عن جيله السابق من الرجال ، وكثيرا ما سافر «جيا ـ خوى» وهو طفل صغير مع والده الذى كان يشغل منصب رئيس مقاطعـة، وشاهد فى رحلاته أشياء غريبة : كان يحلم دائما بالهرب الى أرض جديدة بعيدة لها عاداتها الغريبة ، ورسم فى ذهنه صورة للحيـاة فى القصر الذى اتخـــذه أبوه مقرا لحكمـه ، وعندما عادوا الى « تشينج ـ تو » ازدادت صلته بحقائق الحياة ، وبدأ يتعرف على العالم من جديد ·

فى عائلة « جاو » عشرات من الخدم وحاملى المحفات · أتى هؤلاء الخدم من أماكن كثيرة···وبرغم ذلك ألف بين قلوبهم مصيرهم المحتوم وقدرهم المكتوب ··· التقى الغرباء وجمع بينهم سعيهم وراء راتب زهيد عند سادة هذه العائلة ، فعاشوا معا فى سلام وكأنهم قبيلة واحدة يربط الحب بينها ·· فهم من طينة واحدة ، ولو أغضبوا سادتهم اليوم فعليهم فى يومهم التالى البحث عن مكان قد يستطيعون الحصول منه على وجبة طعامهم التالية ·

أحس « جيا ـ خوى » بالاشفاق على هؤلاء الناس منذ نعومة أظفاره ، وقضى بينهم معظم أيام طفولته ، فاكتسب حب الخـــدم وعطفهم ، وكان يستلقى على سرير أحد حملة المحفات ، ويرقب على ضوء المصباح حمالا نحيفا يدخن ويروى له قصصه المفضلة ، وصار يهوى الجلوس فى جناح الخدم والاستماع الى حكـــايات أبطـــال المبارزة الشجعان ، ويحلم باليوم الذى يكبر فيه ، ويحمل سيفا مثل أبطاله ليسرق الأغنياء ويعطى الفقراء ، ويصبح رحالة شهما طليقا من القيود العائلية ·

وبعد ذلك دخل « جيا خوى » المدرسة الثانوية ، فتغير عالمه: تأثر بما قرأه من كتب وما سمعه من أساتذته ، وتملكه حب جارف لوطنه ، وسيطرت عليه بقوة الدعوة للاصلاح • داوم «جيا - خوى» على قراءة مقالات (ليانج - تشن - تشاو) الحماسية التى تطالب باصلاحات دستورية ، قرأ كتبا مثـــل « روح الصـــين » ، وأيد المقترحات التى نادى بها « ليانج - تشن - تشاو » فى كتابه «دليل المواطنين لمبادىء السياسة » الذى ينادى فيـــه بتطبيق الخـدمة الوطنية الالزامية بدلا من استخدام المرتزقة ، وجنحت به أفكاره الى حد جعله يفكر فى ترك المدرسة ليصبح جنديا •

عندما اندلعت حركة الرابع من مايو عام ١٩١٩ ، شـــعر « جيا - خوى » أنه انتقل الى عالم جديد ، وفقد اعجـــابه ب « ليانج - تشن - تشاو » ، واعتنق نظريات أحدث وأكثر تقدمية• وفى ذلك الحين منحه أخوه فى تهكم لقب « محب الانســانية » والسبب الذى حدا بأخيه « جيا - شن » الى اطلاق هذه التسمية عليه هو رفض « جيا - خوى » أن يحمل فى المحفات • لقد تأثر « جيا - خوى » بعدد من المقالات نشرت فى مجلة « التيار الجديد » تشرح هدف حياة الانسان كفرد فى المجتمع ومعناها، وبدأ يفكر فى هذه الأشياء لأول مرة • وفى البداية تكونت لديه صورة مبهمة ، لكن على مر الأيام اكتسب مزيدا من الخبرة وخصوصا بعد الفترة التى سجن فيها فى داره وما عاناه من صراع داخلى • هذا بالاضافة الى دراسة الكثير من الكتب التى أدت الى اتساع أفقه ، فبدأ يدرك ما التصرفات اللائقة برجل حقيقى ؟

تألم « جيا - خوى » لضياع أيام شبابه دون تحقيق شىء من أحلامه ، ولما ازداد كرهه للنهج الذى تسير عليه حياته ازداد احساسه بوجود قيود خفية تطبق عليه ، وتمنعه من الفكـــاك من أسرها •

قال « جيا ـ خوى » فى ضيق :

ـ يالها من حياة لعينة !

والتقت عيناه مصادفة ونظرات أخيه « جيا ـ شن » المضطربة، فتفادى منها بسرعة ، لكنه التقى أثرها ونظرات « جيان ـ ين » الكئيبة ، فاتجه بنظره الى « جيا ـ من » ووجده مستغرقا فى قراءة احدى المجلات · بدت الغرفة ساكنة سكون القبور ، وشعر « جيا ـ خوى » أن هناك شيئا يمزق قلبه ، لم يستطع الاســـــتمرار فى تحمل ذلك فصاح :

ـ لماذا لا تتكلمون ؟ أنتم كذلك تستحقون اللعنة ·· كل واحد منكم !

فنظروا اليه فى دهشة · وأغلق « جيا ـ من » كتابه وسأله فى أدب :

ـ لماذا ؟ اننا نحاول جميعا أن نتلاءم نحن وحياة أسرة قديمة محافظة ، مثلما تفعل أنت ·

رد « جيا ـ خوى » فى اندفاع :

ـ هذا هو السبب ، أنتم سلسو الانقياد · انكم لا تبدون أية مقاومة ·· كم تلقيتم من الاهانات ؟ لقد تحـــدثتم كثيرا عن معارضة الولاء التام للنظام الأبوى ، لكنكم فى الواقع تساندونه ، أفكاركم عصرية وتصرفاتكم رجعية ، أنتم خائرو الهمم ! أنتم مرتع خصب للمتناقضات !

ونسى « جيا ـ خوى » فى تلك اللحظة أنه هو أيضا ضحية للمتناقضات ·

تدخل « جيا ــ من » :

ــ أخى الثالث ، اهدأ قليلا · ما جدوى اثارة هذا الصخب؟ لن تحل جميع المشاكل دفعة واحدة ، ما الذى فى وسعك تحقيقه بمفردك ؟ يجب أن تعلم أن النظام العائلى قائم ؛ لأن له أسسه الاقتصادية والاجتماعية ·

كان « جيا ــ من » قد فرغ لتوه من قراءة الفقرة الأخيرة فى المجلة ، فجرت على لسانه بطريقة تلقائية ، ثم أضاف :

ــ ظروفك ليست أسوأ من ظروفنا ·

لمح « جيا ــ خوى » مرة أخرى نظرة أخيه « جيا ــ شن » الحزينة المعاتبة ·

وأخيرا هدأت ثائرته وعاد الى قراءة كتابه ، وبعد فترة من الصمت بدأ يقرأ بصوت خفيض :

« فليكونوا ! لقد أصاب والدى حينما قال :

ــ لسنا أهل الترف يا أبنائى ، لسنا أرستقراطيين ، لسنا أبناء القدر المدللين · ولسنا حتى من الشهداء الأبرار ·· لا ، اننا عمال فقط ، مجرد عمال · ضعوا أحزمتكم الجلدية فوق ثيابكم ، واذهبوا الى أماكنكم فى الورش المظلمة ! دعوا أشعة الشمس للآخرين ، تلنا الكبرياء والسعادة برغم حياتنا المظلمة ·

جال بخاطر « جيا ــ يين » :

ــ هذا ينطبق على ، ولكن أين كبريائى ؟ أين سعادتى ؟ ·· كذب وأوهام !

قال « جيا ــ شن » :

ـ السعادة ؟ أين يمكن العثور عليها ؟ هل فى عالمنا مثـــل هذا الشىء الرائع ؟

ونظر « جيا ـ خوى » اليه ، ثم قلب صفحات الكتاب الى موضع كان قد ثنى عنده احدى الصفحات ، وقرأ بصوت عال :

ـ نحن شباب ولسنا وحوشا ولاحمقى ، وسنحقق السعادة لأنفسنا ٠

وتوسل اليه « جيا ـ شن » :

ـ أخى الثالث ، كف عن القراءة ٠

فوجىء « جيا ـ خوى » بطلب أخيه فسأله :

ـ لماذا لا أقرأ ؟

أنت تعلم مدى أملى ويأسى ٠ لست صغيرا ؛ لقد فقدت شبابى وسعادتى ، ولن أسترجعهما يوما ٠

لم يبد أى أثر للغضب فى صوت « جيا ـ شن » وان بدت نبرات صوته حزينة كئيبة ٠

استاء « جيا ـ خوى » من خضوع أخيه واستسلامه لمصيره ، فسأله فى وقاحة :

ـ ألأنك لم تشعر بالسعادة يوما فى حياتك تخشى سـماع دعوة الآخرين للنضال من أجل سعادتهم ؟

دفع « جيا ـ شن » آلته الحاسبة جانبا وقال فى ألم :

ـ أنت لاتعرف ؛ فموقفك يختلف عنى كثيرا ، أنت على حق، اننى أخشى حديث الآخرين عن السعادة ، لأن آمالى فى السعادة

قد تحطمت ، لقد انتهيت • اننى لا أقاوم لأننى لا أرغب فى المقاومة، لقد قبلت أن أكون الضحية •••

كانت لى أحلامى الجميلة يوما ما ، لكنها تبددت جميعا ، كان فى القلب منى ألف حلم لم أحقق منها حلما واحدا ، ولست ألوم سوى نفسى على وأد هذه الأحلام ••• تقبلت بنفس راضية الحمل الذى تركه لى أبى ••• اننى أتذكر يوم مماته • فى أحـــد الأيام والمرض يفتك به ماتت أختنا الصغيرة وهى فى الخامسة من عمرها ، فآلمه هذا النبأ وبكى ، أمسك يومها بيدى وقال لى : •• « عندما ماتت أمك عهدت الى بكم وكنتم ستة من الأطفال الصغار •• لكننى خيبت آمالها ، فاليوم فقدت واحدا منكم » • وانهمرت الدموع من عينيه ثم قال : « ••• أملى ضعيف فى الشفاء ، واذا نفذ القـــدر مشيئته فانى أعهد اليك بزوجتى وأخوتك وأخواتك فارعهم وكن بهم رحيما ، أنا أعلم أنك أهل لذلك •• فلا تخيب رجائى ••• »

ويومها لم أستطع السيطرة على نفسى فبكيت بصوت عال ، واتفق مرور جدى بالقرب منا ، فظن أن أبى قد مات وجاء مسرعا، ولامنى جدى لازعاجى رجلا مريضا ، ثم واسى أبى ببضع كلمات ، وبعد ذلك استدعانى الى غرفته وسألنى عما حدث • وعندما أخبرته بذلك أجهش بالبكاء هو أيضا ، وحاول أن يقول شيئا ما ، ولكن الكلمات خانته وعجز عن الحديث ، ثم أمرنى بالانصراف ، وطلب منى رعاية والدى فى مرضه •

فى تلك الليلة استدعانى والدى ، وأجلسنى بجوار سريره لأكتب وصيته ، أمسكت زوجة والدى شمعة على حين أمسكت أختى الكبيرة بالمحبرة ، كتبت ما أملاه والدموع تفيض من عينى •• ثم مات فى اليوم التالى ، ومنذ ذلك اليوم المشئوم حملت جميع أعبائه على كاهلى ، ومازلت أبكى حتى يومنا هذا عندما أتذكر لحظة فراقه

لنا • لقد ضحيت بنفسي من أجله ••• ماذا بوسعي أن أفعل أكثر من ذلك ؟ قبلت أن أكون الضحية ، وبرغم ذلك خيبت أمله لأنى فقدت أختى الكبيرة •••

وانهمرت الدموع على وجهه وهو يروى هذه القصة ، وكان نحيبه يزداد كلما مضى فى سرد قصته ، وفى النهـــاية عجز عن الاستمرار ، ثم ألقى برأسه على المكتب ، وانفجر فى بكاء متواصل•

كادت الدموع تنهمر من عينى « جيا ـ خوى » ، لكنه بذل قصارى جهده فى السيطرة على نفسه ، ورأى « جيـــان ـ يين » يمسح دموعه بمنديله فى حين أخفى « جيا ـ من » وجهه خلف المجلة •

كان وقع الأقدام فى البواكى يقترب من مكتب « جيا ـ شن »، ثم يبتعد مرة أخرى •

وأخذ «جيا ـ شن» منديلا من جيبه ، ومسح به دموعه ، قال «جيا ـ من» وهو يخفى وجهه خلف المجلة :

ـ لا تمتعض أيها الأخ الكبير ! اننا نفهمك جيدا •

لم يستطع «جيا ـ خوى» السيطرة على دموعه ، لكنه سرعان ما تمالك نفسه وجال بخاطره •• ما فات مات • لماذا تنبش القبور الآن ؟•• لكنه لم يستطع منع نفسه من الشعور بالحزن على والده الراحل •

قال «جيا ـ شن» فى ابتسامة حزينة بعد أن استعاد هدوءه :

ـ ان السطور التى تلوتها رائعة للغاية يا أخى الثالث ، اننى لست انسا متلافا ، ولست طفل القدر المدلل ، اننى مجرد عامل•• انى أضع مريلتى الجلد على صدرى ، وأعمل فى ورشتى المظلمة••

اننى عامل بلا كبرياء وبلا سعادة ·· اننى ·· توقف «جيا ــ شن» فجأة وبدا الاضطراب واضحا على وجهه · لقد سمع صوت سعال معروفا لديه ·· ان الجد قادم ·· قال « لجيا ــ خوى » فى صوت خفيض :

ــ ماذا ستفعل ؟

شعر « جيا ــ خوى » بفزع مفاجىء ، لكنه سيطر على نفسه بسرعة ، وقال فى برود :

ــ لن يأكلنى !

أزيحت الستارة جانبا ، ودخل الشيخ العجوز يتبعه خادم، توقف عند المدخل ، فوقف الشبان الاربعة تحية لجدهم ، وقدم له « جيا ــ من » مقعده ·· وقال الشيخ المبجل « جاو » :

ــ أنتم جميعا هنا ·

ارتسـمت على وجهه الشاحب ابتسـامة صافية ، وهو يبدو ودودا جذابا فى لحظات صفائه · ثم أردف قائلا :

ــ يمكنكم العودة مبكرين اليوم ، أن وليمة العـام الجديد ستقام الليلة ·· ثم جلس فى المقعـد الذى بجوار النافذة ، لكنه نهض فجأة وقال :

ــ «جيا ــ شن» ، اننى أود شراء بعض الحاجات ، تعال معى!

ثم سار فى مهابة وخيلاء بحذائه الأسود المصنوع من القماش المبطن بالقطن · اجتاز عتبة الباب على حين وقف « جيا ــ شن » الى جوار الباب ممسكا بالستائر حتى يمر جده ، ثم تبعه «جيا ــ شن» والخادم ·

خرجا .. وفى تلك اللحظة جذب «جيا ـ من» نفسا عميقا فى هدوء وحدج «جيا ـ خوى» بنظرة ثم قال :

ـ لقد نسى المسألة كلية .

قال « جيا ـ خوى » :

ـ لو كنت خنوعا مثل الأخ الكبير لظللت طوال حياتى مسجونا بالدار . من حسن الحظ أن لدى قدرا ضئيلا من الشجاعة ، ولقد كنت فى الواقع سخيفا لأنى لم أخرج قبل ذلك ، لقد جن جدى من الغضب ، ثم انتهى الأمر ونسى كل شيء على حين أنى أقاسى من عذاب السجن فى الدار . لنذهب ! لا داعى لانتظار الأخ الكبير . اننا سنمشى وسيركب هو محفة . هذا الى أننا سنتجنب لقاء جدنا مرة أخرى لو بكرنا بالعودة .

ووافقه « جيا ـ من » ..

ـ أصبت .

وسأل « جيا ـ بين » :

ـ وأنت ؟

ـ سأعود أيضا . سأسير معكما .

وفى طريق العودة الى البيت ، شعر «جيا ـ خوى» بسعادة غامرة ، لقد طوى صفحة الماضى بغير رجعة ، وقال لنفسه :

ـ اننى شاب صغير ، لست وحشا ولا أحمق وسأحقق السعادة لنفسى ؛

ثم شعر بسعادة لأنه ليس على شاكلة أخيه الكبير .

الفصل الثالث عشر

أرخى الليل سدوله على دار عائلة « جاو » ، وفى القاعة الرئيسية كان قد علق مصباح « النار الخالدة » الممتلىء بالزيت النباتى ، بالاضافة الى مصباح كهربى قوته مائة(وات) ، ومصباح غازى ضخم وأربعة مصابيح ذات ألواح زجاجية مزدانة بالصور . تألقت الأضواء المنبعثة من هذه المصابيح على المحراب المعلق فيه صور الأسلاف ولوحاتهم حتى عصر « تشن » .

غمر المكان نور باهر ، فكان من الممكن رؤية تلك التشققات اليسيرة فى الأرضية ذات البلاط الملون .

ووضعت أدوات المائدة فى تنسيق رائع على المائدتين المستديرتين الضخمتين اللتين فى منتصف القاعة ، كانت عصى تناول الأرز مصنوعة من العاج ، أما أوانى الطعام الكبيرة والملاعق والأطباق فكلها من الفضة ، ووضع تحت كل طبق ورقة حمراء كتب عليها اسم المكان ، وكان يقوم بخدمة كل مائدة أربعة من الخدم اثنان لتقديم الخمور والآخران لتقديم الطعام .

أحضرت الأصناف المطهوة من المطبخ ، ورصت على مائدة ضخمة خارج القاعة تحت اشراف خادمة عجوز تقوم باعطاء الطعام للخادمات اللاتى يقمن بدورهن بتوصيله الى المائدتين المستديرتين ، وقد حضرت جميع جوارى عائلة « جاو » للمعاونة فى ذلك .

وضعت على المائدتين المستديرتين ثمانية أصناف مثلجة ، وطبقان من المسليات واللوز ، ثم دعى الجميع الى الدخول ، دخل

الجميع الى القاعة كبارا وصغارا يتقدمهم الشيخ المبجل « جاو » ، وباشارة اتخذ الجميع أماكنهم ، وجلسوا على مقاعدهم ٠

جلس الكبار حول المائدة الرئيسية كل على حسب مكانته ، يتصدرهم الشيخ المبجل « جاو » تليه السيدة تشين والسيدة «تشوو» والسيد الثالث «كا ــ منج» وزوجته السيدة «تشانج» والسيد الرابع «كا ــ آن» وزوجته السيدة «وانج» والسيد الخامس «كا ــ دنج» وزوجته السيدة «شين» والسيدة «تشانج» ابنة الشيخ المبجل «جاو» وأم الآنسة «تشن» ٠ وحول المائدة الثانية جلس « جيا ــ شن » وزوجته « روا ــ جيا » و « تشن » و «جيا ــ من» و « جيا ــ خوى » أبناء السيد الثالث و « جيا ــ يينج » و «جيا ــ رن» ابنا السيد الرابع «جيا ــ تشوين» و « جيا ــ شى » و « جيا ــ شيان » ٠ وكذلك حضرت جميع فتيات جيل « شو » أخوات الفتيات الصغيرات وهن « شو ــ خوا » البالغة من العمر خمسة عشر عاما و « شوانج » ابنة السيد الثالث ، « شو ــ فين » ابنة السيد الرابع وعمرها سبعة أعوام ، و « شو ــ تشين » ابنة السيد الخامس وتبلغ من العمر اثنى عشر عاما ٠ كان الشيخ المبجل «جاو» يرغب فى رؤية أجيال أسرته الأربعة ممثلين فى الوليمة ، لذا أحضرت «روا ــ جيا» زوجة «جيا ــ شن» صغيرها «خاى ــ تشين» ، وضمته الى صدرها قليلا ، ثم تركته ليأكل مع الكبار ٠

أمسكت الأيدى بكئوس الخمر ٠٠ نظر الشيخ الى المجتمعين حول المائدتين والفرحة بادية على وجوههم ٠٠ أبنائه ٠٠ حفدته ٠٠ أبناء حفدته ٠٠ لقد تحققت رغبته فى رؤية أربعة أجيال تحت سقف واحد ، وطافت بوجهه ابتسامة راضية ٠٠ شرب الشيخ من كأسه بعمق ، ونظر الى جيل الشباب حول المائدة المجاورة وهم يضحكون ويشربون ويطلبون المزيد من الخمر بأصواتهم الصافية المنتعشة ، فيسرع اليهم الخدم ، ويملئون كئوسهم من آنية الخمر الصغيرة ٠ فناداهم وهو يبتسم :

ـ لا تكثروا من الخمر حتى لا تفقدوا وعيكم ·· أكثروا من تناول الطعام ·

رد « جيا ـ شن » موافقا ، وبدون وعى رفع الشيخ كأسه مرة أخرى ، وأخذ رشفة أخرى من كأسه ، فارتفعت الكئوس التى على مائدة الشيخ المبجل « جاو » دفعة واحدة مع كأسه ، وعندما وضع كأسه مرة أخرى على المائدة تبعه الجميع فى ذلك · ساد الهدوء والرهبة مائدة الشيخ المبجل ، وجلست السيدات والسادة الكبار فى اعتدال وجمود ، وكانوا يمسكون بعصيهم عندما يفعل ذلك ثم يعيدونها الى مواضعها بمجرد أن يضع عصاه على المائدة · لزموا الصمت الا فيما ندر ، وان تكلم أحدهم فبكلمة أو كلمتين ، لاحظ الشيخ المبجل ذلك ، فقال يشجعهم وقد أخذته النشوة :

ـ لا تكونوا رسميين الى هذا الحد ، انطلقوا وامرحوا على هواكم ·· انظروا : ما أكثر مرحهم فى المائدة المجاورة ! اننا هادئون أكثر مما يجب ، لا داعى للتكلف ·· اننا عائلة واحدة ·

ثم رفع كأسه وشربها وهو يقول :

ـ اننى سعيد الليلة ·· !

كان الشيخ المبجل « جاو » مرحا نشيطا بدرجة غير عادية. فدفع ذلك نسمة حياة الى المائدة ، دارت الخمر على الكئوس وأقبل الجميع على الأكل « بشهية » ·

ابتهج الشيخ المبجل « جاو » لرؤية الوجوه الناضرة المنفعلة ، وطابت نفسه للضحكات الصاخبة التى انطلقت مع كئوس الخمر ·· فتناول رشفة من كأسه المترعة ، وعاد بذاكرته الى أيامه الخوالى ·· نضاله فى فجر حياته طلبا للعلم ونجاحه كطالب ·· خدمته كموظف سنوات طوالا ، وبدايته لحياته وهو خاوى الوفاض ، ثم جمعه

لمساحات واسعة من الأراضى الزراعية وبناء الكثير من البيوت وتكوينه أسرة ضخمة ٠٠ لقد سارت الأمور كما يشتهى ، واذا تقدمت عائلته بهذا المعدل فانه من الصعب التكهن بمدى ثراء آل « جاو » وازدهارهم بعد جيل أو جيلين ٠٠ وابتسم وعب جرعة كبيرة من الخمر ثم وضع كأسه وقال :

ـ نلت كفايتى من الخمر ، ان كأسين من الخمر كفيلتان بادارة رأسى ، استمروا أنتم فى الشرب ٠

ثم أمر الخدم :

ـ املئوا كئوس السادة والسيدات جميعا ٠

ظلت المائدة الثانية أكثر مرحا وبهجة كما قال الشيخ المبجل ٠٠ لم تستقر عصيهم على المائدة لحظة واحدة ، وما ان يظهر طبق جديد حتى يختفى فى لحظات ٠ ركع الصبيان «جيا ـ تشون» و «جيا ـ شى» فوق مقعديهما ، وأكلا بالملاعق فهما لم يجيدا بعد استخدام العصى واستمر الرجال والنساء فى الأكل والشرب والضحك فى اباحية تامة حتى انتهت الوليمة ، ولعبت الخمر برءوس غالبيتهم ٠

كانت « تشن » وأمها هما أول من غادر الحفلة برغم الحاح « جيا ـ من » و « جيا ـ خوى » وابنة عمهم « شو ـ انج » على الأم لتترك « تشن » فى ضيافتهم طوال الاجازة ، لكن السيدة « تشانج » رفضت بحجة أن لديها بعض الأعمال بالمنزل ، وأخذت « تشن » معها وانصرفت ، وذهبت « روا ـ جيا » الى غرفتها للاطمئنان على « خاى ـ تشين » ٠ أما « جيا ـ شن » و «جيا ـ من» و « شو ـ خوا » فقد أفرطوا فى الشرب ، ثم ذهبوا الى غرفهم وناموا ٠

تلاشى جـو البهجة الذى بعثته الحفلة فى الدار ، واضـطر الصغار الى العودة الى بيوتهم • غادروا القاعة الكبيرة فى هدوء ولم يبق بها سوى بعض الخدم الذين انكبوا على تنظيف الموائد ومسح الأرض •

تأثر « جيا ـ خوى » بما شربه من الخمر ، وشعر بالدفء يسرى فى جسده • وأخذت الصواريخ النارية تنفجر فى الطريق محدثة أصواتا متقطعة كضربات حوافر الخيل المجفلة ، لم يستطع « جيا ـ خوى » البقاء فى مكانه ، فخرج يستنشق الهواء البارد فى ساحة غرفة الانتظار حيث كان يقف بعض حملة المحفات على حين جلس ثلاثة أو أربعة منهم على عتبة البوابة يتحدثون فى صوت خفيض • سمعت سلسلة من دوى انفجار الصـواريخ فى احدى الدور المجاورة •

وقف « جيا ـ خوى » بضع دقائق ينظر الى الشارع ، وعندما وصل الى بوابة الدار الرئيسية توقفت أصوات الألعاب النارية ، ولم يظهر سوى بضعة انفجارات متقطعة • امتلأ الجو برائحة البارود ، وتناثرت بقايا الصواريخ ، وعكس الفانوسان الأحمران المعلقان على البوابة ظلالا حمراء قاتمة برغم الشـموع الضخمة التى تحترق بداخلهما •

كانت الشوارع هادئة فى حين تناثرت فيهـا بقايا الألعاب النارية تشكو الاهمال وخيبة الأمل وهى تلفظ ما تبقى فيها من حرارة وزفرات مثقلة برائحة الكبريت ، وانبعث من مكان ما صوت نحيف ضعيف • تساءل « جيا ـ خوى » :

ـ لماذا يبكى انسان على حين أن الآخرين فرحون ؟

وتخلص « جيا ـ خوى » من تأثير الخمر ، وأخذ يحملق فى

الظلام المحيط به ، فلاحظ ظلا قاتما بالقرب من الآنية الحجرية الضخمة القائمة على الجانب الأيمن من البوابة ، فاقترب منه فى فضول ٠

وجد « جيا ــ خوى » متسولا صغيرا يرندى خرقا بالية وقد أسند رأسه الى حافة الآنية الحجرية الضخمة وأخذ يبكى على حين تدلى شعره الأشعث فى الوحل ٠ ونظر الطفل تجاه الصوت الصادر عن خطوات « جيا ــ خوى » ولم يستطع أحدهما رؤية الآخر بوضوح فى ظلام الليل ، وبرغم ذلك استمرا يتبادلان النظرات وجها لوجه ونواح الطفل يتردد فى أذنى « جيا ــ خوى » ٠

فشعر وكأنه قد صب على رأسه ماء بارد ، وتحسس العملات الفضية التى ترن فى جيبه وتملكه احساس غريب ، ثم أخرج من جيبه نصفى « ييان » من الفضة وضعهما فى يد الطفل المبتلة وقال له وهو شارد الفكر :

ــ خذها ، ابحث لك عن مكان دفىء ٠ ان الجو بارد جدا هنا وأنت ترتعش من البرد ، ستتحسن عندما تتناول وجبة ساخنة ٠

استدار « جيا ــ خوى » بسرعة وعاد الى الدار وكأنه يهرب من عار ارتكبه ٠ وعندما مر من البوابة الرئيسية الى الفناء تخيل أمامه ابتسامة أخيه الساخرة ، وترددت فى أذنيه عبارته الساخرة ٠٠ محب للانسانية !

عبر « جيا ــ خوى » البوابة الرئيسية ، واقترب من البوابة الداخلية ، واذا به يسمع صوتا يهتف به وسط هذا السكون :

ـ هل تعتقد أنك أنقذت هذا المتســـول الصغير من البرد والجوع مدى الحياة ؟

ـ أنت ! ٠٠ أنت يا مدعى حب الانسانية ! أنت منافق ! ٠٠ يا لك من أحمق غبى !

تملك « جيا خوى » فزع شديد ، فهرب الى غرفته ، واستلقى على فراشه فى ضعف ، وأخذ يردد :

ـ ٠٠ اننى نمل ٠٠ اننى نمل ٠

الفصل الرابع عشر

كان اليوم التالى هو آخر أيام السنة القمرية ، اســـتيقظ « جيا ـ خوى » متأخرا فى صباح ذلك اليوم وكانت الشمس قد غمرت النافذة وتسللت الى غرفته ، ووقف « جيا ـ من » الى جوار سريره وقال وهو يبتسم فى غيظ :

ـ انظر كيف نمت الليلة الماضية !

ألقى « جيا ـ خوى » غطاءه ، فوجد أنه لم يخلع ملابسه • نظر الى أخيه فى غضب ثم وقف • آذته أشعة الشمس فحك عينيه وفى تلك اللحظة دخلت خادمتهما ماما « خوانج » تحمل بين يديها اناء به ماء دافىء كى يغسل « جيا ـ خوى » وجهه وأخذت تؤنبه :

ـ أفرطت فى الشراب أمس حتى انك لم تخلع ثيابك ! من السهل الاصابة بالبرد فى جو كهذا • عندما غطيتك وجدتك تغط فى نومك ولا تشعر بأى شىء فى هذا العالم ، وظللت تغط فى النوم حتى هذا الوقت المتأخر !

ثم فاض وجه الخادمة العجوز بابتســامة طيبة ، وهى دائما تعاتب الصبيين ، لكن عتابها عتاب الأم الحنون ، فتقبلاه بصدر رحب •

وابتسم « جيا ـ من » ، أما « جيا ـ خوى » فلم يستطع كظم غيظه وحاول اثارتها :

ـ أنت مغرمة بالثرثرة يا ماما « خوانج » ، الليلة الماضية

ليلة أنس ، فما العيب فى أن يشرب المرء قليلا ؟ لقد رأيتك وأنت تنظرين الى فى كل مرة أرفع فيهـا كأسا ٠٠ تسـاهلى قليلا فى الاجازات ٠٠ أنت أقسى علينا من السيدة « تشوو » ٠

أجابت السيدة العجوز وهى ترتب السرير :

ـ اننى أتشدد معكما بسـببب تدليلها لكما ٠ لقد جاوزت الخمسين هذا العام وخدمت هذه العائلة أكثر من عشر سـنوات قضيتها فى رعايتكما ، كبرتما أمام عينى ولم تسيئا الى ولم أسمع كلمة نابية ٠ راودتنى فكرة العودة الى بيتى مرات كثيرة ، لكن لم أحتمل فراقكما ، اننى أعرف كل شىء فى هذه الدار ٠ لقد ساءت الأحوال هذه الأيام عما كانت عليه من قبل ٠ فكرت فى الرحيل أكثر من مرة ٠٠ حينما يتعود المرء الحيـاة فى المياه النقية فمن الصعب عليه البقاء فيها اذا شابتها الأوحال ! ٠٠ لكنى لا أستطيع فراقكما ٠ من يرعاكما بعد رحيلى ؟ أنتما سيدان طيبان مثل أمكما ٠ كم كان يسعدها أن تراكما وقد كبرتما ! اننى أعلم أنها ما زالت تراعاكما وهى فى السماء ٠ بعد بضع سنوات ستنتهيان من دراستكما، وتصبحان من كبار الموظفين، وسأكون جد فخور بكما؟

فقال « جيا ـ خوى » محاولا اثارتها :

ـ اذا أصبحنا من كبار الموظفين فسننسى كل شىء عنك ٠ كيف يمكننا التفكير فيك فى ذلك الوقت ؟

قالت المرأة العجوز وهى تنظر اليهما فى حب :

ـ أعلم أنكما لن تنسيانى ٠ أنا لا أريد شيئا منكما ، لأنى فى ذلك الوقت سأكون امرأة عجوزا لا نفع فيها ، كل ما أريده هو أن أسمع بنجاحكما فى الدراسة ، وفلاحكما فى الحيـاة ٠٠ سأقنع بمجرد سماع ذلك ٠

ربت « جيا ـ من » كتفها وطيب خاطرها :

ـ بالطبع لن ننساك يا ماما « خوانج »

فابتسمت له المرأة العجوز ، وأخذت الوعاء بعد أن اغتسل « جيا ـ خوى » ، ثم وقفت على الباب وحذرتهما :

ـ لا تشربا الليلة •

أجابها « جيا ـ خوى » ضاحكا :

ـ قليل من الخمر لن يضر فى شىء •

لكن الخادمة العجوز ابتعدت فلم تسمع شيئا ، قال « جيا ـ من » :

ـ امرأة طيبة ، ان الحصول على خادمة فى طيبتها أمر عسير !
أجاب « جيا ـ خوى » :

ـ لقد حققت اكتشافا عظيما بمعرفتك : ان للخدم مشاعر وضمائر مثل سادتهم •

أدرك « جيا ـ من » ما فى العبارة من سخرية ، لكنه لم يجب بشىء ، ثم اتجه نحو الباب ، فسأله « جيا ـ خوى » :

ـ ستذهب الى « تشن » ؟

فاستدار « جيا ـ من » وهو على عتبه الباب ، ورمقه بنظرة توبيخ ، لكنه أجابه بلطف :

ـ سأتمشى فى الحديقة ، أترغب فى المجىء معى ؟

فأومأ « جيا ـ خوى » برأسه وتبعه ، وعندما مرا بباب شقة « جيا ـ شن » سمعا جارية السيد الرابع « شيار » تنادى أخاها الكبير ••

سيدى الفتى الأول .. فاستمرا فى سيرهما ودخلا الحديقة .

قال « جيا - من » عندما عبرا بوابة القمر :

لنتجه الى اليمين . الجد فى حديقة البرقوق يشرف على الخدم وهم يقلمون الأشجار .

سار الفتيان فى ممشى مسقوف متعرج يقوم على أحد جانبيه حائط مطلى باللون الأبيض ومزدان بلوحات من المرمر وبه بعض النوافذ ، وخلف هـذا الحائط قاعة الاستقبال ، وبجوار الجانب الآخر من الممشى يمتد سور حجرى ، وخلف السور تقوم جبلاية ضخمة وحديقة تمتد على مرمى البصر ، وبينما وقفت بعض عيدان « الفانيا » الجرداء تتحدى الرياح الباردة قال « جيا - خوى » وهو يشير باعجاب الى عيدان نبات « الفانيا » :

- ما أروع هذا ! ان هذه العيدان تقف شـامخة فى البرد القارس ولا ترتعد أبدا .

يجب أن نكون مثلها لا مثل الحشائش الصغيرة تسـقط تحت أول ضربة من حبات الثلج !

وضحك « جيا - من » :

- هأنتذا تلقى خطبا مرة أخرى . بالرغم من تحدى عيدان الفانيا لبرودة الشتاء ، وبالرغم من نمو أوراق الأشجار وتفتح الأزهار فانها جميعا لن تهرب من مقص جدنا .

- وما أهمية ذلك ؟ العام القادم ستمتلىء الأشجار بأزهار جديدة .

خرج الفتيان من الممشى المسقوف وهبطا بضع درجات حجرية، ثم تقدما الى داخل حديقة مملوءة بالصخور الشائهة الشـكل ، بدا

بعضها كالرجل المنحنى ، وبعضها الآخر مثل الأسود الرابضة أو كالرافعة الطويلة ، تسلق الفتيان بضع درجات حجرية فى نهاية الحديقة ، ووصلا الى سور من الغاب ، ومرا ببوابة ضيقة لا تسمح بسوى مرور فرد واحد ٠٠ ظهر فى مواجهتهما ما بدا لهما لأول وهلة وهو دغل كثيف من الغاب لا يمكن اختراقه ، وبعد ذلك دخلا الى ممر صغير متعرج مكنهما من المرور الى داخل هذا الدغل ، وعندما اقتربا من نهاية الدغل اكتشفا لأول مرة جدول ماء يفيض من أسفل الجبلاية ، كانت مياه الجدول صافية شفافة ، فبدا الحصى وأوراق الأشجار الراقدة فى قاع الجدول واضحة للناظرين ٠

عبر الفتيان جسرا خشبيا ، ودخلا حديقة أخرى ، وجدا فى وسطها « برجولة » مكسوة بالغاب والقش ، وأمامها تنمو بعض أشجار القاسيا وزهور الكاميليا ، وخلف البرجولة حائط آخر مطلى باللون الأبيض فى جانبه الأيسر باب صغير ، وحينما مر الفتيان بالبوابة لفحت وجهيهما موجة من الهواء البارد ، فارتعش جسماهما ، لكنهما واصلا السير ٠

دخلا سياجات متشابكة محيرة ظلا يدوران فيها مرات كثيرة حتى وجدا أخيرا طريقا للخروج منها ، فشاهدا أمامهما غابة من أشجار السرو ، أخذت الرياح تنوح داخلها ، ثم اكفهرت السماء ، وفى منتصف هذه الغابة حيث تقل الأشجار شاهدا نوافذ لامعة وسط حائط أحمر قاتم ٠٠ وأخيرا وصلا الى مكان مكشوف بعد أن عبرا الغابة فتلألأت أمامها مياه البحيرة الهلالية الشكل ، وأخذت تعانق حافة الشاطىء الآخر ٠ وامتد جسر فوق البحيرة ، وبدت الغابة التى تتوسط البحيرة رائعة الجمال ٠

واتجه الفتيان الى حافة البحيرة ووقفا ينظران الى موجات الماء الرقيقة وهى تتهادى على سطح البحيرة ٠ فالتقطا بعض الأحجار

وحاولا قذفها الى الشاطىء الآخر • لكنهما فشـلا فى محاولتهما برغم وقوفهما فى مكان ضيق من البحيرة ، وسقطت الأحجار فى الماء •

اقترح « جيا ــ من » :

ــ لنذهب الى الشاطىء الآخر ، ونبحث عن مكان نجلس فيه قليلا •

انتقل الفتيان الى الشاطىء الآخر فوق جسر مقوس ، ثم عبرا ممرا كسته الخضرة بلونها الجميل ، وتسلقا بضع درجات حجرية الى أن وصلا الى حديقة ضخمة من أشجار المنوليا يتوسـطها ممر مرصوف بأحجار من مختلف الأحجام يقوم على جانبيه صفان من المقاعد الخزفية المزخرفة ، ثم سارا بضع خطوات ، فلمحا من خلال أشجار السرو مبنى طليت جدرانه بلون قرمزى ما عدا سـقفه الحجرى ، فبدا المبنى رائع الجمال ، ووضعت لوحة أنيقة أعلى الباب تحمل اسم المبنى « عبير المساء » • وهذه اللوحة مكتوبة بخط العم « كا ــ آن » •

جلس « جيا ــ من » على أحد المقاعد الخزفية ، ونظر الى اللوحة باعجاب على حين وقف « جيا ــ خوى » على سـلم المبنى ، واقترح على أخيه وهو يبتسم :

ــ لنتسلق الجبل !

رفض « جيا ــ من » النهوض من مكانه وقال :

ــ لنسترح قليلا هنا •

ــ حسنا سأجول فى هذا المكان •

ثم دفع الباب ودخل المبنى ، وألقى نظرة سريعة على الأثاث واللوحات على الحائط ، ثم صعد السلم الى الدور العلوى ·· واذا به يفاجأ بأخيه الكبير مستلقيا على سرير حجرى وعيناه نصف مغلقتين وأمارات الارهاق مرتسمة على وجهه · سأله «جيا ــ خوى» فى دهشة :

ــ ماذا تفعل هنا ؟

ففتح « جيا ــ شن » عينيه ونظر اليه فى سأم ، ثم أجابه بضحكة مغتصبة :

ــ جئت هنا التماسا لشىء من الراحة ، فالأيام القليلة الماضية كانت متعبة بالنسبة لى ، ولا أستطيع أن أجد شيئا من الراحة فى البيت · هناك دائما من يأتى الى ويطلب منى شيئا ، وهذه الليلة سنظل ساهرين حتى الفجر ، فاذا لم أسترح قليلا فلن أستطيع الاستمرار ·

ــ « شيار » كانت تبحث عنك منذ قليل ولا أعلم ماذا تريد ؟

سأله « جيا ــ شن » فى قلق :

ــ وهل أخبرتها أننى هنا ؟

ــ لا · لم أرها بعد ذلك ، سمعتها تناديك فى غرفتك ·

قال « جيا ــ شن » فى ارتياح :

ــ حسنا ، العم « كا ــ آن » يريدنى لأمر ما ، وأنا سعيد لنجاحى فى الابتعاد ·

من الواضــح أن خطط الأخ الكبير قد تغيرت ·· تســاءل

« جيا ــ خوى » فى دخيلته : هل خططه الجديدة فى مهادنة الجميع سيكتب لها شيء من النجاح ؟

كان « جيا ــ خوى » ممن لا يجيدون المناورة فى الحديث واللف والدوران حول الموضوعات فقال لأخيه :

ــ أفرطت فى الشراب فى الليلة الماضية ، وهذه ليست عادتك وصحتك لا تساعدك على ذلك ، فلم تكثر من الشرب ؟

نهض « جيا ــ شن » ، وأجابه وقد طافت على وجهه ابتسامة تنم عن الضجر :

ــ عندما تتراكم على الهموم أشرب قليلا من الخمر ، فأشعر بسعادة مبهمة ، فالخمر تجعل الحياة أكثر سهولة ·

ثم توقف برهة قصيرة وقال :

ــ أعترف بأنى انسان ضعيف الارادة ، وليست لدى الشجاعة لمواجهة الحياة ·

أفضـل حل بالنسـبة لى هو الشرب حتى الثمالة ، وبهذه الطريقة أستطيع الاستمرار فى الحياة ·

سأل « جيا ــ خوى » نفسه :

ــ ما العمل مع انسان يعترف بضعفه ؟ وبدأ يشـفق على أخيه ، وانتهى به الأمر الى التعاطف معه · خشى أن يقول شيئا فيزيد من شقاء أخيه ، فهم بمغادرة المكان ·

لكن « جيا ــ شن » قال له :

ــ انتظر قليلا يا أخى الثالث ، أريد أن أسألك عن شيء ·

فعاد «جيا ـ خوى» ومثل أمام أخيه ، نظر اليه «جيا ـ شن»، وأخذت عيناه تشعان ببريق وضاء :

ـ هل رأيت ابنة العم « مى » ؟

أجابه « جيا ـ خوى » فى دهشة :

ـ هل تعلم أنها فى « تشينج ـ تو » ؟ ٠٠ لم أرها ، لكن « تشن » لاقتها ٠

أومأ « جيا ـ شن » برأسه :

ـ لقد رأيتها منذ أيام فى البواكى عند مدخل أحد المحال ٠

أومأ « جيا ـ خوى » فى صمت محاولا قراءة أفكار أخيه :

ـ كانت مع أمها ، وقفت أمها تحادث شخصا داخل المحل على حين وقفت « مى » فى الخارج تنظر الى بعض الأقمشة ٠٠ ناديتها فاستدارت ونظرت الى وحيتنى بايماءة « بسيطة » ، ثم نظرت الى داخل المحل ، تتبعت نظراتها فرأيت أمها بالداخل ، لم أجرؤ على الاقتـراب ، وبقيت فى مكانى أنظر اليهـا ٠ نظرت الى بعينيهـا الصافيتين فترة طويلة ، وارتعشت شفتاها ! ٠٠ اعتقدت أنها تهم بقول شىء ما ، لكنها استدارت ودخلت المحل دون أن تلتفت الى مرة أخرى ٠

وفى أثناء حديث « جيا ـ شن » لأخيه ترددت خارج المبنى ضحكات أطفال صغار ٠

ـ أيقظ لقائى لها كل ما فى قلبى من ألم كانت الأيام بثقلها جعلته يهبط فى محيط النسيان ، لقد أحببت « روا ـ جيا » فهى انسانة رائعة ، لكن عودة « مى » أثارت الذكريات القديمة ٠ انها تعيش بالقرب منى فكيف أقوى على نسيانها ؟ أود معرفة شعورها

نحوى ، ربما كرهتنى لأنى تخليت عنها ٠ أعلم أنها تزوجت وأنها أرملة عادت لتعيش وحيدة الى جوار أمها ٠

فارتعش صوت « جيا ـ خوى » من الانفعال ، واندفع تيار الألم والندم يسرى مع الدم المندفع الى وجهه ٠

ـ اننى واثق من أنها لا تكرهك بعد هذه السنوات الطوال وكل ما حدث فيها ٠لماذا تعذب نفسك بالماضى ؟ لندفن الماضى فى غياهب النسيان ، ولنفكر فى الحاضر ونأمل المستقبل ، لقد نسيت ابنة العم « مى » الآن كل شىء عنك ٠

لقد نطق « جيا ـ خوى » بعبـارته الأخيرة وهو يـدرك فى أعماق نفسه أنه يكذب ٠

هز « جيا ـ شن » رأسه :

ـ أنت لا تفهم ، كيف ننسى ما بيننا ؟ النساء يتذكرن كل شىء ٠ لو كان الزمن رحيما بها ، لو كان لها زوج يحبها ويعطف عليها ٠٠ فربما كانت تنسى ٠٠٠ لقد غلبت مشيئة القدر مشيئة البشر ! انها الآن أرملة شابة تقضى بقية أيامها فى خدمة والدتها العجوز ، تعيش كراهبة فى دير ، كيف أمنع نفسى من القلق عليها ؟

عندما أفكر فيها أشعر بأنى أظلم « روا » ٠ ان « روا » تحبنى ، فلماذا أتنكر لها وأحب امرأة أخرى ؟ اذا بقيت على هذه الحال فاننى أسىء اليهما ٠ ولن أغفر لنفسى ذلك ٠٠ ان الحيـــاة ظالمة قاسية ، لهذا الجأ الى تضليل فكرى واحساسى ، وألتمس هذا الضلال فى كأس من الخمر ٠٠ لكن تأثيرها يختفى بسرعة ٠ لذا أختبىء من « روا » بعد الشرب وأبكى فى هدوء حيث ان خطايا

الماضى تهاجمنى فى عنف وقسوة عندما أبدأ فى التحرر من تأثير الخمر ، وألعن نفسى لأنى جبنت يوما فى حياتى ٠

قال « جيا ــ خوى » لنفسه :

ــ هــذا ما جنته يداك ٠ لمــاذا لم تقاوم ؟ لماذا لم تتكلم عندما اختاروا لك زوجة لا ترغب فيها ؟ نلت ما تستحق !

ولكنه عندما رأى أخاه واليأس ينشب فيه أظفاره قال فى هدوء :

ــ ربما تنصــلح الأمور ، لو أن ابنــة العم « مى » أحبت وتزوجت مرة أخرى فستحل جميع المشاكل ٠

هز « جيا ــ شن » رأسه ، وابتسم فى مرارة :

ــ هذا يحدث فقط على صفحات كتبك الجديدة ، افتح عينيك وانظر الى الحقيقة كيف يحدث شىء هكذا فى أسرة مثل أسرتها ؟ لن تكون أمهــا هى المعارضة الوحيدة لشىء كهذا ، بل ان « مى» نفسها لن تفكر فى مثل هذا الأمر ٠

لم يكن لدى « جيا ــ خوى » شىء جديد ليقوله ، ولم يرغب فى مناقشة أخيه ٠ كان يفصل بين تفكيرهما هوة واسعة ، انه لم يفهم « جيا ــ شن » ٠٠ اذا كان الانسان محقا فى رأيه فلماذا يعجز عن فعل ما هو صواب ؟ انه من العبث أن يضحى انسان بسعادته بسبب ظروف يمكن تغييرها ، هذا لن يفيد أى انسان ، وان مد فى عمر عائلة رجعية أيامــا معدودات ! لماذا لا تتزوج « مى » مــرة أخرى ؟ ولماذا تزوج الأخ الكبير «روا ــ جيا» مادام مغرما «بمى» ؟ ولماذا يفكر « جيا ــ شن » فى « مى » بعد زواجه من « روا » ؟

ان « جيا ــ خوى » يفهم ولا يفهم ، ان كل شىء فى نظام عائلته يعد مشكلة معقدة بالنسبة له ، ان عقليته المباشرة المتحمسة

لا تجد تفسيرا لها ، وفى أثناء تأمله لأخيه والألم يقطر من ملامحه صدمته فكرة مخيفة ‥ انها مأساة حقيقية لأمثال « جيا ـ شن » أن يعيشوا بلا بارقة من أمل ‥ فات أوان انقاذهم ٠ وتقديم أفكار جديدة لهم ، وفتح أعينهم على الوجهة الحقيقية للعالم سيزيد من بؤسهم ‥ ان الأمر سيصبح عندما تريهم الحقيقة كأنك تخرج جثة ميت من ظلام القبر لترى فى نور الحياة الجديدة لحمها العفن وقد أصبح جيفة نتنة !

مزقت هذه الحقيقة المرة عقل « جيا ـ خوى » وآلمته أشد الألم ، بدا كل شىء واضحا أمامه الآن ، وانتابه احساس غامض بأن مستقبلا مظلما ينتظره ويخبىء له فى طياته التعس والندم ، رأى أمامه هوة لا يسبر غورها ، تفغر فاها أمام الناس أمثال أخيه الكبير وتقدم هؤلاء الناس نحوها بلا تردد وكأنهم لا يعرفون ما ينتظرهم، فقد أعماهم اليأس عن معرفة المصير الذى سينتهون اليه ٠

وبرغم رؤيته لهم وهم يسـيرون الى الهاوية كان عاجزا عن انقاذهم ‥ يا للمأساة ! تحطمت معنويات « جيا ـ خوى » ، وشعر بأنه وقع فى طريق ضيق مسدود لا يستطيع أن يجد لنفسه منه مخرجا ‥ وبدت له ضحكات الأطفال خارج المبنى كأنها تسخر منه ٠

ـ كفى ! كيف يحتمل رأسه الصغير كل هذه المشـاكل ؟ فلتسر الأمور فى مجراها الطبيعى ، ويكفينى أننى أتصرف كرجل ٠ بدا له أن هذا هو أحسن الحلول ، ولم يقبل مناقشة الأمر أكثر من ذلك ٠

أطل « جيا ـ خوى » برأسه من النافذة ، فرأى اثنين من أبناء عمومته « جيا ـ ين » و « جيا ـ تشوين » ٠ ورأى أيضا أخته « شوا ـ خوا » وبنات عمومته « شو ـ تشين » و«شو ـ فين» و « جيا ـ من » ٠ تبارى الأطفال فى ضرب كرة صغيرة خفيفة

بباطن أقدامهم ، ومن يضرب الكرة مرات أكثر دون أن تسقط منه على الأرض يفز على الآخرين ٠

حياهم « جيا ــ خوى » بصيحة مرحة ، فأدارت أخته « شو ــ خوا » رأسها نحوه وهى منهمكة فى ضرب الكرة والعد فى نفس الوقت ٠ أدى ذلك برغم محاولات التحكم فى قدمها المعلقة فى الهواء الى سقوط الكرة على الأرض ، وكانت سجلت رقم مائة وخمسة وأربعين ٠

وقف « جيا ــ من » ضمن من يعدون لها ضرباتها وقد انتابهم القلق من الرقم الذى وصلت اليه ، وعندما أخطأت وسقطت الكرة ارتفع هتافهم فرحا بذلك ، فغضبت « شو ــ خوا » وضربت الأرض بقدمها ،وقالت انها غلطة « جيا ــ خوى » ، فحاول الدفاع عن نفسه واثارتها :

ــ ليست غلطتى ، اننى لم أكن أتحدث اليك ! ثم استدار وهبط السلم ، واكتشف أن « جيا ــ شن » غادر المبنى ٠

سمع «جيا ــ خوى » صوت أخيه « جيا ــ شن » وهو يشارك الأطفال فى لعبهم ، بدت له حركات « جيا ــ شن » الغريبة فى أثناء اللعب مثيرة للضحك ، وبرغم جدية ملامح « جيا ــ شن » فانه كان يستمتع باللعب استمتاعا كاملا ٠

وشاهد « جيا ــ خوى » ذلك وتعجب من السهولة التى ينسى الناس بها مشاكلهم ، ففى لحظة قصيرة يمكن أن يتغير مزاج الانسان كلية ، هل هى مقدرتنا على النسيان التى تمكننا من تحمل المصائب التى نبتلى بها ؟ بدأ « جيا ــ خوى » يفهم قليلا أخاه الكبير ٠ ان « جيا ــ شن » يستطيع أن يفتح مقبرة الماضى ، ثم يغلقها مرة أخرى ، وينسى كل شىء عنها !

الفصل الخامس عشر

عندما أرخى الليل سدوله فى تلك الأمسية بدأت الصواريخ النارية تنفجر فى أماكن متفرقة ، وشيئا فشيئا انتشرت فى كل المنطقة ، ورددت الشوارع الهادئة أصوات الانفجارات وهز دويها الأرض . كانت الأصوات حادة عنيفة لا يمكن معرفة الاتجاه الصادرة منه وكأنها موجات من صهيل وضربات حوافر عشرة آلاف جواد جامح .

تجمع آل « جاو » فى قاعة الأسرة بعد تناولهم وجبة العشاء، وارتدى الجميع ثيابهم الجديدة ، ووقف الرجال فى الجانب الأيسر من القاعة على حين وقفت النسوة فى الجانب الأيمن ، غمرت الأنوار القاعة وكأنها شمس النهار ، فتح بابا القاعة وأمام محراب الأسلاف وضعت مائدة المحراب القائمة الزوايا المغطاة بالمخمل الأحمر . ووضع موقد ضخم أمام المحراب أوقدت فيه قطع كبيرة من الفحم كومت كجبل صغير يتأجج بلهيب أحمر براق ، ووضعت ثلاثة أفرع من البلسم أخذت تئز بصوت واضح وهى تحترق وتبعث بدخان نفاذ يخز أعينهم وأنوفهم ، وكان هناك مزيد من الأفرع ملقاة على السجادة الصفراء التى تغطى أرض القاعة ، ووضعت وسادات مكسوة بالمخمل الأحمر أمام الموقد للركوع عليها .

وضعت شمعدانات طويلة ومبخرة ضخمة بالقرب من الحافة الخارجية لمائدة المحراب ، ورصت كئوس الخمر على حواف المائدة ، ولا يعرف عدد هذه الكئوس سوى أفراد قلائل من العائلة ، وقد

قام « كا ـ منج » بالاشراف على الاحتفال حيث ان سن والده الشيخ المبجل « جاو » لا تساعده على الاشراف على هذه الأمور ٠

لبس « كا ـ منج » وأخوه « كا ـ آن » ثيابا طويلة وسترات ذات أكمام واسعة ، وأخذا يصبان فى الكئوس خمرا بيضاء صافية، وأشعلا أعواد البخور ووضعاها فى المبخرة ، ثم ذهبا الى الغرفة الداخلية ، دعوا الشيخ المبجل « جاو » للحضور وبدأ الاحتفال ٠

خيم السكون على الحاضرين عندما ظهر الشيخ الكبير وأعطى « كا ـ منج » الأمر ببدء الألعاب النارية ، فأسرع أحد الخدم الى البوابة الداخلية التى كانت مفتوحة على مصراعيها وصاح ٠٠ أطلقوا ٠٠ ودوى فى السماء صوت انفجار ٠

وفى تلك اللحظة غادرت النسوة القاعة عن طريق باب جانبى ، على حين اصطف الرجال وظهورهم لمائدة المحراب ، ركع الشيخ المبجل « جاو » فى اتجاه الباب الرئيسى ، وسجد حتى لامست جبهته الأرض محييا آلهة السماء والأرض ، وتبعه فى ذلك أبناؤه الثلاثة فركعوا فى صف واحد ، ثم سجدوا معا ٠ كان « جيا ـ شن » فى الخارج يحمل عودا من البخور ذهب به الى المطبخ ممثلا عودة آله المطبخ بعد أن قدم للسماء تقريره السنوى عن الطريق الذى سلكته الأسرة ٠ دخل « جيا ـ شن » القاعة فى اللحظة التى اصطف فيها شقيقاه وأبناء عمومته الثلاثة ليسجدوا لآلهة السماء والأرض ، وبعد ذلك استدار الرجال واتجهوا صوب مائدة المحراب ٠ أسرعت النسوة اللائى كن يختلسن النظرات من الباب الجانبى بالدخول الى القاعة ٠

وطبقا للتقاليد كان الشيخ المبجل « جاو » أول الساجدين أمام محراب الأسلاف ، ثم غادر الغرفة ٠ وتبعه الآخرون ٠٠ السيدة « تشو » والأعمام والعمات ثم السيدة « تشين » ٠ سجدوا

جميعا فى هدوء واستغرق ذلك ما يقرب من نصف ساعة كاملة ، ثم جاء دور الأطفال ٠٠ جيل « جيا ـ شن » وعددهم تسعة ٠٠ ولما كان هـذا الاحتفال يحدث مرة واحدة فقط كل عـام فقد ارتبك الأطفال فى أثنائه ، فالمفروض أن يركعوا ويسـجدوا ثلاث مرات ينهضون بعدها ثم يكررون ذلك مرتين ، لكن الأطفال التسـعة لم يستطيعوا تنسيق حركاتهم ، وكان الطفلان « جيا ـ تشوين » و « جيا ـ شى » بطيئين للغاية ، وقبل أن ينتهيا من السجود ثلاث مرات كان الآخرون قد نهضـوا ، فزحف « جيا ـ تشـوين » و « جيا ـ شى » على أقدامهما فى حين بدأ الآخرون الركوع للمرة الثانية ٠ ابتسم بعض الحاضرين ، وحثت السيدة « وانج » طفليها على الاسراع ، حنى الأطفال التسعة رءوسهم عند انتهائهم من مراسم الاحتفال وسط ضحكات الحاضرين ، كانت لهؤلاء الأطفال القدرة على الانتهاء من المراسم بسرعة فائقة لا يقدر عليها الكبار ٠

قادت « روا ـ جيا » أربع فتيات الى وسائد الركوع المصنوعة من المخمل الأحمر وهن « شـو ـ انج » و « شـو ـ خوا » و « شو ـ شين » و «شو ـ فين» كانت حركاتهن طبيعية وبطيئة نسبيا ، وأكثر تناسقا من الأولاد ، وبدت «شو ـ فين» رائعة برغم أنها لم تكمل بعد عامها السابع ، وبعد ذلك أحضرت « روا ـ جيا » طفلها الصغير « خاى ـ تشين » ليقدم تحياته ٠

رفع الخدم الأغطية المخملية من فوق وسائد الركوع ، وذهب « كا ـ منج » الى الغرفة المجاورة ليدعو الشيخ المبجل « جاو » للظهور ثانية ، ودخل الشيخ القاعة ، فركع حوله الرجال والنساء من جيل « كا ـ منج » فى شكل دائرة ثم سجدوا وتبعهم حفدته وحفيداته ، فتقبل الشيخ المبجل تحياتهم بوجه باسم ، ثم عاد الى غرفته ٠

امتلأت القاعة بجو مرح بعد رحيل الشيخ المبجل « جاو» •
كون الجيل القديم من الرجال والنساء نصف دائرة على السجادة المخملية ، وسجد كل منهم للأخر ، وسجد الأطفال لآبائهم وانحنوا لأعمامهم وعماتهم ، وفى النهاية اجتمعوا فى شكل دائرة كبيرة بناء على اقتراح السيدة « تشوو » للضحك والتسامر على حين انصرف الأطفال والشبان للعب ، لكن « جيا ـ شن » وزوجته بقيا مع الكبار ليتلقوا تحيات الخدم •

تسلل « جيا ـ من » و « جيا ـ خوى » من القاعة من خلال أحد الأبواب الجانبية ، وأسرعا الى غرفتهما ليتجنبا رؤية الخدم وهم ينحنون لهم فى خضوع لكنهما ضبطا وهما يمران أمام شقة السيدة « تشوو » • قامت ماما « خوانج » فى البداية بتحيتهما باحترام بالغ ، وتمنت لهما الخير من أعماق قلبها ، فتأثرا بذلك وضم كلاهما يديه أمام وجهه وهما ينحنيان لها تحية واحتراما ، وتلت ماما « خوانج » ثلاث خادمات •

وأخيرا جاءت « منج ـ فونج » وقد وضعت على وجهها بعض المساحيق ، وتدلت ضفيرتها السوداء لامعة متألقة ، وفوق سترتها المبطنة ارتدت معطفا مطرز الحواشى • انحنت « منج ـ فونج » « لجيا ـ من » ثم اتجهت الى « جيا ـ خوى » وابتسمت ابتسامة مشرقة :

ـ سيدى الفتى الثالث ••

ثم انحنت انحنـاءة سريعة • رد « جيا ـ خوى » تحيتهـا بابتسامة أكثر اشراقا • أنسـته تلك اللحظة التى تبادلا فيهـا الابتسامات علانية كل الأحداث المؤلمة التى مرت به طوال حياته ، وبدا له العالم مكانا جميلا رائعا • كان لشعوره هذا ما يبرره ،

فكل ما بالدار يردد أنغام السعادة والمرح ، ولم ينعم العالم بأسره خارج هذه الدار بشيء من اهتمامه فى تلك الليلة . ونسى أيضا ذلك المنسول الصغير الذى رآه فى الليلة الماضية .

هبط الخادم الدرجات التى هى خارج قاعة العائلة وصاح :

ــ أطلقوا الصواريخ !

وردد صوت آخر هذا الأمر ، ثم اندفعت من الفناء الخارجى بين البوابة الأمامية والبوابة الداخلية صواريخ نارية حلقت فى السماء فى مشهد رائع يخطف الأبصار بجماله ، وتلا هذا الانفجار تسعة انفجارات متتالية . كانت هذه الصواريخ هدية من السيدة « تسانج » والدة « تشن » .

جلس الشيخ المبجل « جاو » على كرسى وضع فى مدخل قاعة العـائلة ، وأحاطت به زوجات أبنائه وهو يراقب العرض ، ويبدى بعض الملحوظات .

ذهب « جيا ــ خوى » مع الصبية من أبناء عمه الى القاعة الرئيسة فى الفناء الأمامى حيث يمكنهم رؤية العرض بوضوح ، وكان الصغار قد اشتروا بعض الصواريخ النارية : دلايات الذهب والفأر الهارب والكتاب العجيب والسهام ، وانتظروا الى أن تحين الفرصة ليطلقوها .

عندما انتهى العرض غادر الكبار قاعـــة العـــائلة . طلب « جيا ــ شن » ، وأعمامه الثلاثة المحفات ليقوموا بتقديم تحية نهـــاية العـــام لأصدقائهم ذوى المكانة الاجتماعية على حين وقف « جيا ــ خوى » خارج القاعة الرئيسية يرقب أبناء عمومته وهم يطلقون صواريخهم .

وضعت مائدة اللعب فی غرفة الشیخ المبجل ، جلس حول المائدة الشیخ الکبیر والسیدة « تشوو » والسیدة « تشانج » والسیدة « وانج » علی حین جلست السیدة « تشین » بجسمها الضخم وقد خلعت ثوبها الخارجی الأحمر الی جوار الشیخ المبجل « جاو » ، لتساعده فی المباراة ، ووقفت الخادمات والجواری حولهم ، لیملأن النرجیلة ویقدمن الشای ٠

جلست « روا ــ جیا » و « شو ــ انج » و « شو ــ خوا » والسیدة « شین » للعب « الما ــ جیانج » فی عرفة « جیا ــ شن » ٠ عرضت «روا ــ جیا » مقعدها علی « جیا ــ من » بوصفها مضیفة لیجلس علیه ، لکنه رفض ذلك ، وآثر الوقوف خلفها لیراقبها وهی تلعب ، ثم انصرف بعد انتهاء المباراة الأولی ٠

لم یعد « جیا ــ من » الی غرفته ، وانضم الی « جیا ــ خوی » وأبناء عمومته خارج القاعة الرئیسة ٠ کان « جیا ــ خوی » یطلق للصبیان صاروخ الکتاب العجیب وصاروخ السهام ٠٠ وانطلقت کرة من النار فوق السقف ، ثم اختفت فی الهواء ٠٠ انه صاروخ کاذب ، ثم اقترب « جیا ــ من » من أخیه وهمس فی أذنه :

ــ لنذهب لزیارة « تشن » ٠

وافق « جیا ــ خوی » ، وانصرف الشقیقان ، ولم یبالیا توسلات أبناء عمومتهما لکی یبقیا حتی تنتهی الألعاب الناریة ٠

ظلت الفوانیس الضخمة معلقة فوق البوابة الأمامیة ، وأخذت تبعث بأشعتها الکئیبة الحمراء فی حین جلس البواب العجوز علی کرسی خشبی قدیم ذی مساند یتسامر هو وأحد حملة المحفات الذی کان جالسا فی مواجهته فوق مقعد ، وعندما رأی الشقیقین هب واقفا تحیة لهما ٠

فى أثناء عبورهما عتبة البـاب لاحظا وجهـا مخيفا مكفهرا بجوار الأسد الحجرى على يمين البوابة ، لم يستطع الفتيان معرفة وجه خادمهما السابق « جاو ـ شـينج » وقد انعكس عليه ضوء الفانوس القاتم ومضيا فى طريقهما •

لقد خـدم « جاو ـ شـــينج » عائلة « جاو » قرابة عشر سنوات • ثم أدمن الأفيون ، وسرق بعض الصور الخاصة بالشيخ المبجل وباعها ، واكتشفت السرقة وقضى فترة فى السجن ، وبعد أن أطلق سراحه هـام على وجهه يلتمس قـوت يومه ، لكنـه فى المناسبات الهامة يعود الى بيت أسـياده السابقين التماسـا لبعض المنح النقـدية التى تقدمهـــا العائلة عادة للخـدم فى مثـل تلك المناسـبات • لم يجرؤ على دخول الدار خجلا من ثيابه البالية ، وفضل الانتظار خارج البوابة الرئيسة حتى يخرج أحد رفاقه من الخدم ويرجو منه تبليغ طلبه • كانوا دائما يمنحونه ما يطلب ، وطلباته كانت دائما متواضعة ، علاوة على أنه يتقدم بها فى أوقات صفاء سادته السابقين •• وبمضى الوقت ألفت يده أن تمتد طلبا للاحسان ، وأصبحت عادة راسخة فيه •

تسلم اليوم هبته الصغيرة كالعادة ، لكنه لم يرحل هذه المرة فور حصـوله على تلك الهبة ، بقى مختفيا خلف أحد الأســـود الحجرية ، وأخذ يربت بيده أحد جوانبه البـاردة ، فلم يشـمئز التمثال من تدليل الخـادم العجوز له ، وطافت بخياله صـــور الاحتفالات التى يعلم جيدا أنها تجرى داخل الدار •

عرف الخادم الشقيقين عند ظهورهما ، انه يذكر « جيا ـ خوى » جيدا ، فطالما استلقى السيد الثالث فى سريره ، واستمع له وهو يروى القصص على ضوء المصباح الشاحب ، راودته رغبة فى أن يتقدم اليهما ويصارحهما بما فى قلبه من اعزاز ومحبة ،

لكنه تنبه لثيابه الرثة وتذكر خزيه وعاره وفضيحته القديمة ، فتراجع الى الوراء وأقعى منكمشا وراء الأسد الحجرى حتى لا يشاهداه ٠

ومضى الشقيقان فى طريقهما ، وفى تلك اللحظة نهض الخادم ، وأخذ ينظر اليهما ولاحقتهما عيناه الكليلتان حتى اختفيا ٠٠ ثم وقف فى منتصف الطريق ولم يشعر بالرياح وقد تجردت من الرحمة ، فاخترقت ثيابه الرقيقة ، ونهشت هيكله العظمى ٠ انتابه احساس بالوحدة أخذ يمزق قلبه ٠٠ آلمته وحدته ألما لم يذق مثله من قبل ، وحملته قدماه على الطريق ، فسار فى فتور وقد أمسكت احدى يديه بالنقود التى أعطاها اياه أسياده ، وتعلقت يده الأخرى بصدره ٠

وبينما الخادم يمضى فى طريقه كان « جيا ـ من » و « جيا ـ خوى » ينطلقان فى الشارع وقد أشرق قلباهما بالأمل والفرح ، وداسا بأقدامهما بقايا الألعاب النارية ، سارا فى شوارع هادئة وأخرى صاخبة ، ومرا بمحال تحترق أمامها شموع ضخمة الى أن وصلا أخيرا الى دار « تشن » ، فداعبتهما أفكار مفرحة ممتعة ، ولم يخطر ببالها قط رجل يدعى « جاو ـ شينج » ٠

منزل « تشانج » بارد المظهر ، علق على بوابته مصباح كيروسين واحد يدل على رقة حال أهل الدار ٠

يقتسم هذه الدار برغم صغرها ثلاث أسر ٠ ترأس أرملتان أسرتين منها ، وليس فى هذه الدار سوى ثلاثة فتيان بالغين ، لذا مضت الحياة هادئة فى هذه الدار وان بعث الاحتفال بليلة رأس السنة قدرا يسيرا من الحيوية فيها ٠

وأسرة « تشانج » أهدأ هذه الأسر جميعا ٠ فهى تتكون من

أرملة وابنتها • و « لتشن » جدة تعيش فى الدير ، ونادرا ما تأتى الى البيت ، ويعكف على خدمة هذه الأسرة رجل وامرأة منذ أكثر من عشر سنوات •

وعندما دخل الفتيان الفناء الشرقى حيث تقيم أسرة «تشانج» جاء خادم وحياهما •• نادى الفتيان عمتهما من تحت النافذة فردت عليهما ، ثم دخلا ، وركعا أمام عمتهما وقالا لها :

ـ تحياتنا لعمتنا فى ليلة رأس السنة •

وبالرغم من اعتراضهما على هذا اللون من التحية فانها لم تتمكن من منعهما ، فقد فاجأاها بذلك ، دخلت « تشن » فضم الفتيان أيديهما وانحنيا بطريقة رسمية ، دعتهما السيدة « تشانج » الى غرفة الجلوس على حين ذهبت الخادمة ، الأخت « لى » لعمل الشاى •

وعلم الفتيان من السيدة « تشانج » أن أخاهما « جيا ـ شن» وعمهما « كا ـ منج » زاراها زيارة رسمية وأسرعا بالانصراف، وتسامر الفتيان قليلا والسيدة « تشانج » ، وطلبا منها قضاء أجازة العام الجديد فى دار « جاو » بيتها أيام الطفولة ، لكنها قالت لهما : انها ستأخذ « تشن » لزيارة جدتها فى الدير ، ثم سيحضران بعد ذلك الى دار « جاو » حيث ستبقى هى يوما أو يومين ، لأنها تفضل الهدوء ، وتترك « تشن » لتبقى بضعة أيام • سر الفتيان بذلك ، وطلبت منهما « تشن » الذهاب الى حجرتها ، فتبعاها الى حيث سارت •

فوجىء الفتيان برؤية فتاة نحيفة ترتدى صدرية فوق ثوب حريرى خفيف الزرقة ، جلست الفتاة على حافة السرير تقرأ على ضوء مصباح كيروسين ، رفعت الفتاة رأسها عند سماعها وقع

أقدامهم ثم وضعت الكتاب وهبت واقفة ، فنظر الفتيان اليها دون أن ينطقا بكلمة وسألتهما « تشن » فى دهشة :

ـ ألا تعرفانها ؟

ابتسمت الفتاة ابتسامة حزينة مستسلمة زادت من تجاعيد جبهتها ، تلك التجاعيد التى زادت من جمالها وحزنها . قال « جيا ـ خوى » محاولا تهدئة الموقف :

ـ نعم ، طبعا .. طبعا !

تركت الفتاة أثرا عميقا فى الشقيقين ، لقد مضى الزمن سريعا وها هى ذى الآن أمامهما جميلة حزينة كما كانت دائما : نفس الجسم النحيل ، ونفس الشعر الجميل ، ونفس العيون الصافية ، لم يزد عليها شىء سوى تلك التجاعيد التى زادت عمقا فى جبهتها ، وضفيرتها الطويلة التى لفت فى شكل دائرة كما تفعل النسوة المتزوجات ، وظهرت بعض المساحيق الخفيفة على وجهها .. لم يتوقع الشقيقان رؤيتها فى هذا المكان ..

ـ كيف حالكم جميعا ؟ .. لقد انقضى زمن طويل !

لم تنطق « مى » بأكثر من ذلك برغم أنها عانت الكثير حتى وجدت تلك الكلمات اليسيرة .

فأجابها « جيا ـ من » بعطف وهو يحاول اغتصاب ابتسامة :

ـ نحن جميعا بخير يابنة العم « مى » ، كيف حالك أنت ؟

ـ لا جديد سوى أنى فى الأعوام الأخيرة أصبحت شديدة الحساسية ، فأنا أتألم بسهولة ، وأشعر دائما بالكآبة والحزن .

قطبت « مى » جبينها ، انها كما هى .. نفس الانسانة المضطربة !

قال « جيا ـ خوى » :

ـ الظروف قد تغير الانســان ، لكنك ما زلت كما كنت ، ولم يتغير فيك شيء •

فقاطعتهم « تشن » :

ـ لم لا تجلسون ؟ لا داعى لوقوفكم هكذا ! ألأنكم لم تتقابلوا طوال عامين تتعاملون بهذه الطريقة الرسمية ؟

جلس الجميع واتخذت « تشن » مكانها على السرير الى جوار « مى » ••

قالت « مى » :

ـ كنت أذكركم دائما بعد أن افترقنا ، مضت الســـنوات الأخيرة كحلم مزعج ، والآن انتهى كل شيء ، ولم يبق لى سوى قلب خاو حزين •• ثم استدركت قائلة :

ـ لا •• لا ، ما زلت أحلم •• ولا أعلم متى أستيقظ حقا ؟ أنا لست نادمة على شيء وان كان لدى ما أندم عليه فهو وقوفى عقبة فى طريق سعادة انسان آخر •

قالت « تشن » وهى تربت كتف « مى » :

ـ لا تتركى التشاؤم يذهب بك الى هذا الحد يا ابنة العم « مى » ، مازلت صغيرة ومن يستطيع التكهن بما يخبئه لك القدر ؟ ستنعمين بالسعادة ، ولا داعى لهذا الحديث الكئيب !

اننا ندخل الى عصر جديد ربما يحمل لك المستقبل السعادة وراحة البال •

وابتسمت « تشن » ، وهمست ببعض كلمات فى أذن « مى » :

فاحمر وجه « مى » خجلا ، وانبسطت أساريرها ، وأضاء وجهها بنور ساطع ·· ونظرت الى « تشن » ، ثم أعادت خصلة من شعرها الى مكانها ، لكن وجهها أظلم مرة أخرى ، وقالت «لتشن» بابتسامة حزينة :

ـ أعتقد أن كلام الأخ الثالث يحمل فى طياته الكثير ·· ان الظروف تجعل الأمر مختلفا ، وظروفنا مختلفة للغاية · أنا لست مثلك ، لن أستطيع مسايرة الأزمنة المتغيرة ، فطوال حياتى كنت ألعوبة فى يد القدر ، لم يسمح لى بابداء الرأى فى أى شىء ·· أين أملى فى السعادة ؟

ثم ضغطت على يد « تشن » ونظرت اليها ، ثم شمخت برأسها وقالت :

ـ اننى أحسدك يا « تشن » ، أنت قوية شجاعة ، ولن تخضعى لأى شىء ·

فرحت « تشن » بمدح « مى » اياها ، لكن فرحتها تلاشت كنسمة عابرة · وبقيت على شفتيها ابتسامة حزينة تستخدمها بعض الفتيات عندما تواجههن مشكلة غامضة ، فبالرغم من مدحها لشجاعتها وقوتها لا تجد الآن لها ملاذا سوى تلك الابتسامة ·

قال « جيا ـ خوى » فى انفعال :

ـ لا أحد ينكر أهمية الظروف ، لكن لماذا لا نغير تلك الظروف ؟ ان الانسان هو صانع تلك الظروف ، يجب على الانسان مقاومتها دائما ، يجب أن نتغلب على ما يحيط بنا من صعاب حتى نحقق السعادة لأنفسنا ·

كان « جيا ـ خوى » يريد أن يقول الكثير ، لكنه توقف ٠

أثارت « مى » فى نفس « جيا ـ من » مشاعر مختلفة ٠٠ الحزن والرضا ، والفزع والعطف والخوف ٠٠ لم تكن « مى » هى السبب الوحيد فى اثارة تلك المشاعر ، بل كان تفكيره فى مصيره سببا آخر لما انتابه ، لكنه عندما شاهد أمارات التصميم ترتسم على وجه « تشن » استعاد هدوءه ، واستطاع كذلك أن يجد كلمات يواسى بها «مى » ٠

ـ واجهتك متاعب كثيرة فى السنوات القليلة الماضية ، هذا هو سبب حزنك الدائم ٠ لكن فى السنوات القادمة ستتغير الأحوال ، وستتغيرين أنت كذلك ٠ فى الواقع أن موقفنا ليس أحسن من موقفك ما عدا أنه قد سبق لك الزواج ، فلنعتبر أنك حلمت حلما مزعجا ٠٠٠ ان العالم واحد أمامكما والاختلاف الوحيد بينكما أنك تنظرين الى الجانب الأسود منه على حين تنظر هى الى الجانب المشرق ٠ هذا هو سبب حساسيتك الشديدة فى حين لا تبالى « تشن » أى شىء ٠

قال « جيا ـ خوى » :

ـ ابنة العم « مى » ، لماذا لا تقرئين المزيد من الكتب الجديدة ؟ ان لدى « تشن » بعضا منها ٠

كان « جيا خوى » يعتقد أن الكتب الجديدة كفيلة بحل جميع المشاكل ٠

وابتسمت « مى » فى حزن وتمهلت فى اجابتها ، واكتفت بالنظر اليهم بعينيها البراقتين ٠ انهم لم يستطيعوا معرفة ما يدور بخلدها ، وفجأة كفت عن النظر اليهم وشردت نظراتها الى لهيب المصباح وتنهدت ٠٠ حاولت الكلام لكنها ترددت ، وأخذت تضغط شفتيها فى صمت ، وأخيرا قالت :

ـ كلام جميل ، لكن لا فائـدة ٠٠ ما جـدوى قراءة الكتب الجديدة ؟ ثم توقفت قليلا ، وعادت لاستئناف حديثها :

ـ كل شيء ميئوس منه ، ومهما تغيرت الأزمنة فان ظروفي لن تتغير ٠

لم يجد « جيا ـ من » ما يقوله ، فهو يعلم أنها على حق فيما قالت ، كل شيء ميئوس منه ، لقد سبق لها الزواج والأخ الكبير له زوجة ، ومهما تغيرت الأزمنة فلن يجتمع شملهما ، علاوة على ذلك فهناك عداء بين الأمهات ٠

وحتى « جيا ـ خوى » بدأ يتيقن أن هناك مشاكل كثيرة لن تجد لها حلا فى الكتب ٠

جلس الجميع يبحثون عن تعليق مناســب ، لكن « مى » قطعت صمتهم :

ـ كنت أطالع الآن بعض مجلات الشــباب الجديد الخاصة « بتشن » ٠ بطبيعة الحال كانت هناك أشياء لم أفهمها ، لكنى فهمت أغلبها ، بها بعض المقالات الممتازة ، وقد فهمتها جيدا لأنى قاسيت كثيرا ، لكن قراءتها لم تترك لى سوى الألم ٠ انهم يتحدثون عن عالم آخر ، علم غريب عنى لا شأن له بى ٠ وبالرغم من اعجابى بهذا العالم الجديد فانى أعلم أننى بعيدة عنه ، ولن أصل اليه ٠ اننى أشـعر كأنى متسـولة تقف خلف حائط حديقة أسرة غنية لتسمع ضحكاتهم وهى تنطلق داخل الحديقة ، أو كأنى أشم رائحة شواء اللحم وأنا أمر جوعى أمام باب مطعم ٠٠ انهـا مجـرد ألم بشع !

ازدادت تجاعيد جبهة « مى » عمقا ، وأخرجت منـديلا من صدرها بعد أن اجتاحتها نوبة من السعال ، ثم ابتسمت فى مرارة وحزن ٠

ازدادت نوبات السعال أخيرا ، لقد جافانى النوم فى ليالى المظلمة ، ان قلبى يؤلمنى ٠

توسلت اليها « تشن » :

ـ انسى الماضى يابنة العم « مى » ، لماذا تعذبين نفسك به ٠ اعتنى بصحتك ، ان قلوبنا تتمزق عندما نراك على هذه الحال ٠

فابتسمت « مى » ، وهزت رأسها « لتشن » اعترافا بجميلها ، لكن صوتها ظل على حزنه :

ـ أنتم تعرفون طباعى ٠٠ لن أنسى الماضى أبدا ٠ انه محفور فى قلبى ٠٠ أنتم تعلمون كيف أقضى أيامى ، ان بيتى يشبه بيوتكم ، لى أم وأخ صغير مشغول بالاستعداد للامتحان ، وأمى مشغولة كذلك بلعب « الما ـ جيانج » أو بزيارة الصديقات على حين أبقى وحيدة فى البيت أجلس وأقرأ الشعر دون أن أجد انسانا أشكو له متاعبى ٠٠ الورد الذابل يبكينى ، والقمر الشاحب يضنينى ! ٠٠ كل شىء يثير الذكريات الحزينة ، مضى عام الآن منذ تركت منزل زوجى وعدت لوالدتى ، هناك شجرة خارج نافذتى زرعتها قبل رحيلى لأتزوج ، كانت مزهرة فى ذلك الحين ، لكن عندما عدت وجدت أفرعها جرداء ، كنت أفكر دائما ٠٠ هذه الشجرة مثلى ٠٠ كانت هناك عواصف فى الليالى القليلة الماضية ، قضيت الليل بطوله مستلقية على السرير وقد جافانى النوم ، ظل المطر ينهمر على السقف والنوافذ ، وأخذت أتأمل ضوء المصباح الشاحب الكئيب ٠

الرياح والأمطار تذكرنى بالماضى ، فيبعث كالحلم الكئيب ليعذبنى ٠٠ يمكنكم ادراك مشاعرى ! فى الغد ؟ الغد ؟ لكم

غدكم ٠٠ ولكن أين غدى ؟ ٠٠ أين ؟ ليس لى ســـوى الأمس ، وأحداث الأمس تعذبني وتشقينى ٠٠ لكن ماذا أملك ســـواها ؟

وفجأة تغيرت نبرات صوتها وسألت الشقيقين :

ـ كيف حال الأخ الكبير أبخير هو ؟

تأثر الفتيان لما ســـمعاه وأذهلهما هذا التغير المفاجىء فى مزاجها ، ونجح « جيا ـ خوى » بفضل سرعة بديهته فى الوصول الى اجابة مختصرة :

ـ بخير ٠٠ قال لى : انه رآك فى ذلك اليوم ٠

فهمت « مى » ما يقصـــده « جيا ـ خوى » أما « تشـــن » و « جيا ـ من » فنظرا اليها فى دهشة ٠

أصبت فيما قلت ٠ لقد تقابلنا ٠٠ عرفته حين رأيته ، كبر قليلا ، ربما غضب لأنى تجنبته ٠ كنت أتوق الى الحديث معه ، لكن خشيت اثارة الذكريات القديمة ، سيتألم لذلك ولن أكون أقل منه ألما ، والى جانب وجود أمى معى جاء الى هنا منذ قليل ٠ سمعت صوته ، لكن خشيت النظر اليه فى خلال شرخ فى الباب ، وبرغم ذلك اختلست نظرة اليه وهو يبتعد ٠

قال « جيا ـ خوى » :

ـ أنا واثق أنه لم يغضب منك ٠

تدخلت « تشن » راجية ٠

ـ لا تتحدثوا عن هذه الأشـــياء مرة أخرى ٠ خشيت أن تشعرى بالوحدة فى بداية العام الجديد ، لذا دعوتك للحضور الى ٠ لم أكن أعلم أن هذا سيجعلك تفكرين فى الماضى الى هذا الحد ،

وأخطأت حين دعوت الفتيين للحضور هنا · وشيئا فشيئا خف حزن « مى » ، وبالرغم من تقطيب جبينها أشرق وجهها ، ونطقت شفتاها بابتسامة :

ـ لا ضرر فى هذا ، لقد ارتحت لهذا الحديث ، ففى البيت لا أجد من أتحدث اليه الى جانب أننى أستمتع بالحديث عن الماضى ·

ثم سألت الفتيين أسئلة كثيرة مضطربة عن أخيهما الكبير وزوجته ·

الفصـــل الســـادس عشر

جاوزت الساعة الحادية عشرة عندما غادر « جيـــا ـ من » و « جيا ـ خوى » دار « تشانج » ، ظلت الشوارع حافلة بالنشاط، سارا فى الشوارع الرئيسة المرصوفة بالأحجار وشاهدا المصابيح المتألقة فى المحال والحـانات على طول الطريق ، وأخـيرا تخلصـا من الانقباض الذى خلفه لقاؤهما « بمى » •

تعجلا الوصول الى البيت ، فسارا بسرعة وفى صمت وعندما وصلا الى شارعهما وجداه هادئا وقد تناثرت عليه بقايا الألعـــاب النارية ، ولكن عندما وصلا الى الأسود الحجرية القائمة عند مدخل دار « جاو » شعرا بما تموج به الدار من مرح ونشاط •

فتحت جميع الأبواب ، تجمع الخدم وحملة المحفات حول مائدة تظللها أضـــواء شاحبة محدثين جلبة وهم يلعبون الزهر ، وفتحت أيضا غرفة استقبال العائلة • شاهد الفتيان أعمامهمـا وعماتهما وهم يحيطون بمائدة تغمرها أضواء باهرة وقد انهمكوا فى لعب الزهر ، كان العم « كا ـ دنج » والعمة « وانج » أكثر الجميع صخبا •

سمع « جيا ـ خوى » ضربات قطع « الما ـ جيانج » فى غرفة « جيا ـ شن » ، فدخل وشاهد المباراة لفترة قصيرة ، ثم خرج يلاحقه مزيج من أصوات ضربات قطع « الما ـ جيانج » : النقود والضحكات والهمسات • وقف على السلم كمتفرج على مسرحية ، شاهد الجميع وهم يمرحون ويضحكون ويصيحون •

وفجأة شعر بالوحدة والعزلة عن هذا الاحتفال ، وانتـــابته قشعريرة ، وجثم على قلبه يأس غامض ··· لا أحد يعطف عليه أو يهتم به ·· وازداد شعوره بالعزلة ·

تزايد احساس « جيا ـ خوى » بصعوبة فهم الأشياء الغريبة المحيطة به : ففى الاحتفالات السابقة بأعياد ميلاد رأس الســـنة كان فى مقدوره الاندماج فيها والاستمتاع بها ، وكان ينسى كل شيء عندما يضحك ويلعب مع الفتيان الآخرين ، لكنه اليوم يقف وحده فى الظلام يسمع ضحكات الآخرين ، وبدا له أنه يعيش فى عالم آخر · تساءل :

ـ هل تغير المكان أو تغير هو ؟

وبرغم أنه لم يجد اجابة محدودة لهذا السؤال فقد كان يعرف أنه وعائلته الكبيرة يسيران فى اتجاهين متعارضين ، تذكر حديث ماما « خوانج » عن الماء الصافى والماء العكر ····

هبط « جيا ـ خوى » السلم وسار فى الممرات الخالية لكى يهدىء نفسه ، مر بأحد الدهاليز ثم اتجه الى فناء داخلى · أخذت الضحكات تختفى وراءه شيئا فشيئا ، ثم وقف ، واكتشف فجأة أنه يقف خارج غرفة شقيقته « شو ـ خوا » · وفى الجانب الآخر من الفناء كانت شقة عمه « كا ـ آن » تسبح فى أضواء باهرة · ويفصل بين المسكنين تكعيبة نبات يتسلق على عوارض خشبية رقيقة متقاطعة ، وتتدلى عليها زهور بنفســـجية جميـلة ، جلس « جيا ـ خوى » على أحد المقاعد تحت نافذة غرفة شقيقته ، وأخذ ينظـــر فى شرود الى المطبـــخ فى ركن مواجـــه لـــه ، فرأى خلال الباب المفتوح الخادمات وهى منهمكات فى عملهن ·

سمع « جيا ـ خوى » صوتا خفيفا مألوفا ينبعث من غرفة شقيقته :

سمعت أنهم سيختارون واحدة منا ....

كان المتحدث هو الجارية « وانر » التى تعمل لدى عمه « كا ـ منج » وهى فتاة ذات وجه طويل تكبر « منج ـ فونج » بحوالى عام تقريبا .

شدت هذه العبارة انتباه « جيا ـ خوى » .. شعر أن فى الأمر شيئا غير عادى ، فأصغى بأنفاس مضطربة ، واذا به يسمع « منج ـ فونج » وهى تقول ضاحكة :

ـ لا حاجة للقول بأنك ستكونين محظوظة .

ردت عليها « وانر » فى غيظ :

ـ اننى جادة ، كيف يطاوعك قلبك على السخرية منى ؟

ضحكت « منج ـ فونج » :

ـ أهنئك على حظك السعيد ! .. أو يجعلنى هذا انسانة لا قلب لها ؟

تزايد غضب « وانر » ، لكن الحزن كان باديا فى حديثها :

ـ من تود أن تصير محظية ؟

حياة المحظية ليست سيئة للغاية ... انظرى الى « تشين » محظية الشيخ المبجل « جاو » .

ثارت « وانر » وأجابتها وهى تضحك فى غل :

ـ لديك اجابة لكل شيء ! أليس كذلك ؟ انتظرى سنرى من يختارون ، سيأتى دورك عاجلا أو آجلا ٠

دق قلب « جيا ـ خوى » ، وكتم صيحة ماتت على شفتيه ، وأرهف سمعه منتظرا ما تقوله « منج ـ فونج » ٠

أدركت « منج ـ فونج » فى تلك اللحظة أن هذا الأمر ليس مادة للهزل ، فظلت صامتة فترة طويلة ٠ كان الصوت الوحيد الذى يتردد فى المكان هو دقات الساعة المعلقة على الحائط ، ازداد قلق « جيا ـ خوى » ، وأخيرا سمع « منج ـ فونج » وهى تسأل فى يأس :

ـ ماذا أفعل اذا اختارونى ؟

أجابتها « وانر » فى مرارة :

ـ كل ما يمكنك عمله هو أن تذهبى وتلعنى حظك !

صاحت « منج ـ فونج » فى يأس ، واهتز صوتها من الألم عندما تصورت هذا المصير :

ـ لا ، لا ٠٠٠ لن أذهب ٠٠٠ لا أستطيع ٠٠٠ أفضل الموت على أن أكون محظية رجل عجوز !

ارتاحت « وانر » لكلمات « منج ـ فونج » فقالت لتواسى الفتاة الصغيرة وتواسى نفسها كذلك :

ـ قد يكون كذبا ، ربما أطلق أحدهم هذه الاشاعة ليخيفنا، اذا وصلت الأمور الى هذا الحد فاننا سـنجد مخرجا من ذلك ، سنطلب من السيدة « تشوو » مساعدتنا ٠

قبع « جيا ـ خوى » فى كرسيه ، ولم يتحرك غير مبـــال بالوقت أو المكان ، وأصغى الى ضحكات الخادمات وحديثهن فى المطبخ ، كانت الخادمات يسرن أحيانا بجوار نافذة العم « كا ـ آن » وهن يحملن أطباق الطعام ، لم تنظر احداهن اليه ، لكن ضحكاتهن فى المطبخ رنت فى أذنه وكأنها تسخر منه ٠

سألت « وانر » « منج ـ فونج » فى لطف وبصوت هامس أكثر من المعتاد :

ـ أعتقد أنك مغرمة بشخص ما ، أحق هذا أم لا ؟

لم تجبها « منج ـ فونج » بكلمة ، فألحت عليها « وانر » برقة :

ـ أنت تحبين ، أليس كذلك ؟ لقـــد تغيرت تصرفاتك فى الفترة الأخيرة ٠

لماذا لا تخبرينني بالحقيقة ؟ لن أخبر أى انسان بذلك ، اننى مثل أختك الكبيرة ، فلا تخبئى عنى شيئا ٠

همست « منج ـ فونج » بضع كلمات فى أذن « وانر » وبرغم أن « جيا ـ خوى » كان مصغيا بكل جوارحه فانه لم يستطع سماع ما قالته ٠

سألتها « وانر » ضاحكة :

ـ من هو ؟ أخبرينى ٠

تكهرب جسد « جيا ـ خوى » وأرهف أذنيه ٠

واهتز صوت « منج ـ فونج » قليلا وقالت :

ـ لن أخبرك ٠

فألحت عليها « وانر » :

ـ « جاو ـ تشونج » هو ؟

و « جاو ـ تشونج » هذا خـــادم شاب يعمـــل عند العم « كا ـ دنج » ٠

هدأت نفس « جيا ـ خوى » وشعر بعبء ثقيل يزاح من فوق صدره ٠

فضحكت « منج ـ فونج » :

ـ لا ٠٠٠ آه ! لماذا يحب انسان هذا الشخص ؟ أنت التى تحبينه ، ولكنك لا تصرحين بذلك ٠

اننى جادة فى حديثى ٠ كيف تجرئين على قول هذه الأشياء ، أواثقة أن « جاو ـ تشونج » لا يحبك ؟

رجتها « منج ـ فونج » قائلة :

ـ يا أختى العزيزة ، لنكف عن هذا التهريج ! ولنتكلم كلاما معقولا ، ثم استمرت فى حديثها وقد ازداد صوتها خفوتا ٠

ـ التخمين لن يسعفك ، وأنا لن أخبرك ٠ اننى الوحيدة التى أعرف اسمه ٠

كانت تشعر بالاطمئنان والأمن عندما تفكر فيه ، تسللت السعادة الى نبرات صوتها ٠

وانخفض صوت الفتاتين شيئا فشيئا ولم يسمع «جيا ـ خوى» سوى بضع كلمات تخللتها ضحكات مكتومة ، خمن أن « وانر » تتحدث عن حبها ٠٠ ثم نادت خادمة عجوز « وانر » من أحـــد

المساكن . لكن « وانر » لم تنتبه لها ، واستمرت فى رواية قصتها، وعندما اقترب النداء وبدا أن الخادمة العجوز على وشك دخول الغرفة التى تختبئان بها أجابتها « وانر » ، وأخذت تدمدم وهى خارجة من الغرفة :

ـ نحن رهن اشارتهم طوال اليوم ، وحتى فى ليلة الاحتفال برأس السنة لاننال قسطا من الراحة !

بقيت « منج ـ فونج » وحيدة فى الغرفة ، وظلت صـــامتة لاتتحرك من مكانها .

ركع « جيا ـ خوى » فوق الكرسى ، وفتح ثغرة فى النافذة المصنوعة من الورق لينظر الى داخل الغرفة ، فرأى « منج ـ فونج » جالسة على كرسى خيزران ومرفقاها على المكتب ووجهها مدفون بين كفيها ، وضعت « منج ـ فونج » اصبعها الصغيرة فى فمها وأخذت تنظر الى مصباح الزيت وقد زين عنقه بالأغصان ، وفجأة تنهدت :

ـ ما الذى يخبئه لى القدر ؟

ثم انحنت ودفنت رأسها فوق المكتب ..

طرق « جيا ـ خوى » بخفة على لوح الزجاج الصغير الذى وسط النافذة . لم يجبه أحد ، فعاود الطرق بصوت أعلى ، ونادى بصوت خفيض :

ـ « منج ـ فونج » ، « منج ـ فونج » .

فرفعت الفتــاة رأسها ونظرت حولها فلم تر أى انســان . فتنهدت ثانية :

ـ لاشك أننى كنت أحلم ، ظننت أن أحدا ينادينى .

ثم نهضت من فوق المكتب فى فتور ، فألقى ضوء المصباح على ستائر السرير ظلا لجسدها الغض فبدأ جماله ونضجه المبكر ٠

ودق « جيا ـ خوى » بعنف ونادى اسمها عدة مرات ٠

حددت « منج ـ فونج » مصدر الصـــوت ٠٠ ثم أسرعت وركعت فوق الكرسى الذى بجوار النافذة ، واســـتندت الى ظهر المقعد وسألت :

ـ من ؟

أجاب « جيا ـ خوى » بسرعة فى صوت خفيض :

ـ انه أنا ، ارفعى الستارة ٠ أريد أن أســـألك عن بعض الأشياء ٠

صاحت « منج ـ فونج » فى دهشة :

ـ أنت ؟ سيدى الفتى الثالث ؟

ثم رفعت الستارة الورقية المزينة برســـوم الحشـــائش والزهور ، فشاهدت وجه « جيا ـ خوى » المضطرب يضغط زجاج النافذة ٠

سألته فى فزع :

ـ خير ؟

ـ سمعت ما قلته أنت و « وانر » الآن ٠

خجلت « منج ـ فونج » وقاطعته :

ـ سمعتنا ؟ كنا نمزح فقط ٠

أجابها « جيا ـ خوى » فى انفعال :

ـ لاتخدعينى ؛ لنفرض أنهم قرروا تزويجك يوما ما فماذا تفعلين حين ذاك ؟

صمتت « منج ـ فونج » عدة دقائق ، وفجأة انهارت الدموع من عينيها • لم تحاول مسحها ، لكنها تمالكت نفسها أخيرا وقالت فى عزم راسخ :

ـ لن أذهب • لن أذهب لرجل آخر • أعاهدك على ذلك !

أسرع « جيا ـ خوى » يضغط بيده على زجاج النافذة ليغلق فمها ، وقال لها مؤكدا :

ـ اننى أثق فيك ، لاداعى للقسم •

تذكرت « منج ـ فونج » فجأة كمن أفاق من حلم أين هما ، فدقت على الزجاج وتوسلت اليه :

ـ اذهب ياسيدى الفتى الثالث ، يحتمل أن يرانا أحد •

ـ لن أذهب الا اذا أخبرتنى بما يحدث •

ـ حسنا سأخبرك ، لكن يجب أن تذهب فورا بعد هذا ، أرجوك ياسيدى العزيز ••••

أومأ لها « جيا ـ خوى » موافقا •

يقولون : ان صديق جدك القديم السيد « فونج » يبحث عن محظية ، وقد جاءت حرم السيد « فونج » الى هنا لتساعده فى انتقاء محظية له من بيننا نحن الجوارى ، سمعت « وانر » من سيدتها أن الشيخ المبجل « جاو » وافق على ذلك ، أما عن شعورنا نحن الجوارى فأنت تعرفه جيدا •••• لقد سمعتنا الآن ونحن نتحدث •• والآن أرجو منك الرحيل ؛ فمن الخطورة أن يراك انسان هنا الآن •

ثم جذبت ستارة النافذة ، ورفضت فتحها ثانية برغم طرقات « جيا ـ خوى » ونداءاته المتكررة ٠

فشلت محـــاولات « جيا ـ خوى » فنزل من على الكرسى ، ووقف فى شرود على السلم ٠ جالت بخاطره أشياء كثيرة وبرغم أن عينيه كانتا متجهتين الى المطبخ فانه لم ير شيئا ٠

وبقيت « منج ـ فونج » داخل الغرفة راكعة فوق الكرسى ، واعتقدت أن « جيا ـ خوى » قد انصرف ، فرفعت الستارة بحذر ونظرت الى الخارج ٠ وعندما رأته واقفا فى مكانه اهتزت مشاعرها، وبدون وعى ضغطت بوجهها على زجاج النافذة فى شرود ، واستقرت عيناها فى حنان على ظهره ٠

الفصـــل الســـابع عشر

عاد « جيا ـ خوى » الى غرفته ، توقف الزهر عن الدوران فى الفنجان ، لكن ظل الكثيرون منهمكين فى دردشـــة حول مائدة اللعب ، وبالرغم من أن قطع « الما ـ جيانج » ظلت تتحرك فى غرفة « جيا ـ شن » فان الجلبة خفت كثيرا ··· وبدأ نور فجر جديد يلوح فى السماء · عام يقترب من نهايته ··· اختفى الظلام وطوى بين أجنحته السوداء عاما من عمر الزمن ، وأطل نور الفجر بابتسامة عام جديد ·

وحانت ساعة الصلاة للآلهة ، فذهب « جيا ـ خوى » الى قاعة العائلة · وأفلت لسان الصغير « جيا ـ تشون » بكلمة اعتبرت نذير شؤم ، فكتب الشيخ المبجل « جاو » هذه العبارة :

« كلمات طفل لا يمكن أن تمنع الحظ الســـعيد والرخاء » ثم ألصقها على الباب · لم يستطع « جيا ـ خوى » منع نفسه من الابتسام ·

ثم بدأت الصواريخ النارية فى الانطلاق خارج القاعة ، أطلق منها ثلاثة على التوالى ، وظلت تدوى حتى دخل آخر المصلين القاعة، وفى تلك اللحظة كان نور الفجر يغمر كل مكان ·

ركب « جيا ـ شن » وأعمامه الثلاثة المحفات ، وذهبوا للقيام بزيارات العام الجديد ، ثم سارت نساء العائلة فوق بقايا الصواريخ المحترقة ، وخرجن من البوابة الرئيسة وهى يضحكن فى أثناء سيرهن فى الطريق · كانت هذه مسرحية مرحة ·· « الذهاب

الى الخارج » تعودت نساء العائلة القيام بها مرة كل عام ، ويسمح لهن خلال هذه الفترة فقط من كل عام بالخروج سافرات فى الطريق بدلا من ركوبهن المحفات المغلقة التهمت عيون النساء الشارع الصغير الهادىء بشغف شديد ، ثم أسرعن بالعودة الى الدار خشية أن يقابلن رجلا غريبا ، وأخيرا خمدت الصواريخ النارية ، وبعد برهة قصيرة أطبق الصمت على الطريق .

جعلت أحداث اليوم السابق معظم أفراد عائلة « جاو » يقضون الليل ساهرين ؛ لذا استسلموا للنوم ماعدا أفرادا قلائل مثل « جيا ـ شن » وعمه « كا ـ منج » ، حيث كان عليهما القيام بالكثير من المهام الاجتماعية ، نام الجميع حتى حان موعد فروض صلاة المساء ، وظل أفراد قلائل مثل « جيا ـ من » و « جيا ـ خوى » نائمين حتى موعد تناول الغداء .

مرت أيام السنة الجديدة فى هدوء ، كان البرنامج اليومى يعد مقدما ومطابقا الى حد كبير برامج الأعوام السابقة ، واستمر لعب القمار ، وظل صوت الزهر وقطع « الما ـ جيانج » يتردد باستمرار فى جنبات الدار حتى « جيا ـ ين » الذى يعتبر مقامرا عقيما اشترك فيها ، وقام بلا تردد بالتصرف على غير ما يهوى حتى يرضى الآخرين ، وفى بعض الفترات استطاع أن يتخلص قليلا من يأسه وتشاؤمه ويستمتع قليلا بالمرح .

فى اليوم التالى من السنة الجديدة وصلت « تشن » وأمها ، وبقيت السيدة « تشانج » ثلاثة أيام ، ثم عادت الى بيتها تاركة « تشن » لتقيم هناك حتى اليوم السادس عشر من العام الجديد .

زاد وجود « تشن » من بهجة الفتيين ، فكانوا يقضون اليوم بطوله يتبارون فى الحديقة ويروون القصص ، وأحيانا كانوا يساهمون ببعض النقود ويرسلون أحد الخدم لشراء بعض

المشهيات من المواد الحريفة والتوابل ، ثم يأخذون الطعام الى التل خلف مبنى « عبير المساء » حيث يعدون طعام الرحلة على أحـــد المواقد الصغيرة • والفتيات « روا ــ جيا » و « شـــو ــ انج » و « تشن » طاهيات ماهرات ، وكن يتناوبن طهو الطعام بمعاونة بقية الجماعة ، وعندما ينضج الطعام ينقل الى « عبير المساء » أو أى مكان نظيف هادىء ، ثم يوضع الطعام على المائدة ، ويجلس الجميع يأكلون هنيئا ويشربون مريئا على أصوات كئوس الخمر •

وفى أحد الأيام زارتهم « شو ــ جيان ــ رو » زميلة «تشن» فى الفصل ، و « جيان ــ رو » تقيم فى دار تواجه دار عائلة «جاو»، وهى فتاة ممتلئة فى حوالى الثـــانية عشرة من عمرها ، صريحة منطلقة « بسيطة » تمثل خير تمثيل فتاة المدرسة الحديثة • كانت تتوق مثل « تشن » الى دخول مدرسة البنين ؛ لذا تطلعت الى لقاء « جيا ــ خوى » و « جيا ــ من » لتسألهما عن الموعد الذى سترفع فيه مدرستهما الحظر المفروض على دخول الفتيات •

كان والد « جيان ــ رو » عضوا نشيطا أيام شـــبابه فى جمعية « تونج ــ منج » طليعة حزب الأمة « حزب الكومنتانج » ، والتحق بجامعة فى اليابان • وبعد ذلك أدار « جريدة ثورية » تنادى بالاحاطة ب « ألمان ــ تشوس » ، ويشغل الآن منصبا فى مكتب الشئون الخارجية فى حكومة « صى ــ تجوان » الاقليمية ، كان متقدما فى أفكاره عن أى رجل متوسط من جيله •

ماتت والدة « جيان ــ رو » منذ عامين ــ وقد تلقت الأم أيضا تعليمها فى الخارج ، لكن والد « جيان ــ رو » لم يتزوج بعد وفاتها ، وأشرفت على « جيا ــ رو » مربية عجوز كانت ترعاها منذ ولدت •

كانت شخصية « جيان ــ رو » تختلف كل الاختـــلاف عن شخصية « تشن » بسبب نشأة الأولى فى بيئة متفتحة متطورة ، لكن الفتاتين كانتا صديقتين حميمتين ٠

قضى « جيا ــ يين » بضعة أيام معهم ، وبدا أســـعد حالا ، وبالرغم من فشل « جيا ــ من » فى كتمان كراهيته له كلية ، فان الفتيان الآخرين كانوا متلطفين معه للغاية ٠

وفى أمسية اليوم الثامن دعا الشباب كبار العـــائلة الى الحديقة لمشاهدة بعض الألعاب النارية التى قضوا يومين كاملين فى اعدادها ، فلم يستطع الكبار مقاومة توسلات الصغار الحارة ، فحضروا فى الموعد المحدود باستثناء الشيخ المبجل « جاو » الذى لا يحتمل برودة الليل ٠

تلألأت الأنوار الكهربية فى الحديقة ، وبالاضافة الى ذلك أضيئت الفوانيس الصغيرة الحمراء والخضراء والصفراء فوق أفرع أشجار الغاب وأشجار السرو ، وانعكست أسوار الجسور المقوسة المزينة بالأضواء على صفحة الماء مكونة دوائر كاملة ، وعلقت على حافة سطح مبنى « عبير المســـاء » فوانيس كبيرة حمراء مزينة بلوحات تدلت عليها أهداب «مرقطة» ، فألقت بظلال وردية ناعمة بعثت جوا حالما ٠

اتخذ المشاهدون مقاعدهم داخل المبنى بجوار النوافذ المفتوحة على مصراعيها ، وطوى الظلام كل شىء خارج المبنى ماعـــدا بعض الظلال الضعيفة الملونة المتناثرة هنا وهناك ٠ قالت السيدة«تشوو» ضاحكة :

ــ أين الألعاب النارية ؟ لقد خدعتمونا ٠

أجابتها «تشن» بابتسامة ٠

– سترينها بعد لحظة ٠

ثم نظرت حولها ، فلاحظت اختفاء الفتيين ٠

وفى الصمت الأسود وخارج النوافذ انبعث من مكـان أقل ظلمة صوت خارق حاد ، وارتفعت كرة من اللهب الأحمر وسـط السماء المظلمة ، ثم أمطرت بلورات ذهبية اللون ذابت فى ظلام الليل ، ثم اندفعت الى السماء بعد ذلك مباشرة كرات ناصـعة البياض تشبه الأوز تلاها انفجار وتطايرت شرارات فضية فى شتى الاتجاهات ، وتلوى ضوء أزرق فى السماء فغير لونها وهبط على الأرض فى شكل قطرات حمراء تحولت بسرعة الى بلورات خضراء، وكانت الأخيرة براقة لدرجة جعلت الألوان الخضراء ماثلة أمام أعين المشاهدين حتى بعد تلاشيها ، قالت السيدة «تشوو » :

ـ ما أجملها ! من أين اشتريتموها ؟

ضحكت « تشن » ولم تجبها ، وعلى ضوء صـــواريخ نارية تخطف الأبصار ظهر قارب صغير بالقرب من الشـــاطىء الآخر للبحيرة ، فقالت السيدة « وانج » لزوجها « كا ــ آن » :

ــ هذا هو المكان الذى يطلقون منه الصواريخ ، فلا عجب أن بدت فى كل مرة تظهر من مكان مختلف ٠

أومأ لها زوجها وابتسم :

ساد البحيرة صمت مطبق ، فاشرأبت أعناق المشاهدين ، لكن أعينهم لم تخترق حجب الظلام ، قال « كا ــ دنج » فى أسف :

ــ لقد انتهت ٠

وحين هم بالنهوض غمرت البحيرة أضواء باهرة ٠

وتموجت فى السماء صواريخ نارية كثيرة فأضاءتها بنورها، وبعد فترة أرخى الظلام سدوله مرة أخرى ••

تهادت على أمواج البحيرة أنغام الناى العذبة ، فارتجفت لها هبات النسيم ، واحتضنت أنغام الناى أنغام مكتومة منبعثة من وترين جرحتهما لمسات قوس عازف • هدهدت تلك الأنغـام العذبة المستمعين ، وسحرتهم كأسطورة خيالية قديمة ، وجعلتهم ينسون اهتماماتهم التافهة الصغيرة ، وأثارت أحلامهم القديمة •• أحلامهم التى لم تتحقق قط •

تساءلت السيدة « تشوو » عندما قرب العزف على الانتهاء :

ـ من يعزف بهذه البراعة ؟

ـ ابنة الخال « شو ـ أنج » والأخ الكبير كل يعزف على الآلة الوترية •

ثم ركزت انتباهها الى اللحن •

وتوقف الناى ، واخترقت الضحكات وصيحات الاستحسان سطح البحيرة الهادىء ، لكن مياه البحيرة ابتلعت هذه الضحكات والصيحات ودفعتها الى الأعماق حيث ألقى عليها الصمت شباكه السوداء ، ولم ينج منها سوى بضعة أصوات قليلة طفت الى سطح البحيرة ، وقفزت على أجنحة النسيم تحملها الى آذان السامعين ضعيفة منهكة ضاعت مع صدى النغمات الأخيرة للحن الجميل •

ثم خلقت أنغام الناى العذبة القوية مرة أخرى مع نسمات الهواء المفرحة المنعشة ، وصحب هذه الأنغام صوت قوى فاض من حنجرة رجل ، ومزق ظلام الليل الموحش ، فأزاح صدى اللحن السابق ، واستيقظ المستمعون من شرودهم المبهم ••• انه صوت « جيا ـ من » •

لم يستمر الغناء طويلا وتلاشى مع أنغـــام الناى فى ظلام الليل ، وبعد ذلك ارتفع صـــوت « جيا ـ من » مرة أخرى بلحن شائع ، وعندما بدأ فى الفقرة الثانية صاحبته مجموعة من الأصوات المختلطة • وبرغم امتزاج هذه الأصوات معا كان من الممكن تمييز شخصيات المغنين ، فلم يحجب صـــوت « جيا ـ من » العميق المرتجف صوت « شو ـ انج » الندى الرقيق ، هزت الموســيقى القوية المستمعين بعنف ، وانصبت فى آذانهم حتى فاضت ••• فاضت وطافت بكل شيء حـولهم • وبدت كأنهـا تهز المبنى الذى يجلسون فيه •

وعندما بلغ انفعال المستمعين أقصاه توقف الغنـاء فجأة ، وتبع ذلك مباشرة موجة صاخبة من الضحك ، لم يعطوا المستمعين لحظة حتى يستجمعوا أنفسهم • تلاقت الأصـــوات الضاحكة فى الهواء ، وتحللت بعض الضحكات فى الهواء الى خيوط متناثرة من الفضة لا يمكن جمعها ، واذا بضحكة جديدة تظهر تطارد ضحكة سابقة مازالت فى الفضاء سليمة قوية الى أن تلحق بها فتحطمها وتسحقها ، وبدا للجالسين فى المبنى أن تلك الضحكات تتطاحن وتتواثب وتتدافع تحت ستر الظلام •

ثم بدأت تظهر فوانيس خضراء وحمراء طافية فوق ســطح البحيرة الواحد تلو الآخر • وبعد فترة قصيرة امتلأت تلك المنطقة من البحيرة التى ركز المشاهدون عليهـــا أبصارهم بالفوانيس ، وأخذت تعكس ألوانا غريبة على سطح البحيرة تتغير وتتمايل دون أن تحدث صوتا ، وفجأة سادت موجة من النشـــاط ، وتفرقت الفوانيس تاركة ممرا فى الوسط ، ثم ظهرت موجـــة جديدة من الضـــحك فاقت سابقتها ، واقترب قارب صغير ملء بالضحكات وتوقف بجوار الجسر ، فأصبحت الأصوات الضاحكة أكثر وضوحا

بالنسبة للجالسين فى المبنى ، وشاهد الجالسون « جيا ــ شن » وشقيقيه يتجهون نحو الشاطىء ، مر القارب تحت جسر مقوس واقتربوا من الجالسين ، ثم فوجىء المشاهدون بقارب آخر خلفه بقى بجوار الجسر ، وخرجت منه بضع فتيات « شو ــ انج » و « شو ــ خوا » و « شو ــ تشين » وجميعهن يحملن الفوانيس ·

وعندما دخل الشباب المبنى ازداد المكان حيوية · قال « جيا ــ شن » ضاحكا :

ــ حسنا ، ما رأيكم ؟ ·

أجابه العم « كا ــ دنج » :

ــ رائع ، أنا أدعوكم فى الليلة القادمة لمشاهدة رقصة التنين ، لقد أعددت أنابيب النيران بنفسى ·

فصفق « جيا ــ أنج » بفرح ، وتبعه بقية الشباب بصيحات الموافقة ·

لقد أضاء عرض هذه الأمسية نفوس الكبار بنور الفرح ، لكن بعد لحظات عاد كل شىء الى صورته الأصلية ، وبقيت الحديقة مرة أخرى غارقة فى سكون الليل البارد ·

الفصل الثامن عشر

فى اليوم التاسع من العام الجديد شغل الأولاد الصغار « جيا ــ أنج » و « جيا ــ تشون » و « جيا ــ شى » منــذ الصباح الباكر بمساعدة حملة المحفات فى صنع الألعاب النارية والاعداد لرقصــة التنين ·

وفى الصباح قطع حملة محفات العم « كا ــ دنج » شجرتين سميكتين من الغاب الهندى ونشروهما الى قطع صغيرة بمساعدة باقى حملة المحفات ، ثم لفت بالبارود والفتيل وقطع من العمله النحاسية، والهدف من هذه العملات النحاسية هو جعلها تلتصق بجلد أهدافها الآدمية ، وتحترق دون أن تســقط ، عمل الجميع بحمية ، وأعدت اثنتا عشرة أنبوبة، وبعد ذلك عرضت هذه الأنابيب على البوابة حتى يتغزل فيها الجميع بعد أن رصعت فى صفوف على مقعد ، وأخذت تنتظر فى كبرياء وصمت ضحاياها ·

مر الوقت فى تثاقل وبطء ، وأخيرا أرخى الليل سدوله ، وبعد انتهاء طقوس الصلاة أشرف العم « كا ــ دنج » على الخدم وهم يعدون الترتيبات النهائية · ورص فى داخل الدار عدد من الموائد وضــع فوقها كراسى ، فكونت منصة مؤقتة · وأعد العم «كا ــ دنج» بنفسه أكياس النقود التى ستمنح للراقصين ، وذهب عدة مرات الى البوابة حتى يطمئن الى وصولهم ، وأرســل خادما ليقف على جانب الطريق انتظارا لمقدمهم ·

جلس جميع أفراد العائلة فى أماكنهم ما عدا الشــيخ المبجل « جاو » · وبعد ربع ساعة من الانتظار بدأ العرض المثير : دخلت

فرقة رقصة التنين الساحة الخارجية وهى تدق الطبول والصاجات ، وأغلقت الأبواب الرئيسة خلفهم لتمنع الغرباء من الدخول فى ستر هذه الضوضاء ·

وبدأ التنين يرقص على ضربات الطبول والصاجات ، ويتكون التنين من رأسه حتى ذيله من تســعة أجزاء مصنوعة من الورق الملصق على اطارات مصنوعة من الغاب · ورسمت نقوش على هذه الأوراق فى شكل حرافيش · أوقدت شمعة فى كل جزء من أجزاء التنين رفعها الراقص عاليا بمقبض من الغاب ، وتبختر أمام التنين شاب يدير عصا فى نهايتها كرة طويلة من الأشرطة الملونة المصنوعة من الورق ، وأخذ التنين يقفز خلف الكرة ويتدحرج على الأرض ، ويهز ذيله أو رأسه مبديا أمارات السعادة والرضا · استمر يقفز ويتبختر كتنين حقيقى على حين ازدادت ضربات الطبول والصاجات عنفا ورهبة ·

اخترق الهواء اشــارة حادة تشــبه دوى رصاصة ، وبدأت الصواريخ النارية فى الانفجار ، وأخذ التنين يرقص بوحشية زائدة، وانفجرت الصواريخ النارية وسقطت على جسده فأغضبته ، تململ ودار من اليسار الى اليمين ، وقفز فى خوف وفزع عدة قفزات ، ودوت الطبول والصاجات بصوت أعنف وكأنها صرخات تنين جريح·

وقف الخادم الشاب « جاو ـ تشونج » على السلم واستند الى السور ، ثم مد فوق جسد التنين عمودا من الغاب يتدلى فى نهايته حبل من الصواريخ النارية المستعرة ، ووقف بعض حملة المحفات الى جوار التنين يرقبونه وقد أمسكو بأنابيب النار المحشوة بالبارود ثم قاموا باشعالها ·· وداروا حول التنين وأخذوا يمطرون أبدان الراقصين بالشظايا المتطايرة · جن التنين وأخذ يتدحرج على الأرض فى يأس ويرتعش من رأسه حتى ذيله محاولا درء الشظايا المستعرة·

صاح الحاضرون على حين أخذت الطبول والصاجات تضرب بلا انقطاع، ضحك حملة المحفات ، وضحك كذلك السادة الجالسون على المنصة وان كانت ضحكاتهم أكثر صفاء بطبيعة الحال ٠

قام حملة المحفات بمهاجمة التنين بخمس من أنابيب النار من كل جانب ، تعذر على التنين الهرب ، فتقلب وتدحرج على الأرض ، لكن برغم ذلك سالت الشظايا على أجسام الراقصين العارية ، والتصق جزء من لهيب النيران بأجسامهم ، فجعلهم ذلك يكفون عن الرقص ويصرخون بأعلى أصواتهم ، وأخيرا وقف الراقصون وقد همدت أجسامهم وأمسكوا بالأعمدة المستخدمة كأجزاء من التنين وانتهى بها الأمر الى أن أصبحت كالعصى التى يتوكأ عليها السائرون٠ وقفوا وقفة شجاعة مصطنعة تاركين حملة المحفات يمطرونهم بالنيران ٠ كان دفاعهم الوحيد هو هز أجسامهم بقوة وعنف حتى تسقط الشظايا عن أجسامهم ٠٠٠ وضحك المتفرجون فى استحسان ٠٠ وازداد اقتراب الخدم منهم ومعهم تلك الأنابيب التى تبصق على الراقصين نارا تكوى أجسامهم وقد صمموا على جعل راقصى التنين يلتمسون منهم الرحمة ٠

وبالرغم من أن الراقصين رجال أشداء فانهم لم يحاولوا الدفاع عن أنفسهم ٠ وبالرغم من الألم الذى يهرى أجسامهم فانهم أخذوا يرددون صيحات وحشية مدوية كلها تحد وازدراء ٠

ــ اذا كان لديكم المزيد من قاذفات اللهب فأحضروها ٠

لكن الراقصين كانوا مجرد لحم ودم ، وعندما اقتربت منهم قاذفات النيران غلبوا على أمرهم ولاذوا بالفرار ، وتحلل التنين المخيف الى تسعة أجزاء ، حيث جرى كل رجل بالجزء الذى كان يؤديه ، واحترقت حرافيش التنين كلية من الرأس الى الذيل ، ولم يتبق من أجزائه سوى اطار الغاب ٠

جرى بعض الراقصـــين وهم يحملون الاطارات الحاوية على أكتافهم تجـــاه البوابة الرئيسية فوجدوها مغلقة ، فاضطروا الى العودة·· وبناء على اشارة من السادة هاجمهم حملة المحفات بقاذفات نيران جديدة ، ولما كانت أرض الدار مســتوية مســـطحة لا توفر للراقصين مكانا يختبئون فيه جرى عدد منهم تجاه البوابة الداخلية، لكن الطريق كان مسدودا بالمتفرجين ، لم ير الراقصون أمامهم سوى رءوس متراصة سدت عليهم الطريق ، اقترب الراقصون ، فتقدم اليهم العم « كا ـ دنج » بأنبوبة مستعرة ورشهم بالنيران ، وهاجم الشاب الذى كان يلعب بالعصـــا ذات الكرة المكونة من الشرائط الملفوفة الملونة ، فصرخ فزعا وولى هاربا ، ليعود أدراجه مرة أخرى بعد أن هاجمه خادم أمسك بقاذفة لهب · هز الفتى جســـده بقوة حتى يتخلص من الشظايا المشتعلة ، وأضـاءت جبينه حبات العرق فبدت كاللؤلؤ الحر ·

كان العم « كا ـ دنج » يطـارد الراقص الذى قام بدور ذيل التنين ، وفجأة لاحظ جسد الفتى الممسك بالعصا ذات الكرة وهو يهتز محاولا التخلص من الشـــظايا ، فاتجه نحوه وســـأله فى سخرية ··

ـ أتشعر بالبرد ؟ خـــذ ، ان هـــذا سيبعث فيك قليلا من الدفء ·

ثم وجه نيرانا قوية تجاه جسده وهو على مسافة قريبة منه ·

فى تلك اللحظة رفع الشاب عصاه مدافعا عن نفسه ، وعرض الكرة المصنوعة من الشرائط الملفوفة الملونة ، فاشتعلت فيها النيران وأكلتها فى لحظة ، واقترب الخدم وحملة المحفات من الفتى الحامل للعصا وراقص الذيل وهم يحملون أنابيب تتقيأ جحيما من النيران وقد عقدوا العزم على اجبار الراقصين على أن يخزوا ساجدين طلبا

للرحمة · وفى تلك اللحظة احترقت الأنابيب ، واكتشف أنه لايوجد المزيد منها ، وهكذا نفد ينبوع المرح ، وكفوا عن لهوهم ·

فتحت البوابة الرئيسة ، وانتظم الراقصون فى صفوف حاملين ملابسهم وبقايا هيكل التنين ، وخرجوا من الدار على ضربات الطبول والصاجات الدامية وقد مزقهم الارهاق · جرح الفتى الذى كان يلعب بالكرة الملونة ، وخرج وهو يعرج ويجتر ألمه بصوت هامس ·

سلم العم « كا ـ دنج » أكياس النقود للراقصين وقال فى أسى :

ـ من المؤسف أنه لم يكن لدينا الكفاية من أنابيب النيران ، هل أرضاكم العرض ؟ سأدعوكم جميعا لمشاهدة عرض آخر غدا ·

قال « جيا ـ خوى » فى برود :

ـ نلت ما يكفينى ، أنا لا أرغب فى رؤية المزيد ·

نظر اليه عمه « كا ـ دنج » دون أن يدرك مغزى حديثه ، وأجابه الآخرون بطريقة أكثر تأدبا :

ـ لا داعى لذلك ·

اختفى « جيا ـ انج » و « جيا ـ تشون » و « جيا ـ شى » وسط الزحام · كان هؤلاء الفتيات الثلاثة أكثر الجميع استمتاعا بما رأوا ، اما بقية السادة فقد عادوا الى داخل الدار مسرورين بما شاهدوا على حين انهمك الخدم فى ازالة المنصة المؤقتة ، وانتهوا من ذلك فى لحظات ·

تمهل « جيا ـ من » و « جيا ـ خوى » و « تشن » فى سيرهم ·· سأل « جيا ـ خوى » « تشن » ·

ـ هل استمتعت بالعرض ؟

ـ لم يعجبنى أى شىء فيه ٠

ـ حسنا ، ما شعورك تجاه هذا العرض ؟

ـ لاشىء ٠

قاطعهما « جيا ـ من » :

ـ شىء سخيف ، كنت أحب هذه العروض وأنا طفل صغير ، أما الآن فأنا لا أحبها اطلاقا ٠

فسألهما « جيا ـ خوى » بجفاء :

ـ أتعنون بذلك أن هذا العرض لم يؤثر فيكم اطلاقا ؟

لم يدرك « جيا ـ من » ما يرمى اليه أخوه ، فقال له :

ـ انه مجرد تهريج رخيص ، فكيف يؤثر فى أى انسان ؟

سأله « جيا ـ خوى » بانفعال :

ـ ألم يثر فيكما شيئا من الشفقة ؟

سألته « تشن » :

ـ ومادخل الشفقة فى هذا ؟ لقد استمتع العم « كا ـ دنج » وأصدقاؤه بالعرض ، وأخذ راقصو التنين أجرهم ، والجميع راضون عن ذلك ٠ فما الخطأ فى هذا ؟

ضحك « جيا ـ خوى » فى برود :

ـ تتحدثين كابنة أصيلة لأسرة غنية عريقة ! لماذا لا تستطيع فتاة مثلك فهم هذه الأشياء ؟ هل تعتقدين حقا أن المتعة تبنى على ألم الآخرين ؟

هل تعتقدين أن دفع النقود يعطيك الحق فى أن تشوى لحم انسان ؟

انك تتحدثين وكأنك تنظرين الى الأمور بعين نصف مفتوحة !

لم تجب « تشن » ، وكان من عادتها عندما تواجه بسؤال لاتعرف الاجابة عنه أن تبقى صامتة ، وتفكر بدلا من الانغماس فى المناقشة ، لم تدرك « تشن » أن هذه مشكلة لا يستطيع تفكير فتاة صغيرة مثلها أن يجد لها حلا على الاطلاق .

الفصل التاسع عشر

كان الجو رائعا ليلة الخامس عشر من العـــام الجديد ، اكتمل القمر وأصبح كقرص من المرمر الأبيض معلق فى السـماء ، فبدد الظلمة الزرقاء ، وسبح وسط النجوم المتألقة المتناثرة فى السماء التى زينت ببعض السحب البيضاء الرقيقة • واحتضنت أشـــعة القمر العالم بأسره •

فى تلك الليلة انتهت فروض الصلاة فى وقت مبكر ، وخرج الأطفال الصغار الى الشـــوارع ليشـــاهدوا فوانيس التنين وهى تحترق ، واجتمع الشبان فى غرفة « جيا ـ شن » ليعدوا برنامج آخر ليلة تقضيها « تشن » فى ضيافتهم ، فاجازة العام الجديد تنتهى فى اليوم الخامس عشر من الشــهر القمرى الأول ، وبالرغم من أن « تشن » تعيش بالقرب منهم فانه نادرا ما تتاح لهم فرصة لتبادل الزيارات • ووافق الجميع على اقتراح « جيا ـ شن » بالذهاب فى نزهة بالقارب فى البحيرة •

اســتعدت « روا ـ جيا » للذهاب معهم الا أن الطفل بدأ فى البكاء عندما هموا بالرحيل ، فاضطرت للبقاء لترعاه •

تكونت المجموعة من « جيا ـ شن » وشقيقيه وأختهم « شو ـ فونج » تحمل سلة طعام صغيرة •

انسابوا فى الحديقة الواحد تلو الآخر عبر الممشى المسقوف ، والتصقت «شو ـ تشين» وهى أكثر الفتيات خجلا «بمنج ـ فونج» ، وساد السكون وبعثت المصـابيح الكهربية المتناثرة ضـــوءا قاتما

موحشا ، وتركت الظلال السوداء بقعا كبيرة على أرض الحديقة التى غمرها ضوء القمر ·

سـار الجميع فى بطء وأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث ، وعندما وصلوا مشتل الزهور سمعوا فجأة ضجة غريبة ، ثم قفز شبح أسود من الجبلاية الى سقف الممشى المسقوف ، فذعرت « شو ـ تشين » وانكمشت خلف «منج ـ فونج» ، وصاحت «شو ـ خوا» فى صوت مضطرب :

ـ ما هذا ؟

وقف الجميع فى سكون ، ولم يتحرك شىء فى الظلام المحيط بهم ، ثم ضرب «جيا ـ خوى» الأرض بقدمه ، لكنه لم يتلق أى رد · عبر السور الى مشتل الزهور ، ثم التقط بضعة أحجار قذفها فوق سقف الممشى ، فأخذت قطة تموء ، ثم ابتعدت هاربة ·

ضحك « جيا ـ خوى » :

ـ انها قطة ·

ثم قفز فوق السور وعاد الى الممشى ، ولاحظ انزواء « شو ـ تشين » خلف « منج ـ فونج » فأنبها :

ـ ألا تخجلين ؟ تخافين من لا شىء !

أجابت الفتاة فى صوت مرتجف وقد تعلقت بيد «منج ـ فونج» بقوة :

ـ قالت لى والدتى ان هناك أشباحا فى الحديقة ·

ضحك « جيا ـ خوى » :

ـ أشـباح ؟ والدتك تحاول تخويفك وأنت تصـدقينها ! يا للسذاجة !

سألها « جيا ـ شن » :

ـ لماذا أتيت معنا اذا كنت تخافين الأشباح ؟

فتركت « شو ـ تشين » يد « منج ـ فونج » ، وأجابت فى خجل :

ـ أتيت لأنى أحب أن أكون بينكم ٠

قالت لها « تشن » بابتسامة :

ـ أحسنت القول يا عزيزتى ، هكذا يكون الكلام ، تعالى الى ولا تخافى ٠٠ سأحميك ، عندما تكونين الى جوارى فلن تجرؤ الأشباح على الاقتراب منك ٠

أمسكت « تشن » بيدها ، وسارت الفتاتان معا ٠

صاحت « شو ـ خوا ؟ فى سخرية :

ـ السيد « تشيانج » ؟ العجوز الذى يطرد الأشباح بتعاويذه هنا ، ستختفى جميع الأرواح ٠

ضحكوا جميعا ٠

ثم دخلوا أرضا مملوءة بالغاب ، وبالرغم من عدم وجود مصابيح كهربية فان ضوء القمر غمر الممر الصغير المتعرج ، ولم يكن الغاب كثيفا ، فتألق ضوء القمر فى السماء ، وجاءت نسمة هزت الغاب ، فانبعث منه حفيف رقيق ٠ وانساب فى آذانهم خرير مياه جارية ، فاكتشفوا جدول ماء صغيرا بالقرب من الغاب ٠

تباطأ « جيا ـ خوى » خلف الجماعة ليظهر استخفافه بالأشباح٠ سار مع « منج ـ فونج » ، وفجأة اندفع الى أيكة من الغاب ، التفت الجميع تجاه مصدر الصوت وتساءل « جيا ـ من » :

ـ أخى الثالث ، ما الخبر ؟

لم يجب «جيا ـ خوى» واقتلع غابة كسر حافتها المدببة وشكلها على هيئة عصا أخذ يضربها عدة مرات ليجربها ثم قال فى رضا :

ـ انها تصلح كعصا للسير .

ثم لحق «بمنج ـ فونج» ، وضحك الجميع ، وقال «جيا ـ من» فى سخرية :

ـ أهـذا كل ما فى الأمـر ؟ لقد ظننت أنك جننت أو ذهبت لتبحث عن كنز مدفون .

دخلت الجماعة فى نشوة غابة من أشجار الصـنوبر ، نجحت بعض الخيوط الرقيقة من أشعة القمر فى التسلل خلال أشـجار الصـنوبر الكثيفة ، فخيل اليهم أن الممر تلاشى كليـة فى أعماق الغابة ؛ لكنهم كانوا جميعا يعرفون الطريق جيدا ، تقدمهم «جيا ـ خوى » يتحسس منحنيات الطريق بعصـاه المصنوعة من الغاب ، وتمكنوا بذلك من مواصلة سيرهم ، بعثت زفزفة أشجار الصنوبر شيئا من الخوف فى قلوبهم ، خوف من الظلام الذى لا يسبر غوره فتقدموا فى بطء وتردد ، وأمسكت «تشين» «بشو ـ تشين» وضمتها اليها .

وشيئا فشيئا ظهر الممر أمامهم وقد غمره ضـوء القمر ، ثم شاهدوا البحيرة تعكس ألوانا فضـية خلابة ، وانعكس القمر على سطح البحيرة ، وأخـذ يسبح فى مياهها الهادئة ، ويأخذ أحيانا شكلا بيضاويا عندما يداعب النسيم مياه البحيرة ، فتنثنى موجاتها وتتثاءب فى دلال ؛ وأحيانا تقفز سـمكة فتثير حولهـا نافورة صغيرة من المياه ، وظهر على يمينهم وعلى مسافة قريبة جسر مقوس، وظهر جهة اليسار فى مكان بعيـد جسر حجرى متعرج يؤدى الى استراحة وسط البحيرة يمكن مشاهدتها بصعوبة .

وقفت الجماعة قرب حافة البحيرة طلبا للراحة والهدوء فى هذا الجـو البارد المنعش ، وألقى حجر فى الماء ، فكسر انعكاس القمر وارتجفت المياه ورسـمت دائرة كبيرة ، وبالرغم من أن صـورة القمر المنعكسة على سطح البحيرة استعادت شـكلها بسرعة فان الدوائر التى رسمت على سطح البحيرة آخذت تتسع الى أن تلاشت التفت «جيا ــ من» الى أخيه «جيا ــ خوى» الواقف خلفه يضحك فى سخرية وقال له :

ــ أنت مرة آخرى ٠

قال «جيا ـ خوى» :

ــ عم تبحثون هنا ؟

ثم أشار الى قارب صـغير مربوط الى شـجرة الصفصاف فى الجانب الآخر من الجسر ٠

قالت « شو ــ خوا » :

ــ سعيكم مشكور ، لقد رأيناه منذ وطئت أقدامنا هذا المكان ثم جذبت ضفيرتها وألقتها على ظهرها ، وأخذت تداعبها وهى تنظر الى القمر وتغنت بلحن قديم ٠

ــ أنشدت «شو ـ خوا» الفقرة الأولى ٠٠٠ «عندما يتألق القمر» واذا بصـوت «جيا ـ من» الحنون يتدفق ، ثم تبعه صوت «تشن» و «شو ــ وانج» وشاركهم «جيا ــ تشـــن» بالعزف على نايه ٠ وفى تلك اللحظة أخذت «شو ــ انج» ناى «جيا ــ من» وقالت :

ــ هذا الناى نغماته أعلى ٠٠٠٠٠٠

ثم انبعث منه صوت صاف أخذ يخبو شـيئا فشيئا ، وازداد ضعف هـذا الصوت فأفلتت منه قطرات من دموع الناى الحزينة ، ثم تلاشى الصوت ، ولم يبق منه سوى الدموع ٠

سار «جيا ـ خوى» على حافة البحيرة تجاه الجسر بعد أن أومأ الى «منج ـ فونج» أن تتبعه. تبادلا بضع كلمات مختصرة فى أثناء سيرهما لمسافة قصيرة ، ثم قفلت « منج ـ فونج » راجعة الى بقية الجماعة ، لم يكتشف «جيا ـ خوى» أنه يسير بمفرده الا عندما وصل تقريبا الى الجسر ، فعاد الى الجماعة .

وفجأة أثارت تلك المجالى شجون « جيا ـ خوى » ، وشعر أنه يختلف عن أبناء عائلته وبناتها ، وبدا له أن عائلته تطوى تحت مظهرها الآمن الهادى بركانا مكتوما .

انتهت الأغنية ، فوضعت «شو ـ ونج» الناى بين شفتيها لتبدأ أغنية جديدة ، أوقفها «جيا ـ خوى» :

ـ لننتظر حتى نركب القارب ، لم العجلة ؟

سارت الجماعة بجانب البحيرة يتقدمها «جيا ـ خوى» فى حين سارت «منج ـ فونج» فى المؤخرة حتى وصلوا جميعا الى الجسر.

حل «جيا ـ خوى» القارب ، وأمسك به حتى ركبه الجميع ، ثم دفعه وقفز الى مؤخرة المركب وأمسك بالدفة وبدأ القارب يتحرك. دخل القارب فى منطقة واسعة من البحيرة ، فتحت «منج ـ فونج» وهى جالسة فى مقدمة القارب وعاء الطعام الذى أحضرته معها ، وأخرجت بعض السلطات والفول السودانى ، كما أخرجت أيضا زجاجة من النبيذ الأحمر وبعض الكئوس الصغيرة وأعطتها «شو ـ انج» و «شو ـ خوا» ، فقامتا بوضعها على مائدة صغيرة مستديرة وسط القارب .. جذب «جيا ـ من» سدادة الزجاجة وصب الخمر ثم جلس الفتيان والفتيات يأكلون ويشربون فى ضوء القمر .

كسا القمر الجسر المقوس القريب بأشعته فبدا وكأن الشمس قد غمرته بضوئها .وبدت الأضواء الكهربية على جانبى الكوبرى شاحبة تائهة وسط هذا النور الفياض ، ودون أن يشعروا دار

القارب بهم على حين أن الجميع يتطلعون الى القمر ، وعندما نظروا فيما حولهم مرة أخرى وجدوا أنفسهم فى جزء آخر من البحـــيرة وشاهدوا فى أحد الجوانب ربوة شامخة حادة ، وفى الجانب الآخر مبنى يطل على البحيرة ، أما الاستراحة التى على الجزيرة وسط البحيرة فكانت تتألق فى ضوء القمر ٠

شعر «جيا ـ خوى» بقلبه يحترق بأشياء يود أن يقولها ، فأطلق صيحة قوية تردد صداها فى الفضاء٠فضحك «جيا ـ شن» وقال له :

ـ لاشك أن لك صوتا هائلا ٠

ثم أخذ « جيا ـ شن » ينشد لحنا لأوبرا بكين ٠

مروا حول الربوة ، وعبر القارب مرسى الصـــيد ، فظهرت أمام المبنى المطل على البحيرة أشجار صغيرة كثيفة ٠

خيم الظلام فجأة على سطح البحيرة ، واكتست السـماء بلون رمادى عندما حجبت السحب ضوء القمر ، وساد الســكون كل شىء ، ولم يقطعه سوى ضربات المجداف ٠

قال «جيا ـ شن» :

ـ أبطىء قليلا ٠

ضاق مجرى البحيرة واختفت المبانى والأشجار تدريجيا ، ثم ظهـرت على كلا الجانبين تلال صـناعية ، وبرز كوخ صغير على قمة الجبل جهة اليمين ، وكان اندفاع الماء سريعا فى هذا المكان ، فاندفع القارب فى ممر ضيق ، أمسك «جيا ـ شن» المجداف وحركه بحرص فرسم القارب دائرة واسعة خلف أحد التلال الصناعية ، لقد قل اتساع الماء فى تلك المنطقة، وكان هناك جدار منخفض على أحد جانبى البحيرة ، وعلى الجانب الآخر تل صناعى وقف شامخا يحجب ضوء القمر ٠

زحف الضباب على البحيرة وسترها بحجاب رقيق ، وبدأ الجو يزداد برودة . فأفرغ الشباب ما بكئوسهم من خمر والتصـــقوا بعضهم ببعض ، وسمعت دقات ناقوس واهية تأتي من بعيد ، فبدت كأنها آتية من عالم آخر ، ثم أمســـك «جيا ـ شن» و «منج ـ فو نج» بالمجدافين ، وأخذا يضربان صفحة الماء بقوة .

سألت «تشن» «شو ـ تشين» :

ـ هل وصلتم الى قرار بشأن تعليمك؟ لقد سمعت أن مدرسك سيأتي غدا . في الأيام القليلة الماضية ألحت «شو ـ خوا» و «شو ـ تشين» على والدتيهما كي توافقا على تعليمهما ، وقد فعلتـــــا هذا بتحريض من « تشـــــن » ووافقت والدتاهما ، على تركهما يتعلمان على يد المعلم الخاص بابناء عمومتهما .

أجابتها «شو ـ تشين» على الفور:

ـ لقد وافقتا .

علقت « تشن » على اجابتها :

ـ لا أعتقد أنك نجحت بسهولة .

فتدخل «جيا ـ خوى» :

ـ لا غرابة في ذلك ، ان المسألة لن تكلف آباهما فلسا واحدا ان المدرس يأخذ نفس الأجر مهما بلغ عدد التـلاميذ الذين يدرس لهم في عائلة واحدة . والانسان لا يستطيع أن يفخر بنفسه عندما يرى بنات الآخرين يجدن القراءة والكتابة على حين أن بناته أميات جاهلات ، ومادامت والدة « شو ـ تشين » قد وافقت فان والدها لن يبالي . انه لا يتعب نفســـه بهذه المسائل . والجد يقلقه دائما خوفه من أن تجلب عليه العار احدى فتيات العائلة بارتكاب فعل فاضح علانية ، لذا لا يقلقه التعليم داخل البيت ، وخصوصا أنهن لا يقرأن سوى أعمال الحكماء ..

ثم سرت قشعريرة فى جسد «جيا ـ خوى» عندما ذكر «أعمال الحكماء» ولم يستطع منع نفسه من اطلاق ضحكة تقطر مرارة ·

أوضح شرح «جيا ـ خوى» المسألة ، فبدت واضحة للآخرين وضوح النهار · ولم تحتج الى مزيد من الشرح ·

وتدافعت موجات توجتها هالات بيضاء ، وغطى الضباب البحيرة عندما اقترب الزورق من الجسر المقوس وحجبه الضباب، بعثت المصابيح الكهربية أضواء حمراء وصفراء وسط الضباب، وأتمت جولة كاملة فى البحيرة ·

سار القارب فى بطء فى حين تألق القمر طافيا على سطح البحيرة وقد ألقيت على وجهه ستائر رقيقة من الضباب · نظر الجميع حولهم فى صمت · وعندما مر القارب بمبنى «عبير الماء» سألهم «جيا ـ شن» هل كانوا يرغبون فى العودة ؟ فأجابه «جيا ـ خوى » :

لقد تأخرنا ، والحلوى تنتظرنا فى البيت ، وبما أنه لم تكن هناك آراء معارضة فقد اتجه «جيا ـ شن» الى الشاطىء وقيد القارب ثانية الى شجرة الصفصاف ونزل الجميع منه وساروا على الجسر·

قال «جيا ـ من»:

ـ لم استمتع بأمسية مثل هذه طوال حياتى ·

وارتفعت أصوات كأنما تؤيده في ذلك ، وجال بخاطر «جيا ـ شن » :

ـ آه لو كانت « مى » معنا ··· !

وحدثت «تشن» نفسها :

ـ يجب أن أحضر «مي» لتشاركنا فى احدى هذه الرحلات يوما ما ... وعندما ظهرت الجماعة فى الحديقة اندفع الصبيان «جيا ـ انج و «جيا ـ تشون» وهما يتنفسان فى صعوبة ، وصاح «جيا ـ انج» فى انفعال وهو يحدث «جيا ـ شن» :

ـ هل شاهدت ملحق الجريدة أيهـا الأخ الكبير ؟ لقد بدءوا القتال .

واختلط الأمر على «جيا ـ شن» فقال :

ـ أى ملحق ؟ من بدأ القتال ؟

قال الغلام وهو فخور لكونه حاملا هذه الأخبار الهامة :

ـ هنا ، اقرأ بنفسك .

ثم قدم الى « جيا ـ شن » نسخة من ملحق خاص من جريدة الوطن اليومية «.. أرسل الحاكم حملة تأديبية ضد الجنرال تشانج»

أخذ «جيا ـ شن» يقرأ باهتمام متزايد

.. بدأ القتال ......

الفصـــل العشرون

ســألت «رواـجيا» «جياـشن» عند دخــوله الى البيت وقد ارتسمت على وجهها نظرة قلقة :

ـ أهناك أخبار جديدة ؟

أجابها « جيا ـ شن » وهو يهز رأسه فى يأس :

ـ الموقف يزداد سوءا · لقيت قوات الاقليم هزيمة قاســية أخرى ، ويقولون : ان قوات الجنرال « تشانج » المهاجمة وصلت الى مشارف بوابة المدينة الشمالية ؛ ثم اتجه الى النافذة ، وجلس على كرسى مصنوع من القش ، فقالت «رواـجيا» فى فزع :

آمل ألا يحدث قتال فى الشوارع ·

ـ من يعلم ؟ هذا الأمر يعتمد على موقف الحاكم ·

كان «جياـشن» قلقا ، لكنه أراد تهدئة «رواـجيا» فقال لها :

ـ لكنى أعتقد أنهم سيحلون هذه المسألة سلميا ·

نطق «جياـشن» بهذه الكلمات وليس لديه أية فكرة عن المدى الذى ستتطور اليه الأحداث ·

ذهبت «رواـجيا» الى غرفة مجاورة ، وجلست فى فتــور على حافة السرير حيث ينام الصغير «خاىـتشين» وقد ارتســمت على وجهها ابتسامة فاترة ···· داعبت خديه المتوردين بأصـــابعها وفى تلك اللحظة شــعرت باعزاز خاص له ·· انه شىء غال نادر

الوجود ، وبدا لها أن شخصا ما يريد انتزاعه منها • لم تحتمل فكرة فراقه ، وجلست تحرســــه ، ثم أخذت تنظر الى النافذة فى حيرة ، وخيم السكون على الدار أخذت دقات الساعة المنتظمة تمزق قلبها الحزين •

سمعت «روا ـ جيا» خطوات سريعة في الغرفة المجاورة ،فأدركت أن شخصـا ما يحمل خبرا عاجلا ، فتملكها الخوف ، وهبت واقفة تسرع بالخروج لترى من القادم ؟ فرأت « جيا ـ من » يقف بجوار المكتب يتحدث الى « جيا ـ شين » ، فسألت وهى فى مدخل البـاب والقلق يفتك بها :

ـ ما الخبر ؟

أجاب « جيا ـ من » فى انفعال :

ـ شاهدتهم يحملون الجنـود الجرحى الى داخل المـدينة •• اثنين أو ثلاثة كل مرة •• لم أتبين عددهـم جميعا •• كان الأمـر فى غاية الفظاعة •• كانوا ممددين على نقالات يسبحون فى دمائهم: بعضهم بترت أيديهم ، وبعضهم كسرت أرجلهم والدم يتدفق منهم، والأنين يسيل على شفاههم • شاهدت أحدهم وقد أصيب بجـرح غائر فى جذعه فبرزت عظامه ، وصار وجهه فى بياض الشـمع •• يا للبشاعة !

ثم توقف «جيا ـ من» لحظة استأنف بعدها حديثه :

ـ القتـال يدور قرب المدينة •• اذا خسرنا معركة أخـــرى فسيدور القتال فى شوارع المدينة •

فسألت «راوا ـ جيا» بسرعة وقد ارتسمت صورة بشعة فى مخيلتها :

ـ وهل سنكون آمنين هنا ؟

أجابها « جيا ـ من » :

ـ ربما ، أرجو ألا يشعل الجنود المدحورون النـــيران فى كل شىء كما فعلوا فى المرة السابقة ·

وقف «جيا ـ شن» فجأة وانفجر غاضبا :

ـ عشنا ثلاثة أيام فقط فى سلام ، وهاهم أولاء يعيدون الكرة الآن ، انهم لا يتركوننا وشأننا ! ما أتعس حياتنا !

ثم خرج من الغـرفة تاركا «جيا ـ من» و «روا ـ جيا» وحيـدين خائفين ، وبعد ذلك جاء «جيا ـ خوى» و «شو ـ خوا» ومزق ســكون الغرفة صوت «جيا ـ خوى» المتألق :

ـ بدأ السيرك مرة أخرى ·

قال « جيا ـ من » فى ضيق :

ـ ألست خائفا يا أخى الثالث ؟ تبدو سعيدا للغاية !

فأجابه «جيا ـ خوى» فى استخفاف :

ـ ممن تخاف ؟ كنا نعيش فى هدوء أكثر مما ينبغى ··· ان بعض الاكروبات العســـكرية ستنعش الجو بعض الشىء ، أخشى تعطيل الدراسة غدا ·

دهشت «روا ـ جيا» :

ـ كيف بلغت بك الجسارة هذا الحد ؟

ـ عندما ترين نفس العرض مرات كثيرة فان أشد الناس جبنا يتحولون الى شجعان · انهم يقاتلون منذ ســـنوات ولم يتغير فى شىء ، فلماذا أخاف ؟

لكن كلمات «جيا ـ خوى» لم تنتزع من قلوبهم الخوف ، وعندما رفعت «منج ـ فونج» الستائر ودعتهم لتناول العشاء لم يكن لدى أى منهم «شهية» لتناول الطعام أجابت «روا ـ جيا» بلا وعى :

ـ لست جوعى ٠

وقالت «شو ـ خون» :

ـ ولا أنا ٠

ضحك « جيا ـ خوى » وقال وهو ذاهب الى قاعة الطعام :

ـ الفتيات مخلوقات لافائدة منهن ، يخفن من خيالهن ، يسمعن بعض الأخبار التافهة فيرفضن تناول الطعام !

بعد العشاء قرر الأشقاء الثلاثة الخروج لالتقاط أى أنباء جديدة، لكنهم وجدوا الأبواب الضخمة لبوابة الدار الرئيسة مقفلة وقد وضعت عليها أعمدة خشبية ضخمة لاحكام اغلاقها ، كانت البوابة حالكة السواد ، وأخبرهم البواب العجوز أنه قد تم فرض حظر التجول فى الشوارع ٠

فى أثناء عودتهم الى الداخل أخذوا يقارنون بين القوتين العسكريتين المتنافستين ٠٠

قال العم «كا ـ دنج» الذى قابلهم فى مدخل الفناء الداخلى :

ـ من الأكيد أننا سنسمع طلقات المدافع هذه الليلة ٠

كانت الدار أهدأ من المعتاد فى تلك الليلة ، فجعلهم الخوف يتحدثون بطريقة غير عادية ، وساروا فى هدوء زائد ، كان أقل صوت كافيا ليجعل قلوبهم تخفق هلعا ، وأخمدت النيران فى المطبخ فى وقت مبكر ، لم يشعر أحد برغبة فى تناول الطعام ، وحزمت النسوة أمتعتهن الثمينة ووضعنها فى الطابق السفلى أو قمن باخفائها داخل ملابسهن ، وفى كل غرفة جلس الآباء والأبناء

يتبادلون النظرات بأعين خائفة متعبة ، وظلوا ساهرين فى ظلام الليل البطىء .

تنقل العم «كا ـ دنج» من غرفة الى غرفة بطلعته المهيبة معلنا تعليمات الشيخ المبجل «جاو» : على الجميع أن يتصرفوا بحذر ، من الأفضل بالنسبة للجميع النوم بملابسهم كاملة حتى يتمكنوا من الهرب لحظة الخطر .

زادت هذه الأوامر من توتر الجميع ، شعروا بأن كارثة شنيعة ستحل بهم ، وبدأ «جيا ـ خوى» يفقد شيئا من ثقته بنفسه وتساءل:

ـ الهرب ؟ ... الى أين ؟

دار بمخيلته مشهد قديم ... طلقة ارتدت من الطريق المرصوف ، واستقرت فى جسد خادم واقف بجوار الآنية الحجرية ، امسك الخادم بجرحه وندت عنه صرخة مؤلمة ، ثم سقط على الأرض يتلوى من الألم ، ثم لفظ أنفاسه الأخيرة وسط بركة من دمائه الحارة . شاهد «جيا ـ خوى» هذا المشهد بعينيه ، وبرغم مرور سنوات ظل هذا المشهد عالقا بذهنه .. ان الحياة تنبض فى عروقه بقوة وحيوية ، لكنه كباقى البشر من لحم ودم ، شعر «جيا ـ خوى» بضيق وبشىء من الخوف عندما تذكر تلك الحادثة المشئومة ، وضايقه بريق المصباح الكهربى ، فتمنى لو تلاشى هذا النور ليتركه غارقا فى الظلام .

فى حوالى العاشرة مساء دوت قذيفة دويا حادا واضحا اهتز الهواء بصداها ، ورفع «جيا ـ من» رأسه من فوق المكتب ، وتحدث بصوت هادىء وعينيين معتمتين ووجه مكفهر .

وانطلقت أربع قذائف أخرى ، وزاد صوتها اقترابا .

حاول «جيا ـ خوى» الحديث فى هدوء :

– ظواهر الأمور تدل على أن الموقف ليس سيئا للغاية ، فالجنود يطلقون النيران من فوق سور المدينة ليخيفوا الأعداء ·

وقبل الانتهاء من حديثه انطلقت عدة قذائف سريعة دوت فى صوت رهيب ، ثم سادت فترة قصيرة من السكون تلاها قصف سريع عنيف مثل الرعد ، ثم انطلقت رصاصات أحدثت صفيرا حادا وهى تمر فوق سقف المنزل ، واصطدم بعضها والسقف ، فاستيقظ « خاى–تشين» فى الغرفة المجاورة وأخذ يبكى ، وفى الخارج انفجر نواح يردد اسم شخص ما ·

تنهدت «رواـجيا» فى ألم فى الغرفة المجاورة

ـ ياللبشاعة !

كف الطفل عن البكاء ، أخذ الشيخ يسعل بصوت عال فى غرفته وسط الدار ·

···« بوم ···»

مزق الهواء دوى هائل مثل قصف الرعد وتبعه فحيح بطىء، ثم هز الانفجار البيت بأكمله ·

قالت « رواـجيا » بصوت خفيض مرتعش :

ـ انهم يطلقون قنابل شديدة الانفجار !

«بوم ···· أززز ! » ··

ثلاثة انفجارات متتالية ، ثم تبع الانفجار الثالث صوت انهيار فى مكان ما خلف دار « جاو » اهتز له البيت بشدة ·

أخذ « جيا ـ شن » يضرب قدميه فى غضب فى الغرفة المجاورة :

ـ انتهينا ، انهم يستخدمون مدفعية ثقيلة ، سنموت جميعا !

يبدو أن حائطا قد انهار ، يجب أن أذهب الى نهاية الـدار ، لأطمئن على العم « كا ـ دنج » والآخرين .

فصاحت « روا ـ جيا » والدموع على خديها :

ـ لاتذهب ؛ فى خروجك مخاطرة كبيرة ، لن أدعك تذهب !

ـ لوبقينا نحن الثلاثة معا هكذا لكان بامكان قذيفة واحدة القضاء علينا جميعا .

ـ القذائف عمياء لا عيون لها ، يمـكن أن نقتل فى الخارج أو نقتل هنا . فاذا لم يكن هناك مفر من الموت فانني أفضل أن نموت معـا .

أخذ « خاى ـ تشين » يبكى بصوت عال مرة أخرى ، وكذلك استأنفت المدافع قصفها ..

ـ يا للعذاب ! الموت أرحم !

نطق « جيا ـ شن » بهـذه العبارة فى صوت حزين يائس خائف .

ولم يستطع « جيا ـ خوى » الاسـتمرار فى سماع هـذه الطلقات ، فضغط بيديه على أذنيه ليمنع تسرب هذه الأصـوات الكريهة الى أذنيه .

وتردد نواح حـزين مؤلم ، وكأنه يريد تعـذيب القلوب الضعيفة ، وفجأة انقطع النور الكهربى ، وغرقت الدار فى الظلام .

ـ أوقدوا مصابيح الغاز .

تردد هذا النداء فى جنبات الدار ، وساد الغرف اضطراب وهـرج ·

وظل « جيا ــ خوى » مســـتلقيا على سريره على حين جلس « جيا ــ من » بجوار المائدة ولم يحرك أى منهما ساكنا ·

توقف قصف المدفعيــة لحظة ، لــكن نيران البنــادق أطلقت بغزارة ، وفجأة سمع كثير من الناس يصيحون من مســافة بعيدة ···· هل هى صيحات فرح أو صيحات تحذير أو صيحات ندم ؟ دفعت هذه الصيحات صورة مخيفــة الى مخيلة الشــقيقين ···· الجنود يجتاحون الشــوارع ، ويدفعون حراب بنــادقهم فى ظهور المواطنين الهــاربين ، فيســقطون صرعى على الأرض عنــدما ينتزع النصل الدامى من أجسامهم · ويعوى الجنود وقد أصابهم الهوس وسط حمم النيران المنبعثــة من البيوت المحترقة وكأنهم حيوانات ذاقت طعم الدم ، فأخذت تبحث بوحشية عن ضحايا جدد ···

ساد الظلام والرعب دار « جاو » ، وانتظر الجميع فى صمت قرار الموت أو الحيــاة ، وفى الحقول والتــلال خارج المدينــة كان هنــاك آلاف من الجنود المنهمكين فى قتال لا فكاك منه ·· يقــاتلون ويناضلون ويموتون ، لقد عذبت هذه الفكرة الشقيقين ، ولم تترك لهما لحظة راحة ·· وتراقصت أمام أعينهما فى ظــلام الغــرفة ظلال بيضاء وحمراء ·

وصاح « جيا ــ شن » بمرارة فى الغرفة المجاورة :

ــ ما أبشع الزمن الذى نعيش فيه !

فأثارت صيحته العطف والرثاء فى قلبى شقيقيه ·

وأخذت « روا ــ جيا » تنوح ·

ـ لاحول ولا قوة لنا ! ... يجب أن نجد مخرجا .

فتوسل اليها « جيا ـ شن » :

ـ لا تتحدثى هكذا ، انك تزيدين عذابى ، حاولى النوم قليلا ، فأنت مجهدة .

ـ كيف أنام فى وقت كهذا ؟ يحتمل أن تهبط علينا قذيفة فى أية لحظة .

قال لها « جيا ـ شن » فى صوت هادىء :

ـ اهدئى قليلا يا « روا » اذا كتب لنا القدر الموت فلا مفر من قضائه . يجب أن تحاولى النوم .

أشعل « جيا ـ من » فى غرفته عوداً من الثقاب ، وأضاء مصباح الغاز ، فاهتز فتيله فى ضعف ، وأضاء جزءا صغيرا من الغرفة ، وعندما وقعت عينا « جيا ـ من » الذابلتان على وجه « جيا ـ خوى » الشاحب صاح فى دهشة :

ـ ماذا أصابك ؟ منظر مرعب !

ـ كان « جيا ـ خوى » مستلقيا فى فراشه بلا حراك ، فأجابه بهدوء .

ـ ومنظرك أنت لا يسر العين .

تبادل الشقيقان النظرات فى صمت ، استمرت الطلقات تتطاير فوق السقف على حين دوت قذائف المدفعية كالرعد ، واهتز البيت من أساسه ، وبدأ « خاى ـ تشين » فى البكاء .

قال « جيا ـ خوى » فى عزم :

ـ لا فائدة من البقاء على هذه الحال ، فلننم قليلا ..

ثم هب واقفا وأخذ يخلع ملابسه .

فقال « جيا ــ من » :

ــ فكرة طيبة ، لكن من الأفضل أن ننام ونحن مرتدون ثيابنا ٠

لكن « جيا ــ خوى » خلع ملابسه الداخلية ، وانزلق تحت الأغطية ، وغطى وجهه ، فلم يمض وقت طويل حتى تلاشى دوى القذائف من أذنيه ٠

أشرق الفجر صحوا مضيئا ، ثم تألقت أشعة الشمس فى الأفق ، فأوضحت بجلاء أن دار « جاو » لم تصب بأذى ، وان تحطمت بعض الأسقف ، وتحطم جزء من الجناح الشمالى ، وكانت هناك فقط بعض النيران المتفرقة ، وخيم السلام بصفة عامة على الدار ٠

ذهب « جيا ــ من » و « جيا ــ خوى » للاطمئنان على زوجة أبيهما السيدة « تشوو » ، فوجدا هناك زوجة العم « كا ــ دنج » وابنتها « شو ــ انج » ٠ كن جميعا متعبات ، وثيابهن مهلهلة بعض الشىء ٠

سادت الغرفة فوضى شديدة ؛ فقد رصت أربع موائد وسط الغرفة فوق سجادة سميكة ٠ ونامت السيدتان تحت الموائد فى الليلة السابقة وأقمن بالوسائد متاريس حولهن من جميع الاتجاهات لتحميهن من الرصاص ، وقالت السيدة « تشوو » ان «شو ــ انج» ووالدتها حضرتا بعد أن سقطت قذيفة فى الحديقة خلف بيتهما ، وحطمت جزءا من جدار الفناء ٠

ثم توجهت السيدة « تشوو » بحديثها الى الشقيقين :

ــ فى حوالى الثالثة صباحا خيل الى أن قذيفة سقطت على سطح جناحكما وحطمته ، ثم جاءت « روا ــ جيا » تصرخ حاملة

« خاى ـ تشين » بين يديها : خشيت أن تكون غرفتكما قد دمرت، ناديتكما مرات كثيرة ، ولكن أحدا لم يجبنى ، وكانت الطلقات تتطاير بغزارة ، ولم يجرؤ انسان على الخروج ليعرف حقيقة الأمر، وأخيرا ذهبت اليكما « منج ـ فونج » ، فوجدت بابكما مغلقا واطمأنت الى أن غرفتكما لم تدمر ، وقد جعلنا هذا نطمئن على سلامتكما ٠٠ لا تناما هكذا مرة أخرى هذه الليلة ، يجب أن تكونا مستعدين للهرب فى أية لحظة ٠

والسيدة « تشوو » تتحدث عادة بسرعة ، لكنها عندما كانت تتحدث الى الأولاد هذه المرة لم تتوقف حتى لتلتقط أنفاسها ، انسابت الكلمات من بين شفتيها كاللآلىء التى تتدحرج على سطح أملس ٠

وضحك « جيا ـ من » :

ـ لا أعرف كيف نمت بهذا العمق مع أنى عادة أستيقظ من أقل همسة ؟

وفى تلك اللحظة دخل « كا ـ دنج » و « جيا ـ شن » ، فطمأن مظهرهما الهادىء السيدة « تشوو » فسألتهما :

ـ أكل شىء على ما يرام الآن ؟

فأجابها « كان ـ دنج » بلهجته العادية المعتدلة :

ـ انتهى كل شىء ، وسمح بالمرور فى الشوارع مرة أخرى ، أصبحت الشوارع خالية من الجنود ، كل شىء هادىء فى الخارج ويقولون : ان القوات المهاجمة قد استولت على ترسانة السلاح الليلة الماضية ، وان السلطات المحلية طلبت من القنصل البريطانى التدخل كوسيط ، قال المسئولون له : انهم على استعداد للتسليم،

وان الحاكم سيتنحى • أعتقد أنه لن يكون هناك قتال بعد ذلك • ان خوفنا بالأمس لم يكن له ما يبرره •

اتجه « كا ـ دنج » الى زوجته ، وطلب منها العودة الى بيتها، وأن تستريح قليلا •

ـ لقد سهرت الليل كله وتبدين متعبة •

ثم قال للسيدة « تشوو » بمنتهى الأدب :

ـ يجب أن تستريحى أنت أيضا ، لقد أزعجناك بالأمس •

تبادلوا بضع كلمات ، ثم رحل « كا ـ دنج » وزوجته وابنته على حين بقى الولدان مع زوجة أبيهما يتجاذبون أطراف الحديث •

ثم مر اليوم هادئا ، واعتقد الجميع أن المتاعب قد انتهت ، لكن فى المساء تبدلت الحال فجأة •

جلس جميع أفراد العائلة فى الفناء ماعدا الشـــيخ المبجل « جاو » يناقشون أحداث الليلة الماضية ، وفجأة أقبل أحد الخدم وهو يلهث ، وأعلن للحاضرين فى انفعال :

ـ حضرت السيدة « تشانج » :

ولم تمض برهة قصـــيرة حتى دخلت من البوابة الجانبية السيدة « تشانج » ، و « تشن » وامرأة شابة « مى » •• يرتدين ملابس البيت العادية ، ولا يلبســن ثياب الخروج الرســمية ، وارتسمت على وجوههن تعبيرات مختلفة ، لكنهن يبدون جميعـــا خائفات •

وقف الجميع وحيوهن على التوالى •

وهمت السيدة « تشانج » بشرح سبب مجيئهن ، لكن ضجة حدثت كقصف الرعد مصحوبة بلهيب من النيران المستعرة ، وتلا ذلك صوت انفجار مدو تبعته عدة انفجارات ، فأسرع الرجال والنساء والأطفال بمغادرة الفناء ، واحتموا بقاعة العائلة ٠

توقفت المدفعية بعد حوالى خمس قصفات ، وبدأ دوى الرصاص يخترق السماء ٠ جاءت هذه الطلقات من شمال شرق المدينة ، وتساقطت على المدينة كعاصفة مطيرة ، وامتزج دوى الرشاشات وأصوات الهرج والمرج ، فكان من العسير تمييز أى صوت وسط قصف البنادق السريع ، وفجأة ازدادت الضجة حدة ، وتسلقت المدافع جدار المدينة فى اندفاع جنونى ، وأخذت تطلق حممها ٠ كان الدوى أعنف من الليلة السابقة ، فأكثر من عشرة مدافع جثمت على صدر المدينة ، وأخذت تزأر باستمرار ، فاهتزت الأرض ، وارتجت النوافذ ، وكأن هناك زلزالا يهز الدار بعنف ٠

جلس الجميع فى قاعة العائلة فى صمت وخوف وقد شحبت وجوههم ، وأخذوا يتبادلون النظرات وهم ساهمون ، كانوا يعلمون أن حياتهم معلقة فى خيط ، لقد انتظروا فى صمت بلا شكوى أو أنين أو أية بادرة للمقاومة ، وتغلب الخوف من الموت على جميع المشاعر الأخرى ، فلم يتأثروا بلقاء « جيا ـ شن » و « مى » ولا لعودتها الى هذه الدار مع السيدة « تشانج » بعد قطيعة استمرت سنوات ؛ فقد شغلهم نذير الموت الذى يحوم فوق رءوسهم ٠

خبا ضوء النهار وهجع ستار المدفعية ، لكن طلقات البنادق استمرت على غزارتها ، وبدأ الناس يقلقون :

ـ كيف سنقضى هذه الليلة ؟

ثم حدث انفجار هائل اهتزت له الجدران تلته ضجة تشبه

انفجار الصواريخ وانهيار الأحجار ، وصاحت السيدة « تشـــوو » فى صوت مرتجف :

ـ انها النهاية !

ثم هبت واقفة واتجهت الى الباب المؤدى الى غرفتها ، واذا بها تصطدم هى و « منج ـ فونج » التى جاءت تجرى مندفعة الى داخل القاعة ، فارتفعت أصوات كثيرة تسألها فى نفس واحد :

ـ ماهذا ؟ ما الذى حدث ؟

أخذت « منج ـ فونج » تلهث وقد هرب الدم من وجهها ، فلم تستطع الكلام ٠

دفعت ستارة الباب ، ودخل الشيخ المبجل « جاو » تتبعته السيدة « تشين » ، فهب الجميع وقوفا ٠

سأل الشيخ العجوز :

ـ ماذا حدث ؟

فقالت « منج ـ فونج » وهى ترتعد خوفا :

ـ سقطت قنبلة ضـخمة ٠٠ فى غرفة « شو ـ انج » ٠٠ أحدثت ثغرة فى السقف ٠٠ امتلأ الفناء بالدخان ٠٠ فجريت ٠

قال الشيخ العجوز محذرا :

ـ لا فائدة من وراء التجمع هكذا ، قذيفة واحدة يمكنها أن تقضى على العائلة بأكملها ، يجب التصرف بطريقة أفضل ٠

ثم أخذ يسعل ٠

اقترح « كا ـ دنج » :

ـ من الأفضل أن نغادر الدار ونتفرق ، يذهب كل رب أسرة مع أسرته ليعيش عند أحد الأقارب فى أطـراف المدينة ، ويذهب والدى الى أسرة « تانج » ، فالمكان آمن هناك ٠

قالت السيدة « تشانج » :

ــ لا سبيل للعبور من منطقــة البوابة الشرقية ؛ فالمنطقــة جنوب البوابة وغربها أفضل قليلا ٠

لقد هربت السيدة « تشــانج » والفتاتان عن طريق البوابة الشرقية بعد أن استولى العسكريون على بيتها ، وكانت « مى » فى زيارة للسيدة « تشانج » عندما حدث ذلك ، ورغبت « مى » فى العودة الى دارها ، لكن الطريق أغلق ، فاضطرت الى الحضور معهما الى دار « جاو » ٠

وقبل أن تنتهى السيدة « تشانج » من حديثها دوت قنبلة أخرى فوق الســـقف ، وانفجرت فى مـــكان ما أبعد من القنبلة السابقة ، ويحتمل سقوطها على الدار المجاورة ٠

فاندفع الجميع تجاه المدخل ، لكن الخدم أوقفوهم عند القاعة الرئيسة ، وأخبروهم أن البوابة الضخمة قد أغلقت ٠٠ وأن الجنود اجتاحوا الشوارع ، وفرض حظر التجول ٠

غلبوا على أمرهم ، فارتدوا على أعقـــابهم ، واقترح عليهم « جيا ــ شين » الذهاب الى الحديقة ليحتموا هناك ، فوافقوا على طلبه ، وذهبوا جميعا الى هناك ٠

شعر الجميع أنهم انتقلوا الى عالم آخر ٠٠ أخذ دوى النيران يتردد فى آذانهم ، غير أن الطبيعة ساعدتهم على نسيان خوفهم ٠٠ المروج الخضر والورد الأحمر والأبيض ٠٠ ورقة الحياة وصفاؤها ٠

لقد احتوت هذه المجالى غلالة رقيقة شفافة من الضباب فاكتسبت الحديقة جوا غامضا ساحرا ، وبرغم أن الخوف والتعب قد أضنياهم فان عيونهم وقلوبهم لم تغفل عن هذا الجمال ٠

مروا من غابة الصنوبر حتى وصلوا الى حافة البحيرة ، انعكست سحب الغروب وألوان الورود المتمايلة على ماء البحيرة الأزرق الشاحب الهادىء المستكين تحت غطاء رقيق شفاف من الضباب ٠٠ ساروا بلا توقف على حافة الغابة التى تطوف البحيرة ، وتقدموا تجاه مبنى « استراحة البحيرة » ٠

ظهرت أمام الناظرين أدغال من الغاب الرقيق على امتداد الأحجار الرمادية الداكنة كسقف المبنى ، وتفتحت أزهار المنوليا فى مواجهة الباب الأمامى ، وبعثت فى الفضاء عبيرها الأخاذ ٠

فتح « كا ــ منج » الباب ، ودعا الشيخ المبجل « جاو » للدخول أولا ، ثم تبعه الآخرون ٠ وأشعل أحد الخدم مصباح غاز ٠ كان الشيخ مرهقا ، فبحثوا عن مقاعد فى استراحة البحيرة المكونة من صالة وغرفتين جانبيتين ٠ قام الخدم بتنظيمها بسرعة ، فأعدوا غرفة للسيدات وأخرى للرجال ٠

وفى تلك اللحظة توقفت المدافع ، وقلت كثافة نيران البنادق، ثم توقفت أيضا ٠٠ وبدا لهم الخوف الذى كان يمزقهم منذ لحظات مجرد حلم كئيب بعد انتقالهم الى هذه المجالى الآمنة ، وأطل الجميع من النوافذ المشرفة على البحيرة ٠ ونظروا الى المياه الصافية ، فاندفع اليهم تيار من الهواء النقى جرف أمامه جانبا كبيرا من قلقهم ٠

ألقى القمر بشائر نوره الفضى الشاحب على سطح البحيرة ، فزاد من استرخائها وبرودتها ٠ وعلى الجانب الآخر من البحيرة وقف مبنى « عبير المساء » وقد أشرقت وجهته بنور القمر الطاهر ،

وتناثر أمامه ورد أبيض ·· التلال والهضاب ·· أشجار البرقوق، وأشجار الصفصاف تفردت كلها بلونها وشكلها المميز ، لكنها جميعا انصهرت فى جو ساحر عميق حين لمستها أشعة القمر الذهبية ·

قالت « مى » «لتشن» فى لوعة :

ـ أتيت هنا ذات مرة منذ خمس سنوات مضت ·

كانت « مى » فى البداية قلقة على أمها وأخيها ، لكنها بدأت تشعر بشىء من الراحة وسط هذه المناظر الخلابة ، فجلست تنظر الى مبنى « عبير المساء » فى الجانب الآخر من البحيرة وكأنها تبحث عن شىء هناك ، وبعد لحظة انتقلت نظراتها الى أشجار الصفصاف المتراصة بامتداد البحيرة ·

ووقفت « تشن » بجوار « مى » ترقب فى صمت القمر يسبح وسط السحب وكأنها أمواج بيضاء ، استدارت « تشن » ، ونظرت الى « مى » فوجدتها تشير الى أشجار الصفصاف ·

ـ ان أفرع أشجار الصفاف الباسقات تلتف حول قلبى وتعصره ·· الآن عاد الربيع مرة أخرى ·

حاولت «تشن» تغيير مجرى الحديث ، فجذبت أكمام « مى »، وقالت فى فرح :

ـ أخذنا جولة هنا بالقارب عندما اكتمل قمر العام الجديد ، وقد أبدى الجميع أسفهم لأنك لم تكونى معنا · من كان يظن أنك ستأتين الى هنا بهذه السرعة ؟

ترقرقت الدموع فى عينى « مى » ، وتعلقت بيد « تشن »، وأجابت فى حزن :

ــ أشكرك على مشاعرك الرقيقة ، لكن ماجدوى حضورى الى هنا ؟ أنت لا تعلمين ما شـــعورى الآن ؟ لم يتغير شىء هنا ، كل شجرة ، كل ورقة من الحشـــيش الأخضر ــ تعيد الى الذكريات الأليمة ، وبالرغم من أن قلبى قد تحول الى رماد فاننى لا أستطيع نسيان الماضى كله ٠

نظرت «تشن» الى «مى» فى خوف، ثم تلفتت حولها لترى : هل كان أحد قد سمعها ؟ ثم همست :

ــ لاتتكلمى هنا هكذا ؛ قد يسمعونك ٠ اذا كان من الصعب عليك نسيان الماضى فانه يجب عليك ألا تزعجى نفسك هكذا ٠

فى تلك اللحظة سـمعت « تشن » صـــوت أقدام خلفها ، فالتفتت بسرعة ، فرأت « روا ــ جيا » تقترب منها وقد أمسكت بيد « خاى ــ تشين » ٠ سألتها « روا ــ جيا » ضاحكة :

ــ ما السر الذى تتهامسان به ؟

فخجلت « مى » ، ولم تجب بكلمــة ، وقالت « تشن » فى دعابة :

ــ أتيت فى الوقت المناسب ، كنا نغتابك ونذكر نقائصك ٠

قالت «مى» «لروا ــ جيا» وهى تضحك :

ــ لاتصدقيها ٠

وابتسمت « روا ــ جيا » :

ــ اننى بالطبع لا أقارن نفى « بتشن » ؛ انها تقرأ كتبا كثيرة، وتذهب الى مدارس حديثة ، وهى جميلة شجاعة ٠

سألتها « تشن » فى سخرية مصطنعة :

ـ وماذا أيضا ؟

ـ و ، و ٠٠ أشياء أخرى كثيرة ٠

ثم انفجرت ضاحكة وقالت « لمى » بلهجة جادة :

ـ كنت أتمنى لقاءك منذ زمن طويل ٠٠ سمعت عنك الكثير ، لكن لم يسعدنى الحظ بذلك ٠ أى رياح طيبة جاءت بك الينا اليوم؟ لا أستطيع أن أعبر عن سعادتى ، ألم نلتق فى مكان ما من قبل ؟

قالت « تشن » :

ـ ربما رأيت صورتها ٠

ـ لا ٠ أنا واثقة أننى رأيتها فى مكان ما ، لا أستطيع أن أتذكر أين ؟

حركت « مى » شفتيها فى ابتسامة صغيرة مرسومة ، وقالت فى أدب جم :

ـ لم يسعدنى الحظ بمعرفة زوجة أخى من قبل ٠

لكنها أضافت مسرعة وبطريقة ودية :

ـ انك ممتلئة عن صورتك ٠

ـ انه بلا شك « خاى ـ تشين » ٠

ثم أمسكت الطفل الصغير بيدها وسألتها :

فابتسمت « روا ـ جيا » :

ـ نعم ٠٠ رحب بعمتك يا « خاى ـ تشين » ٠

فنظر الطفل الصغير الى « مى » ونفذ طلب والدته فورا ٠

وابتسمت « مى » للطفل فى مودة ، وانحنت عليه وقبلته ، ثم ربتت خده قائلة :

ـ يشبه الأخ الكبير ، وبخاصة عيناه المتألقتان • ما عمره ؟ أربعة أعوام ؟

ـ لم يكملها بعد •

ضغطت « مى » بخدها على خد « خاى ـ تشـين » ، وقبلته ونادته يا حبيبى مرات كثيرة قبل أن تعيده الى أمه ، وقالت لهـا فى هدوء وقد تغير صوتها قليلا :

ـ لقد أسعدك الحظ بهذا الولد الرائع •

وشعرت «تشن» بالتغيير ، فبدأت على الفور فى تغيير دفة الحديث • اندمجن فى ثرثرة عادية ، وشعرت « رواـ جيا » بميل الى « مى » بالرغم من أن هذه أول مرة تلتقيان فيها •

فى تلك الليـلة ذهبوا الى الفراش فى وقت مبكر ، ذهب « كا ـ دنج » و « جيا ـ شن » الى جناحيهما حتى يتمكنا من مراقبة الدار ، وشـعر « جيا ـ من » و « جيا ـ خوى » بأنهما مقيدان لوجودهما فى غـرفة واحدة مع جدهما ، فعادا الى غرفتهمـا حيث ينعمان بشىء من الحرية ، وكانا هذه المرة أكثر شجاعة ، اذ انهما جربا من قبل التعرض لقذائف المدفعية •

الفصل الحادى والعشرون

لم ينم أى واحد منهم فى تلك الليلة نوما عميقا · أشرق الفجر ، وبدأ السيد المبجل «جاو» فى السعال سعالا حادا مستمرا أيقظ الآخرين ، فقرروا أن من واجبهم أيضا الاستيقاظ مبكرين ·

قامت « تشن » و « شو ــ أنج » بعد أن اغتسلتا وسوتا شعريهما باصطحاب «مى» فى جولة خلوية ، وأوضحتا لها التغييرات التى حدثت فى سنوات فراقها لهما ، وحدثتها الفتاتان أيضا عن الأحداث التى مرت بهما فى تلك الفترة ·

لم تصب الحديقة بأضرار جسيمة نتيجة قصف المدفعية ، وان انكسرت شجرتان من أشجار الصنوبر نتيجة لانفجار قنبلة ·

ظل قرار منع الجولان مطبقا على المدينة ، لكن القيود خفت عن اليوم السابق · وبالرغم من قيام جماعات من الجنود بأعمال المراقبة عند تقاطع الطرق ونقط الحراسة بصفة مستمرة فانه من الممكن للأشخاص السائرين فرادى الجولان فى مناطق محدودة اذا لم تعترضهم نقط حراسة هامة ·

لم يجد طباخ عائلة « جاو » سوى القليل فى سوق الخضراوات، اذ أن الفلاحين لم يتمكنوا من احضار منتجاتهم من القرى المحيطة بالمدينة بسبب اغلاق البوابات طوال يومين · وبرغم مابذله الطباخ بما يتمتع به من خبرة وفن فى اعداد الطعام فان الغداء كان «بسيطا» نسبيا ، وللضرورة أحكام ·

قدم الغذاء في استراحة البحيرة ، وضعت مائدتان مستديرتان ى الغرفة الوسطى ، جلس الكبار على مائدة والصغار على مائدة أخرى ، وبالرغم من أنهم لم ينالوا مايكفيهم من الطعام فى الأيام الثلاثة السابقة فان الأطباق القليلة التى قدمت على المائدة لم تفتح « شهية » غالبيتهم ، فتناولوا قليلا من الطعام فى فتور ، ثم رفعت الأطباق ، وغادروا المائدة ·

انكب « جيا ـ من » و « جيا ـ خوى » على الطعام « بشهية » واختلس « جيا ـ شن » نظرات الى « مى » الجالسة فى ركن مواجه له ، فالتقت عيونهما مرات كثيرة ، وكانت « مى » تخفض رأسها أو تهرب بنظراتها بعيدا فى خجل ، وتزداد ضربات قلبها عنفا · لم تعرف : هل كان مبعث هذا الانفعال هو الفرح أو الندم ؟ ولحسن الحظ شغل الجميع بمراقبة الشراهة التى يلتهم بها « جيا ـ من » و « جيا ـ خوى » طعامهما ، فلم يلحظوا انفعالاتها ·

لامت «شو ـ خوا» شقيقها بعد أن غادر الجد الغرفة موجهة حديثها الى « جيا ـ من » :

ـ « شهيتكما » لابأس بها اطلاقا ، أطباقكما خاوية وبرغم ذلك مازلتما تمسكان بها فى أيديكما ·

أجابها « جيا ـ خوى » وهو يبتلع الأرز الذى حشا به فمه بعد أن وضع طبقه على المائدة :

ـ طبعا ·· لسنا مثلكن أيتها الفتيات ·· انكن تأكلن الدجاج والبط والسمك واللحوم كل وجبـــة · هل تعلمين ماطعامنا فى المدرسة ؟ خضراوات وكرنب وفاصوليا خضراء ·· والآن تعانين ماكنا نقاسيه · أرجو أن نظل على هذه الحال بضعة أيام أخرى حتى نرى : هل كنتن ستتحملن أو لا ؟

وأراد «جيا ـ خوى» الاستمرار فى حديثه ، لكن «جيا ـ من» ضربه فى كوعه ، وغمز له أن يلزم الهدوء ، فلاحظ « جيا ـ خوى » الكبار وقد ارتسم الضيق على وجوه بعضهم ، فأطبق فمه والتزم الصمت ، ثم دفع كرسيه الى الخلف ونهض ٠

وانفجرت « شو ـ خوا » قائلة :

ـ اننى أتحدث الى الأخ الثانى ، من طلب منك حشر نفسك ؟

ثم أدارت رأسها ، ورفضت اعارته أى اهتمام ٠

انتهى الطعام ، وخرج الأشقاء الثـــلاثة الى الطريق بحثا عن أخبار جديدة ، وفى نيتهم القاء نظرة على منزل السيدة « تشانج » اذا استطاعوا الوصول الى هناك ٠

لم يكن يسير فى الطريق الا أفراد قلائل ، كان الناس يقفون فى مجموعات من أربعة أفراد أو خمسة أمام بوابات دورهم الخارجية، وكانت أعناقهم تمتد أحيانا لينظروا الى الطريق ثم ينهمكوا فى مناقشات حامية ، انتشر الجنود فى الطريق ، ففى كل عشر ياردات يقف جندى بجوار الحائط مرتديا ملابس الميدان ، أو يقطع الطريق ذهابا وايابا ممسكا بندقيته ، لم تعترض أية نقطة حراسة طريق الأشقاء الثلاثة ، فساروا فى حرية تامة ٠

التقى الاخوة ومجموعة من الرجـــال تقف بجوار حاجز فى مفترق الطرق ، وتقرأ اعلانا معلقا على الحائط : انه استقالة الحاكم ٠

أعلن الحاكم استقالته فى تواضع جم ٠٠٠ « ان فضائله ليست كافية لخدمة الشعب ، كما تنقصه الموهبة التى تخفف عن الشعب متاعبه » ٠٠ ونتج عن ذلك حدوث معركة ٠٠ « جلبت الألم لرجالى والمتاعب للشعب » ٠٠ لذا قرر التنحى حتى يتجنب ٠٠ « اطالة أمد الحرب وجلب الخراب على البلاد » ٠

ضحك « جيا ــ خوى » قائلا :

ــ الآن يعسكر جنود الأعداء خارج أسوار المدينة ، على حين ينهمك هو فى اعداد الخطب الجميلة ، لماذا لم يتنح منذ أمد بعيد ؟

نظر « جيا ــ شن » فيما حوله ، ولحسن الحظ لم يكن هناك أى انسان بالقرب منه ، فلم يسمع أحد تعليق « جيا ــ خوى » ، فجذبه من كمه وحذره فى صوت خفيض :

ــ التزم الحرص فى حديثك ! ألا تريد أن تعيش ؟

فلم يجب « جيا ــ خوى » ، ومر الأشقاء الثلاثة من خلال ثغرة فى الحاجز ، وأمام أحد المعابد القديمة ظهرت مجموعة من الجنود الجامدى الوجوه ، وقفوا بالقرب من بنادقهم المكومة ، وكان بجوار هذا المعبد محل صغير به نسخ قليلة من جرائد اليوم معروضة للبيع ، فاشتروا نسخة وتصفحوها بسرعة ، ولاحظوا أن موقف الجريدة بدأ يتغير ، وبالرغم من حديثها عن الحاكم المستقيل بكلمات رقيقة فانها توقفت عن تسمية الجيش المعادى بالمتمردين ، أما قادة الأعداء الذين كانت تسميهم دائما عصاة ولصوصا وقطاع طرق فأخذت تلقبهم (الجنرال فلان القائد علان) • ونشرت جمعية التجار وجمعية المحافظة على الفضـــائل القديمة اعلانا ترحب فيه بمقدم الضباط والجنرالات الى المدينة ، كانت نفس هذه الجمعيات قد دأبت قبل استقالة الحاكم على تسميتهم باللصوص الأوغاد والتشهير بهم •

قال « جيا ــ شن » :

ــ يبدو أن الأزمة قد انتهت •

هم الأشقاء بعبور أحد التقاطعات ، لكن الطريق كان مغلقا أمامهم ، وقام بحراسته جنديان مدججان بالسلاح ، فاضطروا الى

الرجوع ، حاولوا الالتفاف من زقاق خلفي ، لكنهم وجدوا أنفسهم أمام نفس نقطة الحراسة ، فقد كان الزقاق ينتهي عند نفس النقطة التي رجعوا منها في الشارع الرئيسي .

واعترضهم جندي نحيف الوجه في وحشية :

ـ الى أين تظنون أنفسكم ذاهبين ؟

أجابه « جيا ـ شن » في أدب :

ـ اننا نريد زيارة قريب لنا يسكن في منطقة قريبة خلفكم .

ـ لن تمروا .

عض الحارس على نواجذه ، ونظر في اعجاب الى البندقية التي يمسكها بيده «والسونكي» اللامع المثبت في نهايتها ولسان حاله يقول .. اذا اقتربت خطوة فلن أضيع معك لحظة في الحديث ، سأدع هذا «السونكي» يتكلم !

عاد الاخوة أدراجهم في صمت ، بحثوا عن مدخل آخر الى الشارع الرئيسي ، لكن جميع جهودهم ذهبت سدى ، فقد أغلقت نقط الحراسة جميع المداخل .

قرروا العودة الى البيت ، ساورهم القلق خشية اغلاق الطريق في أثناء عودتهم الى دارهم ، فساروا مسرعين . كان هناك أفراد قلائل يسيرون في الطريق . ساد الصمت المحال التجارية والبيوت ، أغلقت الأبواب .. ولاحظوا أن الطريق أهدأ مما كان حينما مروا به منذ لحظات فزاد هذا من قلقهم .

وكانوا كلما مروا بنقطة حراسة خفقت قلوبهم بشدة خشية أن يمنعوهم من المرور ولحسن حظهم لم يحدث شيء من هذا ، وعادوا أخيرا الى دارهم .

جلس معظم أفراد العائلة فى الحديقة ، وأسرع الاخوة باللحاق بهم ، فوجدوا جدهم وعماتهم يلعبون « الما ــ جيانج » فى استراحة البحيرة ، تعجب «جيا ــ خوى» من اهتمامهم باللعب فى وقت كهذا ، ثم لاحظ اختفاء أخيه « جيا ــ من » ، فتسلل هو الآخر الى الخارج ، وبقى « جيا ــ شن » الى جوار جده يروى له الأخبار القليلة التى تمكن من الحصول عليها .

وأرضت هذه الأخبار الكبـــار بطبيعة الحال ، لكن السيدة « تشانج » ظلت قلقة لأن « جيا ــ شن » لم يستطع اخبارها بشىء عن حالة بيتها الذى اضطرت الى التخلى عنه ، غير أنها انهمكت فى اللعب ونسيت متاعبها .

عندما انهمك الكبار فى اللعب انتهز « جيا ــ شن » الفرصة وخرج ، ثم وقف برهة قصيرة تحت شجرة المنوليا ، وشعر بسخافة أفكاره ، انه يتطلع الى شىء لن يحصل عليه أبدا بالرغم من وجـود هذا الشىء أمام عينيه .. ! الحياة جافة عقيمة ، واستند بظهره الى جذع شجرة ، وانطلقت نظراته هائمة فى الخضرة المنبسطة أمامه .

غردت الطيور على الأشجار ، ورفرف زوج من الطيور المغردة على فرع الشجرة ، فأمطرت أوراقا من زهور المنوليا البيضاء كالثلج هبطت على رأس « جيا ــ شن » ، ثم شاهد هذا الزوج من الطيور المغردة يطير جهة اليمين ، كان مستعدا لتقديم كل مايملك ليتحول الى طائر يحوم معهما عاليا فى الفضاء اللانهائى . تسلل الى أنفه عبير ساحر فتان ، والتفت برأسه لينظر فيما حوله ، نتساقطت أوراق زهور المنوليا من فوق رأسه وكتفيه ، وتعلقت احدى الورقات بصدره ، فالتقطها برقة بين اصبعيه ثم تركها ، وظل يرقبها وهى تسبح فى الهواء فى ضعف ، ثم تهبط على الأرض .

ولاح طيف امرأة تسير بجوار التل الصناعي في بطء وقد حنت رأسها ، وأمسكت بيدها فرعا من شجرة الصفصاف ، وفجأة رفعت رأسها فرأت « جيا ـ شن » يقف تحت الشجرة ، توقفت وارتعشت شفتاها قليلا وكأنها تهم بقول شيء ما ، لكنها لم تنبس ببنت شفة ، استدارت في صمت وسارت مبتعدة عنه . كانت ترتدي سترة حريرية رمادية شاحبة فوق ثوب حريري أسود .. انها « مي » .

سرت قشعريرة في جسد « جيا ـ شن » ، وكأنما صب على رأسه ماء بارد .. لماذا تتجنبه ؟ .. يجب أن يعرف ، فتعقبها في هدوء .. دار « جيا ـ شن » حول التل الصناعي ، فرأى وردا وشجيرات ، لكنه لم يجد أثرا « لمي » واتجه الى اليمين ، فرأى من خلال فجوة في التلّ الصناعي ثوبها الحريري الأسود ، فدار حول التل الصناعي ، فوجد نفسه في حديقة صغيرة بيضاوية الشكل محاطة بأشجار البرقوق ، وقد وقفت « مي » تحت هذه الأشجار ، وحنت رأسها لتنظر في شيء وضعته في راحة يدها .

ـ مي !

أفلتت هذه الكلمة من بين شفتيه وهو مسرع نحوها .

رفعت « مي » عينيها ، لم تبتعد هذه المرة ، ورنت اليه ساهمة وكأنها لا تعرفه .

فتقدم « جيا ـ شن » اليها ، وسألها في صوت مضطرب :

ـ مي ، لماذا تتجنبين لقائي ؟

حنت « مي » رأسها ، وداعبت في رقة الفراشة التي تموت على كفها ، لقد أخذت الفراشة تحرك جناحيها في ضعف ، والتزمت « مي » الصمت .

فسألها « جيا ـ شن » فى ألم :

ـ ألم تسامحينى بعد يا « مى » ؟

رفعت « مى » رأسها ونظرت اليه فى ثبات ، ثم أجابته ببرود :

ـ أنت لم تؤذنى على أية حال يا أخى الكبير .

لم تنطق بسوى هذه الكلمات القليلة .

قال لها فى مرارة وألم :

ـ هذا يعنى أنك لم تسامحينى .

فابتسمت « مى » ابتسامة حزن لا سعادة ، وداعبت عيناها وجهه ، ووضعت يدها اليمنى على صدرها وقالت فى هدوء :

ـ ألا تعلم أنت مابقلبى ؟ هل يمكننى أن أكرهك يوما ما ؟

ـ اذن لماذا تتجنبيننى ؟ لقد افترقنا سنوات طوالا ، وأتيحت لنا فرصة اللقاء الا أنك لا ترغبين حتى فى مجرد الحديث معى ، ألا تفكرين فيما أشعر به ؟ كيف أمنع نفسى من الشك فى أنك تكرهيننى ؟

قال ذلك وهو يبكى ، ثم أخرج منديله ، ومسح به دموعه .

لم تبك « مى » ، وأخذت تعض شفتيها ، وازدادت تجاعيد وجهها عمقا ، ثم قالت فى هدوء :

ـ لم أكرهك قط ، لكن يحسن ألا نلتقى كثيرا ، لا جدوى من اثارة الماضى .

كان « جيا ـ شن » يجهش بالبكاء ، فلم يستطع الكلام ،

فانحنت « مى » ، ووضعت الفراشة فى هدوء على الحشيش الأخضر، ثم قالت فى صوت ملء بالحب والأسى :

ـ ياللعار ! من فعل بك هذا ؟

وبالرغم من أن كلامها هذا يمكن فهمه بطريقتين مختلفتين فانها لم تتعمد أن يكون فى كلامها أية تورية ، ثم سارت تجاه استراحة البحيرة ، ورفع « جيا ـ شن » عينيه ، وبالرغم من أن الدموع كانت تملؤهما فانه استطاع رؤية شعرها الملفوف فى شكل دائرى فى مؤخرة رأسها وشريط الصوف الأزرق الشاحب الذى يثبت شعرها فى مكانه . أوشكت أن تختفي خلف التل ، فندت عن شفته صرخة :

ـ مى !

وقفت « مى » وانتظرته حتى لحق بها ، ثم سألته فى برود :

ـ ماذا ؟

سأل فى حزن ويأس :

ـ هل أنت قاسية حقا ؟ لقد منحت الفراشة عطفك ورحمتك، ألا أستحق شيئا من الرحمة ؟

فبقيت « مى » صامتة ، ثم ألقت برأسها بين كتفيها ، واستندت الى التل الصناعى .

بكى « جيا ـ شن » :

ـ قد ترحلين غدا ، ربما لا تتاح لنا فرصة اللقاء أحياء أو أمواتا ! يبدو أننا فى عالمين مختلفين . هل يمكنك فراقى هكذا بلا كلمة وداع ؟

ظلت « مى » على صمتها ، لكن أنفاسها كانت سريعة لاهثة ..

ـ أخطأت فى حقــك وآذيتك .. بالرغم من أنه لم يكن بوسعى عمل شىء . لقد نسيتك بعد زواجى .. لم أفكر فيما تعانينه

كان صوته خفيضا محطما ، وبالرغم من امساكه بمنديل فى يده فانه لم يمسح عينيه ، وسالت الدموع على خديه .

ـ علمت فيما بعد بما قاسيته فى السنوات الماضية ، كنت أنا السبب فى كل هذا . كيف يمكننى بعد ذلك العيش فى سلام ؟ عانيت أنا الكثير كذلك يا « مى » ، ألا يمكنك أن تقولى : انك سامحتنى ؟

وفى تلك المرة عندما رفعت « مى » عينيها كانت الدموع تبلل وجهها ، وتألقت عيناها ، وبكت فى رقة برغم كل شىء :

ـ ان قلبى معقد كنبات الكتان .. ماذا تريدنى أن أقول ؟

أخذت « مى » تردد هذه العبارة ، وضغطت بيدها على صدرها وأخذت تسعل .

مزق حزنها قلب « جيا ـ شن » ، ونسى نفسه واقترب منها ليجفف دموعها بمنديله .

قبلت « مى » ذلك منه لحظة ، ثم دفعته بعيدا عنها ، وقالت فى يأس :

ـ لا تفعل ذلك ، لا تثر الشكوك حولنا .

ثم ابتعدت عنه .

فأمسك « جيا ـ شن » يدها .

– من يجرؤ على الشك فى أى شىء ؟ اننى رجل منروج وأب لطفل ، أنا لا أريدك أن تتألمى هكذا ، يجب أن تعتنى بصحتك ٠

وظل « جيا – شن » ممسكا بيدها ثم أضاف فى رقة :

– يجب الا تعودى وأنت على هذه الحال ، لقد بكيت كثيرا ٠

تأثر « جيا – شن » لمصير « مى » البائس ، وأنساه ذلك جميع متاعبه الشخصية ٠

وشيئا فشيئا كفت « مى » عن البكاء ، أخذت منديله ومسحت دموعها ، ثم أعادته اليه وقالت فى حزن :

– فكرت فيك كل لحظة فى السنوات الماضية ٠ أنت لاتعرف كم أسعدتنى رؤيتك فى منزل « تشن » ليلة رأس السنة ، ورغبت فى رؤيتك بعد عودتنا الى « تشينج – تو » ، لكنى خفت ذلك ، رأيتك ذلك اليوم أمام المتجر وتجنبتك ، ندمت على ذلك فيما بعد ، لكن مابالبد حيلة ٠ لى أم ، ولك زوجة ، خشيت أن تؤذيك استعادة الماضى وذكرياته ، أنا لا أبالى نفسى ، نقد انتهت حياتى ، لكنى لا أريد أن أسبب لك أى ألم ٠٠

تنهدت « مى » :

– أمى لا تدرك ما أشعر به ، انها ترى الأمور من وجهة نظرها فقط ، انها تحبنى ، لكنها لا تفكر فى كانسانة ٠ أنا بالنسبة لها شىء بلا روح ، انها لا تفهم مأساتى ٠٠ اننى أفضل الموت على هذه الحياة ٠

أمسك « جيا – شن » بصدره ، آلمه قلبه ألما فظيعا ، وقفا يتبادلان النظرات ، وابتسم « جيا – شن » فى حزن وأشار الى الحشيش الأخضر :

– هل تذكرين كم أستلقينا على هذه المروج الخضر أيام طفولتنا ؟ عندما كانت تلدغ يدى حشرة كنت تمتصين الدم الفاسد

منها ، كنا نصطاد الفراشات هنا ، ونخضب أظافرنا برحيق الورد الأحمر ، المكان مازال كما كان . أليس كذلك ؟ .. ذات مرة حدث خسوف للقمر ، فأخذنا مقعدين وجلسنا في الحديقة ، وأفقنا على تحمل الألم حتى لا يتألم القمر كثيرا وهو يؤكل .. أتذكرين ؟ .. في تلك الأيام عندما كنت تستذكرين معنا في بيتنا ، كم كنا سعداء ذلك الحين . من كان يعتقد أننا سننتهي الى مانحن عليه الآن ؟

كان يتكلم وكأنه في حــــلم ، كأنه يعتصر ذكريات أفراح الماضي ..

قالت « مي » في هدوء :

ـ انني لا أعيش على شيء الآن ســـــوى ذكريات الماضي ، الذكريات تجعل الانسان أحيانا ينسى كل شيء ، انني أود الرجوع الى تلك الأيام التي لا قيود فيها ، لكن نسوء الحظ لا يمكن اعادة عقارب الزمن الى الوراء .

سمع وقع خطوات مقتربة ، ثم جاء صوت « شو ـ خوا » :

ـ بحثنا عنك في كل مكان يابنة العم « مي » على حين أنك مختبئة هنا !

جفلت « مي » ورجعت قليلا الى الخلف مبتعدة عن « جيا ـ شن » والتفتت حولها .

اتجهت « تشن » و « شو ـ انج » و « شو ـ خوا » نحو « مي » ، وعندما اقتربت الفتيات الثلاث منها لاحظت « شــــو ـ خوا » وجه « مي » ، فصرخت في ذعر مفتعل :

ـ هل آلمك الأخ الكبير ؟ لماذا تورمت عيناك من البكاء ؟

ثم نظرت الى « جيا ــ شن » الذى أسرع بالرجوع الى الخلف، لكنها تمكنت من فحصه جيدا .

ــ آها .. بكيت أنت كذلك ! التقيتما بعد سنوات طويلة من الفراق . يجب أن تكونا سعيدين لذلك بدلا من الاختفاء ، هنا يبكى كل منكما الآخر ، شيء غريب والله !

خجلت « مى » على حين أخذ « جيا ــ شن » يدمدم بشيء عن مرض أصاب عينيه ..

وضحكت « شو ــ أنج » قائلة :

ــ غريبة ، انهما لم تؤلماك من قبل ، ولماذا بدأ الألم عندما حضرت ابنة العم « مى » ؟ من العجيب أن مرض عينيك يؤلمكما أنت وهى فى نفس الوقت .. حكاية حلوة والله !

أخذت « تشن » تجذبها من كمها لتنبهها الى اقتراب « روا ــ جيا » وهى تسحب طفلها من يده ، لكن « شو ــ أنج » لم تنتبه فى الوقت المناسب وسمعتها « روا ــ جيا » .

ارتبكت « روا ــ جيا » ، وابتسمت فى حيرة ، ثم دفعت « خاى ــ تشين » الى والده ورجته أن يحمله ، وقالت « لمى » :

ــ لا تحزنى يابنة العم « مى » ، لنسر قليلا معا ، أخشى من اخذك الأمور بجدية زائدة .

ثم أمسكت « مى » من ذراعها فى حنان ، واتجهت بها خلف التل .

همت « شو ــ أنج » و « شو ــ خوا » باللحاق بهما ، لكن « تشن » أوقفتهما قائلة :

ـ يحتمل أنهما تريدان الحديث فى موضوع خاص ، أعتقد أنهما أصبحتا صديقتين حميمتين ، ان زوجة أخينا معجبة « بمى » ٠

وبالرغم من أن « تشن » اتجهت بحديثها الى الفتاتين فان عبارتها الأخيرة كانت موجهة « لجيا ـ شن » لا لأحد غيره ٠

الفصل الثاني والعشرون

رفع حظر « التجول » بعد يومين ، عسكر جيش الغزاة بقيادة الجنرال « تشانج » خارج أسوار المدينة ، ترددت اشاعات بأن الحاكم سيغادر المدينة اليوم تاركا قائد الحامية الجديد مشرفا على الأمن العام بصفة مؤقتة . وبالرغم من توقف القتال فان المدينة ظلت في حالة من الفوضى والناس في قلق شديد .

هامت مجموعات صغيرة من الجيش المنهزم في شوارع المدينة وهي في حالة يرثى لها .. رءوس عارية ، ضمادات أرجلهم مفكوكة، ستراتهم الرسمية مفتوحة ، ومزق بعضهم شارات وحداتهم . أما بنادقهم فكانت اما محمولة في أيديهم أو على أكتافهم أو خلف ظهورهم كيفما اتفق ! ، لكنهم برغم ذلك لم يتخلوا عن عجرفتهم ، كان سلوكهم الشرس ووجوههم المتجهمة تذكر الناس بالفظائع التي ارتكبوها فيما مضى في ظروف مشابهة للظروف التي يعيشون فيها الآن ، فزاد هذا من بشاعة شبح الخوف الجاثم على صدر المدينة .

في باكورة الصباح جاء « تشانج ـ شينج » خادم والدة « تشن » الى دار « جاو » وأخبرهم برحيل الجنود المقيمين في دار « تشانج » ، وأنه لم يبق منهم سوى ثلاثة أفراد يقال : انهم سيرحلون قريبا ، لم يسمح لأى من الجنود بدخول غرف الحريم ، لذا لم تتحطم الأشياء الثمينة . وقال « تشانج ـ شينج » : ان عائلة « مى » أرسلت من يسأل عنها ، وأنه أخبر الرسول بأنها في دار « جاو » .

اطمأنت السيدة « تشانج » و « تشن » لما سمعتاه ، لكنهما لم تفكرا في العودة الى دارهما .

في المساء أرسلت السيدة « جيان » والدة « مي » خادما يحمل رسالة الى السيدة « تشوو » تشكرها فيها على رعايتها « لمي » . قالت السيدة « جيان » : انها تحفظ لها جميلها ، وستزورها فيما بعد عندما تهدأ الأحــوال ، لتعبر لها بنفسها عن امتنانها لما قامت به السيدة « تشوو » ، أحضر الخادم أيضا رسالة الى « مي » من أمها تخبرها فيها بأنهم جميعا بخير ، وأنه لاداعي لعودتها الى البيت فورا ، ويمكنها الاقامة بضعة أيام في دار « جاو » اذا رغبت في ذلك .

قررت « مي » في البداية العودة مع الخادم ، لكنها ازاء الحاح السيدة « تشوو » و « روا ــ جيا » وافقت أخيرا على البقاء .

كان الجو هادئا في حديقة « جاو » بالرغم من التوتر الذي ساد شوارع المدينة ويبدو أن حائطا صغيرا يمكن أن يفصل بين عالمين مختلفين ، مر الوقت بسرعة في هذا الجو الهادئ الذي ساد دار « جاو » ، وأقبل الليل دون أن يشعر به أحد .

ظهر القمر ، غير أن الظلام ظل باســـطا جناحيه ، ورويدا رويدا ازدادت السماء زرقة وانتشى القمر ، فأرسل أشعته بسخاء . كانت أمسية دافئة جميلة ، لكن الهدوء تبدد فجأة ، فقد أرسل والدا ربة الأسرة الرابعة السيدة « وانج » يطلبان حضورها الى دارهما فورا . قال الرسول : ان هناك اشاعات كثيرة وتكهنات باحتمال وقوع أعمال سلب ونهب في تلك الليلة . وآل « جاو » أغنى عائلة في منطقة البوابة الشمالية ، لذا أصبح من المتوقع أن تكون دارهم هي أولى الدور التي سيعتدى عليها .. أسرعت السيدة « وانج » وأطفالها الخمسة بالرحيل في ثلاث محفات .

وبعد ذلك أرسلت عائلة السيدة « شو ــ تشين » ربة الأسرة الخامسة فى عائلة « جاو » رسولا يستدعى ابنتهم للسبب نفسه ٠

أقلق هذا السيدة « تشانج » ربة الأسرة الثالثة فى عائلة « جاو » ،فلم تنتظر من يستدعيها ،ورحلت الى دار أمها مع أطفالها الثلاثة « شو ــ أنج » و « جيا ــ أنج » و « جيا ــ رن » ٠

لم يبق من نساء عائلة « جاو » سوى السيدة « تشـــوو » و « روا ــ جيا » ، فوالداهما لا يقيمان فى « تشينج ــ تو » ولا مكان لهما تأويان اليه ٠ كانت هناك صلة قرابة بعيدة تربط بينهما وبين أشخاص فى المدينة ، وفكرتا فى اللجوء اليهم ، لكنهما لم تكونا على صلة وثيقة بهم ، بالاضافة الى أنهما عندما علمتا بهـذا الخطر الداهم كانت الشوارع مهجورة ولم يجرؤ انسان على المخاطرة بالخروج ماعدا الجنود ٠

خرج السيد المبجل « جاو » فى الصباح لزيارة أحد أبناء عمومته ، أما محظيته السيدة « تشين » فقد كانت فى زيارة لوالدتها العجوز ، كما اختفى « كا ــ آن » و « كا ــ دنج » بسرعة ، وبقى أخوهما « كا ــ منج » فى مكتبه يكتب بعض الخطابات ، كان « جيا ــ شن » هو رب الأسرة الوحيـــد الذى بقى على سيرته الأولى ٠٠ واذا بهذه العائلة الثرية التى تعتمد على الفضائل والأخلاقيات القديمة لتحتمى بها وتحافظ على وجودها تكشف عن عقمها وضعفها الداخلى فى وقت الشدة ، فلا أحد يخاف أو يحرص على الآخر ، فكل فرد فيها يهتم بسلامته الشخصية فقط ٠

كانت السيدة « تشانج » وفية لأسرة « جيا ــ شن » ، فحتى لو تمكنت من العودة الى دارها ــ وهو أمر مستحيل ــ فانها لم تكن لتتخلى عنهم ، قالت « لجيا ــ شن » :

ـ لست صغيرة ، لقد شاهدت أشياء كثيرة فى حياتى ، ولم أر فى حياتى أناسا طيبين يجزون شرا على مايفعلون ، كان أبوك رجلا طيبا طوال حياته ، ولن يحل سوء بأبنـــائه ، انها عدالة السماء ، فلماذا أخاف البقاء معكم ؟

لكن الآخرين لم يشاطروها هذه الثقة ، ومع مرور الوقت بدأ القلق يتسلل الى قلبها هى أيضا ٠وبرغم أن الليل كان فى باكورته فقد ساد الشوارع صمت مطبق ٠٠ بدأ كلب ينبح ، ونادرا ماكانو يسمعون نباحه ، غير أن نباحه فى تلك الليلة بدا عاليا واضحا ٠

مر الوقت فى تثاقل لا يحتمل ، وبدت كل دقيقة وكأنها عام كامل ٠ كانوا عند حدوث أقل صوت يتخيلون أن جنودا قد اقتحموا الدار لينهبوها ، ثم يتصورون ماسيلى ذلك ٠٠ «السناكى» والخناجر والدم والنار وأجسام النساء عارية ٠٠ والنقود البعثرة على الأرض والصـــناديق المفتوحة بالقوة والجثث الملقــاة غارقة فى بحيرة من الدماء ! لقد أخذوا يقاومون قوة غامضة مبهمة لا تقهر ، ثم جثم الرعب على صدورهم ، فاستسلموا له فى النهاية ٠

ودوا لو عميت أبصارهم عن كل شىء ، وتبلدت مشاعرهم ، فحتى ضوء المصباح الخافت آذى عيونهم ، انه يذكرهم بالمأزق الذى يعيشون فيه ، ابتهلوا كى يمضى الوقت بسرعة وتشرق الشمس قبل موعدها ، لكنهم فى نفس الوقت كانوا يدركون أنه كلما مر الوقت بسرعة دقت الساعة التى ستتحقق فيها تخيلاتهم البشعة ٠ كانوا كمساجين ينتظرون تنفيذ حكم الاعدام ، النساء والرجال ٠٠ لكل منهم شخصيته وأفكاره ، لكنهم أصبحوا جميعا سواسية أمام خوفهم من الموت ، وان بدا الأمر أسوأ بالنسبة للنساء ٠٠ فهن ينتظرن ماهو أشد عذابا من الموت !

سألت « تشن » :

ـ يابنة العم « مى » ، ماذا نفعل لو اقتحم الجنود الدار ؟

كانوا مجتمعين فى غرفة السيدة « تشوو » ، وعندما نطقت « تشن » بعبارة « ماذا نفعل » ارتجف قلبها رعبا ، واضطرب عقلها وشلت أفكارها ٠

قالت « مى » فى برود :

ـ العمر واحد !

بدت فى صوتها رنة أسى ، ثم أخفت وجهها بين يديها ، وازداد عقلها اضطرابا ، وتراءى لها أمام عينيها بحر واسع تتدافع فيه الأمواج الى مالا نهاية ٠

ان « روا ـ جيا » تعرف ماتعنيه « مى » ، انها تعرف المخرج الوحيد لها ، لكنها لا تريد أن تقتل نفسها ، انها لا تريد فراق من تحب ، وعندما نظرت الى « خاى ـ تشين » وهو يلعب تحت قدميها شعرت بعشرات السكاكين تمزق فى قلبها ٠

وقفت « تشن » صامتة وأخذت تقطع الغرفة جيئة وذهابا ، وأخذت تحارب خوفها المتزايد ، ثم ارتفع صوت من داخلها ٠٠ لن تفعلى ذلك ٠٠ وبرغم أنها لم تجد مخرجا آخر فانها شعرت أنه لابد أن يكون هناك طريق آخر ٠ وتلاشت من عقلها كل الأفكار العصرية : الكتب والمجلات الدورية وروايات أبسن الاجتماعية ، ومؤلفات الكاتب اليابانى أكيكو يوسانا ! لم تر سوى الذل والعار يحيقان بها ويسخران منها ، انها لا تستطيع العيش بعد أن يخضب العار ثوبها الطاهر ، فهى فتاة لها كبرياؤها ٠

نظرت « تشن » الى « مى » وهى جالسة فى أحد المقاعد وقد أخفت وجهها بين يديها ٠ ثم انتقلت نظراتها الى « روا ـ جيا » ويدها فى يد صغيرها ، وانسابت الدموع على خديها ٠ ثم نظرت

الى أمها وقد وقفت وظهرها للمصباح • ونظرت الى « شو ــ خوا » و « جيا ــ من » والآخرين •• لا أمل لها ، لن يستطيع أحدهم انقاذها ، انهم جميعا أعزاء عندها ، انها لا تحتمل فراقهم •• انها متعبة يائسة • وبدأت تشعر لأول مرة أنها لا تختلف عن النساء الأخريات أمثال « مى » و « روا ــ جيا » • انها برغم كل شىء امرأة ضعيفة مثلهن تماما •

جلست « تشن » وألقت برأسها على مائدة الشاى ، وأخذت تبكى فى هدوء •

وصرخت السيدة « تشانج » :

أتريدين عذاب أمك ؟

ثم فاضت الدموع من عينى السيدة « تشانج » •

لم تجب « تشن » ، واستمرت فى نواحها ورأسها ملقى على المائدة ، الآن وعندما بدأ يلوح لها بصيص من الأمل فى أن تصبح امرأة قوية تعتمد على نفسها ، انسانة مثل نورا فى « بيت الدمية » اذا بها تنهار فى ضعف وخوف أمام أول خطر تواجهه • مافائدة كل كلماتها الرنانة • كانت تعتقد أنها شجاعة ، وامتدحها الجميع لشجاعتها ، لكن هاهى ذى الآن تنتظر ــ كالحمل الوديع ــ السكين كى تجز رقبتها دون أن تقوى على المقاومة •

لم تفهم أمها ولا الآخرون مايدور برأسها من أفكار ، ولا حتى « جيا ــ من » الذى يعتقد أنه يفهمها جيدا ، اعتقدوا جميعا أنها تبكى لأنها خائفة ، قهرهم الخوف ، فلم يجدوا كلمات يواسونها بها ، وبرغم أن بكاءها جرح مشاعرهم وأدمى قلوبهم فقد أراد « جيا ــ من » أن يضمها بين ذراعيه ، لكنه لم يجسر على ذلك •

لم يستطع « جيــا ــ خوى » الاستقرار فى مكان ، فغــادر

الغرفة ، ولكنه صدم برؤية بريق أحمر شاحب يندلع فى السماء جهة الشرق ، أخذ هذا البريق ينتشر فى بطء يصحبه أحيانا شرر يتطاير فجأة فى السماء ، فأفلتت من فمه صرخة :

ـ النار !

وتجمد الدم فى عروقه ، وأخذ يحدق فى بلاهة الى السماء ، ثم شلت قدماه فلم يستطع التحرك من مكانه •

وصرخ من فى الغرفة فزعين :

ـ أين ؟ •• أين النار ؟

واندفع اليه « جيا ـ شن » وتبعته « شو ـ خوا » ، وبعد لحظة كان جميع من بالغرفة يقفون بالخارج •

لقد أصبحت السماء فى حمرة الدم ، شعر كل منهم فجأة بأن حياته تذوى ، وكأن هناك شيئا ما يلتهمها •

اختفى القمر وراء سحابة ، فتألق الضوء المنبعث من النيران وسط جيوش الظلام المقبلة ، وغطى البريق الأحمر القانى نصف السماء ، وصبغ البلاط الحجرى والأسقف بلون الدم تطاير الشرر بوحشية ، شاهدوا هذا الجحيم ، ففقدوا أى أمل فى الحياة •

قالت السيدة « تشانج » :

ـ هذه محال الرهون تحترق •• لماذا لا يعطون الناس فرصة ليعيشوا بعد أن يسلبوا كل شىء ؟

صاحت « روا ـ جيا » وهى تضرب الأرض بقدميها :

ـ مامصيرنا ؟

واقترح « جيا ـ من » :

ـ لماذا لا نتنكر فى ثياب بالية ونهرب ؟

قال « جيا ــ شن » :

ــ الى أين ؟ ومن يحرس الدار ؟ اذا لم يبق أحـــد هنا وجاء الجنود فانهم سيحيلون الدار الى كومة من الرماد !

لم يكن « جيا ــ شن » يعرف ما الواجب عمله !

وفجأة اخترقت هذا الصمت طلقات بنادق ، وبدأت الكلاب تنبح بوحشية .

كان هناك قصف بالمدفعية ، لكن هذا القصف بدا آتيا من بعيد .

صاح « جيا ــ شن » :

ــ انتهينا . لن ننجو هذه المرة .

ثم أضاف بصوت عال :

ــ هل يجب أن نبقى هنا جميعا لنموت ؟ يجب أن نجد لنا مخرجا من هنا .

وتساءلت السيدة « تشوو » وهى تبكى :

ــ الى أين نذهب ؟ لو وقعنا فى يد أحد الهاربين من الخدمة فاننا سنموت . من الأفضل أن نبقى حيث نحن .

قال « جيا ــ شن » فى صوت ملء بالحزن والغضب :

ــ يجب أن نجد مكانا نختبىء فيه . اذا أمكننا حتى انقاذ شخص واحد كان هذا أفضل من لاشىء ، يجب أن يبقى فى أسرتنا شخص ما حتى لا ننقرض من الوجود !

وتوقف « جيا ــ شن » قليلا ، ثم تحدث الى « جيا ــ من » و « جيا ــ خوى » بلهجة مختلفة :

ــ أخى الثانى ، أخى الثالث ، خذا النســـاء الى الحديقة .

أسرعا ، هناك أماكن يمكنكم الاختباء فيها اذا أعيتكم الحيل ، فهناك البحيرة •

ثم نظر بحنان الى « روا ـ جيا » :

ـ ان زوجة أخيكم تعرف كيف تحافظ على شرفها •

ثم نظر الى « مى » واهتز بعنف ، وانهمرت الدموع على خديه ، وبالرغم من انتهائه الى قرار لا رجعة فيه فانه ناضل فى مرارة كى يسيطر على نفسه •

سأله الآخرون :

ـ وماذا عنك ؟

التزم « جيا ـ شن » الصمت حوالى نصف دقيقة ، وأخيرا استعاد هدوءه ، وقال :

ـ لا تهتموا بأمرى • اذهبوا ، فأنا كفيل برعاية نفسى •

قال « جيا ـ خوى » فى حزم :

ـ اذا لم تأت معنا فسنبقى الى جوارك •

ثم دوى صوت طلقات مرة ثانية ، لكن كثـــافة النيران لم تتزايد ••

ضرب « جيا ـ شن » الأرض بقدمه فى قلق :

ـ أخى الثالث، ماشأنكم بى ؟ المهم هو النساء ! اذا جاء الجنود هنا ولم يجدوا أحدا ، فسوف يفتشون الحديقة •

جلست « روا ـ جيا » فى سكون حاملة « خاى ـ تشين » بين يديها ، واذا بها تضع الطفل على الأرض ، وتتجه الى «جيا ـ شن» ، وتقف الى جواره فى ثبات • قالت للشقيقين الصغيرين :

ـ خذا النساء وأسرعا بالذهاب الى الحديقة ، أرجو أن تأخذوا

الطفل من أجلى · سأبقى الى جوار الأخ الكبير ، وأنا أعرف كيف أرعاه !

واضطرب « جيا ــ شن » ودفعها بعيدا عنه :

ــ أنت ! أنت تبقين معى هنا ؟ ما معنى هذا ؟

ثم أضاف فى نبرات قلقة :

ــ ما جدوى هذا ؟ اذهبى بسرعة قبل ضياع الفرصة !
فتعلقت « روا ــ جيا » بذراعه :

ــ لن أتركك ·

ثم غلبتها دموعها :

ــ اذا كنت ستذهب الى حيث لا يعود انسان فسأمضى معك الى هناك ·· !

ثم جاء الصغير «خاى ــ تشين» ، وجذب سترة «روا ــ جيا» ، وتوسل اليها ··· ماما ··· أريد أن أبقى أنا كذلك ····

كاد « جيا ــ شن » ينفجر ، تشابكت يداه وأخذ يؤرجحها فى يأس ، وتوسل اليها قائلا :

ــ أستحلفك بطفلنا ، اتركينى وشأنى ، فما جدوى أن نموت معا ؟ ومن أدراك أننى سأموت ؟ أنا أعرف كيف أعاملهم اذا جاءوا ، لكن اذا وجدوك معى فمن يدرى ماذا يفعلون ؟ يجب أن تحافظى على طهارتك ····

وعجز « جيا ــ شن » عن الاستمرار فى حديثه ·

فنظرت اليه « روا ــ جيا » فى بلاهة وحيرة وكأنها لا تعرفه ··· ثم وقفت أمامه وتركت نظرته الحائرة تداعب خديها لحظة قصيرة غالية من عمر الزمن ، ثم قالت فى صوت حزين رقيق :

ــ حسنا ، سمعا وطاعة ··· سأذهب ·

وبناء على أوامرها للصغير قال « جاى ـ تشين » لوالده ٠٠٠
الى اللقاء يا بابا ٠٠٠ ثم ابتعدت الأم تسحب صغيرها ٠

في تلك الليلة نام الجميع ما عدا « جيا ـ شن » فى استراحة البحيرة ٠ شاهدوا من خلال النافذة ضوء القمر الشفاف يتألق على صفحة الماء ، أخذ البريق الأحمر يخبو من السماء رويدا رويدا ٠ كل شيء عاد كما كان وان بدا نباح الكلاب مخيفا على غير العادة ٠

تألقت مياه البحيرة في ضـــوء القمر ، لكنها بدت فى أعين الناظرين الكليلة أكثر برودة وغموضا ، أرادوا أن يسبروا غورها وتساءل بعضهم :

ـ كيف يكون النوم فى أعماق البحيرة ؟

تبادلوا النظرات ، لـكنهم لم يجدوا ما يقولونه ، وأخـيرا لاحظت السيدة « تشوو » أن « جيا ـ خوى » متعب للغاية، فطلبت منه الذهاب للنوم ٠

ذهب « جيا ـ خوى » الى فراشه ، وعندما بدأت عيناه تغفوان دخلت السيدة « تشوو » وفتحت الناموسية ، وانحنت بوجههـــا المستدير ، وهمست فى أذنه :

ـ بدأ اطلاق النار ثانية ، يبدو أنهـا فى مكان قريب ، كن صريحا ، أرجو ألا تنام نوما ثقيلا ، اذا حدث شيء فسأوقظك ٠

أدفأت أنفاســـها خديه ، وارتســـمت على وجهها نظرة حب واهتمام ، لفته فى الأغطية ثم أقفلت الناموسية ٠٠ وبرغم أن الأخبار التى حملتها اليه كانت أخبـارا سيئة فان « جيا ـ خوى » شـــعر براحة بالغة ٠٠٠ شعر أنه قد عثر ثانية على أم ٠

عاد النظام الى شوارع المدينـة بعد أربعـة أيام من التوتر ، فشعر الجميع بشيء من الراحة ، وبدأ الأشـخاص الذين رحلوا الى أماكن آمنة من المدينة يعودون الى ديارهم ٠٠ امتلأت دار « جاو » بالحياة والضجة مرة أخرى ٠

جاء « تشانج ـ شينج » خادم السيدة « تشانج » ليأخذها هي و « تشن » الى دارهما ، أرادت « مي » الرحيـل كذلك ، لكن السيدة « تشوو » أقنعتها بالبقاء بضعة أيام أخرى ، وفي المساء جاءت والدة « مي » السيدة « جيان » في محفة لتعبر عن شـكرها للسيدة « تشوو » ٠

ان السيدات الكبيرات يملن عادة للتسامح والغفران ، هذا بالاضافة الى أن هناك صلة قرابة بعيدة بين السيدة « تشـــوو » والسيدة « جيان » أنستهما مع الأيام خلافاتهما القديمة ، فاستقبلت السيدة « تشوو » السيدة « جيان » بترحاب حار ونفس صافية ، وتبادلت السيدتان حديثا طويلا شائقا ، وأخيرا جلسـتا تلعبان « الما ـ جيانج » ٠ اشتركت « مي » و « روا ـ جيا » في المباراة ٠

عاد « جيا ـ شن » فأخلت له « روا ـ جيا » مكانها على المائدة، فوجد « جيا ـ شن » نفسه يجلس في مواجهة «مي» ، تبادلا كلمات قليلة ، وتبادلا أيضا نظرات حزينة ، لم يكن تفكير « جيا ـ شن » مركزا في اللعب ، وارتكب أخطاء كثيرة ، ثم جاءت « روا ـ جيا » ووقفت خلفه لتحاول مساعدته ، فأدار رأسه نحوها وابتسم لها في ود ٠ بدا سلوك الزوجين طبيعيا وديا ٠٠٠ ولاح للناظرين طائر الحب والسعادة يرفرف فوق رءوسهما ٠

لاحظت «مي» ذلك ، فشعرت بقلبها يحترق ٠٠٠ آه لو أخبرت أمها بمشاعرها نحو « جيا ـ شن » قبل أن يرتبط و « روا ـ جيا »، ربمـا كانت تقف الآن خلفه بدلا من « روا ـ جيا » ٠٠٠ ما أحلى ذلك ! لقد تأخرت كثيرا ٠٠ لا أمل !

شاهدت « مي » بعينيها الرابطة الوثيقة بين « جيا ــ شن » وزوجته ، ففكرت فى حياتها التعسة وسنوات الوحدة المريرة التى قضتها ، فتداخلت قطع « الما ــ جيانج » أمام عينيها ، وعصر الألم قلبها بلا رحمة ٠

وقفت «مي» وطلبت من «روا ــ جيا» أن تأخذ مكانها معتذرة بانشغالها ببعض الأمور ، نظرت اليها « روا ــ جيا » فى ود ، ثم جلست فى مكانها الخالى، وعندما خرجت من الغرفة تبعتها «روا ــ جيا» بنظراتها وهى ساهمة ٠

ذهبت « مي » الى غرفة « شو ــ خوا » ، فقد كانت « مي » تشاركها في غرفتها ، ولحسن الحظ لم يكن هناك أحد ، فاستلقت على السرير واسترجعت ماضيها فى حرص وبالتفصيل ، وكلما استغرقت فى أفكارها ازدادت آلامها قسوة وضراوة ٠٠ ثم استسلمت أخيرا لبكاء مرير ، كتمت نواحها خشية أن يسمعها انسان ٠٠ بكت وقتا طويلا ، فشعرت بالراحة بالرغم من أنه لم يلح لها بريق من أمل ، جثم ماضيها الحزين وحاضرها المظلم على صدرها ، فشعرت بضعف شديد ولم تقو على الحركة ، وأخيرا استسلمت لغفوة قصيرة ٠

ناداها صوت حنون :

ــ ابنة العم « مي » ٠

فتحت «مي» عينيها ، فوجدت « روا ــ جيا » تقف الى جوارها، وسألتها «مي» فى ابتسامة واهية :

ــ ألست تلعبين « الما ــ جيانج » يا زوجة أخي ٠

ثم حاولت النهوض ، لكن « روا ــ جيا » منعتها من ذلك فى لطف ، وجلست الى جوارها على السرير ، وأخذت تنظر اليها فى حب وعطف ٠٠

ـ تركت مكانى للعمة « تشين » ٠

ثم قالت فى دهشة :

ـ لكنك كنت تبكين ! ما الخبر ؟

قالت « مى » محاولة الابتسام :

ـ لا ٠٠٠ لم أبك ٠

ألحت عليها « روا ـ جيا » وهى تضغط على يدها :

ـ لا داعى للانكار ٠٠٠ ان عينيك متورمتان ٠ أخبرينى بما يضايقك ٠

أجابت « مى » فى بشاشة ، لكن يدها ظلت ترتعش فى يد « روا ـ جيا » :

ـ حلمت حلما مزعجا ٠

قالت « روا ـ جيا » فى عطف :

ـ لا تخدعينى ٠ ان هناك شيئا يؤلمك ، لماذا لا تخبريننى بالحقيقة ؟ ألا تثقين فى صدق مشاعرى نحوك ؟ اننى أريد مساعدتك ٠

لم تجب «مى» ، وطافت نظراتها بوجه « روا ـ جيا » الودود ، ثم تجهم وجهها قليلا ، وهزت رأسها ، وفجأة تألقت عيناها وبكت :

ـ لا يمكنك مساعدتى ٠

ثم ألقت برأسها على الوسادة وبكت فى هدوء ، شعرت « روا ـ جيا » بغصة فى حلقها ، فربتت على كتف « مى » المرتعش وقالت فى حسرة :

ـ اننى أعرف يا بنته العم « مى » ، أعلم خبايا قلبك ٠

شعرت « روا ـ جيا » برغبة جامحة فى البكاء ٠

ـ أعــرف أنك تحبينه وأنه يحبك ، كان يمكنكما أن تكونا زوجين سـعيدين ۰۰۰۰ كان من الواجب ألا يتزوجنى ۰۰ عرفت الآن سبب حبه لزهرة البرقوق ، انهــا اسمك ، لكنى أحبه أيضا ۰۰۰۰ أحبه أكثر من الحياة ۰۰۰ لكن ، لماذا لم تتزوجيه يا «مى» ؟ ۰۰۰ أخطأنا نحن الثلاثة ۰۰۰ وقعنا فى ورطة محزنة ۰ ان لدى حلا لذلك ۰۰۰ يجب أن أخرج من طريقكما لكى أدعكما تســتمتعان بحياتكما ۰۰۰۰

كفت « مى » عن البـكاء ، وتأثرت لبـكاء « روا ـ جيا » ، وأخذت تصغى الى ما تقوله ويدها تضغط على صدرها ، ثم أدارت رأسـها ولم تقو على النظر الى وجه « روا » المبلل بالدموع ، لكن العبارة الأخيرة التى نطقت بها « روا ـ جيا » جعلتها تنهض بسرعة، وتضع يدها على فم « روا » لتمنعها من الاسترسال ۰

دفنت « روا » رأسها فى كتف « مى » وأخذت تبكى :

ـ أنت مخطئة يا زوجة أخى ، اننى لا أحبه ۰

ثم ناقضت نفسها ۰۰

ـ لا ۰۰ لا وأحبه ۰۰ حالت أمى وأمه بين زواجنا ، شاء القدر ذلك ۰۰ كل شىء قسمة ونصيب ۰۰ وافترقنا وانتهى كل شىء ۰۰ لنفرض أنك تخليت عنه ، فما جدوى هذا ؟ لن أكون له مدى الحياة۰ أنت صغيرة ، لـكن أنا ۰۰ لقد كبرت وذوى جمــالى ، ألم تلاحظى التجاعيد المرتسمة على جبينى ؟ انها تبين حالى ومآلى ۰۰ مللت هذا العالم۰۰اننى أذوى على حين انك تتفتحين ويحمل عودك أطيب الثمار، اننى أحسدك يا زوجة أخى ۰۰ اننى لا أعيش ، اننى موجودة فقط ، ان حياتى عبء على الآخرين ۰

وابتسمت « مى » فى مرارة :

ـ أنت تعلمين الحكمة القائلة ۰۰ ليس هناك أبشع من موت

القلب ‥ مات قلبى منذ زمن بعيد ، لن آتى الى داركم مرة أخرى ، اننى عبء عليكم ‥

ثم تغير صوتها ، وشعرت « روا ـ جيا » بما ألم « بمى » ‥

ـ كيف أشعر براحة وأنا هنا ؟

لـكنها استدركت بابتسامة حزينة :

ـ اننى خير مثل لامرأة ظلمها الحظ ، لا أحد يفهمنى فى أسرتى والدتى مهتمة فقط بشئونها الخاصة ، وأخى مازال صغيرا ، فلمن أشـكو ألمى ولوعتى ؟ ‥ أحيانا عنـدما يفيض بى اليـأس والألم أختبىء فى غرفتى وأبكى ، أدفن رأسى تحت الفراش حتى لايسمعنى انسان ‥

ـ لا تسخرى منى لأنى أبكى هكذا بسهولة ‥ هذا هو حالى فى السـنوات الأخيرة فقط ‥ بدأ هذا عنـدما تشاجرت والدتى وزوجة أبيه ففرقتا بيننا ، بعد ذلك تركت «تشينج ـ تو» ‥ بكيت كثيرا ‥ هكذا شاء القدر ‥ لـكننى كنت أحيانا أفكر فى أن الأمور لم تكن لتسير هكذا لو كانت أمه على قيد الحياة ، انها تمت بصلة قرابة لأمى ، وكانتا صديقتين حميمتين ‥ من يرغب فى سـماع شكواى ‥ لا أحد يفهمنى ، أفضل ما أفعله هو أن أجتر دموعى وأحزانى ‥ !

ثم ضغطت « مى » بمنديلها على فمها لتكتم نوبة سعال ‥

ـ تزوجت بعد ذلك زواجا لم أوافق عليه ولم أرغب فيه ‥ لم يكن أمامى فرصة للاختيار ‥ عشت عاما مع عائلة زوجى ، كان عاما رهيبا ‥ وحتى يومنا هذا لا أدرى كيف احتملت قضاء هـذا العام ، ولو قضيت عاما أو عامين آخرين هناك لانتهيت ‥ وجدت فى ذلك الحين سعادتى فى شىء واحد ‥ الدموع ‥ لم يكن يسمح لى بعمل أى شىء ‥ كل شىء محرم على الا الدموع ، لا شىء سواها

ورضيت بها ·· اننى لا أبكى كثيرا الآن ، ربما أبكى الآن بلا دموع ·· قال توفو ·· « ابك حتى تبرز عظام عينيك ، لن ترحمك السماء ولا الأرض » غير أنه لا عزاء لى سوى الدموع ··

يجب ألا تتألمى من أجلى يا زوجة أخى ، أنا أستحق شفقتك ، ليس فى نيتى أن أراه مرة أخرى ، هناك شىء ما جمع شملنا ، ولكن فى نفس الوقت هناك شىء يفرق بيننـــا · وبالرغم من علمى بأنه لا أمل لى فى هذه الحياة فانى فى الأيام القليلة الماضية راودتنى آمال ·· أرجو ألا تغضبى منى ، وعلى أية حال لقد قـررت الرحيـل ·· يمكنك اعتبار هذه المسألة حلما مزعجا ، دعى النسيان يبتلعنى فى ظلماته ·· !

لقد أدمت هذه المشاعر قلب « مى » ، لكن عينيها لم تجودا بدمعة واحدة برغم ما ارتسم على وجهها من حزن ··

أثقلت هذهالرواية الحزينة قلب « روا ــ جيا » الأنثوى الرقيق بالهموم ، فأصغت باهتمام ولم تفتها كلمة واحدة من حديث « مى » ثم نظرت فى هدوء الى وجهها المبتسم الحزين ومع أن الدموع كانت قد لطخت وجه « روا ــ جيا » المزين ببعض المساحيق فلم ينقص هذا من جمالها ·

عندما انتهت « مى » منالكلام هزت « روا ــ جيا » رأسها أسفا وألماً على هذه الفتاة ، ثم ابتسمت ابتسامة حزينة زادت غمـــازتى خديها عمقا ، لقد نسيت متاعبها جميعا ، ووضعت يدها على كتف « مى » ، وقالت بلهجة ودودة واضحة :

ــ لم أكن أعرف يابنة العم انك تتألمين الى هذا الحد ·· لو كنت أعلم ذلك ما تحدثت معك فى هذه المسألة ، وكنت أنانيـــة للغاية · ان موقفك أسوأ منى بكثير · اننى أريد وعداً منك بأنك ستأتى هنا كثيرا ، اننى أحبك حبا جما ·· ان ما أقوله هو الحقيقة

.. تقولين : انه لا يوجد انسان يفهمك ، أملي كبير في أن أكون هذا الانسان .. كانت لي أخت ، لـكنها ماتت ويسعدني أن تـكوني أختاً لي اذا قبلت ذلك .. لن أكون غيورة أبدا ، واذا استطعت أن أجعلك سعيدة ، فان هذا سيثلج صدري ويسعد قلبي ، ويجب أن تأتي وتزورينا دائما . عديني بأنك ســتأتين لزيارتي ، سيكون هذا هو البرهان الوحيد على أنك لا تكرهينني وأنك قد غفرت لي .

نظرت « مي » الى « روا » في حنو وحب ، ثم رفعت يدها عن كتفها وضغطت عليها بقوة .. فاستندت « مي » على « روا » في استسلام ، ولم تستطع الكلام لشدة تأثرها .. وأخيرا قالت :

ـ أعرف كيف أشكرك يا زوجة أخي ..

وأخذت تربت يد « روا ـ جيا » الممتلئة الناضجة ..

نظرت « روا » الى « مي » في قلق :

ـ هل تسعلين كثيرا ؟

أجابت « مي » في صوت حزين :

ـ أحيانا ، وعادة في أثناء الليل .. لقد تحسنت أخيرا .. لـكن صدري يؤلمني دائما ..

ـ أتعالجين نفسك من هذا الداء ؟ هذا داء تحسن معالجته في مراحله الأولى .

ـ تناولت بعض العقاقير أفادتني قليلا .. والآن أبتلع بعض أنواع الحبوب يوميا .. قالت والدتي ان المسألة لا تستدعي القلق وان قليلا من الراحة وشيئا من المقويات سيجعلني على مايرام ..

تأثرت « روا ـ جيا » ، ففاضت عيناها بنظرة مملوءة بالحب والعطف .. لاطفت بها وجه « مي » ، وأخذت تضغط على يدها بشدة .. لقد جمع بين المرأتين الصغيرتين شعور عجزتا عن التعبير عنه ، تماسكت أيديهما وتجاذبتا أطراف الحديث لحظات قصيرة !

وأخيرا وقفت « روا ـ جيا » وقالت :

ـ يحسن بنا أن نعود ..

ذهبت « روا ـ جيا » الى المرآة وسوت شعرها ، ووضعت على وجهها بعض المساحيق ، ثم ساعدت « مى » بعد ذلك فى اصلاح شأنها .. وخرجت المرأتان الصغيرتان وقد تماسكت أيديهما ..

الفصل الثالث والعشرون

زال شبح الخوف الجاثم على صدر المدينة ، فتحولت المعركة بسرعة الى مجرد ذكرى وحل السلام ·· أو على الأقل يمكن القول : ان الناس بدءوا يعيشون تحت رايات السلام التى طفت فوق سطح الأحداث ، لقد مر القتال والقتلى كحلم مزعج فى حياة المدينة ··

وقعت بعض التغييرات الحقيقية فى حياة المدينة ، اختير الجنرال « تشانج » قائدا عسكريا للقوات المشتركة المنتصرة ، ثم أصبح بعد ذلك مديرا للشئون المدنية ·· وأعلن بما له من سلطات ادارية عن عزمه على احداث تغييرات ··

نشط الطلبة فى هذا الجو الجديد ، وأصدروا ثلاث نشرات دورية ، أصدر « جيا ـ من » ، و « جيا ـ خوى » وبعض رفاقه فى الفصل مجلة أسبوعية باسم « الفجر » تحتوى على أنباء الحركة الثقافية الجديدة ، وقدمت الأفكار الجديدة ، وهاجمت ما فى القديم من المساوىء !

دفع الحماس « جيا ـ خوى » الى لعب دور هام فى هذه المجلة فكتب لها مقالات كثيرة ، وبطبيعة الحال جاءت جميع مقالاته مستوحاة من النشرات الدورية المنشورة فى أماكن مثل شنغهاى وبكين ، لم يكن « جيا ـ خوى » قد درس النظريات الحديثة دراسة جادة أو حلل المجتمع تحليلا دقيقا ، وكل ما كان لديه خبرة قليلة بالحياة ، وبعض المعلومات استقاها من الكتب ·· وحماسة الشباب ··

أما « جيا ـ من » فقد شغل فى مدرسته طوال يومه ، وفى المساء شغل بتعليم « تشن » ، استغرق هذا كل وقته ولم يترك له

وقتا لشيء آخر ، فلم يقدم سوى بعض المقالات القصيرة من آن لآخر وبصفة عامة لم يخدم المجلة في قليل أو كثير .

استقبل الشباب المجلة في حماس ، ونفد عددها الأول البالغ ألف نسخة في أقل من أسبوع ، وكذلك العدد الثاني ، وعنـــد ما صدر العدد الثالث من المجلة بلغ عدد المشتركين فيها ثلثمائة .. كان هناك ثلاثة بين محرري المجلة يعتبرون دعامتها الرئيسية .. وهؤلاء الثلاثة أصدقاء أعـــزاء « لجيا ـ خوى » ، وحازت أعمـــالهم الرائعة اعجابه الشديد ..

أصبحت حياة « جيـــا ـ خوى » مع استمرار ظهـور المجلة نشيطة جذابة ، فقد وجد لأول مرة في حياته مخرجا لطاقاته الكامنة فها هي ذي أفكاره تطبع وتوزع في آلاف النسخ .. الناس يقرءون في كل مكان الأفكار التي تجيش بهـا نفســـه ، كتب له البعض مؤيدين أفكاره ، كانت السعادة التي شعر بها نتيجة ذلك شـــيئا غاليا وحبيبا الى قلبه الشاب وتفكيره الخيالي المرهف ، ولكنه برغم ذلك كل ، وبرغم استعداده لبذل نفسه ووقته في سبيل المجلة ـ كان يخشى أن يعرف جده ذلك ، أو أن تسبب جهوده في سبيل المجلة متاعب للأخ الكبير ، فاضطر آسفا الى اخفاء صلته بالمجلة..

ولكن أمره كشف أخيرا : ففي أحد الأيام عثر العم «كا ـ منج» على نسخة من المجلة في غرفة « جيا ـ خوى » وبها احدى مقالاته ، لم يعلق العم « كا ـ منج » على هذه المسألة ، وابتسم في برود ثم غادر الغرفة ، فبالرغم من أن العم « كا ـ منج » لم يبلغ الجد هذه المسألة فان « جيا ـ خوى » زاد من حرصه منذ وقوع هذه الحادثة ، لم يكشف عن أعماله أو رغباته لأي انسان في العـــــائلة ، فحتى « جيا ـ شن » لم يأتمنه على أسراره ، فهو يدرك ضعف أخيه ، وربما لا يؤيد نشاطه في المجلة .

تزايد اهتمام « جيا ـ خوى » بالحياة الجديدة ، فلم يقف حماسه عند حد وتأسست فى المجلة فى فترة قصيرة جماعة لدراسة ونشر الثقافة الجديدة ، فكان يجتمع قرابة عشرين شابا كل يوم أحد فى الحديقة العامة ، ويجلسون حول موائد قليلة يشربون الشــاى ، ويناقشون جميع المشاكل الاجتماعية الهامة ، وكانوا يجتمعون أحيانا فى مجموعات صغيرة فى منازل بعض الطلبة يبحثون خططا لمساعدة الآخرين . كانت النزعة الانسانية والمبادىء الاشتراكية طاغية على أفكارهم ، لقد أخذوا على عاتقهم مسئولية اعادة بناء المجتمع وتحرير الانسانية جمعاء .

أثارت مسودات المطبوعات وضربات آلات الطباعة الصفحات الجميلة المطبوعة مشاعر جميلة وجديدة فى نفس « جيــا ـ خوى » الشابة .. أشياء لم يحلم بها قط ، ولــكن ها هى ذى الآن حقائق بين يديه ، حقائق مادية قوية تطفىء ظمأه للعمل .

ازداد اندماج « جيــــا ـ خوى » يوما بعد يوم فى الظروف الجديدة المحيطة به ، فى نفس الوقت ازدادت الهوة التى تفصل بينه وبين جميع أفراد عائلته . شعر « جيا ـ خوى » أنهم لن يستطيعوا فهمه .. وجه جده العابس ، ووجه محظيته « تشـــين » والتعبير المصطنع الذى لا يفارق وجهها أبدا ، وأدب زوجة أبيه الجم وهدوؤها البارد ، واستمرار أخيه فى اتباع فلسفة « الخضوع والاستسلام » .. حملت زوجة أخيه مرة أخرى وبدأت تفقد حيويتها ونضرتها ، زد على ذلك شكوى عماته وأعمامه من استعلائه ، فهو لا يقدم فروض الاحترام الواجبة .. وقد عبروا عن احتجاجهم لزوجة أبيه طالبين منها تأنيبه على ذلك الا أنهم كلما لاقوه يحيونه بابتسامة فيها الكثير من الرياء ..

الانسان الوحيد القريب الى قلبه هو أخوه «جيا ـ من» ..

لكن « جيا ـ من » له اهتماماته الخاصة ومشاغله ، وكان تفكيره يختلف عن « جيا ـ خوى » ..

هناك انسان آخر ، انسان اذا طاف بخياله تذوب مشاعره رقة وتفيض عذوبة ... ففى الدار انسان يحبه « جيا ـ خوى » ففناء تلك الفتاة فى الاخلاص له بلا غرض كان مصدر سعادة دائمة له .. عندما ينظر الى عينيها وهما تحترقان بلهيب الحب الطاهر يرى فيهما ما لم تنطق به شفتا انسان منذ بدء الخليقة حتى يومنا هذا! .. جاشت بقلبه الآمال .. العالم فى هاتين العينين .. فيهما وجوده ، وفى بعض الأحيان تفيض مشاعره وتغلبه على أمره ، ويتمنى لو ضحى بكل شىء حبا ووفاء وتقديرا لهاتين العينين !..

لكنه عندما يخرج من بحر الحب الذى تغرقه فيه هاتان العينان ويواجه العالم ، ويعيش فى واقعه الجديد ، ويلاقى أصدقاءه الجدد ، ويتسع أفقه .. يرى أمامه العالم بجلاله وروعته .. العالم بأسره هو المكان الذى يتسع لطاقاته المتأججة ، كان يدرك أن الحياة ليست على هذا القدر من « البساطة » .. وعندما يقارن بين العالم بآفاقه الرحيبة وبين عينى فتاته يشعر بمدى سخافته ! .. كيف يتخلى عن كل شىء فى سبيلها ؟

قرأ « جيا ـ خوى » منذ وقت قريب مقالة حماسية عن الكفاح فى احدى المجلات نصف الشهرية الصادرة فى بكين ، جاء فى المقالة : « يجب على شباب الصين ألا يكونوا كسالى فلا يقضوا حياتهم فى ملذاتهم الشخصية فقط ، ويجب أن يعيشوا حياة الرجال الخشنة ، ان مسئولية الشباب أن يواجهوا المشاكل الاجتماعية ويحلوها ، ومن الطبيعى أن يستنفد هذا كل طاقاتهم » .

وفى نهاية المقالة حذر الكاتب الشباب قائلا :

... يجب أن تحذروا الوقوع فى الحب .. يجب ألا تسيطر عليكم عواطفكم ... »

وبالرغم من أن الأساس النظرى للمقالة كان ضعيفا فانهـا أثرت فى ذلك الحين على كثير من قرائها الشبـــان ، وخصوصا من كانوا يتطلعون الى تكريس حياتهم لخدمة المجتمع ٠

أثرت تلك المقالة في « جيا ـ خوى » ، فاهتز قلبـــه بعنف وهو يقرؤها ٠٠ تأثر بها الى الحد الذى جعله مستعدا لأن يقسم بأنه سيكون من نوع الشباب الذى يريدهم الكاتب ، وسيطرت عليـــه صورة رائعة لمجتمع مثـــالى ٠٠ ونسى تماما حب « منج ـ فونج » الطاهر ٠٠

لـكنه كان نسيانا مؤقتا ونكرانا لم يدم طويلا ، ففى الواقع كان « جيا ـ خوى » يتساها وسط مشاغله في الخـــارج ، لـكن عندما يعود الى بيته ويخيم الصمت والسكون على الدار تملأ عليـه « منج ـ فينج » حياته ٠٠ كان التفكير فيها يؤلمـــه ، تنازعت فى داخله فكرتان ، كل منهما تحاول السيطرة علىعقله ، ويمكن القول : ان الصراع كان بين المجتمع و « منج فونج » ٠ ووقفت «منج ـ فونج» في هذه المعركة وحيدة ، ووقف ضـــــدها فى تلك المعركة جميع أخلاقيات النظام الاقطاعى وعصبية عائلة « جاو » ، فكان من المحتم أن تهزم « منج ـ فونج » فى المعركة التى دارت فى عقل « جيـا ـ خوى » ٠٠

وبطبيعة الحال لم تكن « منج فونج » تدرك شيئا من هـذا ، ظلت وفية فى حبها ٠٠ حب يحمل درجة سرية عالية، لكنه فى نفس الوقت يحمل درجة اخلاص أعلى ٠٠ أسعدها هذا الحب ٠٠ وانتظرت ٠٠ وهى ترجو أن يأتى يوم يستطيع أن يخلصها فيــه من الظروف القاسية التى تعيش فيها ٠٠

أصبحت حياة « منج ـ فونج » مقبولة عما كانت عليه من قبل وأصبح سادتها أكثر رحمة بها ، ملك حبها جميـــع مشاعرهـا ، ووجدت فى أحلام اليقظة التى تعيش فيها ملجأ تلوذ اليه ، لـكنها

ظلت متواضعة للغاية .. حتى فى أحلامها لم تتطلع الى الحياة بجوار « جيا ـ خوى » كند له .. انها تريد أن تكون مجرد جارية مخلصة .. جاريته هو وحده .. وبدا لها هذا أعظم قدر من السعادة يحلم به انسان ..

ولـكن الحقيقة دائما ، ولسوء الحظ ـ تكون عـكس ما يتمناه الانسان ! انها تحطم الآمال بسرعة وبلا رحمة !

الفصل الرابع والعشرون

فى احدى الليالى ، وبعد اطفاء المصابيح الكهربية فى دار « جاو » استدعيت « منج ــ فونج » الى مسكن السيدة « تشوو » ، وبدا وجه السيدة السمين في ضوء مصباح الزيت الواهى لا يعبر عن شيء ، وبالرغم من أن «منج ــ فونج» لم تستطع تخمين ماستقوله السيدة « تشوو » فان احساسا انتابها طوال اليوم بأن شراً سيحيق بها ، ووقفت أمام السيدة « تشوو » وقلبها يرتعد وهى تنظر اليها فى قلق ٠٠ التزمتا الصمت ٠٠ أخذ هــذا الوجه يتورم وينتفخ ويتحول بالتدريج الى كتلة ضخمة مستديرة ظلت تتأرجح وتهتز أمام عينى « منج ــ فونج » ، فزاد هذا من خوفها ٠

ــ « منج ــ فونج » ٠٠ خدمت عندنا سنوات طويلة ٠ أعتقد أنك عملت بما فيه الكفاية ٠٠

تحدثت السيدة « تشوو » فى تؤدة ، وبالرغم من ذلك كانت تتحدث بسرعة عن معظم الأشخاص العاديين ، وبعد بضع كلمــات ازدادت سرعة حديثها ، فتدفقت الكلمات على شفتيها كاللآلىء :

ــ أنا واثقة أنك ترحبين بالرحيل ، أمر اليوم الشيخ المبجل « جاو » بارسالك الى عائلة « فونج » لتصبحى محظية للسيد المبجل « فونج » ، أول الشهر القادم يوم حسن الطالع ٠٠ سيأخذونك فى ذلك اليوم ، اليوم هو السابع والعشرون فى الشهر ، بقى أمامك اربعة أيام ستكون اجازة لك لا تؤدين فيها أى عمل ٠٠ كونى على سجيتك فى الأيام القليلة القادمة الى أن تذهبى الى دار « فونج » ٠

وعندما تذهبين الى هناك أحسنى رعاية الشيخ الكبير والسيدة

الكبيرة ، يقولون : انه غريب الأطوار الى حد ما ، وزوجته ليست أحسن منه حالا لا تكوني عنيدة ، ومن الأفضل أن تتجاوبي أنت وأهواؤهما ، ولهما أيضا أبناء وزوجات أبناء وحفدة يعيشون معهما فيجب أن تحترميهم كذلك ٠

خدمت كجارية في عائلتنا سنوات طوالا ، لكنك لم تتعلمي الكثير خلال هذه السنوات ٠٠ أعترف لك صراحة أننا لم نحسن معاملتك ، والآن وبعد أن رتبنا لك هذه الزيجة أشعر بالارتياح ٠٠ ان عائلة « فونج » عائلة ثرية ، وما دمت ستتصرفين في حدود مكانتك فانك ستجدين كفايتك من الطعام والملبس ٠٠ ستكونين أحسن حالا من « شيار » ٠٠

سأذكرك بالخير بعد رحيلك ، لقد خدمتني باخلاص سنوات طوالا ولم أكافئك بشيء ، سأطلب من صانع الثياب أن يصنع لك ثوبين جميلين جديدين ، وسأعطيك قطعا من الحلي ٠

قطع نحيب « منج ـ فونج » حديث السيدة « تشوو » ٠٠

وبالرغم من أن كل كلمة من كلمات السيدة «تشوو » نزلت كنصل سكين حاد ملتهب يقطع قلب « منج ـ فونج » لم يكن بوسع الفتاة أن تفعل شيئا سوى ترك هذا النصل يغور في أعماق قلبها ! ليس لديها سلاح تدافع به عن نفسها ٠ تحطمت آمالها ٠٠ فحتى الحب الذي أضاء طريق حياتها بنوره يريدون حرمانهامنه . ويريدون تقديم شبابها الأخضر الغض لكهل فظ الطباع !

انها ستكافأ على حياتها كمحظية في عائلة « فونج » بأشياء تعرفها جيدا ٠٠ الدموع والصفعات والامتهان ٠٠ نفس الجزاء الذي كان وما يزال يمنح لها مقابل ما تبذله من جهد ٠٠ الفرق الوحيد هو أنه بالاضافة الى واجباتها السابقة سيضاف واجب جديد : تقديم جسدها ليعريه ويفضحه ويلوثه كهل فظ لم تره من قبل !

تصبح محظية ·· يا للفضيحة ! هناك شعور عام فى عالم الجوارى بأن المحظية هى أسوأ مصير يمكنهن الانتهاء اليه · لقد أصبحت كلمة محظية نذير شؤم ولعنة عندهن ، و « منج ـ فونج » مثلهن جميعا ·· انتابها شعور منذ الصغر بأن أبشع ما فى الوجود هو أن تصبح يوما ما محظية ، لكن بعد ثمانى سنوات من العمل الشاق والخدمة باخلاص تثاب على ما قدمت يداها بجائزة فريدة ·· محظية ·· محظية كهل فظ غليظ الطباع ··

اسودت الدنيا فى عينيها ، وخبا نور الأمل المنبعث من حبها الطاهر ، وطاف بخيالها شاب وسيم ، وفجأة أخذت وجوه قبيحة بشعة تنظر اليها والشرر يتطاير منها · هز الخوف كيان « منج ـ فونج » ، أرادت أن تقاوم الخطر الجاثم عليها ، فلم تجد وسيلة سوى أن تحنى رأسها وتخفى وجهها بين يديها ، خيل اليها أن هناك من يهمس فى أذنها : « ··· كل شىء بقضاء ، قدر مكتوب ولا يمكنك الفكاك منه ··· » خاب الأمل وانقطع الرجاء ، فبكت بقلب محطم ··

أخذت الكلمات تتدفق من فم السيدة « تشوو » بسرعة ، فلم تتوقف عن الحديث مرة واحدة ، لكن عندما سمعت نواح الفتاةالحزين تملكتها الدهشة وكفت عن الكلام · دهشت لحزن « منج ـ فونج » واضطرابها ، لكن دموعها أثارت عطفها ، فسألتها :

ـ ماذا بك يا « منج ـ فونج » ! لماذا تبكين ؟·

استمرت « منج ـ فونج » فى البكاء ··

ـ أنا لا أود الذهاب ياسيدتى ! أفضل البقاء هنا كجارية مدى الحياة ، وأظل فى خدمتك وخدمة السادة الصغار والسيدات الصغيرات · سيدتى ، أتوسل اليك ألا تبعثى بى الى هناك ·· مازال أمامى الكثير هنا لأعمله ·· قضيت هنا ثمانى سنوات لا أكثر ، ومازلت صغيرة ، أتوسل اليك ألا تعجلى بزواجى ··

عاطفة الأمومة عند السيدة « تشوو » لا تستيقظ الا نادرا ، لـكن توسلات « منج ــ فونج » التى تحرك الصخر الأصم أثارت تلك العاطفة . انفجرت تلك العاطفة فى قلب السيدة « تشــوو » نحو الفتاة الصغيرة وأشفقت عليها ، قالت لها فى ابتسامة حزينة :

ــ ثارت فى نفسى مخاوف وتوقعت ألا تقبلى ... ان السيد المبجل « فونج » كهل عجوز فى سن جدك ، لكن هذا ما أمر به سيدنا المبجل « جاو » ، ليس أمامى سوى السمع والطاعة .. عندما تذهبين الى هناك .. اخدمى الكهل على هواه .. فتسير الأمور على ما يرام ، وعلى أية حال ستكون حالك أفضل بكثير من زواجك بعامل فقير .. لا تعرفى أبدا من أين ستحصلين على وجبتك التالية ..

ــ سيدتى ، أفضل الموت جوعا أو ما هو أقسى وأمر على أن أكون محظية .. وبينما الكلمات تتدفق من شفتى « منج ــ فونج » خارت قواها ولم تحملها قدماها ، فسقطت على ركبتيها . ووضعت شفتيها على قدمى السيدة « تشوو » وقبلتها فى توسل ..

ــ ... أتبعثى بى الى هناك .. أكرمينى واسمحى لى بالبقاء جارية أفنى العمرفى خدمتكم .. الرحمة ياسيدتى .. وأنا صغيرة ارحمينى .. امتصينى كما شئت ، واضربينى كما يحلو لك .. أى شىء .. الا ارسالى الى عائلة « فونج » . أنا خائفة . أخشى ألا أحتمل هذا اللون من الحياة . سيدتى ، رحمة بى .. سيدتى .. كنت دائما مطيعة لك .. لـكن هذا شىء آخر لا قبل لى به ولا جلد لى على احتماله .

فاض قلبها بسيل لا ينقطع من الكلمات اندفعت الى حلقها ، لـكن شيئا ما شل شفتيها وشعرت بغصة فى حلقهــا ، فابتلعت كلماتها وبكت فى هدوء ، وكلما زاد نحيبها زاد شعورها بفجيعتها .. مصيبة وعمت .. عمت كل شىء فى حياة « منج ــ فونج » ..

ولو كان في مقدورها أن تبوح بما يكنه قلبها لوجدت في ذلك شيئا من الراحة ..

نظرت السيدة « تشو و» الى الفتاة التى تبكى تحت قدميها ، فثارت فى نفسها ذكريات أيام خلت ، فلمست شعرها بيدها لمسات قلب حزين وأم رحيمة ، وقالت فى عطف :

ــ أنا أعرف أنك مازلت صغيرة ، وأنا ضد مسألة ذهابك الى عائلة « فونج » ، لـكن سيدنا المبجل وعد ، وهو من النوع الذى لا يرجع عن وعد قطعه ، أنا بالنسبة له مجرد زوجة أحد أبنائه ، ولا أجرؤ على معارضته ، سبق السيف العزل .. عليك الذهاب .. لا تبكى فلن تجديك الدموع نفعا ، استجمعى شجاعتك وامضى الى هناك .. قد تنعمين هناك بشيء من الرحمة ، لا تخافى ولا تحزنى ، فطيبو القلوب يلقون دائما جزاء عادلا .. انهضى واذهبى الى فراشك لتنــامى ..

تعلقت « منج ــ فونج » بقدمى السيدة « تشــوو » بشــدة ، وكأن هاتين القدمين هما السبيل الوحيد لانقاذها ، استجمعت كل ما تبقى فى كيانها من قوة وصرخت :

ــ أليس فى قلبك ياسيدتى ذرة من الرحمة لفتاة مســكينة مثلى ؟ أنقذينى .. ! الموت أفضل من الذهاب الى عائلة « فونج » :

رفعت الفتاة الصغيرة وجهها المخضب بالدموع ، ونظرت فى عينى السيدة « تشوو » ، ومدت يدها نحوها فى توسل وضراعة :

ــ أنقذينى يا سيدتى ..

كان صوت « منج ــ فونج » مؤلمــاً ، فأجابتها السيدة «تشوو» فى حزن :

ــ ليت الأمر كان بيدى ، أنا شخصيا لا أريد ذهــابك ،

« العين بصيرة واليد قصيرة » ، لا أستطيع الوقوف أمام مشيئة السيد المبجل « جاو » ، انهضى واذهبى الى فراشك مثل البنت الحلوة الطيبة ..

لم تقاوم .. ضاعت الآمال ، وقفت « منج ــ فونج » أمام السيدة « تشوو » في ذهول ، شعرت كأنها فى حلم .. وبعد لحظة نظرت حولها .. كل شىء مظلم كئيب ، أخذت تبكى فى صمت .. وأخيرا ملكت زمام نفسها وقالت فى لهجة فاترة كئيبة :

ــ سأفعل ما أمرت به يا سيدتى ..

ــ حسنا ، أنت فتاة طيبة مطيعة ، ولن أقلق عليك مادمت كذلك ..

أدركت « منج ــ فونج » أنه لا جدوى من بقائها أكثر من ذلك شعرت بيأس لم تعان مثله طوال حياتها ، وقالت فى فتور :

ــ سأذهب الى فراشى يا سيدتى .

خرجت « منج ــ فونج » من الغرفة فى بطء ويدها تضغط على صدرها .. كانت تخشى انفجار قلبها الصغير .

تحسرت السيدة « تشوو » على الفتاة وهى تخرج من الغرفة وأسفت لعدم استطاعتها مساعدتها .. لكن بعد نصف ساعة نسيت .. تلك المرأة المرفهة السمينة كل شىء عن «منج ــ فونج» .

الفناء خال مظلم، تألق نور خافت انبعث من نافذة «جيا ــ خوى» كانت « منج ــ فونج » تنوى فى البداية الذهاب الى غرفة الخدم ، لكنها شاهدت النور فاتجهت فى هدوء الى جناح « جيا ــ خوى » ، أخذ النور ينساب من خلال الفتحات الصغيرة فى ستارة النافذة ، ويكون أشكالا جميلة على الأرض .. الستارة .. وزجاج النافذة .. والغرفة .. شعرت « منج ــ فونج » فى تلك اللحظة باعزاز خاص وحب جارف لتلك الأشياء « البسيطة » وقفت « منج ــ فونج » على

قطعة من الحجر ، ونظرت خلال الستارة البيضاء الشفافة ، وحبست أنفاسها حتى لا تزعج الفتى الذى بالداخل ·

لقد خيل اليها أن هناك صورا وألوانا جميلة على الستارة البيضاء ·· ازدادت تلك الأشياء جمالا ورقة فى عينى « منج ـ فونج » ، وظهر لها أشخاص على جانب كبير من الرقة والجمال وسط مزيج من الألوان الخلابة ·· فتيان وفتيات ·· يرتدون ثيابا جميلة أنيقة ، أنوفهم شامخة فى كبرياء وعجرفة موروثة ·· نظروا اليها فى ازدراء ثم مضوا فى طريقهم مسرعين ، وفجأة ظهر بينهم شخص لا يبارح طيفه خيالها ليل نهار ، نظر اليها فى ود ومحبة وتوقف فى السير ·· بدا لها أنه يود الحديث اليها ، لكن حشودا من الناس سارعت بدفعه أمامها ، واختفى وسط الزحام ·· بحثت عنه عيناها لكن الستارة الحريرية البيضاء وقفت ساكنة بلا حراك ، وحجبت عنها ما بداخل الغرفة ··

اقتربت « منج ـ فونج » يراودها الأمل فى النظر الى مابداخل الغرفة ، لكن النافذة كانت أعلى من رأسها ، وأخيرا تراجعت يائسة بعد أن قامت بعدة محاولات للوصول الى النافذة ، وبينما تفعل ذلك اصطدمت يدها وحافة الشباك ، فأحدثت صوتا رهيبا ، وجاءها من داخل الغرفة صوت سعال ·· ذلك يعنى أنه لم ينم بعد ·· تطلعت « منج ـ فونج » الى ستارة النافذة ·· هل يزيح الستارة وينظر اليها ؟ ··

لكن الهدوء ساد الغرفة مرة أخرى ، ولم يتخلله سوى صرير قلم يجرى على الورق ·· دقت « منج ـ فونج » دقات خفيفة على حافة النافذة ، فسمعت ما بدا لها كأنه صوت زحزحة كرسى ، تلاه صرير قلم يجرى على الورق فى سرعة ، أحجمت « منج ـ فونج » عن طرق النافذة طرقات قوية ، وخشيت أن تسمع تلك الطرقات ،

« فجيا ـ من » ينام فى نفس الغرفة ·· تعلقت بأملهـــا الباقى ، وطرقت النافذة ثلاث طرقات ونادت فى صوت خفيض ·

سيدى الفتى الثالث ····

تراجعت « منج ـ فونج » الى الخلف ·· انتظرت فى صمت·· لم يحدث شىء سوى صرير القلم السريع وصوت يقول فى دهشة :

ـ الثانية صباحا ؟ ولدى دروس فى الثـــامنة صباحا ·· واستمر صرير القلم ··

وقفت « منج ـ فونج » وقد خاب رجاؤهـــا ·· الطرق مرة أخرى لن يجدى ، لن يسمعها ·· انها لا تلومه ، وازداد حبها له ·· كلماته مازالت فى أذنيها أحلى من الشهد وأعذب من النغم ، تخيلته واقفا الى جوارها ·· بدفئه وحيويته ·

انه يحتاج الى فتاة تحبه وترعاه ، وليس فى العالم فتاة تحبه أكثر منها ·· انها على استعداد لأن تفعل من أجله أى شىء ، لـكنها تعلم أن هناك جدارا يفصل بينها وبينه ·· انهم يريدون ارســالها الى عائلة « فونج » ، سيحدث هذا قريبا ·· بعد أربعة أيام فقط ، وبعد ذلك تصبح تابعة لعائلة « فونج » ·· لن تراه أبدا ·· ولن يعرف ما يصيبها هناك من أذى وامتهان ، لن يكون فى مقدوره انقاذها سينفصلان ·· الى أبد الآبدين ·· ان ما سيفصل بينها أشر وأنكد من الموت ·· الموت أحن وأرحم ·· !

شعرت « منج ـ فونج » أن حياتها ليس فيها ما يبرر احتمال عذابها ، وعندما قالت للسيدة « تشو » ··· الذهـــاب الى القبر أفضل من الذهاب الى دار « فونج » كانت تعنى ماتقول ·· قلبت « منج ـ فونج » فكرة الموت فى ذهنها بجدية ·· لقد أخبرتها الأخت الكبيرة أن الانتحار هو المخرج الوحيد لضحايا القـــدر ·· آمنت « منج ـ فونج » بذلك ···

قطعت تنهيدة طويلة تيار أفكارها الهوجاء المخيفة ، نظرت فى حزن فيما حولها ‥ السكون والظـــلام ‥ وفجأة تذكرت منظرا مشابها حدث منذ عدة أشهر خلت ، لكنه كان في تلك المرة يقف خارج نافذتها ‥ لقد تحقق ما خشيا وقوعه ‥ استعادت « منج ـ فونج » كل التفاصيل ‥ موقفه نحوها ، العهد الذى قطعتـــه على نفسها ‥ لن أذهب الى رجل سواك ، أعاهدك وأقسم لك على ذلك ٠

عصر الألم قلبها وأعمتها الدموع ، هبط ضوء المصبـــاح على رأسها بلا رحمة ‥ ونظرت الى شعاع النور فى حماس ‥ تكون فى أحشائها أمل صغير ‥ ستلقى بحذرهـــــا فى مهب الريح ، وستندفع الى غرفته وتركع عند قدميه ، وتروى له مأساتها المؤلمة ‥ وتتوسل أليه أن ينقذها ‥ ستكون أمة له طوال حياتها ‥ تحبه وترعاه ‥

ولـــكن المصباح أطفىء فى تلك اللحظة وانقطع الشعاع ، وساد الظلام ، حدقت بعينيها ، لكنها لم تر سوى الظلام ، تسمرت فى مكانها ‥ وحيدة فى عتمة الليل ، لقد أطبق عليها الظلام بلا رحمة٠

بعد دقائق مضت فى تثاقل اســـــتطاعت « منج ـ فونج » التحرك من مكانها ٠ تلمست طريقها الى غرفتها خلال حشود الظلام الكثيفة ، ووصلت أخيرا الى غرفة الخادمات ، فدفعت الباب نصف المغلق ودخلت الغرفة ‥

أخذ الفتيل يتلوى فى اناء الزيت ويبعث بضوء واه ضعيف ، ساد الظلام بقية الغرفة ، وفى جانبى الغرفة رصت سرر تمددت فوقها أجسام تشبه جثث الموتى ٠ وعلا شخير حاد من سرير الأخت « تشانج » السمينة فمزق سكون الغرفة بطريقة مخيفة ، أفزعت تلك الأصوات « منج فونج » فتوقفت عند باب الغـــرفة ‥ نظرت حولها فى قلق ، ثم جرت قدميها واتجهت الى المـائدة ، وأصلحت الفتيل ٠ فأصبحت الغرفة أكثر وضوحا ‥

وهمت « منج ـ فونج » بخلع ثيابها ، وفجأة اجتاحتها نوبة رهيبة من الكآبة واليأس ‥ ألقت بنفسها على السرير ، وأخذت فى البكاء ‥ دفنت رأسها فى الفراش وبللته بدموعها ، وكلما استغرقت فى أفكارها ازدادت حالتها سوءا ‥ واستيقظت ماما « خوانج » على صوت نحيبها وسألتها فى وجوم :

ـ لم تبكين ؟ ‥

لم تجب « منج ـ فونج » بكلمة واستمرت فى بكائها ٠ واستها ماما «خوانج» بكلمة أو كلمتين ، واستغرقت مرة أخرى فى نوم عميق ‥ شعرت بوحدة لا أنيس لها فيها سوى دموع قلبها المحطم ‥ فاستمرت فى بكائها حتى هدها الارهاق ، فاستسلمت للنوم ‥

تحولت «منج ـ فونج» فى صباح اليوم التالى الى انسانة أخرى ‥ كفت عن الابتسام ، وتحركت بطريقة آلية ٠ تجنبت الجميع‥ ساورها شك فى أنهم يعرفون ما بها ، تخيلتهم وهم يبتسمون فى ازدراء ، فابتعدت عنهم ، خيل اليها أن كلمة محظية تتردد على كل شفة حتى بين سادتها وسيداتها ٠

خيل اليها أنها سمعت رب الأسرة الخامسة يقول :

ـ هذه الفتاة الجميلة ‥ من العار أن تصبح فتاة كهذه محظية لذلك الكهل العجوز ‥

سمعت الأخت « تشانج » وهى تقول فى المطبخ فى غضب :

ـ فتاة صغيرة كهذه تصبح زوجة كهل نصف ميت ‥ أنا لا أرضى ذلك مقابل كل ما فى العالم من مال ‥

خشيت « منج ـ فونج » الذهاب الى أى مكان تجنبا لسماع تلك التعليقات المؤلمة ، توارت «منج ـ فونج» فى غرفتها أو فى الحديقة وظلت وحيدة طوال يومها وان اضطرت للالتقاء بالخدم

مرتين لتناول وجبتيها ، زارتها « شيار » ، و « وانر » مرة ، لكنهما لم تبقيا معها طويلا لكثرة العمل ، لقد سرقتا لحظات قليلة لمواساتها بكلمة أو كلمتين ٠

شعرت «منج ـ فونج » برغبة ملحة للحديث مع «جيا ـ خوى» وترقبت فى صبر فرصة تسمح لها بذلك ، ولكن « جيا ـ من » ، و « جيا ـ خوى » كانا مشغولين فى الفترة الأخيرة على غير عادتهما ، فهما يرحلان فى وقت مبكر الى مدرستهما ولا يعودان الا فى المساء وفى بعض الأحيان يتناولان طعامها فى الخارج ، وحتى اذا تناولا غذاءهما فى البيت يخرجان فور الانتهاء منه ولا يعــودان الا فى التاسعة أو العاشرة مساء ، ثم يغلقان على نفسيهما الغرفة ويتفرغان للقراءة أو كتابة المقالات ٠٠ التقت هى و « جيــا ـ خوى » مرتين منحها فيهما نظرة حنان وابتسامة ، لـكنه لم يتحدث اليها ، كانت هذه النظرة وتلك الابتسامة بطبيعة الحال فى نظر « منج ـ فونج » من آيات حب « جيا ـ خوى » لها ٠٠ انها تعلم أنه مشــغول بأمور خطيرة ٠٠ وبالرغم من أنه لم يكرس لها شيئا من وقته فانها لم تلمه على ذلك ٠٠

الأيام تمر بسرعة ، يجب أن تتحدث اليه وتفضى له بمتاعبها وتلتمس عونه ٠ يبدو أن « جيا ـ خوى » لايدرك شيئا مما يجرى لها ، وهو لم يمنحها فرصة لتحكى وتشكو له ما يدبر لها ٠

اليوم هو آخر أيام الشهر ، لم يعلم الكثيرون ممن بالدار بما سيحدث « لمنج ـ فونج » ٠ ولم تكن لدى « جيا ـ خوى » أية فكرة عن هذا الموضوع ، غرق لأذنيه فى مجلته الأسبوعيــة ، وحتى الساعات القليلة التى يقضيها فى البيت يكرسها للدراسة أو الكتابة ولم يتصل بأى انسان على علم بما يحدث « لمنج ـ فونج » ولم يخبره انسان بذلك ٠٠

اليوم الأخير من الشهر كان كأى يوم عادى بالنسبة « لجيا ـ خوى » ، لـكنه كان يوما فاصلا فى حياة « منج ـ فونج » هل هو فراق أبدى أو وصال تقضى فيه حياتها خادمة وأمة مخلصة له٠أن الأمل فى تحقيق الاحتمال الأخير ضعيف ٠٠ وهى تعلم ذلك جيدا وبرغم ذلك كان يحدوها أمل فى مقدرته على انقاذها وبقائها الى جواره خادمة مخلصة له طوال حياتها ، ولـكن هناك جدارا يفصل بينهما ؛ فالفارق شاسع بين مكانته فى المجتمـع ووضعهـــا كأمة حقيرة ٠٠ !

ان « منج ـ فونج » تعلم ذلك جيدا ٠٠ وذلك اليوم الـذى قالت له فيه فى الحديقة ٠٠ لا ، لا ٠٠ القدر لم يشأ أن أكون لك ٠٠ كانت تدرك ذلك جيدا ٠٠ لقد أجابها بأنه سيتزوجها ، لـكن جده والسيدة « تشوو » وجميع كبار العائلة سيقفون ضدهما ، ماذا فى وسعه أن يفعل ؟ ٠٠ فحتى السيدة « تشوو » لم تستطع الاعتراض على قرار رأس العائلة السيد « جاو » ٠٠ فماذا فى وسع حفيد له أن يفعل ؟ ٠٠

تقرر مصير « منج ـ فونج » ، لكنها تعلقت بأملها الوحيـــد الباقى لها ٠٠ وفى الواقع كانت « منج ـ فونج » تخدع نفسها ، فهى تعلم جيدا أنه ليس لها أى أمل ، ولن يكون ٠

انتظرت « منج ـ فونج » فى ذلك اليوم بقلب مضـــــطرب حتى عاد « جيا ـ خوى » بعد التاسعة مساء ، فذهبت الى نافذته ٠٠ لكنها سمعت صوت « جيا ـ من » فترددت ، خشيت الدخول ولم يطاوعها قلبها على الرحيل ٠٠ لو تخلت عن هذه الفرصة الأخيرة فلن تراه مرة أخرى حية أو ميتة ٠٠

وسمعت « منج ـ فونج » بعد فترة طويلة صوت أقدام ، كان هناك شخص قادم من الغرفة ، فاختبأت بسرعة فى أحد الأركان ،

وظهر شخص بباب الغرفة ، انه « جيا ـ من » • انتظرت الفتاة حتى ابتعد ، ثم أسرعت بالدخول الى الغرفة •

كان « جيا ـ خوى » مكبا على مكتبه منهمكا فى الكتابة ، لم ينظر اليها عندما دخلت واستمر فى عمله ، اقتربت «منج ـ فونج» منه فى خفر وحياء ونادته فى رقة :

ـ سيدى الفتى الثالث •

رفع « جيا ـ خوى » رأسه فى دهشة وابتسم لها ؟

تفرست عيناها المضطربتان فى شوق وحنين وجهه المبتسم •

ـ أريد الحديث معك •

وقبل أن تمضى « منج ـ فونج » فى حديثها قاطعها قائلا :

ـ ألأنى لم أتحدث اليك خلال الأيام القليلة الماضية تعتقدين أننى تنكرت لك ؟

ثم ضحك ضحكة عذبة :

ـ لا يجب ألا تفكرى هكذا ، أترين كم أنا مشغول ؟ يجب على أن أستذكر دروسى وأن أكتب ، لدى أشياء كثيرة لأعملها •

وأشار « جيا ـ خوى » الى أكوام المجلات المرصوصة أمامه :

ـ أنا مشغول جدا • سينتهى هذا العمل فى خلال يومين ، هذا وعد منى •• يومين فقط ••

ـ يومين ؟

سألته مرة أخرى وكأنها لم تفهم شيئا مما قاله :

ـ يومين ؟

قال « جيا ـ خوى » وهو يبتسم :

ـ نعم ، فى خلال يومين سأنتهى من عملى ، وحين ذاك يمكننا أن نتحدث ، هناك الكثير أود اخبارك به •

ثم انحنى على مكتبه ، واستأنف الكتابة ..

ـ سيدى الفتى الثالث ، أليس لديك أى وقت الآن .. ولو حتى لحظات قليلة ؟

أجابها « جيا ـ خوى » فى خشونة :

ـ ألا ترين كم أنا مشغول ؟

لكنه لاحظ انفعالها ، وشاهد الدموع فى عينيها ، فرق لهـا .. ووقف وهو يسألها ملاطفا ..

ـ هل ضربك أحدهم ؟ لاتبتأسى الى هذا الحد .

أراد « جيا ـ خوى » أن يترك عمله ، ثم يأخذها الى الحديقة ليواسيها ، لكنه تذكر أن عليه تقـديم مقالته فى صـــباح اليوم التالى ، وتذكر الصراع الذى تخوضه المجلة ، فغـير رأيه ورجاها قائـلا :

ـ كونى صـــبورا ، بعد يومين سنتحدث طويلا ، سأخفف عنك ما تعانينه . فأنا أحبك أكثر من أى وقت مضى ، لكن أرجوك ، اذهبى الآن ودعينى أكمل عملى ، من الأفضـل الاسراع بذلك ، فالفتى الثانى سيعود بعد لحظات .

ونظر «جيا ـ خوى» حوله ليتيقن أنه بمفرده مع «منج ـ فونج» فى الغرفة ، ثم أخذ وجهها بين راحتيه ، ولامست شفتاه شفتيها فى قبلة سريعة وابتسم .. ثم أشار اليها بالانصراف فورا .. جلس « جيا ـ خوى » على مكتبه ، وأمسك بالقلم فى يده ، وأخذ قلبه يدق فى عنف .

انها المرة الأولى التى يقبلها فيها فى حياته ..

وقفت « منج ـ فونج » فى حيرة وصمت ، لم تفهم ما يجول بخاطرها من أفكار أو ما يعتمل فى قلبها من مشـــاعر ، تحركت

أصابعها لتلمس شفتيها ٠٠ شفتيهـا اللتين ذاقتا لأول مرة طعم قبلة ، وأخذت تردد ٠٠ بعد يومين ٠٠ بعد يومين ٠٠ !

سمع في الخارج وقع أقدام تقترب ، فحثها « جيا ـ خوى »:

ـ اذهبى بسرعة ، سيدك الفتى الثانى قادم ٠

استيقظت « منج ـ فونج » من حلم جميل ، وتقلص وجهها وبدت عليه تعبيرات مختلفة ، ارتعشت شفتاها ، لـكنها لم تنطق بكلمة واحدة ٠٠ نظرت « منج ـ فونج » اليه طويلا بـكل ما فى الوجود من حنان وتملت منه ، ثم فاضـــت الدموع من عينيها ، وصاحت فى ألم :

سيدى الفتى الثالث ٠٠

نظر « جيا ـ خوى » اليها بسرعة ، فوجدها تختفى من أمام غرفته فتنهد :

ـ النساء مخلوقات غريبات ٠

ثم استأنف الكتابة ٠

دخل « جيا ـ من » الغرفة ، وسأل فور دخوله :

ـ أليست هذه « منج ـ فونج » التى خرجت الآن ؟

ـ بلى ٠

واستمر « جيا ـ خوى » فى الكتابة دون أن يلتفت لأخيه ٠

قال « جيا ـ من » فى حسرة :

ـ هذه الفتاة ليست كأية جارية عادية ٠٠ انها ذكية طاهرة جميلة ٠٠ وهى ملمة بالقراءة والكتابة ٠ من العار أن يرسلها جدنا لتصبح محظية لذلك الكهل العجوز الشرير ، عار مابعده عار !

صدم « جيا ـ خوى » فوضع قلمه وسأل :

ـ ماذا تقول ؟

ـ ألا تعلم ؟ ستصبح « منج ـ فونج » زوجة ٠

ـ ستتزوج ؟ من قال هذا ؟ ٠٠ انها صغيرة ! ٠

ـ جدنا سيعطيها « فونج » ، ذلك الكهل الوغد السافل ليتخذ منها محظية له ٠

ـ لا أصدق ذلك ! لم ؟ وكيف ! ٠٠ انه من حماة مجتمع فضائل كونفشيوس ٠ انه في الستين من عمره ٠ أفمازال يرغب في أن تكون له محظية ! ٠

ـ ألا تذكر حينما نشر في العام الماضي مع صاحبين له قائمة بأسماء « أفضل المثلات » وهاجمتهم مجلة الطلبة في قسوة ؟ ان لم تستح فافعل ما شئت ٠ انه من ذلك الصنف من الرجال ، لديه مال ، أليس كذلك ؟ غدا سيكون يوم زفافهما ، أنا آسف لتلك الفتاة ٠٠ انها في السابعة عشرة ! ٠

ـ غدا ؟ لماذا لم أخبر بذلك من قبل ؟ ٠

هب « جيا ـ خوى » واقفا على قدميه ، واندفع خارجا وهو يشد شعره بيديه وينتفض جسده من قمة رأسه الى أخمص قدمه ٠

ـ ٠٠٠ غدا ! ٠٠ تتزوج ! ٠٠٠ محظية ! ٠٠ للكهل « فونج » ! ٠

أخذت هذه الكلمات تضرب رأس « جيا ـ خوى » بقسوة حتى خيل اليه أنها ستنفجر ، اندفع « جيا ـ خوى » الى الخارج ٠ خيل اليه أنه سمع عويلا حزينا ٠٠ وفجأة اكتشف « جيا ـ خوى » أنه يعيش في عالم أسود كئيب ٠٠ ساد الصمت ٠٠ خيل اليه أن الموت قد طوى كل شيء حي ٠ أين يذهب ؟ ذلك الفضاء بين السماء والأرض مرتع خصب للظلام والضباب واليأس ولا مكان له

فيه ! ·· تخبط « جيا – خوي » وأخذ يشد شعره ويضرب صدره في عنف ، لكن ذلك لم يجلب له شيئا من الراحة أو العزاء ! ·

وفجأة بدأ يدرك أشياء بشعة مؤلمة ·· أدرك أنها جاءت اليه الآن وقت محنتها وضيقها تلتمس عونه ·· جاءت اليه لأنها تثق في حبه ولأنها تحبه ·· جاءت كي يفي بعهده ·· جاءت تلتمس في نخوته حماية لها من براثن كهل عجوز ·

وماذا فعل ؟ ·· لا شيء ! ·

لم يمنحها العون ، أو حتى كلمة عطف أو لمسة حنان ··· لا شيء · أبعدها دون أن يستمع حتى لتوسلاتها · لقد ذهبت ·· ذهبت الى الأبد ·· الى ليل الغد ·· الى أحضان كهل عجوز ·· الى مبكى شبابها الضائع ·· الى حيث تلعن من خان عهد الحب الطاهر ، وبعث بها الى مخالب الذئب ! ·

لم يستطع « جيا – خوى » احتمال تلك الأفكار المرعبة ·· يجب أن يجدها ، ويطلب منها الغفران ··

ذهب « جيا – خوى » الى جناح الخادمات ، ودق على الباب دقات خفيفة · كان المكان غارقا فى ظلام كثيف ، نادى مرتين فى صوت ضعيف ·· « منج – فونج » ·· لم يتلق أية اجابة ، اعتقد أنها نامت ، ولم يجسر على الدخول بسبب وجود النساء الأخريات ·

عاد « جيا – خوى » الى غرفته ، لكنه لم يستقر فى مكانه ، ذهب مرة أخرى الى جناح الخادمات ، ودفع الباب ففتح قليلا ، لم يسمع سوى شخير ينبعث من الداخل · عاد « جيا – خوى » الى الحديقة ، ووقف فترة طويلة فى الظلام تحت أشجار البرقوق ونادى :

– « منج – فونج » ! ·

لم يسمع سوى صدى صوته ··

ضرب « جيا ــ خوى » رأسه عدة مرات فى أفرع أشـــجار البرقوق ، فاحتكت بجبهته ونزفت دما ، لكنه لم يشعر بأى ألم ·· وأخيرا عاد الى غرفته وغرق فى دوامة من اليأس ·

لم يعرف « جيا ــ خوى » أن الفتاة التى يبحث عنها غير موجودة فى غرفة الخادمات ، فقـــد خرجت « منج ــ فونج » الى الحديقة ·

عندما غادرت « منج ــ فونج » غرفة « جيا ــ خوى » أدركت تماما أن آمالها جميعا ذهبت فى مهب الريح ، كانت واثقة من أن حبه لها لم يفتر ·· فشفتاها مازالتا دافئتين من حرارة قبلته ·· ويداها مازالتا فى نشوة من لمسات يديه · أليست هذه بشائر حبه ؟ لكنها أيضا نذير زوال هذا الحب والارتماء بين يدى كهل فاسق ·· لن تراه أبدا ، ستلقى فى السنوات الطويلة القادمة صنوفا من العذاب والألم ·· لماذا تتمسك بحياة كهذه ؟ لماذا تعيش فى العالم بلا حب ؟ ·

واتخذت « منج ــ فونج » قرارا ··

لقد ذهبت الى الحديقة ، وتلمست طريقها فى الظلام بصعوبة حتى وصلت إلى هدفها ·· البحيرة ·· كان يصدر من مياه البحيرة وميض ضعيف وسط ظلام الليل الحالك · وفى بعض الأحيان كانت سمكة تحطم سطح البحيرة الساكن ·· وقفت «منج ــ فونج» فى ذهول ·· تستعيد ذكريات الماضى ·· تذكرت كل ما كان بينهـا وبينه من حديث وأحداث ، شعرت بحب جارف لكل الأشـــجار ولكل نبات أخضر ·· فهذا فراق أبدى بينها وبين كل هذا ··

العالم ساكن ، الناس نيام ·· لكنهم أحياء ، وســـيبقون أحيا ء·· أما هى فستمضى وحيدة ·· لقد عاشت سبعة عشر عاما

... لم تعرف فيها سوى الصفعات والامتهان والدموع والفناء فى خدمة الآخرين .. يضاف الى هذا كله حب يجب عليها الآن أن تهلك للحفاظ عليه .. لقد منحتها الحياة قدرا ضئيلا من السعادة أقل بكثير من الآخرين .. وبالرغم من هذا وبالرغم من شبابها الغض عليها أن ترحل عن العالم قبلهم جميعا .

غدا .. سيكون للآخرين غدهم .. أما هى فستمضى الى الظلام والخراب ، غدا تغرد الطيور على الأشجار ، وتداعب أشعة الشمس أغصانها بأشعتها الذهبية ، وينتشر على سطح البحيرة لآلىء لا حصر لها عندما تحتضن أشعة الشمس ماء البحيرة وتداعبها هبات النسيم .. لكنها لن ترى شيئا من هذا ، فعيناها ستغلقان الى الأبد ! .

العالم مكان جميل رائع ، أحبت الجميع بما يحمله قلب فتاة صغيرة من نقاء وطهارة ، وتتمنى الخير لهم جميعا ، خدمت الناس بلا كلل ، ولم تؤذ انسانا .. ولها وجه جميل مثل الفتيات الأخريات ، وتتمتع بقدر من الذكاء .. وجسد من لحم ودم .. فلم يريد الناس لها الأذى والامتهان ؟ لماذا ينكرون عليها حقها فى العيش على نور نظرة ود ، والاحتماء فى ظل قلب رحيم ، أو حتى مجرد سماع كلمة تواسيها فى وحدتها .. ؟ .

لم تمتلك يوما ثوبا جميلا ، ولم تأكل طعاما شهيا ، ولم تنم فى فراش دفىء .. قبلت كل هذا دون أن تشكو .. فهى تنعم بحب شاب رائع .. وجدت بطلا تعبده ، ورضيت بذلك .. وجدت جنة تهرب اليها من جحيم الحياة .

لكنها اليوم تواجه كارثة .. أثبت لها الواقع المر أن كل الآمال الجميلة كانت مجرد سراب خادع .. لن ينقذها حبه .. ولن يقدم لها هذا الحب سوى ذكريات أليمة .

انه ليس لها ٠٠ جعلها حبه تعيش فى أحلام جميلة ، لـكن هذا الحب يلقى بها الآن فى هوة عميقة مظلمة ٠ انها تحب الحياة ٠٠ وتحب كل شيء ، لكن طرق الحياة الكريمة سدت فى وجهها ٠٠ لم يترك لها سوى طريق واحد تدفع بقسوة لتسير فيه ٠٠ طريق الخسة والامتهان ٠

تأملت « منج ـ فونج » ما تعنيه تلك الأفكار ٠٠ ونظرت الى جسدها فى رعب ، وبالرغم من أنها لم تره بوضوح فى ظـــلام الليل ٠٠ فانها كانت تعرف أنه جسد عفيف طاهر ، شـــعرت بشخص يدفعها الى الوحل ٠٠ فأخذت يدها الرطبة تربت جسدها فى ألم وحنان ٠

انتهت « منج ـ فونج » الى قرار ٠٠ لن تتردد أكثر من ذلك ٠ نظرت الى مياه البحيرة الهادئة ٠٠ فى أعماق البحيرة ستجد الملجأ والملاذ ٠٠ يجب أن تموت طاهرة ٠

همت الفتاة بالقاء نفسها فى البحيرة ، ولكن فكرة خطرت لها فتوقفت ٠٠ لن تموت هكذا ٠٠ يجب أن تراه مرة وتصب فى أذنيه ما فى قلبها من حب ٠ ربما استطاع انقـاذها ٠٠ فقبلته مازالت تخدر شفتيها ، ووجهه يسطع بنوره أمام عينيها ٠ انها تحبـــه بعنف ولا تطيق فقدانه ٠٠ كان حبه هو الشيء الجميل الوحيد فى حياتها ٠٠ أليست جديرة بهذا ؟ ٠٠ الجميع ماضون فى حياتهم ٠٠٠ فلماذا تموت فتاة صغيرة مثلها ؟ ٠

تخيلت مشهدا جميلا رقيقا ٠٠ تخيلت نفسها تتحدث وتضحك وتمرح مع فتيات ثريات فى مثل عمرها فى حديقة جميلة ٠٠ انها تعلم أن هذا العـالم الرحب به الكثير من أمثـال تلك الفتيـات وتلك الحدائق ٠٠ لكن عليهـــا أن تقضى على شبابها النضـــير وتمضى من الحياة دون دمعة عطف أو كلمة مواساة ، لن يخسر العالم

بموتها شيئا وكذلك عائلة « جاو » ·· سيطويها النسيان وكأنها لم تعش على ظهر الأرض يوما واحدا ·

هل كانت حياتي خاوية الى هذا الحد ؟ ارتعدت «منج ــ فونج» وامتلأ قلبها بحزن أخرس ·· فاضت الدموع على خديها ، وخارت قواها فجلست على الأرض · خيل اليها أن هناك من يناديها ··· انه صوته · فحبست دموعها وأرهفت السمع ·· السكون ·· ولا شيء غيره · ظلت مصغية زمنا طويلا ·· لكنها لم تسمع همسة واحدة في سكون الليل المظلم ·

أدركت أنه لن يأتي ·· فهناك جدار يفصل بينهما · انه ينتمي الى عالم غير عالمها ·· له مستقبله وحياته ·· سيصبح رجلا عظيما ·· لن تبقيه الى جوارها فتعوقه عن المضي في طريقه ··· يجب أن تخلصه من حبها ·· فوجوده أهم بكثير من وجودها ·· لن تجعله يضحي بنفسه من أجلها ·· يجب أن تمضي ، يجب أن تتركه الى الأبد ·· وستفعل ذلك راضية ، فهو أغلى عندها من الحياة نفسها ·

مزق الألم قلبها ، فربتت صدرها · ازداد الألم قسوة · ظلت « منج ــ فونج » جالسة على الأرض وهامت نظراتها تحت ستر الظلام في كل ما حولها من مناظر مألوفة لديها ·· مازالت تفكر فيه · طافت ابتسامة حزينة بوجهها وفاضت عيناها بالدموع ·

لم تحتمل « منج ــ فونج » طويلا الاستمرار في التفكير ، فنهضت ··· وارتعشت قدماها وصرخت بصوت ملىء بالحب والندم ··· جيا ــ خوى ·· جيا ــ خوى ··· ثم غاصت في مياه البحيرة ·

تحركت مياه البحيرة الهادئة حركات عنيفة ، ومزق السكون صوت عنيف ··· تلاه صرختان أو ثلاث صرخات حزينة ، ترددت في بطء برغم ضعفها في ظلام الليل الكئيب ·· وبعد دقائق قليلة من الصراع العنيف عاد الهدوء الى سطح البحيرة ·· ولم يبق سوى صدى صرخات حزينة تردد في الهواء ، فبدا كل ما في الحديقة يبكي في هدوء ! ·

الفصل الخامس والعشرون

انتاب « جيا ـ خوى » القلق فى أثنـاء نومه تلك الليلة ، واستيقظ من نومه في وقت متأخر ، وأسرع هو و « جيا ـ من » بالذهاب الى المدرســة ، فوجدا أن الدروس قد بدأت منذ عشر دقائق .

أخذ السيد « تجو » مدرس اللغة الانجليزية الطويل القامة يقرأ فى صوت مرتفـع صفحات من رواية البعث ، أصغى اليـه « جيا ـ خوى » والتلاميذ الآخرون فى حرص استعدادا للاجابة عن أى سؤال يوجهه اليهم عن الصفحات التى قرأها .

لكن « جيا ـ خوى » سرح بأفكاره الى « منج ـ فونج » ، لقد عذبه تفكيره فيها وهز كيانه .. قرر ألا يتمسك بها ... لن يفعل هذا .. فبعد أن تدبر الأمر طوال الليل رضى بارسالها الى عائلة « فونج » . كان قرارا أليما ، لكنه كان على استعداد لتحمله وكان وراء قبوله فقد « منج ـ فونج » سببان واسى بهما نفسه السبب الأول هو رغبته فى تـكريس حياته لخدمة المجتمع ، أما السبب الآخر فيكمن فى أن رجلا فى مثل مركزه لا يستطيع أن يتزوج جارية ... فكبرياؤه البرجوازى الحقير لايسمح له بذلك .

مر اليوم الدراسى سريعا ، وفى طريق عودته الى بيته مزقته الأفكار المتصارعة . لم يتحدث الى أخيه بشىء مما فى نفسه ، لكن « جيا ـ من » أدرك من تعبيرات وجهه أن هناك ما يؤرق باله ، ولم يحاول جره الى الحديث .

عندما مرا بالبوابة الداخلية ـ شاهدا المحفة التى أرسلتها

عائلة « فونج » لترحل فيها « منج ـ فونج » . وكان برفقة المحفة خادمان ... انبعث صوت نحيب من خلف ستائر المحفة ، وبرغم أنه كان بكاء ضعيفا لايكاد يسمع فانه اخترق قلب « جيا ـ خوى » فى قسوة .. انها سترحل .. ولن تعود .

ظل الخدم فى أماكنهم فى الحديقة بعد أن شاهدوا المحفة وهى خارجة من الدار . واعتقد « جيا ـ خوى » أنهم يتحدثون عن رحيل « منج ـ فونج » الى دار « فونج » . لم يجرؤ على النظر اليهم وشق طريقه فى خطوات سريعة ، وعندما وصل الى داخل الدار حياه صوت حزين :

ـ عدتما اليوم فى وقت مبكر !

كان المتحدث «جيان ـ ين» وقد ارتسمت على وجهه النحيف سمات الكآبة والحزن . وقف « جيان ين » على السلم يتحدث مع « جيا ـ شن » . وعندما رأى «جيا ـ من» وأخاه اتجه اليهما على حين ذهب « جيا ـ شن » فى هدوء الى شقته .

أجاب « جيا ـ من » :

ـ أننا نستعد الآن للامتحان ، لذا نأخذ حصة واحدة فى فترة بعد الظهر .

لحق « جيان ـ ين » بالشقيقين فى غرفتهما ، وجلس على كرسى من الخيزران ، وتنهد بعمق فسأله « جيا ـ من » :

ـ لماذا أنت مكتئب هكذا دائما ؟

ألقى « جيا ـ خوى » بكتبه على المكتب ، واستلقى على السرير دون أن ينطق بكلمة :

هز « جيان ـ ين » رأسه فى حزن :

ـ الحياة قاسية للغاية .. !

هم « جيا ـ من » بتوجيــه اللــوم اليه بسبب حساسيته المفرطة ، لكنه تذكر ما قاله « جيان ـ ين » عن مرضه وعن فقده والديه وهو طفل صغير ، فعدل عن ذلك ولاطفه برقة :

ـ لاتعقد الأمور يا « جيان ـ ين » ، لماذا تهتم بالمسائل التى تسبب لك الألم ؟

لم ينتبه « جيان ـ ين » لما قاله « جيا ـ من » وأخذ يردد:

ـ يا للقسوة..! يا للقسوة... ! أتيت مصادفة وشاهدتها تقاوم وتبكى .. أجبروها على ركوب المحفة .. وبكيت أنا كذلك . انهابرغم كل شىء انسانة ، لماذا تعامل كجماد ، ويبعث بها الى ذلك الكهل العجوز .. ؟

سأله « جيا ـ من » فى تأثر :

ـ عمن تتحدث ؟ أتقصد « منج ـ فونج » ؟

نظر « جيان ـ ين » اليه فى دهشة وقال فى انفعال :

ـ « منج ـ فونج » ؟ اننى أتحدث عن « وانر » .. لقد رحلت المحفة منذ لحظات .. ألم تشاهدها ؟

اعتدل « جيا ـ خوى » فى سريره بسرعة وسأل فى فرح :

ـ ألم ترحل « منج ـ فونج » ؟

تعثرت الكلمات فى فم « جيان ـ ين » وقال فى بطء :

ـ « منج ـ فونج » .. أغرقت نفسها فى مياه البحيرة !

قفز « جيا ـ خوى » على قدميه فى رعب ، وشد شعر رأسه بقبضتيه :

ـ ماذا ؟ « منج ـ فونج » قتلت نفسها ؟

جال « جيا ـ خوى » فى الغرفة فى ذهول ·

ـ هكذا يقولون ! لقد حمل جسمانها الى خارج الدار ··· لم أرها بنفسى ··· يحتمل أنها أحسن من « وانر » ··

صاح « جيا ـ من » وهو يتمزق بين الغضب والندم :

ـ آه ·· ! هكذا تجرى الأمور ، قتلت « منج ـ فونج » نفسها فأرسل جدنا « وانر » بدلا منها ، ان جدنا لايرى الجوارى بشرا مثلنا ، فهن مجرد هدايا يتنقلن من سيد الى آخر ! لم أكن أتصور أن « منج ـ فونج » على هذا القدر من الشجاعة ··· انها على خلق عظيم ·

قال « جيان ـ يين » :

ـ والنتيجة · أرسلت « وانر » بدلا منها لسوء حظهـــا · ان الطريقة التى قاومت بها تبكى أى انسان ·· أعتقد أنها كانت ستختار نفس طريق « منج ـ فونج » ·· لكن المسألة تمت فجأة وبسرعة ·· لم تكن تعرف أنهم سيرسلونها الى هناك ، ولم تغفل عيونهم عنها لحظة ··

تساءل « جيا ـ من » فى ضيق :

ـ لم أتصور أن جدنا يفعل شيئا كهذا ! واحدة تموت ، فيرسل أخرى بدلا منهـا ! انهن آدميات · كيف يعاملهن بهذه الشراسة ؟

وقف « جيا ـ خوى » فجأة واتجه الى « جيان ـ يين » ، وأمسك يده وهزه بقسوة :

ـ أخبرنى ، كيف قتلت « منج ـفونج » نفسها ؟

نظر اليه « جيان ـ ين » فى اضطراب ، ولم يستطيع ادراك ما يعتمل فى نفسه ، فأجابه بلهجة عادية :

ـ لا أعرف · وأخشى أنه ليس هناك من يعرف ذلك ·· اكتشف أحد الخدم جثتها ·· فنادى بعض الخدم ، والتقطوها من مياه البحيرة ، ثم أبعدوها عن الدار ·· وهكذا كانت النهاية ·· هذه الحياة ، هذا العالم ما أقساهما !

نظر « جيا ـ خوى » الى وجه « جيان ـ ين » النحيف وقد شوهته سنوات طويلة من البؤس · أما وجه « جيا ـ من » فكان جامدا كالصخر ·· ترك « جيا ـ خوى » يد « جيان ـ ين » فى خشونة ، وابتعد دون أن ينطق بكلمة ، ثم انطلق يعدو الى الخارج·

قال « جيان ـ ين » فى قلق :

ـ ماذا به ؟

ـ أومأ « جيا ـ من » ·

ـ بدأت أفهم كل شيء ·

ـ أنت تفهم ، أما أنا فلا أعرف أى شيء ·

حنى « جيان ـ ين » رأسه وغرق فى أفكاره مرة أخرى وهو غاية فى الخجل والمسكنة ·

صاح « جيا ـ من » :

ـ ألا ترى أن الحب يكمن وراء كل ماجرى من أحداث ؟

لم يجب « جيان ـ ين » بشيء ·· وساد الغرفة الصمت ، سمع بالخارج وقع أقدام ، وخيل الى « جيا ـ من » أن هذه الأقدام تدوس على قلبه فى قسوة ·

مرت لحظات من السكون رفع بعدها « جيان ـ ين » رأسه

فى بطء · جالت عيناه الحزينتان فى أرجاء الغرفة ، وقال لنفسه فى صوت مرتجف :

ــ لقد ··· فهمت ····

نهض « جيا ــ من » وأخذ يزرع الغرفة جيئة وذهابا فى خطوات واسعة · وفجأة جلس على كرسى بجانب مكتبه ، وركز عينيه على وجه « جيان ــ يين » ·· التقت عيونهما وتبادلا بعض الأفكار الحزينة ، ثم خفض « جيان ــ يين » رأسه ·

قال « جيا ــ من » فى مرارة :

ــ الحب وراء كل ما يجرى ·· الأخ الثالث و «منج ــ فونج» ساورنى الشك فى أن هناك عاطفة تربط بينهما ·· من كان يدرى أن الأمور ستنتهى الى هذا ؟ لم يخطر ببالى حتى فى الأحلام أن «منج ــ فونج » على هذا القدر من قوة الارادة ! ·· وأسفاه ! كانت فتاة رائعة · آه لو أنها ولدت فى عائلة ثرية ·· !

لم يستطع « جيا ــ من » الاستمرار فى حديثه ، وانعكست انعالاته الداخلية على وجهه ·

ساد الصمت فترة ، وأخيرا قال فى صوت مضطرب :

ــ الحب ·· كل شىء فى سبيل الحب ·· لقد ازداد الأخ الكبير نحافة فى الأيام الماضية وتملكه اليأس ·· أليس الحب هو السبب ؟ كنت أعتقد أن الحب يجلب السعادة ، فلماذا يجلب على الناس هذا القدر من البؤس والشقاء ؟

تحدث « جيا ــ من » بصوت باك ، تذكر حبه وكادت الدموع تخونه ، انه يرى أمامه ظلالا سوداء ، فان ماحدث للأخ الكبير نذير مخيف بما قد يحدث له ·

الفصـل السادس والعشرون

سار « جيا ــ خوى » مطأطىء الرأس على حافة البحيرة ، كان يقف أحيانا ويتأمل سطح البحيرة الهادىء ، أو تنبعث من صدره تنهيدة طويلة ، ثم يستدير ويسير بخطوات واسعة فى اتجاه آخر . لم ينتبه الى اقتراب » جيا ــ من » .

خرج « جيا ــ من » من حديقة البرقوق ونادى :

ــ أخى الثالث :

توقف « جيا ــ خوى » ونظر اليه فى صمت .

اقترب « جيا ــ من » وسأله وقد بدا الانفعال واضحا فى نبرات صوته :

ــ تبدو متعبا فزعا .. أهناك ما يضايقك ؟

لم يجب « جيا ــ خوى » وســار مبتعــدا عنــه ، أسرع « جيا ــ من » باللحاق به وامســكه من كمه ثم قال فى صوت مرتعش :

ــ عرفت كل شيء ، لكن الأمور سارت على هذا النحو ... ما الذى بوسعنا عمله ؟ النسيان هو المخرج الوحيد .

أجاب « جيا ــ خوى » فى غضب وتطاير الشرر من عينيه :

ــ أنسى ؟ لن أنسى أبدا .. فى العالم أشياء كثيرة لايستطيع الانسان أن ينساها ... بقيت هنا طويلا أنظر الى ماء البحيرة . انه قبرها .. كنت أبحث هنا عن آخر أثر لها ، لكن المياه حرمتنى

رؤية أى شيء . يا للبشاعة ! كيف تبدو البحيرة فى هذا الهدوء بعد أن ابتلعت جسدها ؟

أبعد « جيا ــ خوى » فى جفاء يد أخيه المسكة به ، ورفع قبضته اليمنى ولوح بها فى عنف وتحد نحو مياه البحيرة الهادئة. لايمكن أن تمضى هكذا دون أن تترك أثرا . كل شجيرة صغيرة وكل ورقة نبات أخضر تحكى لى كيف أنهت حياتها .. لا أجرؤ على التفكير فيما كان يعتمل فى قلبها وهى تلفظ أنفاسها الأخيرة .. لكن ما باليد حيلة .. سأذكرها ما حييت ، فأنا قاتلها .. لكنى لم أقتلها بمفردى .. لقد شاركنى فى تلك الجريمة البشعة جميع أفراد عائلتى والمجتمع الذى نعيش فيه .

أمسك « جيا ــ من » بيد أخيه وضغط عليها ، وقال له فى ود :

ــ أنا أفهم مابنفسك ياأخى الثالث ، وأشاركك فى احساسك لقد شغلت فى الأيام الأخيرة بنفسى ومستقبلى وحبى ، أعترف أمامك بأننى أخطأت بذلك خطأ جسيما .. مازلت أتذكر تلك الأيام الخوالى ونحن أطفال صغار ، كنا نتعلم معا فى المكتبة على يد مربينا الخاص كنا نعمل كل شيء معا ، كان من ينهى دروسه أولا ينتظر أخاه . أمتدح الجميع هذا الشعور الأخوى الطاهر . ودام هذا بيننا عندما انتقلنا الى المدرسة الثانوية ، ثم الى مدرسة اللغات الأجنبية ، كنا نتعاون فى البيت فى اعداد دروسنا .. كنا دائما معا فى السراء والضراء ، لكنى فى الأشهر القليلة الماضية شغلت بشئونى وابتعدت عنك . لماذا لم تحدثنى من قبل عن « منج فونج » ؟ فلو كنا معا لاستطعنا عمل شيء . فاثنان أفضل من واحد .... أليس هذا شعارنا ؟

كانت هناك دموع تترقرق : فى عينى « جيا ــ خوى » فابتسم فى مرارة :

ــ مازلت أذكر هذا يا أخى الثانى ٠٠ لكننا تأخرنا كثيرا ، والانسان تخونه شجاعته عندما يكون وحيدا ٠ لم يخطر ببالى قط أنها ستمضى فى هذا الطريق ، كنت أحبها حبا طاهرا نقيا ٠٠٠ لكن كيف أتزوجها وسط هذه الظروف ؟ ربما كنت أنانيا فى حبى وربما اختلط على الأمر ٠٠ وعلى أية حال أعترف بأنى قاتلها ٠ لقد أنهت حياتها فى مياه البحيرة ، وذهبت فتاة أخرى الى عائلة « فونج » ، حيث تدفن شبابها أرضاء لشهوات كلب عجوز ٠٠ كيف أحيا فى سلام وهذه الأفكار تعذبنى ؟

ارتسمت على وجه « جيا ــ من » نظرة كراهية وندم ، وسالت الدموع على خديه تحت نظارته الذهبية ٠ وقال فى ألم :

تأخر الوقت ! ٠٠

ثم تعلق فى ذراع أخيه « جيا ــ خوى » بقوة ٠

سأل « جيا ــ خوى » فى نبرات مضطربة :

ــ أخى الثانى ٠٠ هل تتذكر ليلة الخامس عشر من الشهر الأول القمرى ؟

أومأ « جيا ــ من » برأسه فى صمت ، فاستمر «جيا ــ خوى» فى حديثه :

ــ كم كنا سعداء فى تلك الأمسية ! ٠٠ اننى أتذكر أحداثها وكأنها وقعت أمس ٠٠ لكن أين هى الآن ؟ ٠ صوتها ٠ وجهها ٠ أين أجدهما ؟ كانت واثقة من انقاذى لها ٠٠ لكنى تخليت عنها ٠٠ خانتنى شجاعتى ٠٠ كنت ألومكما أنت والأخ الكبير على سلبيتكما ولكنى الآن عرفت أننى لا أختلف عنكما ، نحن أبناء أب واحد وأم

واحدة ، ونشأنا فى عائلة واحدة ·· كلنا جبناء ·· اننى أكره الجميع ·· اننى أكره نفسى !

بلغ الانفعال «بجيا ـ خوى» حدا جعله يعجز عن الاستمرار، تهدج صوته واحترق جسده بنار حامية·كان لديه الكثير ليقوله، لكن الكلمات تعثرت فى حلقة · وانتفض قلبه بشدة وأخذ يضرب صدره بيده ، وعندما أمسك « جيا ـ من » بمعصمه منعه من ذلك وناضل بجنون ليخلص نفسه ، كان يتصرف بلا وعى ويقاوم مقاومة عمياء ·· وأخيرا تمكن « جيا ـ من » بجهد شـــاق من الامساك به ، ودفعه الى حديقة البرقوق بجوار الممر ·· وقف هناك مستندا الى شجرة ، وأخذ يشهق فى صعوبة ·

أحمر وجه « جيا ـ من » من الاجهاد ، ووقف ينظر الى أخيه باشفاق :

ـ لماذا تعذب نفسك الى هذا الحد ؟

دمدم « جيا ـ خوى » فى ذهول وقد تدلى رأسه على صدره، وأخذ يعصر يديه فى عصبية ·

ـ هذه العائلة ! ·· لن أطيق الحياة هنا بعد هذا ·

تغيرت تعبيرات وجه « جيا ـ من » · هم بالكلام ، لكنه لم يستطع ، تنقلت نظراته من «جيا ـ خوى» الى أشجار البرقوق ، وغرد طائر العقعق على غصن شجرة ، وشيئا فشيئا لمعت عينا «جيا ـ من» ، وعادت الابتسامة الى وجهه ·· كانت تلك الابتسامة مثقلة بالدموع · دموع سالت بعد ذلك على خديه · وسأل أخاه :

ـ لماذا لاتثق فى كما كنا فى الماضى ؟ كنت دائما تفتح لى قلبك لقد اقتسمنا الحلوة والمرة ·· لماذا لانكون اليوم كما كنا فى الماضى ؟

ـ كلانا قد تغير · أنت تستمتع بحبك على حين فقدت أنا كل شيء · ما الذى بقى لدينا لنقتسمه ؟

لم يقصد « جيا ـ خوى » جرح « جيا ـ من » بهذه الكلمات بل كان يفرج عن نفسه باطلاق بعض المشاعر المكبوتة ·· شعر « جيا ـ خوى » بأن هناك جثة مبللة تتساقط منها قطرات من الماء تفصل بينه وبين أخيه ·

فتح « جيا ـ من » فمه وهم باجابة أخيه فى انفعال ، لكنه ملك زمام نفسه ولم ينطق بكلمة ·· مرت فترة طويلة من السكون، وأخيرا قال فى توسل :

ألم تسامحنى بعد كل هذا ؟ ألا ترى كم أنا نادم على مافات؟ لنتعاون معا كما كنا دائما ، ولنشق طريقنا فى الحياة معا ، أعدك أننى لن أتخلى عنك ·

ـ وما جدوى هذا ؟ أنا لاأريد الاستمرار فى الحياة ·

ويبدو أن « جيا ـ خوى » قد استسلم وألقى سلاحه ··· ذهب عنه الغضب ، وبقى له اليأس ·

ـ أيمكن أن يكون هذا حديث « جيا ـ خوى » ؟ هل تتخلى عن كل شيء بسبب فتاة ؟ هذه ليست شيمك أو طباعك !

··· عاد « جيا ـ خوى » الى النقاش ··· تحاشى نظرات أخيه وقال فى هدوء :

ـ ليست هى السبب الوحيد لذلك ·

ثم أضاف فى غضب ·

ـ سئمت هذه الحياة ·

ـ ليس من حقك الحديث هكذا ·· نحن ما زلنا صغيرين ، ولا نعرف أسرار الحياة !

قال « جيا ــ خوى » وقد أحمر وجهه من الغضب :

ــ لنفرض أننا لم نر ما فيه الكفاية ! انتظر ! سنرى ماهو أشر وأنكد ! ••• هذا ما أتكهن به !

ــ أنت دائما تنفعل بعنف ! قضى الأمر وما باليد حيلة ! ألا تستطيع التفكير فى المستقبل ؟ انه لغريب حقا نسيانك لتلك الكلمات التى أحببناها دائما •

ــ أى كلمات ؟

ــ نحن ما زلنا فى مقتبل العمر ، لسنا حمقى ولا أغبياء •• وسنحقق السعادة لأنفسنا ••

التزم « جيا ــ خوى » الصمت ، عكست التعبيرات المتغيرة التى ظهرت على وجهه قسوة الصراع الذى يمزق عقله وقلبه ، تجهم وجهه وتحدث الى نفسه فى ألم :

أنا شاب •• ثم تساءل فى مرارة •• هل أنا شاب حقا ؟

وأخيرا قال فى اقناع •• نعم أنا شاب ! •• لاشك فى هذا ، مازالت دماء الشباب تجرى فى عروقى !

أمسك « جيا ــ خوى » بذراع أخيه ونظر فى عينيه ••• تلك اللمسة الحنون وتلك النظرة الثابتة أنبأت « جيا ــ من » بما فى قلب أخيه • فضغط على يد أخيه ليؤكد له ما بنفسه ••• رفرف الفهم والوفاق على حياة الشقيقين مرة أخرى •

خرج الشقيقان للنزهة فى تلك الأمسية بعد أن تناولا عشاءهما فى وقت مبكر • سارا على الطريق ، وناقشا فى حيوية مسائل كثيرة • كانت هذه هى المرة الأولى التى يستغرقان فيها فى حديث ودى منذ ستة أشهر •

في تلك الأمسية تجمعت في السماء سحب سوداء ، كان الجو باردا ، وقد سار في الطرقات الخاوية أفراد قلائل ، وبرغم ذلك وقف الخدم وحملة المحفات في مجموعات أمام بوابات بعض الدور يتحدثون في مسائل تافهة ·

قطع الشقيقان مسافة قصيرة الى أن وصلا الى دار محـــاطة بسور حجرى ، والى جانب البوابة كانت هناك لافتة خضراء كتب عليها ما يلى :

مكتب قانونى جاو كا ـ دنج

تساءل « جيا ـ من » :

ـ من الغريب أننا لم نأت هنا اطلاقا !

دخل الشقيقان زقاقا ضيقا متعرجا ، كان الزقاق مرصوفا بأحجار تؤلم أقدام السائرين · تدلت أفرع الأشجار الجرداء التى بداخل الدور على الجدران المبنية باللبن القائمة على جانبى الطريق· تناثرت أشجارالدردار هنا وهناك ، ولسوء الحظ كان وقتأزدهارها قد ولى ، ولم يبق سوى بعض أشجار الرمان الذابلة تحمل أفرعا خضراء قليلة ·

كانت تلك المنطقة من المدينة هادئة للغاية ، وكانت معظم البوابات الصغيرة السوداء مغلقة ، ونادرا ما يظهر منها انسان ·

لاحظ « جيا ـ خوى » السحب السوداء المتجمعة فى السماء فقال :

ـ لنعد · المكان هناكئيب للغاية ، يحتمل سقوط أمطار ·

قال « جيا ـ من » وقد سقطت قطرة من المطر على جبينه :

ـ انها تمطر فعلا ·

وأسرع الشقيقان فى سيرهما ·

قال « جيا ــ خوى » :

ــ يجب أن نسرع ، سينهال المطر بغزارة بعد أقل من دقيقة

ثم انطلق يعدو ٠

انطلق الشقيقان يعدوان فى الطريق ، لكن المطر انهال عليهما قبل أن يصلا دارهما ، وعندما وصلا كانا مبتلين تماما ٠

صاح « جيا ــ خوى » وهو خارج نافذة جناح الخادمات :

ــ « منج ــ فونج » ، أحضرى بعض الماء الساخن ٠

ــ أتنادى « منج ــ فونج » ؟ ٠٠٠ انها ٠٠ منع «جيا ــ من» نفسه من الاسترسال فى الحديث ٠

التفت « جيا ــ خوى » ونظر الى أخيه ، ثم تدلى رأسه على صدره ٠٠ وبعد لحظة نادى بصوت يائس :

ــ ماما خوانج !

وعندما أجابته قال لها :

ــ نريد أن نغسل وجوهنا ٠

دخل « جيا ــ خوى » غرفته فى اكتئاب ، خلع ثيابه المبللة وقد تحطمت معنوياته وخارت عزيمته ٠

حضرت ماما « خوانج » تحمل اناء به ماء ساخن ، وعندما شاهدت حالة الشقيقين أخذت تعنفهما وكادت تغلبها دموعها :

ــ لو كانت أمكما حية ترزق ما تركتكما على هذه الحال ، أستحلفكما بأمكما أن تعتنيا بأنفسكما ، لولاكما لتركت هذا المكان منذ زمن بعيد ، الآن رحلت « منج ــ فونج » ، ولم يبق سواى

لبرعاكما ، لا أعلم من سيهتم بأمركما اذا مت ، لقد تحول الماء الى طين . أنا لا أريد العيش فى هذه الدار أكثر من ذلك .

قالت الخادمة العجوز هذه الكلمات فى صوت حزين ، تأثر الشقيقان بحديثها ، ولم يجرؤا على الرد عليها حتى لا تبكى .

انتهت ماما « خوانج » من حديثها ، وبعد أن شاهدت انتهاء الشقيقين من تغيير ثيابهما تنهدت ، وغادرت الغرفة .

خرج « جيا ـ خوى » الى الحديقة وكان المطر قد كف عن السقوط وصار الهواء باردا منعشا ، توقف قليلا على السلم ونظر الى الأضواء المتألقة فى جنبات الدار ، ثم اتجه الى القاعة الرئيسة فسمع أصوات الصغار وهم يرددون دروس فلاسفة العهود الاقطاعية القديمة :

« .. يجب ألا يعيش الأطفال فى أفضل أقسام الدار ، ولايجلسوا فى منتصف المائدة ، ولا يسيروا فى وسط الطريق ..» انه صوت « جيا ـ أنج » .

« .. ان أقبح الجرائم وأبشعها هو خروج الصغار عن طاعة الكبار » ، انه صوت « جيا ـ تشوين » .

« اذا ضحكت فافعلى ذلك بسرعة ، لاترفعى صوتك وأنت غضبى ، عندما تجلسين لاتظهرى ركبتك ، وعندما تسيرين لاتجعلى جسدك يتمايل » انه صوت « شو ـ تشين » .

لم يستطع « جيا ـ خوى » احتمال ذلك ، فعاد من حيث أتى ، لكن الأصوات أخذت تلاحقه ، فوقف فى مكانه مكتئبا حزينا . تأمل ماحوله ، وساوره الشك فيما يرى ... كل مايراه أشباح

خاوية كاذبة ، وكل ما يسمعه مجرد أصوات خاوية كاذبة ....
وشعر بالضياع ، وفجأة وصل الى سمعه صوت أجش :

ـ هذا ما يسمونه التعليم !

اضطرب « جيا ـ خوى » ، والتفت فرأى « جيا ـ من » واقفا الى جواره ، أمسك « جيا ـ خوى » بذراع أخيه فى فرح وكأنه انسان تائه فى صحراء مهجورة التقى فجأة وصديق قديم ، تأثر « جيا ـ من » بهذا الاستقبال الحار .

وعاد الشقيقان فى صمت الى غرفتهما ، قلبان وحيدان وسط هذا العالم الواسع العظيم !

الفصل السابع والعشرون

ضاعت حادثة وفاة « منج ـ فونج » وزواج « وانر » فى دار عائلة « جاو » الواسعة الأرجاء وطواها النســـيان ، لم يكن لتلك الحادثة أى أثر على الحياة اليومية فى عائلة « جـــاو » ٠٠ ذهبت جاريتان ، فجلب السادة جاريتين عوضا عنهما ٠ أخذت « تشى ـ شيا » مكان « منج ـ فونج » ، وحلت « تسوى ـ خـــوان » محل « وانر » ٠ لم يحدث تغيير من ناحية العدد ، (أصبحت تشى ـ شيا نادلة فيما بعد ، فهى من فتيات الريف) ٠ و « تسوى ـ خوان » فى سن سيدتها « شو ـ انج » ، فقد بيعت بعد وفاة والدها وكان آخر ما تبقى لها من أقربائها ٠٠ كف الجميع بعد أيام قليلة عن مجرد ذكر اسم « منج ـ فونج » ، لكن ذكراها ظلت تبعث الألم فى قلب « شيار » و « جيانر » وماما « خوانج » وعدد قليل من الخدم ٠

لم يتحدث « جيا ـ خوى » عنها قط ٠٠ وبدا كأنه نسيها تماما ، لكنها تركت فيه جرحا لا يندمل ، لم يكن لديه سوى وقت قليل يبكيها فيه ، فقد وقعت عدة أحداث هامة شـــغلت معظم وقته ٠

بعد صدور العدد السادس من مجـــلة « الفجر » ، ظهرت اشاعات بأن المسئولين ينوون اغلاق تلك المجلة الاسبوعية التقدمية، وقيل : إن جمعية الآداب الكنغوشيوسية وراء هذا الاجراء ، أثارت هذه الأنباء « جيا ـ خوى » ورفاقه ، لكنهم بما اكتسبوا من خبرة لم يبالغوا فى خطورة تلك الأنباء ، بالاضافة الى أنهم لم يصدقوا

أن الجنرال «تشانج» الحاكم الجديد سيسمح لمساعديه بالقيام بمثل هذا العمل ٠

ظهر العدد السابع في موعده ، وانضم الى المجـــلة بعض المشتركين الجدد ٠ استأجرت المجلة غرفة فى الطابق العلوى فى بواكى السوق لتلتقى فيها أسرة تحرير المجلة كل ليلة ٠ وفى أثناء النهار ــ ما عدا يوم الأحد ــ كانوا يغلقون الباب ، فلم يعرف أحد أن « جيا ــ خوى » يتردد على هذا المكان كثيرا ، وبرغم وجود مكتب « جيا ــ شن » فى نفس المكان فانه لم يعرف أن أخاه يتردد على هذا المكان ٠

شغلت معظم المشروعات الهامة الطابق الأرضى من البواكى ، لذا بقيت معظم الغرف العلوية خاوية ، لم يكن هناك جيران لمكتب المجلة ، فمعظم المحال المحيطة به خالية ٠

كان يذهب كل ليلة اثنان أو ثلاثة من الطلبة لفتح الأبواب وانارة المكان وتنظيم المكتب ، ثم يأتى بعدهم نحو ستة من الطلبة ، ومعظم المشتركين من الرجال ، وان تردد عليهم فى أوقات متباعدة بعض الفتيات أمثال « شو ــ جيان ــ رو » ٠ فكانوا يجلسون معا ويتحدثون ٠٠ يتحدثون فى أى شىء لا يستطيعون الحديث فيه فى بيوتهم ٠٠ فهنا يتحدثون بلا قيود ٠٠ ويضحكون كما يحلو لهم ٠٠٠ كان المكتب ناديا لهم ٠

دأب « جيا ــ خوى » على الذهاب الى المكتب ، وكان يصحبه فى بعض الأحيان « جيا ــ من » ، وكان « جيا ــ خوى » يحضر بصفة دائمة يوم الثلاثاء من كل أسبوع ، حيث ان المجـــلة تطبع صباح الأربعاء ، ويقوم « جيا ــ خوى » مساء الثلاثاء مع زملائه « تشانج ــ خوى ــ رو » و « خوانج تسون ــ رن » بمراجعـــة النسخة النهائية ٠

أعدت مسودة العدد الثـــامن للطبع فى اليوم التـالى لوفاة « منج ـ فونج » • فى تلك الأمسية ذهب « جيا ـ خوى » الى المكتب كعادته ، فوجد « شو ـ جيان ـ رو» تقرأ فقرة من جريدة بصوت مرتفع لبقية زملائها ، احتوت تلك الفقرة على اعلان من ادارة البوليس تحرم فيه على الفتيات تقصير شعرهن ، وتعتبر الشـــعر القصير اسرافا فى المدنية ونوعا من التمرد •

قذفت « جيا ـ رو » بالجريدة فى غضب ، وألقت بنفسها على أحد الكراسى •

واقترح « تسون ـ رن » فى سخرية :

لماذا لا نطبع هذا الاعلان كما هو فى العدد التالى ؟ •

واستصوبت « جيان ـ رو » رأيه ، ووافق الآخرون ، ثم اقترح « خوى ـ رو » كتابة مقالة انتقـــادية مع الاعلان ، فطلب منه الحاضرون كتابة تلك المقالة بنفسه ، لكنه أسند هذا العمل الى « جيا ـ خوى » • ووجد « جيا ـ خوى » فى هذا العمل مخرجا للحرارة والألم الكامنين فى قلبه بسبب موت « منج فونج » ، وأمسك بقلمه ، وأخذ يكتب دون أن ينطق بكلمة واحدة •

انتهى « جيا ـ خوى » من كتابة المقالة فى لحظات قليـــلة ، كانت مقالة قصيرة قام بقراءتها لرفاقه•وافقوا جميعا عليها، وأدخل « تسون ـ رن » عليها بعض التعديلات ، ثم أعلن أن المقالة ستحدث ضجة حقيقية •

أجابه « خوى ـ رو » :

ـ فليكن ! الصوت القوى هو الأفضل ! •

ظهر العدد الثامن من مجلة الفجر صباح الأحد ، وفى المساء قام « جيا ـ خوى » و « جيا ـ من » بزيارتهما المعتـــادة لمكتب

« جيا ـ شن » ، لكنهما لم يبقيا طويلا • تسلل « جيا ـ خوى » الى مقر المجلة ، فوجد هناك « خوى ـ رو » و « وتسون ـ رن » وثلاثة آخرين ، فسألهم عن توزيع المجلة • فأخبروه أنهم مروا ببعض مراكز التوزيع ، وعلموا أن الأعداد نفدت بمجرد ظهورهـــا فى السوق •

قال « تسون ـ رن » فجأة « لجيا ـ خوى » :

ـ أنت لم تدفع حصتك •

تحسس « جيا ـ خوى » جيوبه وقال معتذرا :

ـ سأفعل هذا غدا ، لم أحضر معى نقودا •

ابتسم « تسون ـ رن » :

ـ غداً على الأكثر •

اتجه « خوى ـ رو » اليهما ، وقاطعهما قائلا فى سخرية :

ـ انه بارع فى ابتزاز الأموال من النـــاس ، كان يلاحقنى أيضا ، غادرت منزلى هذا الصباح بعد أن ارتديت معطفى المبطن • اعتقدت أختى أننى جننت لارتدائى هذه الثياب الثقيلة فى هـذا الطقس •• لكننى تمسكت برأيى وادعيت أننى أشعر بالبرد ثم خرجت •••

ضحك الجميع وشاركهم « خو ـ رو » فى ضحكهم واستمر قائلا :

لقد استويت فى الشمس وأنا أرتدى هذا المعطف ، ولحسن الحظ لم يكن محل الرهون بعيدا عن منزلنا ، تركت المعطف هناك وشعرت بالانتعاش والرشاقة عندما خرجت من المحل ، وبهـــذا تمكنت من دفع حصتى ! •

سأله « جيا ـ خوى » :

ـ ماذا ستقول لأختك عندما تعود الى البيت ؟ ٠

ـ لقد أعددت لها الجواب : سأقول لها : لقد شعرت بأن الجو حار فعلا ، وتركت معطفى فى منزل أحد الأصدقاء ٠ واذا لم تصدقنى فسأخبرها بالحقيقة ، فربما تعطينى نقـــودا لأفك رهن المعطف ! ٠

ضحك « جيا ـ خوى » :

ـ أنا معجب بثبات أعصابك ٠٠ وقبل أن ينتهى « جيا ـ خوى » من حديثه اقتحم المكان رجال البوليس ٠

سأل كبيرهم ذو الشارب ٠

ـ هل لديكم نسخ أخرى من العدد الأخير ؟ ٠

سلمه « تسون ـ رن » نسخة وقال له :

ـ ثمن النسخة ثلاثة قروش ٠

قال رجل بوليس آخر أصغر منه :

ـ لم نأت لنشتريها ، لدينا أوامر بأخذ هذه الأعداد ٠

ثم التقط رزمتين من المجلات كانتا موضوعتين على الأرض ٠
قال كبيرهم فى لهجة عادية :

ـ ستضطرون للذهاب معنا الى القسم ، ليس من الضرورى حضوركم جميعا ٠٠ يكفى اثنان ٠

تبادل الشبان الصغار النظرات فى اضـــطراب ، ثم تقدموا جميعا وكل منهم مصر على الذهاب ٠

قال كبيرهم وقد أصيب بخيبة أمل :

ـ هذا زائد على الحاجة ‥ نريد اثنين فقط ٠

وأخيرا اختـــار « خوى ـ رو » و « جيا ـ خوى » ٠ غادر الاثنان الغرفة فى رفقة رجال البوليس ، وتبعهم الآخرون ، وعندما وصلوا الى بداية السلم غير كبيرهم رأيه ، وقال « لجيا ـ خوى »:

ـ انسيا هذه المسألة ، نحن لا نريدكما كذلك ‥ يمكنكما العودة ٠

احتج « خوى ـ رو » فى عنف :

ـ ما الخبر ؟ بأى حق تصادر مجلتنا ؟ ٠

قال رجل البوليس الصغير فى أثناء نزوله على السلم ممسكا بالمجلات :

نفذنا الأوامر ٠

هم كبيرهم باللحاق به ، لكنه توقف ليقدم للفتيان الصغار نصيحة ودية :

ـ مازلتم صغارا ولا تفهمون أمورا كثيرة ٠ من الأفضل الانتباه لدراستكم ، لا تصدروا أية مجلات وتتدخلوا فيما لا يعنيكم ٠

ثم نزل على السلالم فى بطء ، وعاد الفتيان الى المكتب ٠

اندمج الجميع فى مناقشة حامية، لم يتفق اثنان على رأى،وبينما هم يندمجون فى النقاش وصل رجل بوليس آخر أحضر معه خطابا من المسئولين عن الشرطة ، كان الخطاب مهذبا بطريقة غير عادية ، لكنه حازم للغاية :

« نظرا لأن مجلتكم تحمل الكثير من عوامل التحريض والاثارة مما يسبب الاخلال بالنظام والأمن العام نأسـف لابلاغكم بضرورة الامتناع عن المجلة فورا ‥ » ٠

وهكذا انتهت حياة مجلة الفجر ..

ساد الغرفة صمت حزين . كان هذا الاعلان ضربة قاسية للشبان الصغار ، لقد بذلوا الكثير فى سبيل المجلة ، قامروا بأموالهم القليلة محاولين ايصال شعاع من النور الى الرجل المتوسط . لقد خلقت بينهم زمالة العمل الصداقة المتينة النقية والألفة ... انتهى كل شيء بعد شهرين فقط .

صاح « خوى ــ رو » :

ــ فهمت الآن .. انهم جميعـــا منافقون ! الحاكم الجـــديد لا يختلف عن سلفه !

وقف « تسون ــ رن » وأخذ يهرش فى شعره بضيق :

ــ القوى الرجعية لها جذور قوية عميقة ، لا فائدة من انتصار الخير على يد الحاكم «تشانج» . فعشرة من أمثاله لن يغيروا أى شيء !

استأنف « خوى ــ رو » حديثه :

ــ ما أعنيه أن كل حديثه عن رغبته فى التغيير مجرد كذب ورياء ، والشيء الوحيد « الجديد » الذى قام به هو استئجاره رجلين تعلما فى الخارج جعلهما مستشارين له ، وانتقاء بعض الطالبات وجعلهن محظيات ! .

قال « تسون ــ رن » :

ــ « لكنه فى العام الماضى قبل أن يحتل منصبه دعا بعض شخصيات ذات أفكار تقدمية من شنغهاى ونانكين للحضور والقاء بعض الأحاديث .

ضحك « خوى ــ رو » فى استخفاف :

ــ أنسيت خطبته التى ألقاها فى حفلة الترحيب بهم ؟ كتب

سكرتيره الخطبة كلها ، لكنه لم يحفظها جيدا ، فجاءت المعـــانى عكس ما هو مكتوب فى الأصل ! •

التزم « تسون ـ رين » الصمت • أما « خوى ـ رو » فان ثورته لم تنجح لا فى حل المشكلة التى تواجههم ، ولا فى التخفيف من حدة غضبه ، لقد كان لديه الكثير يود قوله لهذا العالم •

اقترح « خوى ـ رو » :

ـ لنغير اسم المجلة ونصدر مجلة أخرى لها نفس الاتجاه ! لن يعوقنا شيء !

خرج « جيا ـ خوى فى صمت وقال :

ـ أنا على استعداد للقيام بذلك •

رفع « تسون ـ رن » رأسه ، وقال بعـــــد أن تدبر الأمر طويلا :

ـ لكن علينا تنسيق تحركاتنا فى حرص •

ثم بدأ الفتيان نقاشا طويلا ، وانتهوا فى هذه المرة الى قرار •• اتفقوا على ارسال منشور الى المشتركين يبلغونهم فيه بايقاف اصدار مجلة « الفجر » ، وفى نفس الوقت أعدوا اعلانا عن مجلتهم الجديدة • وحولوا المكتب الى مكتبة عامة يمكن أى شاب أن يتبرع لها بالكتب والمجلات التقدمية ، كما يمكن أى انسان الحضور اليها للقراءة ، بالأجر أو بالمجان •• فهذا سيساعد على نشر الثقافة الجديدة •

بدأ الجميع العمل مبعدين اليأس عن قلوبهم بعد أن خططوا برامج جديدة •• ما أروع الحمـاس فى جلاله وعظمته ! لقد مكن هؤلاء الفتيان من تذليل كل الصعاب فى لحظات قصيرة • وفى اليوم

التالى انتهوا من اعداد قاعة المطالعة ·· وبعد يومين آخذ العمل فى اعداد المجلة الجديدة « من أجل الجماهير » يتقدم باطراد ·

لم يكن هناك دراسة يوم الثلاثاء ، فقد بدأت فترة الامتحانات· حضر «جيا ــ خوى» و «جيا ــ من» حفل افتتاح قاعة المطالعة الجديدة، ثم عادا الى دارهما لتناول الطعام ، وشعر « جيا ــ خوى » بسعادة غامرة لم يذق مثلها طوال حياته ، الكلمة الحلوة ·· والضـــحكة الصافية ·· والصداقة الطاهرة ·· والثقة ·· أشياء جميلة رفرفت فى جو الاحتفال كان لها سحر وجمال فريد فى نوعه · حضر الحفلة اثنا عشر شابا ، كانوا جميعا أسرة واحدة ·· لم تربط بين أفرادها صلة اللحم والدم ، بل ربطت بين أفرادها النيات الحميدة والمثـــل العليا ·

فى أثناء الحفلة قال « جيا ــ خوى » لأخيه فى انفعال :

ــ ما أجمل الحياة لو كانت دائما هكذا ! ·

فأومأ « جيا ــ من » فى تأثر موافقا على رأى أخيه ·

تحدث الشقيقان عن أشـــياء كثيرة فى طريق عودتهما الى البيت ، كان قلب « جيا ــ خوى » عامرا بالدفء واشراقة الأمل ·· لكنه منذ وطئت قدماه بهو العائلة سقط قلبه فى هوة عميقة باردة مظلمة ، فهو الآن فى عرين المجتمع القديم بظلامه وعمقه ·· وفى الواقع لم يكن فى الدار انسان واحد من الجيل الجـــديد يستطيع « جيا ــ خوى » الحديث معه ·

قال « جيا ــ خوى » فى ألم :

ــ ياله من مكان كئيب !

وازداد احساسه بالمرارة ·

حملت الوجوه المتراصة حول مائدة الطعام فى تلك الأمسية سمات الصرامة والاكتئاب ٠٠ اشتكت زوجة أبيه من النزاع القائم مع العمة « تشين » ، والعمة «وانج» ، بينما أخذت العمة «وانج» تؤنب وتؤدب جارتها «جيانر» ٠ أما العمة « شين » والسيدة « تشين » فكانتا تتبادلان السباب فى الفناء ٠

انتهى « جيا ـ خوى » من طعامه بعد لحظات قليلة ، ثم ألقى بعصيه ، وانطلق هاربا وكأن شبحا مخيفا يطارده ٠

فى تلك اللحظة غادر « جيا ـ من » قاعة الطعام ولحق بشقيقه وسأله فى اهتمام بعد أن شاهد تلك النظرة المجنونة المرتسمه على وجهه :

ـ الى أين ؟

ـ سأجول قليلا ، أشعر بضيق ٠

قال «جيا ـ من» فى هدوء ٠

ـ حسنا لكن لا تغب طويلا فالامتحانات تعد غد ومن الأفضل مراجعة دروسك ٠

أومأ «جيا ـ من » موافقا ، ثم ذهب الى الحديقة ، وأحدثت المناظر الخلابة أثرها فى نفسه ودفعت الى قلبه بشىء من السكينة تمهل فى سيره تحت ضوء القمر ٠

وانبعثت أصوات حزينة ، غلفت الورود المكان بشذاها العطر بدا كل شىء ساحرا خداعا فى جمال ودلال ٠٠ وكأن السائر فيه طائر فى عالم الأحلام ٠

وشيئا فشيئا هدأت نفس « جيا ـ خوى » ٠ تمهل فى خطاه مستمتعا بسحر الطبيعة الخلاب سائرا فى نفس الطريق الذى ساروا فيه يوم نزهتهم فى القارب ٠

ثم توقف « جيا ـ خوى » على الجسر ، وانحنى فوق سوره ونظر الى ظله الأسود المنعكس فوق سطح الماء ٠

كانت البحيرة فى زرقة السماء يتلألأ فى أحشائها قمر لم يكتمل بعد ، وفجأة ظهر وجه جميل فى ماء البحيرة الساكن ٠٠٠ وجـه يحبه ٠٠٠ جفل « جيا ـ خوى » ، وأشاح بوجهه هاربا منكسرا ٠

وصل «جيا ـ خوى» الى حافة البحيرة ، فرأى القارب مربوطا الى شجرة الصفصاف ٠٠ أثار ذلك ذكريات ٠٠ أسرع بعبور الجسر مرة أخرى وعاد الى الشاطىء المقابل ٠

وسار « جيا ـ خوى » بالقرب من الشاطىء فى الممر المتاخم لأشجار الأرز حتى وصل الى استراحة البحيرة ، فهـم بالدخول ليستريح قليلا ، لكنه لحظ وميض نار ينبعث من خلف تل صناعى فصرخ فى فزع ٠

وقف « جيا ـ خوى » بجوار احدى شجرات المنوليا ليرقب تلك النار ، كان هناك لهيب مستمر ثابت لايزداد ولا ينقص ٠٠ استجمع شجاعته وتقدم فى هدوء ليعرف حقيقة الأمر ٠

دار حول التل الصناعى ، فلم يجد شيئا ، كانت النيران تنبعث من خلف تل آخر ، فواصل تقدمه ٠٠ شاهد خلف التل الثانى فتاة تركع على ركبتيها فوق الأرض ٠٠ كانت الفتاة تحرق عمـلات من الورق الذهبى والفضى ٠ سـأل « جيا ـ خوى » بصوت مرتفع :

ـ ماذا تفعلين هنا ؟

فجفلت الفتاة الطويلة القامة ، وهبت واقفة على قدميها ، وعندما تعرفت عليه حيته فى احترام :

ـ آه ٠٠٠ ! سيدى الفتى الثالث !

انها الجارية « جيانر » التى تعمل فى الأسرة الرابعة ٠ قال « جيا ـ خوى » :

ـ أأنت ؟ كدت أموت خوفا ، لماذا تحرقين نقودالقرابين‌هنا ؟

ـ أرجوك ألا تخبر أحـــدا بذلك ياسيدى الفتى الثالث ، ستؤنبنى سيدتى اذا علمت بذلك ٠

ـ لكن ٠٠٠ لماذا تفعلين ذلك ؟

نكست الفتاة رأسها ٠٠ اليوم ٠٠ هو اليوم السابع لوفاة «منج ـ فونج» ٠٠ لقد ماتت ميتة حقيرة ٠٠ لذا فكرت فى ارسال قليل من النقوداليها حتى لاتتاسى من الجوع والبرد فى العالم الآخر!

وكادت الدموع تسيل على خديها ٠

قال « جيا ـ خوى » :

ـ استمرى ، لن أخبر أحدا بذلك ٠ ثم ضغط بيده على صدره ٠٠ فالألم فى قلبه ٠٠ راقب الفتاة فى جمود وهى تحرق النقود ، لم تستطع الفتاة أن تدرك شيئا مما يعتمل فى نفسه ٠

سأل « جيا ـ خوى » :

ـ لماذا تحرقين كومتين ؟

ـ هذه لوانر ٠٠

ـ وانر ؟

ـ لقد طلبت منى ذلك ٠٠ فعندما رحلت فى محفة الزفاف قالت لى ٠٠ سأموت ان عاجلا أو آجلا ٠٠ وحتى اذا عشت فستكون حياتى أسوأ من مماتى ٠ عندما تحرقين نقودا « لمنج ـ فونج » ، أرجو أن تحرقى بعضها من أجلى ٠٠٠ وهذا هو ما أفعله الآن ٠

سمع «جيا ـ خوى» صوتها الباكى يذكره بالحادثتين الأليمتين لاشك أنه لم يكن فى مقدوره اطلاقا السخرية من هذه الشعائر الخرافية ٠٠ من المؤكد أنه لايستطيع ! ٠٠٠ حاول « جيا ـ خوى » السيطرة على مشاعره ٠٠٠

ـ احرقيها ! ··· ان ما تفعلينه عين الصواب ! ··

ترنح « جيا ـ خوى » مبتعدا ·· ولم يجرؤ على القاء نظرة أخيرة على هذا المشهد ، وتساءل :

ـ لماذا يحتوى عالمنا هذا القدر الهائل من البؤس والشقاء ؟

أخذ الفتى يربت قلبه المحترق بنار الألم والندم ، ثم خرج من الحديقة ·

مر « جيا ـ خوى » بمسكن « جيا ـ شن » ، وشاهد النور ينبعث من نوافذه ، وسمع أصواتا آدمية دافئة، وتذكر ماقاله مدرس اللغة الفرنسية يوما ما :

ـ فى فرنسا لايعرف الفتيان الذين هم فى مثل سنكم معنى المأساة ·

لكن « جيا ـ خوى » شاب من الصين ·· وهو على جانب كبير من الخبرة فيما تعنيه تلك الكلمة ·· المأساة !



الفصل الثامن والعشرون

بدأت أجازة الصيف ، وأتيحت « لجيا ـ من » فرص كثيرة للقاء « تشن » ، وأتيح « لجيا ـ خوى » مزيد من الوقت ليقضيه في الحديث والعمل مع أصدقائه من الشباب ‥ تجدد العزم فى قلوب الفتيان ، وأصدروا مجلة جديدة وكسبوا مزيدا من القراء • وسارت الأمور على مايرام •

وهذا الصيف سيشهد الاحتفال بحدث كبير فى عائلة «جاو» عيد الميلاد السادس والستين لرأس العائلة الشيخ المبجل «جاو»•

بدأت الاستعدادات لتلك المناسبة في وقت مبكر ، تقرر اقامة مهرجان كبير احتفالا بتلك المناسبة السعيدة • أعتمد مبلغ كبير من ميزانية العائلة للاحتفال بهــذه المناسبة بناء على اقتراح العم « كا ـ دنج » المشرف على حسابات العائلة • وبرر « كا ـ دنج » اقتراحه بما يلى :

ـ اننا نجمع مبالغ طائلة من الايجارات كل عام ، ولدينا مال وافر لانعرف كيف ننفقه ؟ • واذا أنفقنا باسراف فى هذه المناسبة فلن يكون لذلك أى أثر على وضع العائلة المالى ، وبطبيعة الحال ستنتهز كل العائلات الثرية هذه الفرصة المناسبة لتظهر ثراءها •

اقترب موعد الاحتفال ، وانهالت الهدايا على الشيخ المبجل « جاو » كسيل لاينقطع ، أقيم مكتب خاص لتلقى تلك الهدايا وتحرير الدعوات ، زينت الحديقة بالفوانيس والرايات ، وزيد عدد المصابيح الكهربية كما تم انشاء مسرح فى القاعة الرئيسة

واستؤجر كذلك أفضل الفنانين فى المدينة ليحيوا السـهرات فى الدار ثلاثة أيام متتالية ، اختار «كا ـ دنج» الروايات التى ستقدم فهو رجل خبير فى تلك الأمور ٠

شغل الجميع بهذا الحدث ماعدا «جيا ـ من» و «جيا ـ خوى» فقد كانا يقضيان معظم وقتهما خارج الدار ، لكنهما اضطرا مرغمين على الاقامة بالدار فى أيام الاحتفال الرسمية الثلاثة ٠

كانت تلك الأيام الثـلاثة تجربة جـديدة بالنسبة لهما ، فبالرغم من كراهيتهما لدارهما فانهما ألفا مابها ، لكن الظروف تغيرت فى أثناء الاحتفال ٠٠ لقد تحولت الدار الى شىء غريب تماما أصبحت كمسرح أو سـوق مزدحمـة بالناس والضجيج ، مملوءة بوجوه متجهمة ٠٠ حتى غرفتهما لم تسلم من هذا الاحتفال ، فقد احتلهـا ضيوف لايعرفونهم سوى معرفة سطحية ٠٠ هنا فرقة تعزف موسيقى تحية عيد الميلاد، وهناك مجموعة ثانية تغنى أشعارا ماجنة بمصاحبة الكمان ، وتلك مجموعة ثالثة من الرجال والنساء تغنى خلف ستارة بأصوات مملوءة بالتعبيرات الشهوانية لايسمح للصغار بسماعها ٠

بدأت فى الليلـة الأولى الروايات الغنائيـة ، أديت بعض أوبرينات أعياد الميلاد ، وفيما عدا ذلك كان جميع ما قدم عبارة عن مقطوعات تحتاج الى مهارة فائقة وأداء رقيق ٠ وجميع هـذه المقطوعات لم تكن ضمن البرنامج أصلا ، ولكنها كانت تطلب بصفة خاصة بناء على رغبات بعض الشخصيات البارزة من الضيوف ، وبعد أن تؤدى الفرقة فقرة تثير الخجل فى نفوس الصغار والنساء على حين يضحك الكبار ضحكات مفتعلة سخيفة يظهر خادم على المسرح ويقـرأ بصوت جهورى قطعـة من الورق الأحمر الخـاص بالاحتفالات ٠ « السيد الفاضل ٠٠٠ يحيى السيد الفاضل ٠٠

ويهدى الى الممثل مبلغ ·· ويقوم الممثل المحظوظ « وغالبا ماتكون احدى الممثلات » بشكره على صنيعه ، فى حين يكون الضيف الكريم جالسا وهو راض منتفخ الأوداج !

لم يكتف الضيوف المحترمون بذلك ، فعندما تنتهى احدى الفقرات تضطر الممثلة التى منحت المبلغ الى النزول الى مائدة ذلك الضيف وتشاركه فى الشراب ، ويقوم السادة المحترمون بمداعبة الممثلات وصب الخمر لهن ، ويتصرف السادة المحترمون بسوقية سمجة تصدم الصغار وتثير الكثير من التعليقات الهامسة بين الخدم ·

جلس السيد المبجل « جاو » ـ نجم الحفل المتألق ـ فى المقدمة · كان ينظر الى مايجرى حوله نظرة سريعة ويبتسم ، ثم يواصل النظر الى المسرح والاستمتاع بالفرجة على الممثلات القريبات الى قلبه ·

ويقوم « كا ـ منج » وشقيقاه بالمرور بين الضيوف لتلبية رغباتهم فى اهتمام بالغ ، كما سار « جيا ـ شن » فى ركابهم ·

دفع كل ما فى الحفل السأم والملل الى نفس « جيا ـ من » و « جيا ـ خوى » ، شعر الشقيقان أنهما غريبان وسط أفراد عائلتهما ، وبدا لهما أولئك السكيرون المعربدون مخلوقات شاذة ، كانت بعض الوجوه مألوفة لهما ، لكن الشقيقين تأملا تصرفاتهم فساورهما الشك : هل هم نفس الأشخاص الذين يعرفونهم من قبل ؟ تملكهما احساس شديد بالغربة ، وبرغم ذلك لم يسمح لهما بمبارحة المكان ·فهما من الناحية النظرية يقومان بدور المضيف ·· كانا « تكملة عدد » ، فقد وضع الشقيقان على احدى الموائد مع بعض الضيوف الصغار الشأن ليبتسما ويشربا ويأكلا كالآت تتحرك لا كبشر !

صدم « جيا ــ خوى » بما يحدث منذ اليوم الأول للاحتفال، وفى أثناء الليل انتابته أحلام مزعجة • وكان اليوم الثانى أسوأ من سابقه ، بقى خارج الدار من الظهيرة حتى المساء ، ضحك منه أصدقاؤه الشبان الذين زارهم فى بداية الأمر ، ثم أخذوا يواسونه بعد ذلك ، وأخيرا ــ على حسب قول « جيا ــ خوى » نفسه ــ استجمع شجاعته وعاد الى داره ليواجه اهانات جديدة ، غير أنه لم يتمكن من الهرب فى اليوم الثالث •

حضرت « مى » مع أمها ، لكنهما انصرفتا فى وقت مبكر لمرض « مى » ، لقد ازدادت « مى » نحافة ، وبالرغم من أن حالتها لم تكن غاية فى السوء فان ذوى المشاعر الطيبة تأثروا للحالة التى تردت اليها ، فقد أدركوا أن هذا نذير بأفول نجم حبيب الى قلوبهم •

ان دار « جاو » ليس بها سوى القليل من ذوى المشاعر الطيبة الحساسة ، ولكن من المؤكد أن « جيا ــ شن » ضمن تلك القلة الطيبة ، كان أشد الجميع اهتماما بما آلت اليه « مى » ، لكن هناك حواجز خفية تفصل بينهما ، أو على الأقل اعتقد « جيا ــ شن » ذلك ، كان فى امكانهما تبادل النظرات عن بعد فى حديث صامت • تحاشيا كل الفرص التى قد تجمع بينهما فى حديث خاص واهمين أنهما بهذا سيقللان من عذابهما ، لكن النتيجة كانت عكس ذلك تماما ! أخذ عود « جيا ــ شن » يذوى وازدادت صحة «مى » سوءا ، وبدأت تبصق دما •

و « مى » حبيبة الى قلب السيدة « تشوو » ، لكنها لم تكن تعلم ما بقلب « مى » فلم تقدر على مواساتها ، وفى الواقع لم يكن هناك انسان يستطيع مواساة « مى» ، حتى « روا ــ جيا » التى أحبت «مى » وفهمتها جيدا •

حضرت « تشـــن » الحفلة ، وعادت أيضـــا الى دارها بسبب المرض ، لكن مرضها كان مرضا مصطنعا ، اذ أرسلت سرا فى اليوم التالى رسالة الى « جيا ـ من » تدعوه لزيارتها ٠

تسلل «جيا ـ من» من الدار فى أول فرصة أتيحت له، وتحدث مع « تشـــن » حديثـــا طويلا ، وفى طريق عودتـــه الى داره تملكته سعادة غامرة ، وقابله « جيا ـ شن » فى مدخل القاعة الرئيسـة ٠ وفوجىء « جيا ـ من » « بجيا ـ شن » يسأله :

ـ كنت مع « تشن » ، أليس كذلك ؟

أومأ « جيا ـ من » فى صمت ٠

قال « جيا ـ شن » فى صوت هامس وعلت شفتيه ابتسامة واهيـــة :

ـ رأيت خادمها يسلمك رسالتها ، مرضها غـــير حقيقى وأنا أعلم كل شىء عنكما ٠٠

ولم ينطق « جيا ـ من » بكلمة ، وابتسم بدوره ، لكنها كانت ابتسامة رضا ٠

شاهد « جيا ـ شن » عمه « كا ـ دنج » قادما نحوهما فتبادل « جيا ـ شن » وعمه كلمات قليلة ، وعندما انصرف العم استأنف حديثه مع « جيا ـ من » :

ـ أنت فرح مسرور ، أليس كذلك ؟٠٠ أنت تفعل ماتريد ٠٠ وأنا أريد أيضا زيارة انسان مريض ، لكنى لست حرا ٠٠ انهـــا تقاسى من المرض بشدة ، وأعلم أنها فى حاجة الى ٠٠

وظهر على وجه « جيا ـ شن » تعبير غريب ٠٠ هل هو ابتسامة أو تقلصات ألم دفين ؟ ٠٠

تأثر « جيا ـ من » ولم يعرف ما يجيب به أخاه ، وأخيرا قال فى اندفاع أخرق :

ـ لماذا لا تنسى « مى » ؟ أنت تعذب نفسك •• أو نسيت « روا » ؟ أنت تحبها أيضا ، أليس كذلك ؟••

شحب وجه « جيا ـ شن » وأخذ ينظر الى أخيه فى صمت •• وفجأة اجتاحته نوبة من الغضب ••

ـ وأنت أيضا تريدنى أن أتخلى عنها ؟ أنت كالآخرين ولا تختلف عنهم فى شىء •• مازال فى امكانك الحديث بكل « بساطة » فى وقت كهذا ••

ثم اندفع مبتعدا عن أخيه ••

أدرك « جيا ـ من » أن حديثه لم يلق صدى طيبا فى قلب أخيه •• ولكن بماذا يجيبه ؟ •• ان « جيا ـ شن » يقول شيئا ويفعل نقيضه •• لم يستطع « جيا ـ من » تفسير التناقض بين حديث « جيا ـ شن » وتصرفاته ؛ ولهذا السبب بدت عائلة « جاو » فى نظره لغزا غامضا •

نظر « جيا ـ من » الى المسرح ، فوجد مهرجين : أحدهما طويل والآخر قصير يؤديان فى ميوعة حوارا رقيقا ، أطلق الضيوف ضحكات مجنونة عند بعض التلميحات القذرة • فعل ذلك جميع الضيوف المحترمين ونصف المحترمين وغير المحترمين •• وضحك « جيا ـ من » أيضا ، لكن فى مرارة وسخرية ••

نسى « جيا ـ من » أخاه الكبير ، وأخذ يدور مرتبكا فى مكان ضيق وعقله مشغول بشئونه الخاصة ، فلآول مرة فى حياته يبدو المستقبل أمامه مشرقا براقا ••

وبطبيعة الحال كانت « تشن » وراء هذا التفاؤل : لقد أعطته

« تشن » الشجاعة والثقة ، وأوضحت له أنها لن تخيب آماله وأنها تثق به ، فأخذت علاقتهما تنمو فى هدوء ٠

كان الحديث قد تطرق بهما الى موضوعات عامة فى أثناء دراسة اللغة الانجليزية ٠٠ وشيئا فشيئا دار بهما الحديث الى شئونهما الخاصة ، وأصبح كلاهما يفهم الآخر ٠ نمت عواطفهما حتى شعرا أنهما لا يستطيعان الافتراق ٠٠ تحدثا فى حذر عن الحب ٠٠ عن الحب بين الأقارب والأصدقاء ٠٠ عن حب « مى » و « جيا ــ شن » وأخيرا استسلما للحديث عن مشاعرهما ، ومازال « جيا ــ من » يتذكر « تشن » وهى تصرح له بمدى حاجتها الى وجوده بجوارها ٠٠ كم كانت خجلى ٠٠ كانت تعبث بصفحات كتاب لتخفى اضطرابها ، وتبدو أمامه هادئة متزنة ٠٠ لم ينس « جيا ــ من » أية كلمة من حديثها له ٠٠ لقد صممت على أن تحيا حياة جديدة ، لكن كانت هناك عقبات كثيرة تعترض طريقها وهى فى حاجة الى انسان يفهمها ويأخذ بيدها ٠٠

علم كلاهما بما فى قلب الآخر ، غير أنهما لم يعلنا ذلك صراحة ، وعندما أرسلت له اليوم شعر بأن الوقت قد حان ليقول لها ما لم يجرؤ على قوله من قبل ، أقسم لها أنه على استعداد لأن يضحى بكل شىء فى سبيلها ٠٠

طمأنت « تشن » فتاها ، وفى الواقع لم يكونا فى حاجة الى حديث طويل ، فكلمة أو كلمتان تغنيان عن صفحات طويلة يسطرها قلم فى ساعات ، كلاهما يثق فى الآخر ، ويثقان فى مستقبلهما ، وفى لقائهما الأخير زالت الحواجز القائمة بينهما، وأصبحت علاقتهما صريحة واضحة ٠٠ شعر « جيا ــ من » أن هذا التفاهم الكامل لم يتم الا منذ لحظات قليلة ٠٠ !

داعبت الأحلام الوردية عن المستقبل خيال « جيا ــ من » ،

وجمح به خياله الى أبعد الحدود ، أعمته سعادته الغامرة عن رؤية العقبات التى تقف فى طريقه ٠

وقف « جيا ـ من » على منصة حجرية خارج القاعة الرئيسة أخذ يراقب حركات الممثلين المبتذلة على خشبـــــة المسرح ٠ ذهب البهلوان القزم من على خشبة المسرح ، وأخذ مكانه بطل وجيه وفتاة صغيرة فاجرة ، ضج المتفرجون بالضحك للتلميحـــات المبتذلة ، ابتسم « جيا ـ من » فى استخفاف ٠٠ أمثال هؤلاء لن يقدروا على الوقوف فى طريقه ٠

ثم شردت أفكار « جيا ـمن » ، وأخذ يتخيل حياة مثاليـة ، لـكن يداً أليفة ربتت كتفه فأعادته الى الواقع ، فالتفت فاذا به يجد أخاه الصغير « جيا ـ خوى » واقفا خلفه فقال له :

ـ هربت منهم أيضا ٠٠

أجابه « جيا ـ خوى » وهو يبتسم فى رضا :

ـ طبعا ٠٠ وأنت لديك فرصة أخرى لكى تتسلل خارج الدار

أدرك « جيا ـ خوى » الأفـــكار التى تراود أخاه من تعبيرات وجهه ٠٠ فتصاعد الدم فى وجهه ، واكتسى وجهه بحمرة خفيفة ، وأومأ برأسه ٠٠

ـ لقد استقرت الأمور بينى وبين « تشن » ، لقد اتخذنا الخطوة الأولى والمشكلة الآن تتمثل فى الخطوة التالية ٠٠

تطلعت عيناه الضعيفتان من خلف نظارته الذهبية الى وجـه « جيا ـ خوى » ٠٠

ظهرت على وجه « جيا ـ خوى » ابتسامة باهتة ، فبالرغم من أنه قال لأخيه فى يوم ما انه يعتبر » تشن » مجرد أخت ، وبالرغم من حبه لفتاة أخرى ماتت من أجله ، وبالرغم من أنه يأمل باخلاص

أن تصبح « تشن » زوجة لأخيه « جيا ــ من » ــ فانه عندما سمع الآن أن « تشن » أصبحت ملكا لرجل آخر لم يستطع منع نفسه من الشعور بشيء من الغيرة ، فهو قد أحب « تشن » سرا ، لكنه لام نفسه على هذا الاحساس وخاصة أن أخاه مهتم بتلك الفتاة ..

قال « جيا ــ خوى » :

ــ كن حريصا، لا تكن واثقا من تحقيق غايتك أكثر من اللازم.

وبرغم أن كلمات « جيا ــ خوى » لها ما يبررها فان الغيرة كانت أحد الدوافع الكامنة وراء هذا التحذير ..

قال « جيا ــ من » ولم تنل من عزمه كلمات أخيه :

ــ كل شيء على ما يرام .. كنت دائما شجاعا ، ماذا جعلك فجأة حذرا الى هذا الحد ؟ ..

لم يكن « جيا ــ من » يدرك شيئا من أفكار أخيه ، تملك « جيا ــ خوى » على الفور شعور عميق بالخجل ، وقال ضاحكا :

ــ أصبت .. أتمنى لك حظا سعيدا ..

انبعثت من المسرح أصوات الطبول والصاجات .. على حين أخذ بعض المحاربين يقفزون فى الهواء بأجسامهم العارية فى مشهد معركة ، وتلت هذا معركة بين ثلاثة جنرالات صبغت وجوههم .. وتمكن « جيا ــ خوى » من رؤية جده يجلس فى المقدمة ، ويتحدث مع كهل عجوز ذى لحية بيضاء .. أثار وجه هذا الكهل المجعد وأنفه الذى يشبه السجق غضب « جيا ــ خوى » ، فضم يديه بعصبية ، وعض على نواجذه وقال :

ــ ألديه الجرأة على الحضور الى هنا ؟ ..

سأل « جيا ــ من » فى دهشة :

ـ من ؟ ..

أشار « جيا ـ خوى » بيده :

ـ القاتل .. العجوز « فونج » .

قال « جيا ـ من » فى اضطراب :

ـ لا تصح هكذا .. سيسمعك الناس ..

ضحك « جيا ـ خوى » فى برود :

ـ ماذا ؟.. أريدهم أن يسمعوا .. ألست مقدرا للشجاعة !

حاول « جيا ـ من » فى يأس التفكير فى طريقة لتهدئة « جيا ـ خوى » ، لكن شيئا حدث فجذب انتباه « جيا ـ خوى » ، فقد جاءت أخته الصغيرة « شو ـ خوا » وبنت عمها « شو ـ تشين » وهما تلهثان حاملتين بعض الأنباء .. جذبت « شو ـ تشين » كم « جيا ـ من » وقالت له :

ـ محظية العجوز « فونج » الجديدة جاءت الى هنا ، لنذهب ولنرها ..

أجاب « جيا ـ من » فى دهشة :

ـ اننى لا أعرفها ، فكيف أستطيع الحديث معها ؟

سأل « جيا ـ خوى » :

ـ أتعنى « وانر » ؟

وفجأة أدرك « جيا ـ خوى » كل شيء فسألها :

ـ أين هى ؟

بدا من لهجته كأنه يسأل عن انسان بعث من عالم الأموات ، وعاد اليهم من قبره •

قالت « شو ــ خوا » فى ابتسامة ماكرة :

ــ فى غرفتى وليس هناك انسان سواها ، أتود الذهاب ؟

أجاب « جيا ــ خوى » :

ــ نعم •

ثم اصطحب الفتيات الى هناك تاركا « جيا ــ من » فى مكانه•

لقد وجدوا «وانر» وحيدة •• فليس معها انسان سوى «روا ــ جيا» ، و «شو ــ انج» وست من الجوارى ، ارتدت « وانر » ثيابا فاخرة جميلة ، لكن وجهها بدا شاحبا يقطر ألما ومرارة • كن مجتمعات حولها يسمعن ما ترويه ، أخذت « روا ــ جيا » ، و «شو ــ انج» تبكيان فى لوعة • وعندما رأت «وانر» «جيا ــ خوى» يدخل الغرفة هبت واقفة وحيته ، وحاولت جاهدة أن تضع على وجهها ابتسامة وقالت :

ــ جاء سيدى الفتى الثالث •

أومأ «جيا ــ خوى» برأسه وابتسم :

ــ لماذا تقفين هكذا ؟ لست جاريتنا الآن ، أنت محظية عائلة « فونج » •

وبرغم أن « جيا ــ خوى » كان يداعب «وانر» فانه شعر بالألم يمزق قلبه •• «فوانر» تعانى من المصير الذى هربت منه « منج ــ فونج » ، ودفعت حياتها طائعة مختارة ثمنا لهذا الهروب •

حنت «وانر» رأسها ، ولامته «روا ــ جيا » الجالسة على حافة السرير :

ــ انظر الى ما فعلوه بها يا أخى الثالث ! ألك قلب يطاوعك على الضحك ؟

ــ آسف ٠٠ لم أقصد الاساءة اليها ٠

تذكر «جيا ــ خوى» ما قالته «جيانر» فى الحديقة عندما وجدها تحرق نقود القرابين ، شعر بالألم لما أصاب «وانر» ٠ أراد أن يفعل شيئا يستدرك به خطأه ، فقال «لروا ــ جيا» :

ــ أنت بارعة فى التوبيخ فقط ، كان الأجدر بكن أن تأخذنها للفرجة على المسرحيات الغنائية بدلا من جلوسكن حولها وبكائكن فى أول مرة تعود فيها الينا ٠

قالت « روا ــ جيا » وهى تتظاهر بالغضب :

ــ من يستطيع تجريدك من لسانك السليط ؟

ضحكت «شو ــ خو» و «شو ــ تشين» ، وتدخلت «شو ــ انج» فى الحديث :

ــ اذا كنت لا تستطيعين ذلك ، فدعينى أحاول ٠٠

ثم لاحظت أن «وانر» ما زالت واقفة ٠٠

ــ تفضلى بالجلوس ، لا داعى لأن تكونى رسمية معه الى هذا الحد ٠

وفى أثناء هذا جلس «جيا ــ خوى» على مقعد صغير ، فجلست «وانر» ثم وجهت «شو ــ أنج» حديثها الى «جيا ــ خوى» :

ـ تلك المسرحيات الغنائية غير جديرة بالمشاهدة ، يجب أن يخجل بعض ضيوفنا من أنفسهم ·· انهم لا يختـــارون ســوى المسرحيات القذرة ، ليس لدى «وانر» فرص كثيرة لتأتى الى هنا · انها تريد الحديث مع بعض صديقـــاتها حديثا خاصا ، لذا رتبنا الأمركى يلتقين فى هذه الغرفة ، وما كدن يبدأن حتى تدخلت أنت ؟ ومن دعاك للحضور الى هنا للقيام بدور السيد الشاب ؟

قال «جيا ـ خوى» فى سخرية :

ـ اننى بالتقريب أخمن أنك لا تريدين بقائى هنا !

غير أنه لم يتحرك من مكانه ·

تدخلت « شو ـ خوا » :

ـ لا تغتر بنفسك الى هذا الحد يا أخى الثالث ، لقد اختاروا عروسا للأخ الثانى ، ودورك آت لا ريب فيه ·

سأل « جيا ـ خوى » فى شك :

ـ ماذا ؟ من اختار له عروسا ؟

قالت « شو ـ أنج » :

ـ السيد المبجل «فونج» · والعروس ابنة أخيه ، ويقولون : ان طباعها شرسة وليست صغيرة ·

هب « جيا ـ خوى » واقفا :

ـ ابن الفاعلة العجوز ! سأذهب لأخبر أخى الثانى ·

ألقى بنظرة طويلة الى « وانر » وكأنه يودعها الوداع الأخير ، ثم اندفع خارجا من الغرفة ·

وفى أثناء عبوره القاعة الرئيسة شـــاهد شيئا آلمه أشـد الألم •• شاهد « جيا ــمن » يقف أمام جده والعجوز « فونج » • وأجاب « جيا ــ من » فى احترام بالغ عن أسئلته ••
وأخذ السيد المبجل « فونج » يسأله بعض الأسـئلة وهو يبتسم ،

حرق الغيظ قلب « جيا ــ خوى » وأخذ يحدث نفسه :

ــ كيف تعامل القاتل بهذا القـدر من الاحترام والأدب ؟ ألا تعلم أنه عدوك وأنه سيفرق بينك وبين « تشن » ؟

علم « جيا ــ من » بهذه الأنباء من « جيا ــ خوى » ، وأخبره بها أيضا أخوه الكبير ، فبناء على تعليمات الجد قام « جيا ــ شن » بجس نبض « جيا ــ من » • لم يكن الجد يهدف من وراء هذا معرفة حقيقة شـعور « جيا ــ من » •• فعليه الأمر وعليهم الطاعة ، كان هذا أيضـا احسـاس « جيا ــ شـن » بالرغم من عدم موافقته على طريقة جده •

هزت الصدمة « جيا ــ من » ، لكن الخـوف لم يعرف الطريق الى قلبه ، أجاب فى اختصار ووضوح :

ــ سأختار بنفسى الفتاة التى سأتزوجها ••

كان لديه الكثير ليقوله ، لكنه لم يبح بكلمة واحدة •

قال « جيا ــ شن » فى تردد :

ــ ليس من الصواب اخبار جدنا انك ترغب فى اتخاذ قراراتك بنفسك ، من الأفضـل التركيز على ناحية السـن ، لكنى أخشى ألا يقتنع بذلك أيضا ، ففى عائلتنا يعتبر سن التاسعة عشرة سـنا مناسبا للزواج ••

كان من الصعب تحديد ما يدافع عنه « جيا ــ شن » ••

قال « جيا ـ من » فى غضب :

ـ وبناء على كلامك ، لامفر من التسليم والخضوع !

فقاطعه « جيا ـ شن » :

ـ لا أقصد هذا ··

لكنه لم يجد ما يقوله ·

نظر « جيـا ـ من » الى أخيه فى ثبات ، وكأنه يحـاول قراءة أفكاره وسأله :

ـ أنسـيت ما قلته لى هـذا المســاء ؟ هل تريدنى أن أكرر مأساتك ؟

ـ لكن رأس العائلة ··

كان « جيا ـ شن » فى أعماقه يؤيد « جيا ـ من » . لكنه كان يشعر بأن أوامر جده يجب أن تطاع ·
انفجر « جيا ـ من » غاضبا !

ـ لا تحدثنى عن جدنا ·· ســأمضى فى طريقى ·· ثم اندفع عائدا الى غرفته ·

ناقش « جيا ـ من » مشكلته مع أخيه « جيا ـ خوى » طوال الليل ·· وأخيرا اتفقا على خطة عمل ·· المقاومة ، واذا فشلت ·· فالهرب ·· لا استسلام مهما حدث ·

شـجعه « جيا ـ خوى » فى حماس ، ويرجع تشــجيعه الى سببين : الأول : لأنه يشارك « جيا ـ من » فى شعوره ، والآخر : لأنه يريده أن يكون ســابقة ، وشـعلة يهتدى بنورها أمثاله من الشباب ·

هز الانفعال كيان « جيا ـ من » ، فكتب على الفور رســـالة الى « تشن » ، وعقد العزم على ارسالها فى اليوم التالى مخبأة بين صفحات كتاب ·· جاء فى رسالته :

تشن :

أرجو ألا تصدقى أى شىء تســـمعينه عنى ، فهم يشرعون فى خطبة لى ، لكننى منحتك قلبى ولن أخون عهدى · أرجو أن تثق بى · سترين كيف أناضل من أجلك بشـــجاعة ، سأحارب فى ســـبيلك وسأنتصر ·

قرأ « جيا ـ من » الرسالة أكثر من مرتين ، وجال بخاطره ·· هذه مذكرة هامة فى تاريخ حبنا · وقرأ المذكرة على « جيا ـ خوى » وسأله فى اعتزاز :

ـ ما رأيك ؟

أجاب « جيا ـ خوى » فى تهكم :

ـ رائع ، انها انطلاقة نحو المستقبل !

وقال لنفسه فى سخرية :

ـ سنرى كيف تحارب معركتك بشجاعة ·

انتهى الاحتفال بعيد ميلاد السيد المبجل « جاو » ، وأرسل الكهل « فونج » أحد وسطاء الزواج ليعرض رسميا زواج ابنة أخيه من « جيا ـ من » · رحب الشـــيخ المبجل « جاو » بذلك · أما السيدة « تشوو » فهى مجرد زوجة ابن الشيخ المبجل « جاو » وزوجة والد « جيا ـ من » وليست أمه ، لذا استصوبت عدم ابداء رأيها فى هذا الأمر · وشعر « جيا ـ شن » أن هذا الزواج سيكون

خطأ فاحشا ، وسيدمر حياة اثنين في ريعان شبابهما ، لكن شجاعته خذلته ، ولم يجرؤ على معارضة جده ، وتطلع الى حدوث معجزة ..

تمت الخطبة سرا دون علم « جيا ــ من » . ومثل هذه الأمور تتم عادة سرا ، أما الأشخاص الذين يهمهم الأمر فهم مجرد دمى تحركها الخيوط ، ان من كانوا مجرد دمى فى شبابهم يقومون الآن بجعل الآخرين دمى تتحرك على هواهم ، هكذا كانت الأمور فى الماضى ، وعلى هذا يجب أن تستمر الأمور . .هذه هى أفكار أمثال الشيخ المبجل « جاو » ، ولكن هناك اختلافا فى حالة «جيا ــ من» ، فهو ليس بالانسان الذى يقبل أن يكون دمية !

كان « جيا ــ من » على نقيض الجيل القديم ، لذا قام بخطوات هامة فيما يختص بزواجه ، قام بلا أدنى حرج بالاستفسار عن الزواج المقترح ، وكلف « جيا ــ خوى » استقصاء الحقائق وكون الشقيقان لجنة من ثلاثة أفراد ، وناقشوا معا خططهم فى المعركة ، بحثوا كيفية منعهم خطبة ابنة أخى العجوز « فونج » ، وكيفية تثبيت العلاقة بين « تشن » و « جيا ــ من » .

وفي الجانب العلنى من المعركة ــ أوضح « جيا ــ من » موقفه صراحة لأخيه الكبير ، أجاب « جيا ــ شن » ان الأمر ليس فى يده ، ثم طلب من زوجة أبيه الغاء الخطبة ، قالت السيدة « تشوو » : ان هذا القرار متروك للشيخ المبجل « جاو » شخصيا ، لم يستطع « جيا ــ من » مقابلة جده مباشرة ، ولم يجد انسانا له نفوذه ليساعده في ورطته .. ففى هذه العائلة الحكم النهائى فى يد الشيخ المبجل « جاو » .

مرت أيام قليلة ، وفجأة طلبت السيدة « تشانج » والدة « تشن » من « جيا ــ من » عدم الحضور لزيارتهم ، والسيدة

« تشانج » هى ابنة الشيخ المبجل « جاو » • وبالرغم من عطفها على « جيا ـ من » فانها بوصفها فردا من أفراد عائلة « جاو » ليس فى مقدورها مساعدته ، وكانت الشـائعات قد انتشرت بين آل « جاو » أن السـيدة « تشـانج » تؤيد تصرفات « جيا ـ من » ، وتساعده على ذلك لأنهـا تريده زوجا لابنتها ، وتملك « تشـن » الغضب عندما علمت بذلك وبكت بكاء مريرا •

بدأ « جيـا ـ من » الخطوة الثانية فى تكتيكاته بعد انتهـاء المناورات الأولى بالفشل التام •

نشر شائعات تقول : انه اذا لم تحترم العائلة رغباته فسيتخذ اجراءات عنيفة • ولم يأت هذا التهديد بأى مفعول اذ انه لم يسمح له بالوصول الى سمع الشيخ « جاو » •

علم « جيا ـ من » أن تبـادل الطوالع فيمـا يتعلق بزواجه المقترح سيتم قريبا ، ويلى ذلك مباشرة تحديد موعد الخطبة ، سمع هذه الأنباء بعد أسـبوعين من انتهاء الاحتفال بعيد ميلاد الشـيخ المبجل « جاو » •

وفى ذلك الحين لمح « جيا ـ شن » لجده بحقيقة مشـاعر « جيا ـ من » ، ولكن بلا جدوى ••

أجاب الشيخ المبجل « جاو » :

ـ كيف يجرؤ على الاعتراض ؟ لاجدال فيما أقول •

جال « جيا ـ من » فى الحديقة سـاعات طويلة ذلك اليوم ، اهتزت عزيمته قليلا ، فهو اذا قرر يوما الهرب من البيت فسيذهب بلا رجعة ، وبقاؤه وحيدا مشكلة ضخمة ، انه يعيش حياة سـهلة مريحة فى بيته ، يأكل أطيب الطعام ويلبس أحسن الثياب ، واذا

خرج .. فكيف يعيش ؟ انه لم يستعد لشيء كهذا . المشكلة الآن مشكلته ، وعليه اتخاذ قراره .

بحث « جيا ـ من » عن أخيه الكبير وسأله مباشرة :

ـ أهناك أمل في أن يغير الجد رأيه ؟

أجاب « جيا ـ شن » في حزن :

ـ لا أعتقد ذلك .

فسأله « جيا ـ من » في يأس :

ـ هل فكرت في جميع السبل المحتملة ؟

ـ فكرت .

ـ ما رأيك فيما يجب عمله ؟

قال « جيا ـ شن » في حزن والدموع تكاد تغلبه :

ـ أعلم ما تفكر فيه ، لكنى أقسم لك أنه ليس في وسعى عمل أى شيء لمساعدتك .

أفضل شيء هو أن تفعل ما يطلبه منك جدك ، ففى هذا الزمن لسنا سوى ضحايا ..

ضحك « جيا ـ من » في برود :

ـ نفس السياسة القديمة .. عدم المقاومة ! .. فلسفة رائعة !

ثم تركه وعاد من حيث أتى .

الفصل التاسع والعشرون

فى صباح اليوم التالى ذهب « جيا ـ شـن » لتحية جده ، أعلن الجد فى فخر الانتهاء من اعداد جميع ترتيبات زواج « جيا ـ من» بفتاة عائلة «فونج» • قال الشيخ المبجل « جاو » : ان هـذا سيتم بعد حوالى شهرين ، واختار من النتيجة يوما ميمونا • طلب من « جيا ـ شـن » القيـام بتبادل الطوالع فغمغم بالموافقة ، ثم انصرف لحظة دخول «جيا ـ خوى» وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة غامضة •

ما كاد « جيا ـ شن » يصل الى جناحه حتى لحقه خادم يحمل أمرا من السيد المبجل « جاو » بالمثول أمامه فورا ، أسرع « جيا ـ شن » بالعودة الى مكتبة جده ، فرآه جالسا على أريكه يعنف « جيا ـ خوى » ، على حين جلست السيدة « تشين » منحنية على حافة أريكة الشيخ المبجل « جاو » مرتدية سترة ذات أكمام واسعة من الحرير الأخضر ، ووجهها مثقل بالمساحيق ، وشعرها مصفف بعناية فائقة ، وأخذت السيدة « تشين » تربت ظهر الشيخ « جاو » •

ووقف « جيا ـ خوى » أمام الشـيخ الكبير دون أن ينبس ببنت شفة • صاح الشيخ المبجل « جاو » حينما شاهد « جيا ـ شن » يدخل غرفته :

ـ تمرد ! أيمكن حدوث شيء كهذا ! ابحث عن «جيا ـ من» وعد به !

اختلط الأمر على « جيا ـ شن » :

وأصابت الشيخ الكبير نوبة سعال حاد ، تزادت السيدة « تشين » من ضربات يدها ، وتوسلت اليه :

ـ هدىء نفسك يا سيدى المبجل ·· يجب ألا ترهق نفسك وأنت فى هذه السن ، انهم لا يستحقون ذلك !

أحمر وجه الشيخ « جاو » ، وأخذ يلهث وهو يقول :

ـ كيف يجرؤ على عصيان أوامرى ؟ كيف يجرؤ على معارضتى؟ انه لا يرغب فى الزيجة التى أعددتها له ، أليس كذلك ؟ حسنا ، سيضطر الى ذلك برغم أنفه ! أحضره الى هنا ، سأعاقبه على فعلته ·

أبدى « جيا ـ شن » موافقته ، وبدأ يفهم حقيقة ما حدث ··

ـ الذهاب الى المدارس أفسده · كنت أريد تعليم الأولاد فى البيت على يد معلم خاص ، لكنهم لم يصغوا الى · انظروا الآن ما حدث ! حتى « جيا ـ من » قد فسد ! جرؤ على العصيان ، من الآن فصاعدا لن يسمح لأى من أبناء عائلة « جاو » بالذهاب الى مدرسة خارج الدار ! أتسمعون ما أقوله ؟

ثم أصابته نوبة سعال ·

اضطرب « جيا ـ شن » ، أخذت كلمات جده تنهال على رأسه كالرعد ·

ووقف « جيا ـ خوى » فى محاذاة أخيه ثابت الجنان ، وخطرت له أفكار أثلجت صدره ·· فلتزأر كما يحلو لك · سيفضح أمرك ، وتظهر على حقيقتك ·· نمر من الورق !

توقف سعال الشيخ الكبير ، وشعر بالارهاق ، فاستلقى على ظهره وأغلق عينيه · ظل صامتا فترة طويلة ، وبدا كأنه نائم ، استمر الشقيقان وقوفا أمامه احتراما له وانتظارا لأوامره ، ظلا على

هذه الحال الى أن أشارت لهم السيدة « تشين » بالخروج ، فسارا على أطراف أصابعهما حتى خرجا من الغرفة ٠

قال « جيا ــ خوى » لأخيه بعد خروجهما من الغرفة :

ــ ترك الأخ الثانى لك رسالة ، انها فى غرفتى ٠ تعال واقرأ ما بها ٠

ــ ماذا قلت لجدنا ؟ لماذا لم تخبرنى بذلك أولا بدلا من الجرى اليه ؟ ما أشد غباءك !

ــ أريد أن يجعله يعرف ! ٠٠ يعرف أننا بشر ، يعرف أننا لسنا خرافا يسوقنا الى المذبح !

أدرك « جيا ــ شن » أنه يقصد تجريحه ، آلمه ذلك ، لكنه تحمل الألم فى صمت ، فمهما قال من كلمات الحب والاخلاص فلن يصدق « جيا ــ خوى » شيئا مما يقوله ٠

سلمه « جيا ــ خوى » الرسالة عندما وصلا غرفته ، فلم يجد « جيا ــ شن » الشجاعة على قراءة الرسالة ، لكنه فى نهاية الأمر استجمع قواه وقرأها ٠

أخى الكبير :

فعلت ما لم يجرؤ على القيام به أى فرد من أفراد عائلتنا من قبل ٠٠ لقد هربت من زيجة اتفق عليهـا ، ليس هنـاك من يهتم بمصيرى ، لذا قررت السير فى طريقى وحيدا ، عقدت العزم على مقاومة القوى القديمة حتى النهاية ٠ واذا لم تلغ الزواج فلن أعود أبدا الى البيت ! سأموت قبل أن يحدث هذا ٠ ما زالت هناك فرصة للخروج من هذا المأزق ٠ تذكر حبنا الأخوى ، وابذل ما فى وسعك لمساعدتى ٠ جيا ــ من

كتب فى صباح يوم : ٣

شحب لون « جيا ــ شن » ، وسقطت الورقة على الأرض من بين أصابعه المرتعشة ، وأخذيتهته :

ــ ماذا أفعل ؟ ألا يفهم موقفى ؟

قال « جيا ــ خوى » فى جفاف :

ــ لا شأن لهذا بموقفك ، والسؤال الآن : ماذا ستفعل فى هذه المسألة ؟

تصاعد الدم الى وجه « جيا ــ شن » بسرعة وبدا كأنه أصيب بصدمة عنيفة • وقال فى « بساطة » :

ــ سأرجعه الى هنا •

قال « جيا ــ خوى » فى ضحكة باردة :

ــ لن تجده أبدا •

رد « جيا ــ شن » فى اضطراب :

ــ لن أجده ؟

ــ لا أحد يعلم الى أين ذهب ؟

توسل اليه « جيا ــ شن » :

ــ لكنك بالتأكيد تعرف مكانه ، لابد أنك تعرف ذلك • أخبرنى : أين هو ؟ أرجوك أخبرنى : أين هو ؟

أجاب « جيا ــ خوى » فى ثبات :

ـ أنا أعرف مكانه ، لكن لن أخبرك ٠

سأله « جيا ـ شن » في غضب :

ـ ألا تثق بي ؟

قال « جيا ـ خوى » في انفعال وهو يقطع الغرفة بخطوات واسعة :

ـ المسألة ليست ثقتي بك أو عدم ثقتي بك ٠ من الأكيد أن سياسة « عدم المقاومة » وفلسفة « الخضوع والاستسلام » ستدفع الأخ الثاني الى الهلاك ، ومجمل القول ٠٠ أنك ضعيف !

ـ يجب أن أراه ، أخبرني بعنوانه ٠

ـ كلا ثم كلا !

ـ ستضطر الى كشف عنوانه ، سيجبرونك على ذلك ، سيرغمك جدنا على هذا ٠

قال « جيا ـ خوى » في برود :

ـ لن أخبرهم بشيء ! وأنا أعتقد أن أسرتنا هذه برغم ما بها من عيوب لن تلجأ الى التعذيب ٠

أراد « جيا ـ خوى » بحديثه هذا الانتقام من عائلته ، لكنه لم يدرك شيئا عن وقع كلماته على « جيا ـ شن » ٠

خرج « جيا ـ شن » من الغرفة وقد تملكه اليأس ، لكنه عاد بعد قليل وتحدث مع « جيا ـ خوى » محاولا تنفيذ خطته ، لكنه فشل ، فهو لا يستطيع ايجاد حل يرضى « جيا ـ من » ، ويرضى جده في نفس الوقت !

في ذلك اليوم ، عقد اجتماع عائلي صغير في غرفة السـيدة « تشوو » ، حضرته السيدة « تشوو » و « جيا ـ شن » وزوجته « روا » وأخته «شو ـ خوا» و «جيا ـ خوى» ، واتخذ «جيا ـ خوى» موقفا جعل الجميع يقفون ضده : طلبوا منه الكشف عن مكان «جيا ـ من » ، كما ألحوا عليه أن يحاول اقناع « جيا ـ من » بالعودة الى البيت ، وفي سبيل اقناع « جيا ـ خوى » بذلك قدموا وعودا براقة ٠٠ ومن بين الوعود التي لوحوا بها أنه اذا عاد « جيا ـ من » فانهم سيجدون في الوقت المناسب وسـيلة لالغاء هذا الزواج ٠

لكن « جيا ـ خوى » كان كالصخر ، فلم يلن أمام الحاحهم ٠

يتقن « جيا ـ شن » والسيدة « تشوو » من عدم استطاعتهما الحصول على معلومات من « جيا ـ خوى » ، بالاضافة الى أن طلبات « جيا ـ من » لا يمكن قبولها ، لذا بحثا عن « كا ـ منج » ، وطلبا منه تأخيرتبادل الطوالع بضعة أيام دون أن يخبر الشيخ المبجل بذلك ، وفي نفس الوقت أرسلوا بضعة أشخاص ليحاولوا معرفة المكان الذي يختبيء فيه « جيا ـ من » ٠

لم يؤد البحث الى نتيجة ايجابية ، فقد أجاد « جيا ـ من » اخفاء مكان اقامته ٠

استدعى « كا ـ منج » « جيا ـ خوى » الى مكتبه وأسمعه محاضرة ٠٠ لكن بلا جدوى ، قدم له بعض النصائح ٠٠ بلا جدوى ٠ جرب معه التحذير ٠٠ بلا جدوى ، أصر « جيا ـ خوى » على أنه لا يعرف شيئا ٠

حاولت السيدة « تشوو » و « جيا ـ شن » التأثير عليه ، وتوسـلا اليه أن يعيـد « جيا ـ من » : قالا : ان جميع شروط « جيا ـ من » ستنفذ بشرط أن يعود الى البيت أولا ، لكن « جيا ـ خوى » ظل على ثباته ، وأعلن أنه لا يثق في أي انسان ، وهو يريد ضمانات كافية قبل أي شيء ٠

وبخت السيدة « تشوو » « جيا ــ خوى » وبكت فى مرارة ، فبالرغم من أنها عادة تترك الأولاد وشأنهم ــ تحرص أشد الحرص على مصلحتهم وسعادتهم ·· الموقف جد خطير ، وهى لا تريد أن يصيبهم مكروه ، وان كانت مهتمة اهتماما زائدا بسمعتها ومايصيبها اذا انتشرت الفضيحة ، ثم هى غير راضية عن موقف « جيا ــ خوى » المستهتر تجاه من هم أكبر منه ، وغير مقتنعة بهروب « جيا ــ من » تحديا لقرار اتخذه رأس العائلة ، لكنها مهما حاولت ومهما بذلت من جهد فلن تجد أى حل ·

واجه « جيا ــ شن » مشكلة لا يجد لها حلا ، فاستسلم للدموع ، كان يدرك أن « جيا ــ من » على حق ، لكنه لا يستطيع مساعدته ، بل كان عليه أن يساعد جده فى اضطهاده له ، و « جيا ــ خوى » يعتبره الآن عدوا لهما ، وهو لن يستطيع تهدئة الشيخ المبجل « جاو » اذا لم يجعل « جيا ــ من » يعود الى الدار ، واذا نجح فى اعادته فسيجلب على « جيا ــ من » ألما لا طاقة له باحتماله ·

انه الآن يواجه أمرا لا طاقة له به ! انه يحب « جيا ــ من » · لقد عهد اليه والده وهو على فراش الموت بشقيقيه · انه لا يستطيع أن يخل بالعهد الذى قطعه على نفسه يوم وفاة أبيه تجاه شقيقيه ·· سيحبهما ويدللهما طوال حياته ·· بكى « جيا ــ شن » بحرقة ومرارة ، ولم يكن فى وسع « روا ــ جيا » عمل شىء سوى مشاركته فى البكاء ، ففاضت عيناها بدموع الألم والحيرة ·

لم يعلم الشيخ المبجل « جاو » بشىء من هذا ، فقد اهتم بشىء واحد فقط ·· اطاعة أوامره والمحافظة على هيبته · أما ما يعانيه الآخرون نتيجة ذلك ، فمسألة غير جديرة باهتمامه اطلاقا ، انه يطالب باعادة « جيا ــ من » الى الدار ·· توعد « جيا ــ شن »

وأهانه ، وكذلك فعل بـ «كا ـ دنج» • وحتى السيدة « تشـــو » لم تسلم من نقمته •

كان الموقف لا يبشر بخضـــوع « جيا ـ من » لوعيـد جده وتبجحه ، ضاعت محاولات الجد للضغط هباء •• فلم يكن « جيا ـ من » بالدار حتى يقع فريسة لمحاولات جده ، انتشرت الفضيحة بين جميع من بدار « جاو » ، وبذلت جهود خارقة حتى لا تتسرب أنباء الفضيحة الى خارج الدار •

ومع مرور الأيام ازدادت طباع الشيخ المبجل « جاو » سوءا ، تراكمت ظلال كئيبة حول أسرة « جيا ـ شن » ، وأخذت الأسر الأخرى تسخر سرا من المصيبة التى حلت به •

ذات يوم عاد « جيا ـ خوى » الى داره بعد أن قام بزيارة سرية لأخيه • شعر « جيا ـ خوى » بعد تركه أخاه الذى يناضل نضالا مريرا أنه ترك عالم النور ، وجلب عليه احساسه بوجوده فى داخل الدار يأســا مخيفا ، بدا له المكان كخرابة مهجورة •• انها قلعة الرجعية وقاعدتها الرئيســــــة ، بحث « جيا ـ خوى » عن « جيا ـ شن » وسأله فى قلق :

ـ أترغب فى مساعدة الأخ الثانى أم لا ؟ لقد مر الآن أسبوع كامل •

رفع « جيا ـ شن يديه فى يأس :

ـ ماذا أفعل ؟ أنا فى حيرة من أمرى •

ـ هل تترك الأمور تسير على هذا النحو ؟

قال « جيا ـ شن » فى ألم :

ـتسير ٠٠ ! أنت واهم ! قال جدنا : انه اذا لم يعد « جيا ـ من » خلال نصف شهر فانه يمكنه العيش بعيدا عن الدار الى الأبد ، سينشر اعلانا فى الجرائد يتبرأ فيه منه ٠

سأل « جيا ـ خوى » فى مرارة وغضب :

ـ أيطاوعه قلبه على ارتكاب عمل كهذا ؟

ـ ولم لا ؟ ٠٠ انه غاضب لما حدث ٠٠ لن يسمح لانسان بعصيان أوامره ٠ لن تثمر مقاومة الأ خ الثانى ٠

ـ أنت تقول هذا أيضا ! لا عجب اذا تقاعست عن مساعدته !

ـ كيف يمكننى ذلك ؟

شعر « جيا ـ شن » أنه أتعس انسان فى العالم ، لا حول ولا قوة له ٠

لمعت دموع الغضب فى عينى « جيا ـ خوى » ٠

ـ ألم يطلب منك والدنا يوم وفاته أن تشملنا برعايتك ؟ لقد خاب اليوم رجاؤه فيك !

عجز لسان « جيا ـ شن » عن الكلام ، فتكلمت دموعه بما فى قلبه ٠

ـ لو كنت مكانك ما أصبحت ضعيفا عديم النفع مثلك ، أقول لك ذلك صراحة ! ، كنت سأقطع الارتباط بعائلة « فونج » بضربة واحدة ، وما كنت أتردد فى عمل شىء كهذا ٠

رفع « جيا ـ شن » رأسه وسأل :

ـ وماذا عن جدنا ؟

ـ انتهى عهد جدنا ، وهل تترك « جيا ـ من » ليكون ضحية لأهواء جدنا ؟

عاد « جيا ـ شن » الى صمته مرة أخرى ٠

صاح « جيا ـ خوى » فى غضب :

ـ أنت انسان مستضعف !

عاد « جيا ـ شـن » الى غرفته وحيدا وقد أثقلته الهموم ٠ خذلته فلسفة الخضوع والاستسلام ، ولم تسعفه « سياسة عدم المقاومة » ، ولم ينجح فى تهيئة جو من السلام فى أسرته ، حاول ارضاء الجميع ، وتخلى فى سبيل ذلك عن سعادته الشـخصية . وبرغم هذا لم ينجح فى العيش فى سـلام ٠ تقبل راضيا تأدية الرسالة التى تركها له والده وضحى بكل عزيز وغال فى سـبيل أشقائه وشقيقاته ٠٠ والنتيجة ٠٠ فر شـقيق له ، وبقى الآخر يلعن ضعفه ، فأى عزاء بقى له مقابل تضحياته ؟

استغرق « جيا ـ شن » فى أفكاره هذه بعض الوقت ، ثم كتب خطابا حماسيا الى « جيا ـ من » يحلل فيه ويشرح باسهاب حبه له ، وعبر فى قوة عن ظروفه الأليمة والصعوبات التى يواجهها٠ تحدث عن حبه واعزازه لاخوته ، وختم الخطاب بتوسل حار كى يعود اكراما لخاطر والده الراحل ، وحتى يعود السـلام الى دار «جاو » ٠

انتهى « جيا ـ شن » من خطابه ، وحمله الى «جيا ـ خوى» ليسلمه الى « جيا ـ من » ٠

قرأ « جيا ـ خوى » الخطاب وبكى فى حرقة ، هز رأسه فى ألم ، ثم أعاد الرسالة داخل الظرف ٠

أحضر « جيا ــ خوى » رد « جيا ــ من » على هذه الرسالة وجاء فيه :

انتظرت طويلا ، وخاب رجائى عندما وصلنى خطاب كهذا منك ! كل ما استطعت قوله ٠٠ عد ! ٠٠ عد ! أكتب لك هذا الخطاب وأنا جالس فى غرفة صغيرة كمسجون هارب لا أجرؤ على الخروج خشية القبض على واعادتى الى السجن ٠ وسجنى هو دارى، السجانون هم أفراد عائلتى ٠٠ لقد تآمروا على ليدمروا حياتى بلا رحمة ٠

تريدون اعادتى الى المنزل ، ففى هذا حل لمشاكلكم ٠ سيعود السلام للعائلة وتقدم ضحية أخرى ثمنا لهذا ، وبطبيعة الحال سيسعدكم هذا جميعا ، وأغرق أنا فى بحور رهيبة من الألم والندم ٠٠ فلتتنسوا الأمر برمته ٠ لن أعود الى الدار الا اذا أجيبت جميع مطالبى ٠ ليس لى فى دارى سوى ذكريات أليمة ٠

قد تتساءل عما جعلنى على هذا القدر من الشجاعة ، وأنا أحيانا أسأل نفسى هذا السؤال ٠٠ انه الحب ٠٠ الحب يشد أزرى ويساعدنى على احتمال مالا طاقة لى به ٠ اننى أناضل فى سبيل سعادة اثنين ٠٠ سعادتها وسعادتى ٠

اننى أفكر كثيرا فى حديقتنا ، كم لعبنا فيها معا ونحن صبية صغار ٠ يجب أن تساعدنى واستحلفك بأبينا الراحل ، و «بتشن» أيضا ٠٠ أنسيت ابنة العم « مى » ٠٠ لقد بكينا من أجلها بما فيه الكفاية ٠ أرجو ألا تجعل من « تشن » « مى » أخرى ٠

سالت الدموع على خدى « جيا ــ شن » دون أن يشعر بها ، شعر كأنه سقط فى هوة عميقة مظلمة ليس بها بصيص من نور ولا بارقة أمل ٠ وأخذ يدمدم ٠٠

ـ أنتم لم تفهمونى ·· لا أحد يفهمنى ·

وقف « جيا ـ خوى » ينظر اليه ممزقا بين الغضب والحسرة · كان « جيا ـ خوى » على علم بما فى رسالة «جيا ـ من» بل ساعده بنفسه فى كتابتها · وداعبه الأمل فى أن تحرك تلك الرسالة أخاه الكبير وتدفعه الى عمل أى شيء ·· لكن هذه هى النتيجة ، أراد «جيا ـ خوى» معاتبة أخيه ولومه ، لكنه رجع عن ذلك وأخذ يفكر :

ـ ما جدوى اللوم ؟ لقد أصبح الأخ الكبير انسانا بلا ارادة ! ·· لا أمل يرجى فى اصلاح أمر هذه العائلة ! البعد عنها غنيمة ، ومن الأفضل القيام بذلك فى أقرب فرصة ·

من تلك اللحظة كف « جيا ـ خوى » عن التشاؤم فى نجاح محاولات أخيه · خدعته تلك الفكرة ·· نبتت هذه الفكرة فى عقله بهدوء ·· وان كان من الأكيد أنها ستنمو وتتطور بسرعة ·

سبب هرب « جيا ـ من » آلاما كثيرة لأناس كثيرين ، كان « جيا ـ من » ضمن من قاسوا من هذا الأمر ، لقد اختبأ « جيا ـ من» فى منزل «تسون ـ رن» ، أحد زملائه فى المدرسة · وبالرغم من أن تسون ـ رن » وفر له جميع أسباب الراحة وأحسن معاملته فانه كره الاقامة بين أربعة جدران عاجزا عن التصرف كما يحلو له ، محروما من رؤية من يرغب فى رؤيتهم ، ممزقا بين الخوف والوحدة ، وشعر « جيا ـ من » بقسوة الحياة ومرارتها ·

ففى كل يوم ينتظر « جيا ـ من » ساعات طوالا أنباء جديدة ، لكن الأنباء التى يحملها اليه « جيا ـ خوى » كانت دائما مخيبة للآمال · وعلى مر الأيام أخذت آماله تتضاءل ، لكنه لم يفقد الأمل نهائيا ، لم تخذله شجاعته عن التمسك بموقفه · دأب «جيا ـ خوى»

على تشجيعه ، وأكد له أن النصر النهائى سيكون من نصيبه ٠٠ وأمده وجه « تشن » وحبه لها بالقوة والعزم ، قاوم فى عناد ولم تخطر له قط فكرة الاستسلام ٠

عاشت « تشن » فى فكره ، وأخذ يحلم بها ليل نهار ٠ وكلما ازداد احساسه بالحزن والألم زاد تعلقه بها ، سيطرت على أفكاره وغلبه الحنين لرؤيتها ، فبالرغم من أنها بالقرب من مكان اختفائه فانه لم يجرؤ على زيارتها بسبب وجود والدتها معها ٠

أراد ارسال خطاب لها عن طريق « جيا ـ خوى » ، ولكنه عندما أمسك بقلمه وجد لديه الكثير ٠٠ أكثر مما يمكن أن يسطره قلم ٠ ٠لم يعرف من أين يبدأ ٠ خشى أن يعجز عن الكتابة اليها بالتفصيل فى كل ما يود قوله لها ، وخاف أن تقلق لهذا السبب وأخيرا قرر الانتظار الى أن تسنح له فرصة ليتحدث اليها وجها لوجه ٠

جاءته الفرصة أسرع مما توقع ، دخل عليه « جيا ـ خوى » فى أحد الأيام وأخبره أن السيدة « تشانج » قد خرجت ، ثم ذهبا معا لزيارة « تشن » ٠

ترك « جيا ـ خوى » أخاه ينتظر خارج غرفة « تشن » ، ودخل عليها وأعلن فى فرح :

ـ أحضرت لك حاجة حلوة !

كانت « تشن » مستلقية فى فراشـــها تقرأ وهى نصف نائمة ، لكنها اعتدلت فى جلســـتها بسرعة ، ورتبت شـــعرها ، وسألت فى فتور وقد شحب لونها ، وبدت غير قادرة حتى على رسم ابتسامة على شفتيها :

ـ ماذا ؟

أفلتت من فم « جيا ـ خوى » صرخة رغما عنه ٠

ـ صرت نحيفة للغاية !

فابتسمت « تشن » فى ألم :

ـ لم ترنى منذ أيام كثيرة ٠ ما أخبار الأخ الثانى ؟ لماذا لم يكتب حتى خطابا واحدا ؟

ـ أيام كثيرة ؟ ألم آت اليك أول البارحة ٠

نظرت اليه بعينيها الواسعتين القلقتين :

ـ أنت لا تعلم كم يمر الوقت بطيئا ثقيلا ٠ أخبرنى بسرعة ٠ ماذا حدث له ؟

تظاهر « جيا ـ خوى » بالضيق واليأس محاولا اثارتها :

ـ استسلم ٠

ـ لا ! لا أصدق هذا !

وفى تلك اللحظة تقدم شاب داخل غرفتها ، فأشرقت عيناها بالسعادة وصاحت :

ـ أنت !

لم تعرف « تشن » هل صيحتها هذه صيحة شـــك ٠٠ دهشة ٠٠ فرح ٠٠ ؟ اندفعت نحوه ٠٠ ثم ســيطرت فجأة على عواطفها الجامحة ، ووقفت تتطلع اليه بعينين ملتهبتين ٠٠

أجابها « جيا ـ من » فى فرح وألم :

ـ نعم يا « تشن » ٠٠ كنت أود الحضور اليك منذ زمن ، لكن خشيت لقاء أمك

قالت « تشن » ودموع السعادة فى عينيها :

ـ كنت واثقة من حضورك ٠

ثم ألقت على « جيا ـ خوى » نظرة عتاب ٠

ـ تضحك على ! أنا أعرف جيدا أنه لن يستسلم ٠٠ أنا واثقة منه ٠

ثم نظرت الى « جيا ـ من » نظرات مملوءة بالحب والحنان بلا خجل ٠

فرح « جيا ـ خوى » بهما ، لم يكن قد أدرك من قبل أن « تشن » نضجت الى هذا الحد ، نظر الى « جيا ـ من » فى سعادة، تملك « جيا ـ من » شعور بالفخر لدى سماعه مديح « تشن » ، اعترف « جيا ـ خوى » لنفسه بأنه كان مخطئا حين توقع أن يكون لقاؤهما مليئا بالدموع والنواح وجميع مظاهر المآسى الأليمة ٠ فتلك المشاهد مألوفة فى عائلة كعائلته ٠

لم يخافا شيئا على عكس ما توقع « جيا ـ خوى » ، شد كل منهما أزر الآخر بما وضعه فيه من ثقة ٠ فرح بهما ، فهما اشراقة النور فى عالم مظلم كئيب ، أعطياه الأمل ٠٠ انهما ليسا فى حاجة الى تشجيعه ، لن يركع « جيا ـ من » على ركبتيه أبدا ٠

ما أسهل ثقة الشباب المتحمسين أمثال « جيا ـ خوى » فى الناس !

قال « جيا ـ خوى » مداعبا :

ـ حسنا ، يمكنكما الحديث كممثلين على المسرح ، وعليكما أن تبدأا عملكما فورا ، اذا كان لديكما ما تقولانه فافعلا ذلك بسرعة ، فالوقت ضيق أتريدان منى الخروج ؟

ضحكا ولم يجيبا بكلمة ، نسيا وجود « جيا ـ خوى » ، وجلسا على حافة السرير . تماسكت أيديهما واستغرقا فى حديث رقيق عذب ، التقط « جيا ـ خوى » فى غير مبـالاة أحـد كتب « تشن » وكان يحتوى على مسرحيات لأبسن ، بدا من الكتاب أنها كانت تقرأ « عدو البشر » . لا شك أن المسرحية شجعت «تشن». أفلتت منه ابتسامة رغما عنه .

نظر « جيـــا ـ من » خلســـة الى « تشـــن » ، كانت هى و « جيا ـ من » منهمكين فى مناجاة رقيقة . أشرق وجهها الجميل بالسعادة ، فشعر « جيا ـ خوى » بشيء من الغيرة من شقيقه .. ثم عاد الى قراءة « عدو البشر » . انتهى « جيا ـ خوى » من قراءة المشهد الأول ثم نظر اليهما .. كانا مستغرقين فى حديثهما .. فقرأالمشهد الثانى .. لكنهما لم ينتهيا من حديثهما ، قرأ المسرحية بأكملها .. لكنه وجدهما منهمكين فى حديثهما دون أن تبدو عليهما أية بادرة تدل على أنهما سينتهيان من حديثهما ، فنفد صبره .

ـ حسنا ، هل أنتما بخير؟ يالكما من ساذجين !

نظرت اليه « تشن » وابتسمت ، ثم استمرت فى حديثها .

فحثهما « جيا ـ خوى » بعد نصف ساعة :

ـ أخى الثانى ، لننصرف الآن ، قلت ما فيه الكفاية .

رجته « تشن » وقد تعلقت بذراع « جيا ـ من » بقوة وكأنها تخشى أن يتركها .

ـ انتظر قليـلا ، ما زال الوقت مبكرا .. لا داعى للعجلة .

قال « جيا ـ خوى » فى عناد ساخر :

ـ يجب أن أعود .

ضمت « تشن » شفتيها وقالت :

ـ مع السلامة ، ان بيتى المتواضع لا يليق بأرستقراطى عريق مثلك !

وعندما رأته ينصرف فعلا نادته هى و « جيا ـ من » فى صوت واحد ، وطلبا منه الانتظار • قال « جيا ـ من » فى الحاح :

ـ أيجب أن تذهب يا أخى الثالث ؟ ألا تستطيع مساعدتى قليلا ؟

ضحك « جيا ـ خوى » :

ـ كنت أمزح ، لقد عاملتمانى ببرود ولم تهتما بى ، وأنت يا « تشن » لم تقولى لى كلمة واحدة حتى أنك لم تدعينى للجلوس • الأخ الثانى هنا الآن فنسيتنى •

ضحك الاثنان لمداعبته ، ودافعت « تشن » عن نفسها :

ـ لى فم واحد فقط ، ولا أستطيع الحديث الى شخصين فى نفس الوقت ، كن طيبا يا أخى الثالث ، دعنى أتحدث معه اليوم ، وغدا أتحدث معك كما تشاء • كانت « تشن » تلاطفه وكأنه طفل صغير •

ـ لا تضحكى على ، لست محظوظا مثل الأخ الثانى !

هم « جيا ـ من » بالحديث ، لكن « تشن » قاطعته ، وسألت « جيا ـ خوى » فى خبث :

ـ كيف حال الحظ معك أنت و « جيان ـ رو » ؟ لقد روت لى كل شىء أتحبها ؟ انها فتاة عصرية بحق •

وأراد « جيا ـ خوى » مشاكستها فقال :

ـ ربما أحبها ، وربما :لا.وما علاقة هذا بك ؟

و « جيا ـ خوى » من المغرمين بهذا اللون من المزاج .

تدخل « جيا ـ من » .

ـ انهما يليقان بعضهما ببعض وأنا أشاركك في رأيك هذا .

فضحك « جيا ـ خوى » ، وهز يديه معلنا رفضه :

ـ لا ، وألف شكر ، أنا لا أريد أن أصبح مثلكما .. مقابلات سرية ومشاهد مؤثرة !

كان « جيا ـ خوى » يقول لنفسه .. ان ما أريده هو أنت يا « تشن » .. ثم طرد هذه الفكرة من ذهنه عندما استرجع بعض الذكريات .. قضيت على حياة فتاة . عانيت بما فيه الكفاية من الحب .. تظاهر « جيا ـ خوى » بالابتسام ، لكن ابتسامته كانت تقطر ألما ومرارة .

انتهى حديث « جيا ـ من » مع « تشن » . والآن حانت ساعة الفراق . كره « جيا ـ من » الرحيل .. تذكر حياته وحيدا فى تلك الغرفة الصغيرة ، خانته شجاعته ولم تطاوعه قدماه على الرحيل ، لكن نظرة « جيا ـ خوى » الملحة أنبأته بأنه لا مفر من ذلك ، فالأمر ليس بيده .

قال فى حزن عميق :

ـ يجب أن أرحل .

بدت فى صوته رنة صراع دفين ، فظل جامدا فى مكانه يبحث عن كلمات يواسى بها « تشن » ، لكنه لم يجد سوى تلك الكلمات:

ـ لا تفكرى فى كثيرا .

لم يكن « جيا ـ من » يعنى ما يقول ، ففى حقيقة الأمر كان يود أن تفكر فيه كثيرا ٠

وقفت « تشن » أمامه ، وركزت عينيها الواسعتين المضيئتين على وجهه وكلها آذان مصغية ٠٠ وتوقعت أن يقول لها شيئا خطيرا ، لكنه لم يفعل ٠٠ انتظرت والأمل يحدوها فى ذلك ٠٠ لكنه لم ينطق بسوى بضع كلمات قليلة ٠٠ خاب رجاؤها ، فتعلقت بكمه وتوسلت اليه :

ـ لا تذهب الآن ، ابق معى قليلا ، لدى الكثير أود أن أقوله لك ٠

استعذب « جيا ـ من » تلك الكلمات وشعر أنها ألذ وأرق كلمات سمعها فى حياته ، نظر الى وجهها الحبيب ، وقال لها وهو يبتسم :

ـ حسنا ، لن أذهب الآن ٠

راقب « جيا ـ خوى » أخاه ، ورأى ابتســـامته الحزينة الباكية ٠

شعرت « تشـن » بنظرة « جيا ـ من » المملوءة بالحنان تمسح عينيها ووجهها وكأن عينيه تناديانها ٠٠ تكلمى فكلى آذان مصغية ، لكنها لم تجد ما تقوله ٠٠ خشيت فراقه لها ، فتعلقت بثوبه ونطقت بأول شىء خطر ببالها :

ـ جف عود بنت العم « مى » ، بدأت تبصق دما فى الأيام الأخيرة ، أخفت الأمر عن أمها ، وطلبت منى عدم اخبار أى انسان بذلك ، فهى لا تريد تناول الدواء ! قالت لى ان كل يوم تعيشه يوم جديد من العذاب والشقاء ٠٠ وهى تفضل الموت على حياتها هذه ٠

ان والدتها مشغولة بتسلية نفسها بلعب « الما ــ جيانج » ولا تنتبه الى « مى » اطلاقا • لقد أتيحت لى بالأمس فقط فرصة لاخبار والدتها بخطورة مرضها ، فبدأ القلق يساورها •• ربما كانت « مى » على حق ، لكن ليس فى وسعى الوقوف فى صمت وأراقبها وهى تموت ، لا تقولا شيئا للأخ الكبير ، طلبت « مى » منى ذلك •

لاحظت « تشن » فجأة الدموع تسيل خلف نظارة «جيا ــ من » ، ثم أخذت الدموع تنهمر على خده ، وارتعشت شفتاه ، لكنه لم يقو على الكلام ، فهمت حقيقة شعوره •• انه يخشى انتهاء حبهما أيضا بمأساة أليمة •

تراجعت « تشن » بضع خطوات وصرخت :

ــ لا أستطيع أن أقول أكثر من ذلك !

ثم دفنت وجهها بين يديها وبكت فى مرارة •

قال « جيا ــ من » فى حزن :

ــ يجب أن أعود الآن يا «تشن»

لم يكن يتصور «جيا ــ خوى» انتهاء لقائهما المرح بالدموع•• ويسمون أنفسهم الشباب الجدد الشجعان !

رفعت « تشن » يديها عن وجهها المخضب بالدموع ومدتهما اليـــه :

ــ لا تذهب ! ابق قليلا !

حالت قبضة «جيا ــ خوى » القويةدون اندفاع « جيا ــ من » اليها ، نظر « جيا ــ من » الى أخيه الصــغير ••• كانت عيناه جافتين ، وأخذتا تبعثان ببريق ثابت قوى • أشار « جيا ــ خوى » برأسه نحو الباب •

قال « جيا ــ من » بصوت مضطرب :

ــ لا تبكى يا «تشن » ، سأعود مرة أخرى ، اننى أقيم بالقرب منك وسأحضر اليك فى أقرب فرصة... اعتنى بصحتك ،وسأرسل لك أخبارا سارة قريبا .

خرج «جيا ــ من » مع أخيه ، تبعتهما «تشن » حتى وصلا الى باب القاعة الرئيسة حيث وقفت ، وأسندت ظهرها الى الباب ومسحت دموعها حتى تتمكن من ملاحقته بعينيها الحزينتين .

وصل الشقيقان الى الطريق وصوت نحيب «تشين » يتردد فى أذنيهما . سارا بسرعة فى صمت ، وعندما وصلا الى بيت «تسون ــ رن» توقف « جيا ــ خوى » فجأة فى منتصف الطريق وقال بصوت قوى مشرق

ــ ستنتصر أنت و « تشن » ، لا نريد المزيد من الضحايا .

توقف « جيا ــ خوى » برهة قصيرة ثم استأنف حديثه فى ثبات ونشوة :

ــ اذا كان لابد من تقديم ضحايا جدد ،فليكونوا هم الضحايا هذه المرة .

فى الفترة الأخيرة عانى « جيا ــ شن » الكثير ، عذبه ضميره وحيره ، فهو يعلم أنه لو تقاعس من مساعدة « جيا ــ من » لندم على ذلك طوال حياته ، وبعد أن تدبر الأمر مع زوجته وزوجة أبيه ذهب الى الشيخ « جاو » ، واقترح بطريقة غير مباشرة تأجيل زواج « جيا ــ من » حتى يصبح قادرا على الاعتماد على نفسه ، وبطبيعة الحال لم يشر من قريب أو من بعيد الى علاقة «جيا ــ من» « بتشن » . تحدث « جيا ــ شن » فى تأثر شديد ... وقد

استعد لهذا ليالى طويلة .انه كتب ما سيقوله وراجعه ، وكان واثقا من استمالة الشيخ الكبير ٠

أخطأ « جيا ـ شن » فى تقديراته ، فقد غضب الشيخ المبجل « جاو » أشد الغضب ، فهو لا يدرك من الأمور سوى أن سلطته قد هوجمت ، وهناك حاجة ماسة الى اجراءات عنيفةلتأكيد سلطته، فأوامر الآباء والعروس التى يختارها له رأس العائلة أشياء يجب ألا يناقشها جيلالشباب ، تلك مبادىء لاتقبل التغيير ، والاعتراض عليها يجب أن يقابل بقسوة ٠ انه لا يلقى أدنى اهتمام الى سعادة الناس وآمالهم ٠٠٠ وزاد من غضبه توسلات «جيا ـ شن » اليه أقسم على عدم الغاء الارتباط ، واذا لم يعد « جيا ـ من » فى نهاية الشهر فسينشر اعلانا فى الجرائد يتبرأ فيه من « جيا ـ من » ثم يجبر « جيا ـ خوى » على الزواج من الفتاة بدلا من أخيه الهارب٠

لم يجرؤ « جيا ـ شن » على مناقشته ، فغادر الغرفة فى أدب جم ، ثم أسرع الى جيا ـ خوى » وأخبره بما قاله جده واعتقد أن ما سيقوله سيفزع «جيا ـ خوى» ويجعله يلح على أخيه بالعودة ، لم يهتز «جيا ـ خوى» ، وبالاضافة الى ذلك كان متوقعا شيئا كهذا لم يعلق على الأمر بشىء ، وضحك فى برود ، وجال بخاطره ٠٠٠٠ لن أكون الضحية !

حثه «جيا ـ شن » :

ـ من الأفضل اقناع الأخ الثانى بالعودة ٠

التزم « جيا ـ خوى » الصمت ٠

ـ ستكون ضحية هذا الزواج ٠

أجاب « جيا ـ خوى » فى كبرياء :

ـ اذا كانت هذه مشيئة جدى فليمض فيما يريد ، سيندم على ذلك ، لست خائفا ، ان لدى أفكارى وخططى الخاصة بى .

لم يصدق « جيا ـ شن » أذنيه ، كان يعتقد أنه يفهم « جيا ـ خوى» حق الفهم .

سخر منه « جيا ـ خوى » :

ـ لا أفهم لماذا أنت ضعيف عديم النفع الى هذا الحد ؟

احمر وجه « جيا ـ شن » ثم شحب لونه وارتعد جسده ، أخرسه الغضب ، وفى تلك اللحظة اندفع خادم وأعلن وهو يلهث:

... وصلت رسالة الآن من السيدة « جيان »

... ماتت «مى» .

اندفعت « روا ـ جيا » من الغرفة الداخلية وهى تصرخ :

ـ « مى » ماتت ؟ متى حدث هذا ؟

أجاب الخادم :

ـ السابعة صباح اليوم .

دقت الساعة المعلقة على الحائط معلنة التاسعة ... ساد الغرفة صمت ثقيل عميق رهيب .. لم يجرؤ انسان على تحطيم رهبته !

حنى « جيا ـ شن » رأسه وقال للخادم :

أعد محفتى فورا .

قالت « روا ـ جيا » وهى تبكى بعد أن ألقت بنفسها فىأحد المقاعد :

ـ وأنا أريد الذهاب أيضا .

صاح « جيا ـ شن » فى الخادم :

ـ ماذا تنتظر ؟

بعد رحيل الخادم استدار الى زوجته وقال لها فى أدب :

ـ لا تذهبى أنت حامل وسيؤذيك هذا ٠

ـ أريد رؤيتها ٠٠٠ يوم زرناها فى منزل « تشـــن » ٠٠٠ أمسكت بيدى وأنا أهم بركوب المحفة وقالت لى: انها ترجو حضورى لزيارتها دائما ؛ وطلبت منى احضــــار « خاى ـ تشين » فى المرة القادمة ٠٠٠ كانت عيناها مملوءتين بالدموع ٠ من كان يعلم أنها لن ترانا أبدا ٠٠ كانت طيبة معى ٠٠ وهذا أقل ما يجب على عمله٠

قال « جيا ـ شن» وهو منكسر الخاطر :

ـ لا تطلقى لعواطفك العنان ، يجب أن تفكرى فى صـحتك؛ فأنت كل ما بقى لى ٠

ستكون نهايتى اذا أصبت بسوء ٠

وقف «جيا ـ خوى » بجوار مكتبه ، وأخذ ينظر الى الستارة البيضـــاء الشفافة ، لم تكن الأنباء مفاجأة له ؛ فهو يذكر حديث « تشن » عنها ٠٠٠ كل يوم يمضى من حياتها لا يجلب لها ســـوى الألم واليأس ، انها تفضل الموت على استمرار حياتها ٠٠٠ لكن موت تلك المرأة الشابة الرقيقة الضعيفة آلمه أشد الألم ، هزه الغضب والندم ، لكنه سيطر على نفسه وقال فى برود :

ـ ضحية جديدة !

أدرك « جيا ـ خوى » أن أخاه الكبير سيفهم ما يرمى اليه ،نظر الى « جيا ـ شن » فوجده يرمقه بنظرات تقطر ألما ومرارة ٠

واصل « جيا ـ خوى » حديثه :

ـ لن تنتهى المتاعب ، ماخفى كان أعظم ٠

كان هذا القول موجها أيضا الى « جيا ـ شن » ٠

وصل « جيا ـ شن » الى دار « جيان » ٠٠ غادر محفته ٠٠ استقبلته أصوات باكية ، فأسرع الى غرفة « مى » ٠

التفت السيدة « جيان » ، وأخو « مى » الصغير ، و « تشن » وجارية حول « مى » ٠٠٠ حول جثة « مى » ٠٠٠ يبكونها ٠ نظر الجميع الى « جيا ـ شن » لحظة دخوله ٠

وصرخت السيدة « جيان » :

ـ الفتى الأول ، ماذا أفعل ؟

كانت الدموع تلطخ وجهها ، وكان شعرها مشعثا ٠

قال « جيا ـ شن » فى صوت حزين :

ـ يجب أن نبدأ فورا فى الاعداد للجنازة ٠ هل أحضر الكفن؟

ـ ارسلت الخادم العجوز « وانج » لشرائه ، لكنه لم يعد حتى الآن ، ثم غلبها البكاء :

ـ ماتت « مى » منذ ساعتين ، لم يتم اعداد أى شىء ٠ ليس فى دارنا رجال كبار وشغل العجوز « وانج » بابلاغ الناس ، ماذا أفعل ؟ انظر الحال التى أصبحت عليها الدار !

ـ لاتقلقى ياعمتى « جيان » ، اتركى لى اعداد كل شىء ٠

ـ أنت انسان طيب ، ستكون « مى » شاكرة لك صنيعك فى العالم الآخر ٠

نفذت كلمة «شاكرة»كسكين حاد الى قلب « جيا ــ شن » وآلمته كثيراً ، لم يجد ما يقوله • ود لو صرخ ••• كيف تكون لى شاكرة ؟ لقد تسببت فى نهايتها هذه !

اتجه « جيا ــ شن » الى حيث ترقد « مى » ••• تمددت فى فراشها وقد أغمضت عينيها الى الأبد ••• تناثر شعرها على وسادتها •• وجهها النحيف شاحب أبيض، وانفرجت شفتاها قليلا، بدا له أنها كانت تريد أن تقول شيئا ، لكن الموت لم يسمح لها بذلك ••• ولف وسطها بغطائها •

قال « جيا ــ شن » فى صوت ضعيف :

ــ « مى » ، لقد أتيت لرؤيتك •

ثم أعمت الدموع عينيه وتساءل :

ــ أهكذا نفترق الى الأبد ؟ مضيت بلا كلمة وداع • لم تسامحينى قط • لماذا لم أحضر من قبل ؟ ••• لأرى شفتيك تتحركان وأسمع صوتك ••• كنت سأعلم ما بقلبك •

توسل اليها « جيا ــ شن » بصوت مكتوم :

••• « مى » ••• جئتك يا « مى » ••• اذا كان لديك ما تقولينه فأخبرينى به الآن بسرعة ••• فكلى آذان مصغية !

مسح « جيا ــ شن » عينيه ، استلقت «مى» كقطعة من الثلج، لم يكن بوسعها سماعه حتى لو صرخ بأعلى صوته ! استلقت «مى» بلا حركة ••• ضاع الأمل وافترقا الآن الى غير رجعة •

ودعها « جيا ــ شن » بقلب كسير وضمير معذب ••• ودموع الندم •

أثار بكاؤه لوعة فى قلب السيدة « جيان » ، فأخذت تنوح فى ألم . اقتربت « تشن » منه وقد نفد صبرها :

ـ ليس هذا وقت البكاء ، يجب أن تساعد فى اعداد الترتيبات النهائية . ماتت ولن يعيدها البكاء ، بكاؤك سيزيد من سـوء حالة السيدة « جيان » . اذا كانت « مى » تشعر بشىء بعد موتها فانها ستتألم لما تفعله الآن .

مزقته أفكار مؤلمة وتحسر فى يأس :

ـ لقد آذيتها كثيرا من قبل ، ولن يختلف الأمر لو آذيتهـــا مرة أخرى ، لقد تعودت ذلك منى .

ثم سيطر على دموعه بصعوبة .

قالت السيدة « جيان » :

ـ لا تلومى الفتى الأول ، أحبته « مى » وأحبها ، وبحث أمر زواجهما ، أخطأت بعدم الموافقة . لو كنت فعلت هذا ماوصلنا اليوم الى مانحن فيه !

ثم أخذت السيدة « جيان » تبكى وهى تتكلم . كانت الدموع عاجزة عن عمل أى شىء . ضاع عقلها فى دوامة من الألم والندم .

حثت « تشن » « جيا ـ شن » :

ـ أسرع بعمل الترتيبات اللازمة يا بن العم. يجب ألا تتركها طويلا على هذه الحال .

أدركت « تشن » أن ما قالته السيدة « جيـــــان » سيثير « جيا ـ شن » ، لذا لجأت الى هذا التحذير كى تلهيه عما سمع.

وافق « جيا ـ شن » على ما قالتــــه « تشـــن » ثم ناقش

التفاصيل مع السيدة « جيان » ··· ألبست «مى» ثياب الدفن ووضعت فى كفنها ، اجتاحت « جيا ـ شن » رغبة مجنونة فى حمل «مى» بين ذراعيه والهرب بها الى مكان بعيد مهجور · لكن ··· خانته شجاعته ·

تمالك « جيا ـ شن » نفسه وأعطى أوامره باغلاق نعشها ، تعلقت السيدة « جيان » بحافة التابوت وبدأ عويلها :

ـ مى ··· كنت عمياء يا « مى » ، لم أكن أعلم ما يقلبك ، حطمت زواجك « بجيا ـ شن » وجعلتك تتألمين حتى خلصك الموت من عذابك ·· أنا نادمة يا « مى » · أتسمعينني ؟ لماذا لا تردين على أمك يا « مى » ؟ أتكرهينني يا « مى » ؟ انتقمى منى فى العالم الآخر ، عذبينى كما عذبتك لكن لا تتركينى · يجب أن تعيشى ابنة لى ، وسأكون لك أما بارة ··· أتوافقين ياحبيبتى المسكينة ؟ مى ··· مى ··· مى ··· خذينى معك !

حاولت الأم الصعود الى النعش ، وصمت أذنيها عن جميع المحاولات التى بذلت لتهدئتها ، فاضطروا الى منعها بالقوة

أغلق غطـــاء النعش باحكـــام ··· وأخرجت « مى » من غرفتها ··· ولم يبق سوى كفنها ··· وحتى الكفن أزيل فى نفس اليوم ·

وحلت المعزيات القلائل الواحدة بعد الأخرى ، كانت السيدة « تشو » قد حضرت مع « شو ـ خوا » ، وحضرت كذلك والدة « تشن » وثلاث نساء أخريات · أمضت تلك النسوة بعض الوقت فى دار « مى » ثم رحلن ، لم يبق فى الدار سوى والدة « مى » وأخيها الصغير والخادم العجوز « وانج » · ولم يبق ليصطحب

جثمان « مى » الى قاعة الدفن سوى « جيا ـ شن » و «جيا ـ خوى» و « شو ـ خوا » • وصل « جيا ـ خوى » فى وقت متأخر ، لكنه تمكن من الاشتراك فى تشييع الجثة الى مقرها الأخير •

قاعة الدفن فى جناح متهدم من معبد ضخم نمت فى ساحته بعض الأعشاب ، كان كل جناح يتاخم مبنى المعبد الرئيس ويحتوى على مجموعة من الغرف الصغيرة • امتلأت معظم هـــذه الغرف بالنعوش والمهمات الجنائزية ومعظمها قديم مهمل • وعادة مايترك النعش فى قاعة الدفن حتى تتمكن العائلة من الاعداد لنقله الى القبر المخصص له ، لكن كان هناك فى غرفة واحدة على سبيل المثـــال أربعة نعوش أحضرت منذ ما يقرب من عشرين عاما •• ولا أحد يدرى شيئا عمن يرقد فى تلك النعوش •

كانت غرفة « مى » غرفة متواضعة وأعيد ترتيبها بسرعة •• أدخل النعش •• ووضع الهيكل الى جواره • وعلق على الهيكل روح « مى » جلس « وانج » العجوز القرفصاء على منصة حجرية خارج الباب ، وأحرق أوراقا نقدية ، واســتندت الســيدة « جيان » على النعش وأخذت تبكى ، ووقف أخوها الصغير الى جوارها والدموع تسيل على خديه ، حاولت « تشن » مواســاة السيدة « جيان » ، لكنها تذكرت مدى الصداقة التى كانت تربطها « بمى » وفكرت فى المصير الذى آلت اليه « مى » الآن ، فلم تستطع السيطرة على نفسها، وانفجرت فى نواح مرير •

وقف « جيا ـ شن » مذهولا أمام الهيكل ، سمع بكاء الآخرين، وكان هو يبكى أيضا •• لكنه لم يعرف سبب بكائه ، خيل اليه أن « مى » لم تكن فى داخل النعش ، بل كان هناك انسان آخر •• انها مازالت تنبض بالحياة •• انها تنظر اليه نظرات تقطر ألما وحزنا ، وتشكو له حياتها البائسة • وبالرغم من دموعه الحارة اقتربت من

عينيه تلك الورقة الحمراء المكتوبة بالحبر الأسود المعلقة على لوح الروح ·· المرحومة أختنا «مى»··كلمات قاسية··لكنها واضحة·· ماتت « مى » · خلف الهيكل ، أخذت والدتها تبكى وتضرب بيديها على النعش · وصرخ أخوها الصغير :

·· أختى ·· أختى ·· أختى ··

أسندت « تشن » رأسها على ذراعها الأيمن ، واستلقت على النعش ، وأخذت تبكى فى هدوء ·· فحبها مهدد بلقاء نفس مصير « مى » ·

فاضت دموع « جيا ــ شن » بغزارة ، وفى هذه المرة كان يعلم سبب بكائه · مسح عينيه بمنديله ، لم يجرؤ على النظر أمامه مرة أخرى . خرج «جيا ــ شن» ·· ثم وقف على المنصة الحجرية وراقب العجوز «وانج» وهو يحرق نقود القرابين·جاء «جيا ــ خوى» من المعبد الرئيس يسير فى ثبات ، وبالرغم من صغر سنه نقد كان الوحيد القادر على شد أزر « جيا ــ شن » فى محنته ·· هكذا تصور « جيا ــ شن » أخاه فى تلك اللحظة ·

اتجه « جيا ــ خوى » الى أخيه وقال له :

ــ لنعد ، انتهى العجوز « وانج » من حرق النقود · تحولت النقود الى كومة من الرماد الأسود دفعته الرياح معها ، ثم سقط على الأرض وتبعثر فى شتى الاتجاهات ·

أجاب « جيا ــ شن » فى فتور :

ــ حسنا ·

استدار « جيا ــ شن » وذهب الى قاعة الدفن ، طلب والدموع فى عينيه من الآخرين الكف عن البكاء ، وظلت « تشن » تنوح فى

ألم . أما الأم فقد بكت حتى جفت الدموع من عينيها ، وأخذ أخوها الصغير ينادى من أعماقه :

ـ ٠٠ أختاه ٠٠ أختاه ٠٠

سجد الجميع أمام الهيـــكل ، وعندما هموا بالخروج صرخ الغلام الصغير فجأة :

ـ سنذهب يامى ٠٠ سنتركك وحيدة ! ما أقسى وحدتك فى هذا المكان الموحش !

سالت الدموع من عيونهم جميعا ، ضغطت « تشن » على يد الطفل الصغير لتواسيه ثم قادته الى الخارج ، كانت السيدة «جيان» قد هدأت قليلا ، لكن صراخ ابنها أشعل فى قلبها نار الألم والحزن ، وقف أمام الهيكل ونظرت الى الشموع والبخور ، ولوحة الروح ٠٠ وأخذت تنوح فى ضعف :

ـ أخوك على صواب يا « مى » ٠ ما أشد برودة هذا المكان ؛ وما أقسى وحشته ! عودى الى دارك الليلة ، من الأكيد أنك لم تنسى بيتك ٠ من الآن فصاعدا ســأوقد مصـــباحا فى غرفتك كل ليلة ليساعدك على معرفة الطريق ! لن أغير شيئا فى غرفتك ٠٠ « مى » ٠٠ حبيبتى « مى » ٠٠

وجدت الأم صعوبة بالغة فى مواصـــلة الحديث ، كانت تود قول الكثير ، ولكن كان فى القلب حسرة وفي الحلق غصة ، فسارت فى تثاقل ولحقت بالآخرين ٠

كان « جيا ـ شن » هو آخر من ركب المحفة ، التفت مرات كثيرة ونظر خلفه وهم راحلون ، رحل « جيا ـ خوى » بعدهم جميعا ، انه لا يسمح لرجل أن يحمله ٠٠ انه لم يركب قط محفة ٠٠ وسار على قدميه ٠

عاد « جيا ـ خوى » الى الغرفة الصغيرة ودار حول النعش ، كان يريد أيضا وداع « مى » لكنه لم يبك ، ولم يشعر بندم ٠٠ بل شعر بغضب يحرق صدره ، وقال بصوت هزه الألم والغضب :

ـ بالدموع ، بالكلمات ودعنا حياة شابة جميلة رحلت عنا الى الأبد ٠ آه يابنة العم « مى » ! لو استطعت اخراجك من نعشك وتمكنت من اعادة الحياة الى عينيك لأثبت لك أنك لم تموتى ٠٠ ٠٠ لقد قتلت يا « مى » !

الفصـــل الثلاثون

في مساء اليوم التالى ذهب « جيا ـ خوى » لزيارة « جيا ـ من » روى له المصير الذى انتهت اليه «مى» بكى « جيا ـ من » • تحدثا مالا يقل عن ساعة ، ثم رحل « جيا ـ خوى » • أوصله أخوه الى الباب ، عبر « جيا ـ خوى » مدخل الباب ، وفجأة ناداه « جيـــا ـ من » :

فعاد وسأل أخاه :

ـ ما الخبر ؟

فابتسم « جيا ـ من » ولم ينطق بكلمة •

قال « جيا ـ خوى » فى حنان :

ـ أنت وحيد ، أليس كذلك ؟ وأنا وحيد مثلك •• ليس هناك فى الدار من يلهمنى ، لقد دأبت ماما « خوانج » وزوجة أبى والفتيات على سؤالى عنك ، لكن طريقة تفكيرهم تختلف عنى وعنك ، لذا أشعر بعزلة تامة •• يجب أن أكون صـــبورا ، وكذلك أنت •• نصرك أكيد •

سالت الدموع على خدى « جيا ـ من » :

ـ أنا خائف بعض الشىء •

فاغتصب « جيا ـ خوى » ابتسامة مشجعة :

ـ مم تخاف ؟ لن تخسر •

ـ أنا خائف من الوحدة ٠٠ أشعر بوحشة غريبة !

ناضل « جيا ـ خوى » كي تبقى على وجهه سمات البشر والأمل

ـ أنسيت ؟ ٠٠ هناك اثنان يحاربان الى جانبك !

ـ لا شك أن مكانتكما في قلبي تجعلني دائما أتوق الى رؤيتكما ٠٠ لكنها لا تستطيع الحضور الى ، وهأنتذا الآن تتركني وحيدا ٠٠

ارتجفت عينا « جيا ـ خوى » ، وأشاح بوجهه حتى لا يرى أخوه الدموع في عينيه ، ثم ربت كتف « جيا ـ من » :

ـ كن صبورا ؛ فدوام الحال من المحال، ستنتصر ٠

جاء « تسون ـ رن » ووقف الى جوارهما :

ـ لماذا لا تتحدثان بالداخل يا رفاق ؟

وأضاف في ابتسامة رقيقة :

ـ يجب أن تكونا حريصين ٠

فحياه « جيا ـ خوى » وقال له :

ـ سأنصرف الآن ٠

وسمع وهو يبتعد « تسون ـ رن » يقول لأخيه :

ـ من الأفضل بقاؤك بالداخل ٠

أكد « جيا ـ خوى » لأخيه ٠٠ ستنتصر ٠٠ ولكنه أخذ يتساءل في مرارة ٠٠ هل من الممكن حقا احراز النصر ؟ كم سيستغرق هذا من وقت حتى يتم تحقيقه ؟ ٠٠ لكنه عندما وصل الى دار « تشـن » وصل الى قرار ٠٠ يجب أن نناضل حتى النهاية برغم كل شيء ٠٠ وليكن ما يكون !

حيا « جيا ـ خوى » عمته ، ثم ذهب الى غرفة « تشن » وقال لها مباشرة :

ـ قابلت « جيا ـ من » الآن ، طلب منى أن أطمئنك الى أنـه بخير •

كانت تكتب خطابا ، فأسرعت بوضع القلم وقالت :

ـ شكرا له ولك ، هذا خطاب كنت أكتبه له •

ابتسم « جيا ـ خوى » :

ـ لا حاجة بى الى القول بأنى سأوصل له هذا الخطاب من أجلك •

نظر « جيا ـ خوى » الى الخطاب ، فوجد كلمة ابنـة العم « مى » تتردد فيه عدة مرات :

ـ أتكتبين له عن ابنة العم « مى » ؟ لقد أخبرته بذلك • ما انطباعك عن وفاتها ؟

قالت « تشن » فى ثبات :

ـ قلت فى الخطاب : لن أكون «مى» أخرى مهما كانت الظروف لن تسمح أمى بذلك ، قالت لى أمى ذلك بعد أن شاهدت بالامس المآسى التى حدثت فى جنازة « مى » •• لقد هزها ما رأت ، وهى ترغب الآن فى مساعدتى •

بدا واضحا أن اليأس الذى لازم «تشن» فى الأيام الأخيرة قد زال عنها •

ـ هذه أخبار سارة • يجب أن تخبريه بذلك فورا •

حثها « جيا ـ خوى » على اتمام الخطاب ، وتسامرا بعض الوقت ، ثم عاد الى منزل « تسون ـ رن » •

سر « جيا ـ من » و « تسون ـ رن » بهذه الأنباء ، تحدث الثلاثة قرابة ساعة، وكان التفاؤل طابع جميع الموضوعات التى تناولوها، ثم عاد « جيا ـ خوى » الى بيته •

دخل « جيا ـ خوى » الدار ، فوجد جماعة صغيرة من الناس تتجمع خارج نافذة جده وقد امتدت أعناقهم ، وأخذوا يصغون لما يدور بالغرفة ، كان هذا شيئا مألوفا فى عائلة « جاو » ، لم يلق « جيا ـ خوى » أى انتباه لما شاهده، واتجه الى القاعة الكبرى ، وهم بدخول غرفة جده ، لكنه سمع امرأة تبكى بالداخل ، انها السيدة « شين » زوجة عمه « كا ـ دنج » ، ثم تلا ذلك صوت جده ينذر ويتوعد ويسعل •

بقى « جيا ـ خوى » خارج الغرفة وقال لنفسه :

ـ كنت أتكهن بحدوث مهزلة عاجلا أو آجلا •

أخذ صوت الشيخ المبجل يرتعش من الغضب :

ـ أعيدوه الى ! سترون كيف أعاقبه ! ••• لقد عانيت الكثير من وقاحته !

أصابته نوبة سعال اختلط هو وبكاء السيدة « شين » •

تردد صوت خشن فى قسوة عدة مرات •• نعم •• نعم •• نعم ، ثم دفعت ستارة الباب وظهر العم « كا ـ منج » وقد احمر وجهه ، وفى تلك اللحظة كان «جيا ـ خوى» قد غادر القاعة •

وقفت « شو ـ خوا » خارج النافذة بين المتفرجين ، وعندما رأت « جيا ـ خوى » توجهت اليه وسألته :

ـ أخي الثالث ، أتعلم شيئا عن العم « كا ـ دنج » ؟

أومأ « جيا ـ خوى » برأسه :

ـ علمت بذلك منذ زمن ٠

سألها في صوت خفيض ومد شفتيه تجاه غرفة جده ٠

ـ كيف اكتشفوا المسألة ؟

أجابت الفتاة بطريقة مسرحية :

ـ لعمي الخامس محظية خارج الدار ، أجر عمي لهذه المحظية شقة خاصة ، لم يعرف بذلك أى فرد فى العائلة ، لقد أخذ كل مالدى عمتى الخامسة من ذهب وفضة ومجوهرات ٠٠ قال لها : انه أعطاها صديقا كى ينقل تصميمها ، وعندما ضغطت عليه العمة الخامسة ليعيدها اليها زعم أنها ضاعت منه ، وقد دأب فى الأشهر القليلة الماضية على الخروج كل يوم ، وكان يعود فى وقت متأخر من الليل ٠٠ كانت العمة الخامسة مشغولة بمباريات «المار ـ جيانج» ولم تلحظ أى شيء ٠ لكنها صباح البارحة وجدت صورة امرأة فى جيبه ٠سألته عنها ، لكنه رفض الاجابة ٠ وتصادف أن ذهبت العمة الخامسة مساء البارحة لشراء بعض الحاجات ، فشاهدت امرأة تنزل من محفة العم « كا ـ دنج » أمام البواكى ويسير خلفها « جاو ـ تشونج » خادم العم « كا ـ دنج » ٠

افتعلت العمة « شين » عذرا لابقاء الخادم « جاو ـ تشونج » فى البيت ، وأجبرته على الاعتراف ، لقد رهن بعض مجوهراتها ، وأهدى بعضها لتلك المرأة ٠٠ اشتكت العمة « شين » لجدنا ٠٠ وتبين أن محظية عمنا « كا ـ دنج » عاهرة ٠ واسمها « الاثنين »٠٠ ويقال : ان العم « كا ـ دنج » بدأ يدخن الافيون وأدمنه ٠ ومحظيته تتناول الأفيون كذلك ٠

استمرت « شو - خوا » فى ثرثرتها بلا توقف ، كان واضحا أنها تتلذذ بذكر الفضيحة ، لم يهتم « جيا - خوى » أو يدهش لما سمعه ، فهو يعرف جيدا ضعف عائلته وحتمية انهيارهـــا ، ولا يستطيع انسان أن يحول دون ذلك ·· ولا حتى جده ·· فجده ينهاربسرعة ·· شعر « جيا - خوى » أنه الوحيد الذى يدرك الحقيقة ويعيش فى نورها ، ان قواه العقلية تسبق بكثير عائلته المتهاوية ·

شعر « جيا - خوى » فى هذا اليوم بحماس لم يسبق له مثيل ، فالصراع المزعوم بين الآباء والابناء حول الحـــرية وحب المعرفة سينتهى نهاية سعيدة ، فعصر تلك المآسى مثل مأساة «مى» سينتهى ويفسح المجال لعصر جديد ، عصر فتيات أمثال « تشن » أو عصر أكثر تطورا مثل عصر « جيان - رو » ، عصر « جيـــا - من » ·· وعصره · لن يهزم شباب عصره أمام العائلات القديمـة المنحلة الضعيفة ·· المجرمة ·· النصر أكيد · لقد آمن بالنصر ايمانا راسخا ·

هز « جيا - خوى » نفسه فى عنف ، وكأنه ينفض عن نفسه سنوات طويلة من المرارة والألم ، نظر حوله فى كبرياء وتحد ودار بخلده :

- لننتظر ونر أيتها العائلة العريقة ·· نهايتك قادمة لا ريب فيها !

وبطبيعة الحال لم تدرك « شو - خوا » شيئا مما يدور بخلد « جيا - خوى » ، لم يجبها بكلمة · شعرت أن لديه مايشغل باله ·· أسرعت بالعودة الى مكانها السابق خارج النافذة لتسترق السمع لما يدور بالداخل ·

ذهب « جيا ــ خوى » الى غرفته ، وبعد فترة قصيرة شاهد عمه « كا ــ منج » يسحب خلفه عمه « كا ــ دنج » ، ثم تلا ذلك صوت كالرعد من غرفة جده يهدد ويتوعد • وبطبيعة الحال كان هذا موجها الى عمه « كا ــ دنج » ، وأخيرا توقفت تلك الاصوات وبدأ الانفعال واضحا على الواقفين خارج نافذة الشيخ المبجل «جاو» فقد حدثت بعض التطورات غير المتوقعة •

دمدم « جيا ــ خوى » •

ــ كنت أقول دائما : ان عائلتنا مغرمة بالمهازل •

ارتفعت أصوات الواقفين خارج النافذة ، واندفع الرجال والنساء لاهثى الأنفاس لينشروا ما حدث •

اندفع « جيا ــ تشون » أحد أبناء عمومة « جيا ــ خوى » فى الفناء ، ثم توقف فجأة ليبلغ أحد أبناء عمومته « جيا ــ أنج » بما شاهدت عيناه •

ــ جدى يضرب العم « كا ــ دنج » •• !

سأله « جيا ــ أنج » :

ــ حقا ؟ لكن لماذا تجرى هكذا ؟

ــ يجب أن أخبر أخى السادس ليحضر ويتفرج •• رجل كبير مثل العم « كا ــ دنج » يأخذ علقة ! .

ضحك « جيا ــ تشون » وواصل جريه •

أخيرا غلب حب الاستطلاع « جيا ــ خوى » على أمره ،فذهب الى غرفة جده • كان هناك ثلاثة أشخاص ينظرون خلسة من خلال ستارة الباب فسدوا المدخل • لم يرغب « جيا ــ خوى » فى

مضايقتهم ، فتركهم وشأنهم • ذهب الى النافذة ، فوجد هناك عددا كبيرا من الناس تجمع ليصغى الى ما يجرى • أحضر عدد قليل منهم كراسى وركبوا فوقها ليختلسوا النظر من خلال الفتحات الصغيرة فى ألواح الورق التى على النافذة •

لم يكن هناك أى صوت يدل على الضرب ، ولم يسمع داخل الغرفة سوى صوت الشيخ المبجل « جاو » الغاضب :

ـ رجل فى مثل سنك له ابنة كبيرة لم يتعلم بعد كيف يتصرف ؟ يالك من مثل طيب يقتدى به أبناؤك ! ••• « شو ـ تشين » •• يجب أن تخجلى من أبيك •• انه ليس جديرا بأن يكون أباك !

لم يستطع « جيا ـ خوى » منع نفسه من الضحك •

أصابت الشيخ الجليل نوبة سعال ، فتوقف قليلا ، ثم استأنف محاضرته الغاضبة :

ـ أنت عديم الاحساس • ما جدوى تعليمك ؟ تخدع زوجتك وتأخذ حليها ، ثم ترهنها •• ايه ! اعطيك مهلة ثلاثة أيام لاعادة المجوهرات •

واصل الشيخ المبجل « جاو » تعنيفه « لكا ـ دنج » وأخيرا قال له :

ـ أنت يا حيوان ! كنت أدللك لأنك كنت طفلا ماهرا ، لم أتصور قط أنك سترتكب مثل هذه الفضائح ، أهكذا تكافئنى على صنيعى ؟ تخدعنى يا سافل ! اصفع وجهك ! الطم خديك بيديك !

سمع صوت عنيف ليد تلطم خدا •• أسرع « جيا ـ خوى»

بالعودة الى غرفة جده وهمس لأخته « شو ـ خوا » التى انحنت الى الأمام ، وأخذت تنظر من ستارة الباب · تخطاها « جيـــا ـ خوى » ووقف بالباب ·

ركع « كا ـ دنج » وأخذ يلطم خديه بشدة ـ فاحمر وجهــه النحيف الشاحب من اللطمات ، لم يخجل العم « كا ـ دنج » برغم وجود زوجته وابنته أمامه ، واستمر فى لطم خديه ·

لم يكتف الشيخ المبجل « جاو » بهذا الاذلال ، وطلب من « كا ـ دنج » أن يروى بالتفصيل قصته القذرة ·· كيف اختلط برفاق السوء وبدأ ينزلق ·· علاقته بالعاهرة والمسكن الذى أجره لها وكيف رهن المجوهرات ؟

أخذ « كا ـ دنج » يسب نفسه ، وكشف عن جميع خباياه حتى الأشياء التى لا يدرى عنها الشيخ الكبير أى شيء ·· لقد ورط نفسه فى ديون كثيرة بعضها بسبب القمار ·· وحصل على قرض اعتمادا على اسم الشيخ المبجل « جاو » ، وساعده أخوه « كا ـ آن » فى كل هذا ، وفى الواقع كان « كا ـ آن » مسئولا الى حد كبير عن توريط « كا ـ دنج » فى هذه الديون ·

دهش الشيخ الكبير ، وحتى « جيا ـ خوى » لم يكن يتصور أن الأمور ستصل الى هذا الحد ·

لم يستطع « جيا ـ خوى » منع نفسه من التأثر للفارق الكبير القائم بين عمه الخامس « كا ـ دنج » وأخيه «جيا ـ من » · «جيا ـ من » ابن التاسعة عشرة محاط بالأعداء ، ولا يشد أزره ســـوى ثقته فى نفسه ونخوته ، وبرغم كل هذا يحارب ببسالة ، ووقفت العائلة جميعها عاجزة أمامه ، أما « كا ـ دنج » برغم تجـــاوزه الثلاثين من عمره ، وبرغم كونه أبا لفتاة فى الثالثة عشرة من

عمرها ·· فيركع على الأرض ويلطم خديه ، ويسب ويهين نفسه ، ويورط غيره معه ، ولا يبدى قولا أو فعلا أىقدر من المقاومة ! نفذ أوامر والده بلا تردد برغم عدم اقتناعه بما يقوله والده · ما أشد الفارق بين موقف أخيه وعمه أمام تهديدات الشيخ المبجل العنيد! شعر « جيا ــ خوى » بالفخر بجيله ، جيل « جيا ــ من » · نظر الى « كا ــ دنج »وأخذيفكر فى كبرياء وغرور ·· ليس فى جيلنا أمثالك ، جيلك أنت فيه من هم على شاكلتك ·· ثم أسرع بمغادرة مكانه ·

طلب الشيخ المبجل وهو يسعل من « شو ــ تشين » البحث بسرعة عن « كا ــ آن » · عادت الفتاة بعد بضع دقائق وقالت : ان عمها خارج الدار ؛ ثار الشيخ الكبير وأخذ يسب ويلعن ويضرب المنضدة بقبضته وقال « لشو ــ تشين » :

ــ أين عمتك الرابعة ؟ استدعيها فورا ·

كانت السيدة « وانج » ربة الأسرة الرابعة تقف خارج النافذة فسمعت ما قيل · وعندما رأت « شو ــ تشين » تتجه نحوها ، حاولت السيطرة على نفسها برغم ما انتابها من خوف ودخلت ·

سألها الشيخ المبجل فى صوت مرتفع عن المكان الذى ذهب اليه زوجها ، فأجابته بأنها لا تعرف ، سألها عن موعد عودته ، فقالت : انها لا تعرف ·

صاح الشيخ الكبير :

ــ لم لا تعرفين يا بلهاء ؟

شعرت السيدة « وانج » بالغضب والحيرة ، فحنت رأسها فى صمت ، وخيل اليها أن السيدة « تشين » نظرت اليهـــا فى

امتعاض . ودت الرد على تصرف المحظية العجوز المستطيلة الوجه لكنها لم تجرؤ على فعل ذلك أمام الشيخ المبجل ، بل لم تجرؤ حتى على البكاء .

أصابت الشيخ الكبير نوبة سعال حادة ، فربتت السيدة « تشين » ظهره بخفة وقالت فى الحاح :

ـ دعك منهم ولا تقلق نفسك بسببهم ، انهم لا يستحقون ذلك !

ومع مرور الوقت هدأ الشيخ العجوز ، وحل محل الغضب شعور غريب بالانقباض والكآبة لم يشعر بمثله من قبل .

أرهق الشيخ الكبير ، فاستلقى على الأريكة .. انه لا يرغب فى رؤية أحد منهم .

فأشار بيده فى ضعف ، وقال بصوت خفيض :

ـ اغربوا عن وجهى جميعا ، لا أطيق النظر اليكم .

كان الجميع ينتظرون هذا الأمر على أحر من الجمر . نهض « كا ـ دنج » من على الأرض ، وانسحب على أطراف أصابعه ، ترك الشيخ المبجل « جاو » مع محظيته « تشين » ، لكنه لم يحتمل بقاءها هى أيضا .. فكل ما يحتاج اليه شيء من السلام والهدوء أبعد السيدة « تشين » ، واستلقى على الأريكة يلهث فى ضعف .

فتح عينيه ، فشاهد وجوها مختلفة الأشكال تتزاحم حوله . لم يجد فى عينى أحدهم نظرة حب ، شاهد أبناءه غارقين فى الخمر والنساء ، يسخرون منه ويلعنونه فى الخفاء ، وكان هناك حفدته يشقون فى كبرياء طريقا جديدا لهم ويتركونه وحيدا ضعيفا خائر القوى غير قادر على الوقوف فى طريقهم .

لم يشعر طوال حياته بمثل هذا اليأس ولا تلك الكآبة ٠٠ هل تحولت آماله جميعا الى أحلام عقيمة ؟ لقد بنى عائلته حتى كبرت وازدهرت ٠ سيطر على كل شيء بلا رحمة معتقدا أن عائلته ستستمر فى ازدهارها ٠٠ وأخيرا أثمرت له جهوده العنيفة ٠٠ الوحدة ٠٠ وبالرغم من استخدامه لقواه المضمحلة الى أقصى حد ليحتفظ بسيطرته على الأمور فان عجزه عن بلوغ ذلك أصبح واضحا تمام الوضوح ٠

من الأكيد أن العائلة تنزلق الى هوة عميقة ، ان لديه شعورا خفيا بالمصير الذى ستنتهى اليه عائلته ٠٠ سيحدث ذلك قريبا ولا سبيل أمامه كى يحول دون ذلك ، أخذ الشيخ المبجل يقيم عائلته الغنية التى أمضى سنوات طويلة من عمره فى بنائها ، فلم يجد سوى العقم والفراغ !

استلقى على الأريكة ضعيفا منهكا ، وأدرك لأول مرة مكانته الحقيقية فى العائلة٠انه لم يفقد كبرياءه فقط، بل ان الناس الذين اعتمد عليهم لتدبير شئون الحياة اليومية للعائلة أثبتوا عدم أهليتهم لثقته ، شعر لأول مرة فى حياته بخيبة الأمل ، وبمرارة الحقيقة٠غرق فى بئر من اليأس الكئيب المظلم وتيقن٠٠ولأول مرة فى حياته أيضا أنه ارتكب أخطاء جساما ، لكنه لم يعرف ما تلك الأخطاء ؟ فلا جدوى من ذلك ٠٠ لقد تأخر كثيرا ٠٠ كثيرا جدا ٠

خيل اليه ان « كا ــ دنج » يتشاجر هو وزوجته ٠٠ السيدة « تشين » ، تسب شخصا ما ٠٠ فى كل مكان بداره ٠٠ شجار ٠٠ نفور ٠٠ شتائم ٠٠ وضع يديه على أذنيه حتى لا يسمع شيئا ، لم ترحمه تلك الأصوات ، وأخذت تطبق عليه فى عنف ٠٠ يجب أن يجد مكانا يختبىء فيه ! ناضل للوقوف على قدميه ، وترنح متجها نحو السرير ٠٠ وفجأة دارت الغرفة به ٠ اهتز فى عنف

واسودت الدنيا فى عينيه . لم يدرك شيئا مما حوله .. أخرجته من غيبوبته صرخة خوف أطلقتها السيدة « تشين » حين رأت الشيخ المبجل « جاو » على هذه الحال .

مرض الشيخ المبجل « جاو » :

استلقى فى فراشه يئن من الألم ، زاره عدد من الأطباء المشهورين ، وشرب دواء أسود مرا ، وقال الاطباء فى اليومين الأولين من أزمته : ان مرضه غير خطير .. امتثل الشيخ المبجل لأوامر الطبيب وشرب دواءه بانتظام، لكن حالته ازدادت سوءا ، رفض فى اليوم الثالث تناول الدواء ، لكنه وافق بعد الحاح « كا ـ منج » و « جيا ـ شن » .

جلس « كا ـ منج » مع الشيخ العجوز طوال اليوم تاركا شئون مكتبه القانونى لسكرتيره ومحام آخر . بقى « كا ـ آن » بعض الوقت فى البيت ، لكنه كان يذهب أيضا الى المسرح ومسكنه الخاص الذى يحتفظ به فى الخارج .

انتهز « كا ـ دنج » فرصة مرض أبيه للتردد على عش غرامه يشرب الخمر ويلعب « المار ـ جيانج » ويطارح عشيقته الغرام ،وكان يلتقى هو والشيخ العجوز كالمعتاد فى الصباح والمساء ليقدم له تحيته الرسمية .

وفى الواقع لم يعكر مرض الشيخ المبجل « جاو » صفو أى فرد فى العائلة .. فاستمروا فى ضحكاتهم وشجارهم وخصوماتهم كما كانوا من قبل ، وحتى الأفراد القلائل المهتمون بأمره لم يعتقدوا خطورة حالته بالرغم من ضعفه المتزايد يوما بعد آخر .

عندما عجز الطب عن شفائه لجأت العائلة الى الدجل والخرافات فبعض الناس يلجئون الى الأشياء الخارقة للطبيعة عندما يفقدون

الثقة وينتابهم الخوف • ويتخذ هذا صوراكثيرة معقدة •• صورا اخترعها ضعاف العقول ويصدقها آخرون من ضعاف العقول مثلهم•

اقترحت السيدة « تشين » اقامة حفلة ، ووافق علىاقتراحها بقية سيدات العائلة ، وبارك هذا الرأى رجال العائلة ، وقال السادة المحترمون •• ورد هذا فى كتب الحكماء !

بدأ الرهبان الاحتفال بدق الطبول والصاجات وترتيل الصلوات فى القاعة الرئيسة ، وفى المساء وفى سكون الليل صلت السيدة « تشين » فى فناء الدار •• أخذ « جيا ـ خوى » يرقبها فى شغف من نافذته ، لقد ارتدت السيدة ثوبها الرسمى الأحمر •• وركعت على ركبتيها أمام شمعتين ومبخرة تحترق فيها تسع عصى من عيدان البخور •• تمتمت بصلوات ودعوات طيبات ثم أخذت تنهض وتسقط على ركبتيها المرة تلو الأخرى والليلة تلو الليلة ، لكن صحة الشيخ المبجل « جاو » لم تتحسن !

قال « جيا ـ خوى » لنفسه فى غضب :

ـ أيتها المرأة الغبية ! انك لا تصلحين لشىء سوى اقامة عروض هزلية !

وافق أبناء الشيخ المبجل « جاو » الثلاثة « كا ـ منج » و « كا ـ دنج » و « كان ـ آن » على نصيحة أخرى تقضى بتقديم القرابين : فى منتصف الليل حل محل مبخرة السيدة « تشين » هيكل وضعت عليه شموع طويلة ، وكثير من البخور وأدوات القرابين ، أدير الحفل بجدية تامة ، لكن الابناء الثلاثة غالوا فى وقارهم فبدت تصرفاتهم مضحكة تبعث على السخرية : ركع الاخوة الثلاثة وسجدوا ، لكنهم انتهوا من ذلك فى وقت أقصر من الوقت الذى استغرقته السيدة « تشين » فى ذلك • احتقر « جيا ـ

خوى » أعمامه الثلاثة والسيدة « تشين » ، فهو يعلم علم اليقين أن عمه « كا ـ آن » كان فى المسرح منذ ساعات قليلة يداعب الممثلات اللاتى حظين باعجابه ، وأن « كا ـ دنج » كان يلعب القمار ويشرب الخمر فى عش الغرام ، ان ركوعهم وصلواتهم واستعدادهم للموت بدلا من أبيهم رياء مكشوف ممقوت !

تصور « جيا — خوى » أن تفانين عائلته قد انتهت ، واذا بهم يخترعون برنامجا جديدا •• استدعوا عرافا ليطرد الشياطين !

وفى احدى الليالى ، وبعد حلول الظلام بقليل ـ أمر « كا ـ منج » باحكام اغلاق الأبواب ••• تحولت الدار الى معبد قديم مسحور ، وصل الى الدار عراف نحيف الوجه يرتدى ثيابا غريبة ويصرخ صرخات مدوية ، ويخرج ألسنة من النيران ، كان صورة طبق الأصل لممثل يؤدى على المسرح دور الشيطان ، جرى فى جنبات الدار محدثا كل ما يمكن تصوره من أصوات وحركات مخيفة ، اقتحم شقة الجد المريض ، وأخذ يقفز ويتطوح ويلقى بكل ما تقع عليه يداه الى الأرض ، ألقى نيرانا مشتعلة فوق سرير المريض ، أخذ الشيخ المريض يئن تحت وطأة الألم والصراخ والرعب الذى حاق به • لكن العراف لم يرتدع ، ولم يكف عن تصرفاته الهستيرية وتمادى فى حركاته الجنونية ، وأخذ يؤدى حركات تهديد ووعيد فى وحشية جعلت الشيخ العجوز يصرخ من الفزع ، وامتلأت الغرفة بدخان كثيف أسود ورائحة غريبة •

استغرق العراف فى عمله هذا قرابة ساعة ، وأخيرا رحل وهو مستمر فى عوائه • ساد السكون الدار فترة من الوقت ، ثم أخذت الأصوات المألوفة تتردد فى جنبات الدار •

كان هناك ما هو أدهى وأمر : لقد طردت الشياطين فقط من غرفة المريض ، وليس فى هذا الكفاية ، فالدار مملوءة بالشياطين

هناك شياطين ·· شياطين كثيرة فى جميع الغرف ، تقرر اجراء تطهير شامل فى مساء اليوم التالى · قال العراف : انه بهـــذه الوسيلة فقط يمكن الشيخ المبجل استعادة صحته ·

لم يؤمن الجميع بذلك ، كان هناك بعض المعارضين لشــن حملة أخرى ضد الشياطين ، ولكن أحدهم لم يجرؤ على معارضـة هذا الأمر علانية ، لم يجبن « جيا ـ خوى » عن ابداء رأيه ، لكن أحدا لم يعطه أذنا مصغية ·

أعدت الترتيبات لبدء المهزلة الثانية ، فكل غرفة فى الدار أصبحت عرضة لهذه التصرفات المفزعة المخيفة ، ابتعد الجميع عن طريق العراف ، صرخ الأطفال ، وتألمت النساء وهز الرجــال رءوسهم ·

جلس « جيا ـ خوى » فى غرفته يستمع الى الضجة والصراح الفاضح المنبعث من شقة زوجة أخيه ، فأخذ يسب ويلعن فىغضب أحس بعبء فوق صدره ، وأراد التخلص منه ·· انه لا يقبل الاشتراك فى هذه المسرحية المخزية · انتهى « جيا ـ خوى » الى قرار ·· أغلق بابه باحكام ، وجلس فى هـــدوء ، وانتظر فى صبر ·

لم ينتظر « جيا ـ خوى » طويلا ، جاء العراف الى غرفتهفوجد الباب مغلقا ·· دق الباب فى عنف ، وساعده الخدم فى ذلك ، لم يحرك « جيا ـ خوى » ساكنا ، ولم يجب بكلمة ·· بدءوا فى دفع الباب وهم ينادون :

ـ سيدى الفتى الثالث !

صرخ « جيا ـ خوى » :

ـ لن أفتح ! ليس هنا شياطين !

ثم استلقى فى سريره ووضع يديه على أذنيه ، وفجأة دفع شخص ما الباب فى عنف ، فاعتدل فى جلسته ، واحمر وجهه من الغضب ٠٠ خيل اليه أنه رأى شعر « منج ـ فونج » المتهدل ووجهها المخضب بالدموع !

صاح « جيا ـ خوى » :

ـ أوقفوا تلك الجلبة ! ماذا تفعلون ؟

سمع « جيا ـ خوى » صوت عمه « كا ـ منج » ينادى :

ـ الفتى الثالث ، افتح الباب ٠

وتلا ذلك صوت السيدة « تشين » :

ـ الفتى الثالث ، افتح الباب ٠

أخذ « جيا ـ خوى » يحدث نفسه :

ـ هأنتم تتكالبون على !

ثم أجاب فى ضيق :

ـ ولو ! ٠٠ لن أفتح ٠

ثم ابتعد عن الباب ٠ شعر برأسه يكاد ينفجر ٠ وأخذ يدمدم :

ـ أنا أكرههم ٠٠ أكرههم !

لكنهم لم يتركوه وشأنه ، أخذت أصواتهم تلاحقه فى حدة وعنف :

ـ ألا تريد شفاء جدك ؟ افتح الباب ! ‥ أين احساسك بالواجب ؟

انه صوت السيدة « تشين » الحاد النبرات ‥ ان « جيا ـ خوى » يشعر بكراهية دائمة لهذا الصوت ‥ صدمه صوتها وجرحه فى قسوة ، فزاد من نيران غضبه ·

قال العم « كا ـ منج » :

ـ كن عاقلا يا بن أخى ، اننا نريد جميعا شفاء رأس العائلة وأنت ولد عاقل ‥

قاطع « جيا ـ شن» ـ عمه « كا ـ منج » :

ـ افتح الباب يا أخى الثالث ، فأنا أود الحديث اليك ·

فكر « جيا ـ خوى » فى مرارة :

ـ وأنت أيضا ! ألا يكفينا أن تكون أنت جبانا ···

تمزق قلب « جيا ـ خوى » من الألم ، وقال لنفسه :

ـ حسنا ، فلتكن مشيئتك ·

ثم فتح الباب على مصراعيه ‥ رأى « جيا ـ خوى » أمامه وجوها ممتقعة غاضبة ‥ تقدموا نحوه وعلى رأسهم العراف ·

ارتعشت وجنتا « جيا ـ خوى » ، وارتعش صوته ،وسألهم فى كبرياء :

ـ الى أين ؟ ولم العجلة ؟ ماذا تظنون أنفسكم فاعلين ؟

تفرس وجوههم بنظرات مملوءة بالحقد والكراهية ، هبط عليهم سؤاله كالماء البارد ، فتجمدوا فى أماكنهم ، غمغم العم

« كا ـ منج » ببضع كلمات عن طرد الشياطين بطريقة ان دلت على شيء فهى تدل على عدم اقتناعه بما يقول :

قالت السيدة « تشين » وهى منتصبة القامة مثقلة بالعطور:

ـ اننا نطرد الارواح الشريرة من أجل جدك ·

ثم أشارت للعراف بالدخول ·

واذا « بجيا ـ خوى » يقذف فى وجهها بتلك الكلمات :

ـ لقد جننت وفقدت عقلك ، أنت لا تطردين الأرواح الشريرة بل تطردين جدنا من داره وتدفعين به ألى القبر ! أنت تخافين ألا يعجل المرض بموته ؛ لذا تحاولين قتله باذاقته ألوانا من القلق والخوف !

ـ أنت ! ···

نطق « كا ـ منج » بتلك الكلمة ، ولم يستطع اكمال حديثه وامتقع لونه من شدة الغضب ·

صاح « جيا ـ شن » محذرا :

ـ أخى الثالث !

ركز « جيا ـ خوى » نظرته على أخيه الكبير وقال :

ـ أما أنت ! ··· أفلا تخجل من نفسك ! كيف يهبط رجل متعلم مثلك الى هذا الحد من الغباء ؟ يمرض جدك فتستدعى له عرافا ! ··· لا حرج عليكم اذا كنتم تستمتعون بهذا اللون من السخافات ، لكن لا تجعلوا جدنا مادة لتلك السخافات على حين تزعمون أنكم تحترمونه ! لماذا لا تدعونه ينعم بشيء من الراحة ؟ شاهدت الطريقة التى أفزعه بها العراف فى الليـــلة الماضية ·

لكنكم لم تكتفوا بذلك • واليوم تعيدون الكرة • أقولها صراحة ••
انكم لا تطردون الأرواح الشريرة ، انكم تحـــاولون قتله • أنـــا
أحذركم •• أول من تطأ قدمه أرض غرفتى سأحطم له وجهه ••
أنا لا أخاف أحدا منكم !

كانت كلمات « جيا ــ خوى » المتطرفة ستجلب عليه حتما عواقب وخيمة لو أن الاحوال كانت عادية فى تلك الليلة العصيبة، كان عنف هجومه سببا رئيسا لانتصاره • وقف « جيا ــ خوى » شامخا مهيبا يسد باب غرفته ، لمعت عيناه ببريق الكبرياءوالايمان انهم كبار عائلته وها هو ذا يقف أمامهم فى تحد ، لكنه شـــعر فى قرارة نفسه أن لا ذنب له فى ذلك •• فهم الذين جلبوا ذلك على أنفسهم بتصرفاتهم الحقيرة •

شعر « كا ــ منج » بالخزى ، فكان أول من حنى رأســـه فى خجل • انه يعلم أن « جيا ــ خوى » محق فى قوله • وهـــو يعلم أيضا أنه لا فائدة ترجى من عملية طرد الارواح وهى مسألة ضارة من بدايتها الى نهايتها ، لكنه اشترك فى هذه المسألة دون اقتناع حتى يؤكد للأصدقاء والأقارب أنه بار بأبيه • جعلته تلك المشاعر غير قادر على مواجهة « جيا ــ خوى » ، فانصرف دون أن ينطق بكلمة واحدة •

شعر « جيا ــ شن » بالغضب والامتهان • سالت الدموع على خديه ، وعندما رأى عمه « كا ــ منج » ينصرف تبعـــه فى صمت •

والسيدة « تشين » امرأة لا حول ولا قوة لها ، وهى تستمد قوتها من الآخرين • ورحيل « كا ــ منج » تركها دون سند ، خافت أن تفتح فمها بكلمة واحدة وان كانت فى الواقع تؤمن بجدوى عملية طرد الأرواح ، وهى مخلصة فى اهتمامها بمرض الشـــيخ

الكبير وحريصة على شفائه ٠٠ لم تفهم موقف « جيا ـ خوى » ، وشعرت بكراهية شديدة له ،لقد أهانها علانية ، وأمـــام أناس كثيرين ، لكنها لم تجرؤ على تحد « جيا ـ خوى » وقد غاب عنها الشيخ المبجل « جاو » ° وحتى « كا ـ منج » تركها وانصرف ! ٠

انصرفت السيدة « تشين » وقد جرح كبرياؤها ، وأخذت تلعن فى سرها عقوق الحفدة لأجدادهم ٠

تفرقت الجماعة الباقية ، لم يقدم أحدهم العون للعراف ، وبالرغم من تذمر العراف وما أبدته بعض سيدات العائلة من تذمر فان « جيا خوى » أحرز تلك المرة نصرا كاملا لم يحلم به قط ٠

فى تلك الليلة نام « جيا ـ خوى » هادىء البال قرير العين٠ ثم ذهب صباح اليوم التالى لزيارة جده واضعا فى حسبانه أنـه سيحظى على أقل تقدير ببعض الشتائم ٠

أزيحت ستارة السرير الى منتصفها ، فكشفت عن الشـــيخ الكبير حتى وسطه ٠ كان وجهه شاحبا نحيفا بدرجة كبيرة ، وفمه مفتوحا فى ارتخاء ، بدت عيناه الكبيرتان غائرتين فى عظام خديه البارزة ، وأخذ يغلق عينيه فى ضعف بين الحين والآخر ٠ بدا الجد أمام حفيده « جيا ـ خوى » ضعيفا مثيرا للشفقة ٠٠ انـه لم يعد بعد الشيخ المبجل « جاو » ذا الرهبة والصولجان ٠

تنفس الجد فى صعوبة ، وعندما دخل « جيا ـ خوى »غرفته فتح عينيه ونظر اليه ٠٠ تهادت فى بطء ابتسامة حب على وجـــه الشيخ الجليل ٠٠ ابتسامة شوق وضعف ٠

قال الشيخ المبجل « جاو » :

ـ آه ٠٠٠ ! هأنتذا قد أتيت ٠

لم يرحب الشيخ الجليل « بجيا ـ خوى » طوال حياته بهذا القدر من الود والترحاب ·

دهش « جيا ـ خوى » لهذا التحول ·

قال الشيخ الجليل فى صعوبة بالغة :

ـ أنت ولد طيب ·

اقترب « جيا ـ خوى » منه ومال نحوه ، ردد الشيخ العجوز فى ضعف :

ـ أنت ولد طيب يقولون : ان لك ميولا خاصة ·· اجتهد فى دراسة كتبك ·

استمر الشيخ المبجل « جاو » فى حديثه ببطء :

ـ لقد اتضحت لى الآن حقائق الأمور · هل شاهدت أخاك الثانى ؟ آمل أن يكون بخير ·

وترقرقت الدموع فى عينيه ·· كانت المرة الأولى التى يرى فيها « جيا ـ خوى » ، جده طيبا حنونا ·· أجابه « جيا ـ خوى »:

ـ نعم ··

مسح الشيخ المبجل « جاو » عينيه بيده

ـ كنت مخطئا ··· أود رؤيته · أسرع باعادته الى داره ، لن أعكر صفوه بعد ذلك ·

لاحظت السيدة « تشن » التى انتهت من تصفيف شعرها وتحمير خديها ورسم حاجبيها هذا المشهد عندما قدمت من الغرفة المجاورة ، قالت « لجيا ـ خوى » فى تأنيب :

ـ الفتى الثالث ، أنت لست صغيرا ، ويمكنك ادراك أنـــه ليس من اللائق ازعاج جدك وهو على فراش المرض ٠

قال الشيخ الكبير بسرعة :

ـ لا تؤنبيه ٠٠ انه ولد طيب ٠

ابتعدت السيدة «تشين» فى غضب وضيق ، أخذ الشـــيخ الكبير يحث « جيا ـ خوى » :

ـ عد بالأخ الثانى فورا ٠٠ فأنا لم أره منذ زمن ٠ أخبره أننى صرفت النظر عن مسألة زواجه من عائلة « فونج » ٠ أنا أخشى ألا أعيش طويلا ٠أريد أن أراه ٠٠ أريد رؤيتكم جميعا ٠

ترك « جيا ـ خوى » جده ، وذهب مباشرة الى غرفة أخيـه « جيا ـ شن » ٠ كان « جيا ـ شن » يتحدث مع زوجته فى بعض المسائل وقد بدا عليهما القلق، تذكر « جيـــا ـ شن » حادثة الأمس ، فأغلق عينيه فى حيرة عندما رأى « جيا ـ خوى » يقترب منه ٠

صاح « جيا ـ خوى » مهللا لحظة دخوله الغرفة :

ـ طلب منى جدنا احضار « جيا ـ من » ٠ اعترف بأنه كان مخطئا ٠

رفع « جيا ـ شن » رأسه فى دهشة وفرح وتساءل :

ـ حقـا !

لم يستطع تصديق أذنيه ٠

قال « جيا ـ خوى » ووجهه ينطق بالرضا والبشر :

ـ طبعا ··· انه نادم الآن · قلت لك : اننا سننتصر ، وهأنتذا ترى ··· انتصرنا برغم كل شيء!

ابتسم « جيا ـ شن » :

ـ أخبرني بما قاله بالحرف الواحد ·

ثم اتجه الى زوجته وضغط على يدها ، حاولت سحب يدها ، لكنها لم تنجح في ذلك ، فهي لم تتعود الغزل علانية ، فرح « جيا ـ شن » وزوجته أشد الفرح بهذه الأنباء · شعر بأن معجزة حلت هذه المشكلة الضخمة بهذه السهولة ، واعتقد أن هذه المعجزة فاتحة خير عليهم جميعا ·

أخبرهما « جيا ـ خوى » بتفاصيل حديثه مع جده ، وازداد احساسه بالفخر مع كل كلمة ينطق بها ، وقبل أن يتمكن « جيا ـ خوى » من الانتهاء من حديثه جاءت خادمة وأعلنت ··· الشيخ المبجل « جاو » يريد رؤية الفتى الأول ·

ذهب « جيا ـ شن » على الفور الى جده ، وبقى «جيا ـ خوى» يتسامر هو و « روا ـ جيا » · أحضرت المربية « خاى ـ تشين »، فأخذ « جيا ـ خوى » يلاعبه بعض الوقت ·

أسرع « جيا ـ خوى » بالذهاب الى « جيا ـ من » ، قطع الطريق وهو يجرى بكل ما تحمل كلمة «جرى» من معنى · فعندما كان بالبيت لم يكن يشعر بحاجته الى الاسراع ، لقد أمضى بعض الوقت في حديث مرح مع زوجة أخيه ، لكنه عندما غادر الدار شعر بأنه تأخر كثيرا ، فواجبه يحتم عليه الاسراع بابلاغ أخيه بهذه الأخبار السارة ·

فرح « جيا ـ من » عندما أخبره « جيا ـ خوى » بقرار جده،

تحدث الشقيقان دقائق قليـــلة مع « تسون ـ رن » الذى آوى « جيا ـ من » في بيته فترة اختبائه ، ورحل الشقيقان بسرعة ٠

مرا ببيت « تشن » وأخبراها بما حدث ٠٠٠ فرحت «تشن» أشد الفرح بما سمعت كما توقع الشقيقان ، لاحت بشائر مستقبل مشرق أمام ثلاثة قلوب شابة ٠ ان مستقبلا رائعا أصـــبح فى متناول أيديهم ، وهم لم يصلوا الى ذلك مصادفة أو بضربة حظ صنعها لهم القدر ، بل حققوا هذا النجاح بجهودهم القوية ، لقد أحسوا بلذة ومعزة خاصة لانتصارهم الذى حققوه بكفاحهم ٠

بقلوب مطمئنة جلس الثلاثة يتسامرون فترة طويلة ، ثم عاد الشقيقان الى دارهما بعد تناول الغذاء مع « تشن » وأمها ، وفى طريق العودة أخذ « جيا ـ من » يعد خطبة قصيرة بما سيقوله لجده ، وزوجة أبيه وأخيه الكبير ، تملكته سعادة غامرة ، فهـاهو ذا يعود الى داره عودة الأبطال المنتصرين ٠

عبر « جيا ـ من » البوابة الرئيسة ، ودخل الفناء الداخلى حتى وصل القاعة الرئيسة ، ثم أخذ يجول فى جنبـــات الدار ، وأدهشه بقاء كل شيء على ما كان عليه من قبل ٠

لكنه فجأة انتبه الى وجود حركة غريبة ، شـــاهد الناس يدخلون ويخرجون من غرفة جده فى عجلة ، بدوا جميعـــا مذعورين ، وتحدثوا بأصوات هامسة :

قال « جيا ـ خوى » :

ـ ما الخبر ؟ أحدث مكروه ؟

ثم أمسك ذراع شقيقه وأسرع به نحو غرفة جده ،وانتابه شعور مبهم بالخوف والقلق ٠ قد يكون جـــدنا ٠٠٠ لم يجرؤ

« جيا ـ من » على قول أكثر من ذلك ، ولم يستطع التفكير الى أبعد من هذا ·· خشى ضياع المستقبل المشرق الذى بدا له منذ قليل قريب المنال ·

دخل الشقيقان غرفة جدهما ، كانت غاصة بالناس ، لم يستطيعا رؤية جدهما ؛ فقد حجبه عنهما الناس ··· سمعا صوتا ضعيفا غريبا ، لم يعرهما أحد أى اهتمام · وأخيرا تمكنا من شق طريقهما الى الأمام · جلس جدهم على كرسى ضخم ذى مساند وضع أمام السرير · وقد سقط رأسه على صدره ، وأخذ يلتقط أنفاسه بصعوبة ··· كان هذا هو الصوت الغريب الذى سمعاه ·

تأثر « جيا ـ من » بما رأى ، أراد أن يلقى بنفسه على جده، لكن عمه « كا ـ منج » منعه من ذلك ، نظر العم « كا ـ منج » الى « جيا ـ من » فى فزع وهز رأسه ·

همس « جيا ـ خوى » شارحا الأمر لعمه « كا ـ منج » :

ـ طلب منى جدنا احضاره ، قال : انه يود رؤيته ·

هز « كا ـ منج » رأسه فى حزن ، وقال بصوت خفيض :

ـ لقد تأخر كثيرا !

··· تأخر ! ··· هزت الكلمات « جيا ـ خوى » بعنف ، وبدا أنه لم يفهم ما سمعه ، لكنه عندما سمع جده يشهق فى ألم أدرك فعلا أنه تأخر كثيرا ·· الجد على وشك الرحيل ، ولن يلتئم شمل الجد وحفيده الى الأبد ·

لم يقبل « جيا ـ خوى » هذه الفكرة ، إندفع نحو جده وأمسك بيد الشيخ الكبير وصاح :

ـ جدى ، جدى ··· أحضرت لك الأخ الثانى !

لم ينبس الشيخ الكبير ببنت شفه ، وأخذ يناضل فى عنف حتى يتمكن من دفع قليل من الهواء الى رئتيه · حاول النـــاس ابعاد « جيا ـ خوى » الا أن الغلام ألقى بنفسه على ركبتى الشيخ الكبير ، وأخذ يهزهما ويصيح فى حزن :

ـ جدى ···· جدى !

وقف « جيا ـ من » جامدا فى مكانه ، وفجأة تنهد الشيخ الكبير وفتح عينيه · نظر الى « جيا ـ خوى » ولم يعرفه ، سأل فى صوت ضعيف :

ـ لم تحدث كل هذا الشغب ؟

ثم أشار بيده فى ضعف طالبا انصراف « جيا ـ خوى »··· زالت الغشاوة من على وجه الشيخ الكبير · تحركت شفتاه دون أن يخرج من فمه أى صوت · نظر الشيخ المبجل « جاو » الى « جيا ـ من » ، ثم تحركت شفتاه مرة أخرى ، فصاح «جيا ـ من»:

ـ جــدى !

ويبدو أن الشيخ الكبير لم يســـمعه ··· دار ببصره الى « جيا ـ خوى » ، وتقلص وجهه فى وهن شف عن تعبير بدا وكأنه محاولة ابتسامة ، ثم سالت الدموع على خديه ··· ربت رأس « جيا ـ خوى » وهمس :

ـ أتيت ··· أنت ولد طيب ··· أخوك الثانى ؟

جذب « جيا ـ خوى » أخاه « جيا ـ من » وقال :

ـ هنا ··· هاهو ذا !

قال « جيا – من » فى احترام :

– جدى ..

– آه .. ! لقد عدت ، خيرا فعلت ! لن نفتح بعد الآن مسألة الارتباط بعائلة « فونج » ... يجب أن تدرسوا بجد واجتهاد يا أولاد .

ثم أخذ الشيخ الكبير نفسا عميقا ، وواصل حديثه فى تؤدة:

– اسمعوا وعوا ... شرفوا اسم العائلة ... أنا متعب .... لا تذهبوا ... فأنا راحل عنكم ....

أخذ صوته يضعف شيئا فشيئا ، ثم حنى رأسه فى هدوء :

أسرع اليه « كا – منج » وناداه ، فلم يجبه أبوه .. أمسك بيده وصاح والدموع فى عينيه :

.. يد باردة !

تجمعوا حوله صارخين ... وشيئا فشيئا سكنت الأصوات، وسقط أحدهم راكعا على ركبتيه ، فتبعه الآخرون ، وامتلأت الغرفة بأصوات باكية .

أنباء الموت تنتشر بسرعة أكثر من أى شىء آخر ، ففى خلال دقائق علم كل من بالدار بموت الشيخ المبجل « جاو » . أسرع الخدم الى بيوت أقرباء عائلة « جاو » ليبلغوهم النبأ المؤلم ... بدأ المعزون يتوافدون على الدار ، ساعدت النسوة الزائرات فى زيادة الأصوات الباكية ، وكن فى نفس الوقت يندبن حظهن التعس .

بدأ العمل ٠٠٠٠ فقسمت المهام بين الرجال والنساء ، عينت أربع من قريبات عائلة « جاو » للجلوس والبكاء بجانب الجثة ٠٠٠ ورقد الشيخ الجليل على سريره ، وأزيلت الأريكة من غرفته ٠

سار العمل بسرعة ، شغل أناس كثيرون بمهام مختلفة ، نقلت صور الأسلاف والهيكل والأدوات الأخرى الى مؤخرة القاعة الرئيسة ، ثم أدخل النعش ٠٠٠ كان النعش قد تم شراؤه منذ سنوات ، وحفظ داخل الدار ، وكان ثمن النعش معقولا ٠٠ فثمنه يزيد قليلا على ثمن ألف أوقية من الفضة ٠

وصل راهب ليفتح الطريق الى العالم الآخر ٠قرأ الغيب ، وحدد الساعة والدقيقة المناسبة لدفن الجثة ، غسل جثمان الشيخ الكبير وألبس ثياب الدفن ، ثم وضع بعناية فى نعشه ٠ وجمعت الأشياء التى كان يحبها كثيرا الشيخ المبجل « جاو » فى حياته ، ووضعت بجواره فى النعش ٠

حل الظلام ، فدعيت فرقة الرهبان البوذيين ، حمل كل واحد من هؤلاء الرهبان الحليقين البالغ عددهم مائة وثمـــانية فى يده عصا بخور تحترق ٠ جالوا فى الدار ٠٠ دخلوا الغرف وخرجوا منها ، وسار خلفهم « جيا ــ شن » وأعمامه الثلاثة وهم ممسكون أيضا بأعواد البخور ، سار « جيا ــ شن » فى المقدمة ٠٠٠ فهو الابن الأكبر للابن الأكبر ٠٠

فى العاشرة من صباح اليوم التالى وضع الختم على النعش، حدد الراهب هذه الساعة أيضا ، وفى تلك اللحظة بلغ البكاء أعنف درجاته ، وكان بعضه غير مصطنع ٠

توقف كل شيء فى حيـــــاة عائلة « جاو » بسبب وفاته ، تحولت قاعة العائلة الى ساحة جنائزية وتدلت فيها شــــارات

الحداد ، كما تحولت القاعة الرئيسة معبدا للمصلين · بكت النسوة فى الساحة الجنائزية ، ورتل الرهبان الصلوات فى المعبد ، وعلقت قصائد تأبين الشيخ الراحل فى الساحة الجنائزية، ووضعت فى المعبد تماثيل بوذية ومناظر من قصر العالم الآخر ·

شغل الجميع بأداة الشعائر الأخيرة من أجل الشيخ الراحل، ويمكن القول بتعبير أدق : ان كل فرد شغل بانتهاز تلك المناسبة للمحافظة على مكانته واظهار ثرائه ·

بدأت رسميا فى الأيام التالية فترة الحداد ، توالت هدايا لاتعد ولاتحصى ، وأقيمت عشرات الاحتفالات · وصلت أفواج المعزين ، كان الجميع يتطلعون الى ذلك ، وبلغ النشاط أشده ·

لم يستطع « جيا ـ من » أو « جيا ـ خوى » منع أنفسهما من الاندماج فى تلك الأعمال ، فهما برغم نفورهما من ذلك لم يعلقا على تلك المسألة أهمية كبيرة ··· كلفا رد المجاملات ، فعندما يركع أحد الزوار تحية لروح الفقيد ، يقومان هما أيضا بالركوع على حين يرتل رئيس التشريفات ··· « شكرا للأبناء والحفدة المخلصين » · ثم ينهض الجميع وقوفا وينظرون بعضهم الى بعض فى ازدراء وخجل من سخافة كل ما يفعلون !

لم يستطع الغلمان منع أنفسهم من الابتسام عندما يشاهدون اخوتهم الكبار وأعمامهم فى ثياب الحداد : اكليل من القنب به بيرق طويل يجرجرونه خلفهم ، ورداء حداد أبيض يرتدون فوقه صدرية واسعة من القنب ، وصندل من القش ، ويمسكون عصا جنائزية ويسيرون فى خطوات مهيبة ··· بدت المسألة للأطفال الصغار كمشهد من مسرحية هزلية !

نجح « جيا ـ خوى » و « جيا ـ من » فى الهرب من الدار

بعد تناول غذائهما فى اليوم التالى · كان « جيا ـ خوى » سباقا فى الهرب ، وذهب على الفور الى قاعة المطالعـــة التى أسســـها الطلبة ، ظل يعمل هناك طوال اليوم ولم يعد الى الدار حتى المساء، وعلم بعد وصوله أن « جيا ـ من » لم يصل بعد ·

وجد « جيا ـ خوى » القاعة الرئيســـة خاوية ··· رحل الرهبان ·· احترقت الشمعتان الطويلتـــــان اللتان أمام نعش الشيخ الراحل ، وأخذ فتيلهما يرتعش وسط كومة الشـــحم ، واحترقت كذلك أعواد البخور ، ولم يبق منها شيء ·

تساءل « جيا ـ خوى » :

ـ ما سبب هذا الهدوء ؟ أين ذهبوا جميعا ؟

أصلح « جيا ـ خوى » فتيل الشمعة بملقط ، وأشعل حزمة من أعواد البخور · وفجأة سمع صوت عمه « كا ـ دنج » يدوى فى غرفة الشيخ الراحل :

ـ نقتسم الأرض والأملاك دون المساس بالتحف والصور ، فهى ليست قابلة للتقسيم !

ثم سمع صوت عمه « كا ـ منج » وهو يلهث غاضبا :

ـ انها الأشياء التى أحبها وقضى حياته فى جمعها ـ يجب علينا ونحن أبناؤه ألا نبعثرها بتفريقها بيننا !

ضحك « كا ـ آن » فى برود :

ـ التحف والصور لاتعنى شيئا بالنسبة لى ، نحن اذا لم نقتسمها بيننا فسيأخذها أحـــدنا · ورأيى أن كل ما يمتلكه الشيخ الراحل يجب أن يقسم بيننا بالتساوى ·

سعل « كا ــ منج » فى ضيق :

ــ حسنا ، حسنا • اذا كانت هذه مشيئتكم جميعا فاننا سنقتسم كل شيء غدا ، ولكن بشرفى لم يكن فى نيتى الاحتفاظ بها لنفسى •

ثم حدثت حركة فى الغرفة ، تبعها أصوات بعض النساء•• خرج « كا ــ دنج » وأخذ يتمتم :

ــ أوامر الوصية ، الوصية ! كلها أشياء ملفقة ! انها قسمة غير عادلة •

ظهر بعده « جيا ــ شن » وبدا منكسر الخاطر ، حيا « جيا ــ خوى » أخاه ساخرا :

ــ تقتسمون أملاك العائلة ! •• أليس كذلك ! لم تضيعوا الوقت سدى !

قال « جيا ــ شن » فى مرارة :

ــ لقد أقحمت فى الأمر أنا وزوجة أبى رغما عنا • ترك لى جدى ثلاثة آلاف سهم فى شركة « صى ــ تجوان » التجارية ، لكن أعمامى لم يعترفوا بالوصية •

سأل « جيا ــ من » وكان قد عاد لتوه الى الدار :

ــ وماذا عن السيدة « تشانج » ؟

وبطبيعة الحال كان « جيا ــ من » مهتما بشئون عمته •• ووالدة « تشن » فى نفس الوقت •

قال « جيا ــ شن » :

ـ حصلت على خمسمائة « يبان » فقط وقليـــل من الأشياء الأخرى ... منحوها ذلك لمجرد أنه أوصى به . وحصلت السيدة « تشين » على مسكن وأرض ملحقة به ... أسرتنا فقط هى الأسرة الوحيدة التى اهتمت بشأن السيدة « تشانج » .

لم يقل أحد من الآخرين شيئا لصالحها .

سأله « جيا ـ من » فى تأنيب :

ـ لماذا لم تثر الموضوع ؟

قال « جيا ـ خوى » محذرا فى صوت خفيض :

ـ هاهو ذا العم « كا ـ منج » !

سعل العم « كا ـ منج » سعالا حادا ، ثم خرج فى بطء من شقة الشيخ المبجل « جاو » .

الفصل الحادى والثلاثون

اقترب الموعد الذى ستلد فيه « روا ــ جيا » ، قلقت لذلك السيدة « تشين » ونســـاء العائلة الأخريات أشد القلق ... فى البداية كن يناقشن الأمر سرا ، غير أنه فى أحد الأيام قامت السيدة « تشين » وقد اكفهر وجهها باثارة الموضوع مع « كا ــ منج » واخوته وحدثته عن لعنة « بريق الدم » .

هناك خرافة تقول : انه اذا وجدت جثة أحد الكبار فى البيت، وأنجب أحد الأطفال فى نفس البيت ــ فان بريق الدم الذى تنزفه الأم سيهاجم الجثة ويجعلها تنزف كميـــات هائـــلة من الدم ! والوسيلة الوحيدة لمنع ذلك تحتم على المرأة الحامل مغادرة الدار والانتقال الى خارج المدينة !

على أن الانتقال خارج المدينة وحده لا يكفى، فان أبواب المدينة ليست قوية بالدرجة التى تمنع بريق الدم من العودة .. يجب أن تعبر جسرا !

وحتى هذا ليس بالضـــمان الكافى ، بل يجب تغطية النعش بطبقة من الطوب والتراب ، وبهذه الأشياء جميعا يمكن حمايته من لعنة بريق الدم .

كانت السيدة « شين » ربة الأسرة الخامسة أول الموافقات على هذه الاجراءات الواقية ، وتلتها على الفور الســـيدة « وانج » ربة الأسرة الرابعة ، ووافق بعدها « كا ــ آن » و « كا ــ دنج » ، وفى نهاية الأمر وافق على ذلك « كا ــ منج » والسيدة « تشوو » ، ولم تبد السيدة « تشانج » ربة الأسرة الثالثة رأيا فى هذا الموضوع ،

وعلى أية حال لقد تقرر الأخذ بنصيحة السيدة « تشين » ، وطلب الكبار من « جيا ـ شن » نقل زوجته فورا : قالوا : ان مصلحة الشيخ المبجل « جاو » فوق كل اعتبار ٠

نزل القرار على « جيا ـ شن » كالصاعقة ، وبرغم ذلك تقبله في وداعة ، انه لم يخالف انسانا في رأى طوال حياته ، ولا أهمية للغبن الذى يقع عليه ، فهو يفضل ابتلاع دموعه ويكبت غضبه وحسرته ٠٠٠ انه يتحمل أى شيء في سبيل ألا يجهر بمعارضته لانسان ، لم يدر بخلده قط أن احتماله وصبره هذا قد يجلب الدمار للآخرين ٠

لم تشتك « روا ـ جيا » عندما بلغوها القرار ، عبرت عن استيائها بالدموع ، لكن لا جدوى من تلك الدموع ، انها غير قادرة على حماية نفسها ، و « جيا ـ شن » عاجز عن حمايتها أيضا ٠٠٠ وكل ماتقدر عليه هو ٠٠٠٠ الخضوع ٠

مد « جيا ـ شن » ذراعيه في يأس :

ـ أنت تعلمين أننى لا أؤمن بذلك ، لكن ما باليد حيلة ! انهم يقولون : من الأفضل التزام الجانب الأسلم ٠

بكت « روا ـ جيا » :

ـ أنا لا ألومك ، بل ألوم حظى التعس ، وحتى والدتى غير موجودة بالمدينة لترعانى ٠٠ لن ألطخ سمعتك وأجعلهم يتهمونك بالعقوق ، وحتى لو قبلت أنت أن يقال عنك ذلك فأنا لا أوافق ٠

ـ روا ٠٠٠ اغفرى لى ضعفى ، أنا عاجز عن حماية زوجتى ، قضينا معا سنوات وأنت تعلمين كم عانيت طوال هذه السنوات ٠

قالت « روا ـ جيا » وهى تمسح دموعها بمنديلها :

ـ لا تتحدث ··· هكذا ! أنا ··· أعلم ··· بما تعانيه ·
قاسيت بما فيه الكفاية ··· كنت طيبا معى ، وأنا شـــاكرة لك صنيعك ! ····

ـ شاكرة ؟ من المتوقع أن تلدى الآن فى أية لحظة ، وبرغم ذلك أرسلك الى مكآن مهجور خارج المدينة حيث العذاب والوحدة ، أنا أتخلى عنك ··· أى رجل يترك زوجته تلقى هذه المعاملة السيئة، وتقولين شاكرة ؟

كفت « روا ـ جيا » عن البكاء ، وغادرت الغرفة فى هدوء ·· ثم عادت بعد لحظات وهى ممســكة بيد « خاى ـ تشين » وخلفهما المربية ·

قادت الزوجة ابنها الى الأب الباكى الحزين ، طلبت من الطفل أن ينادى ·· بابا ··· وطلبت منه الامســاك بيد أبيه ، ويرجوه الكف عن البكاء ·

عانق « جيا ـ شن » طفله الصغير ، ونظر اليه بعينين تنبضان بالحب والحنان ، قبل وجنتيه عدة مرات ، ثم أبعده بحنان ، وعاد الى « روا ـ جيا » وقال فى صوت مبحوح :

ـ أنا انسان ضـــائع لايرجى منه خير ·· فلنحسن تربية « خاى ـ تشين » ، لا أريده أن يكون مثلى عندما يكبر !

غادر « جيا ـ شن » الغرفة وهو يمسح عينيه بيده ، نادته « روا ـ جيا » فى قلق :

ـ الى أين أنت ذاهب ؟

استدار « جيا ـ شن » نحوها ونظر اليها ·· وفاضت الدموع من عينيه مرة أخرى :

ـ الى خارج المدينة أبحث عن مسكن ...

ألقى « جيا ـ شن » بهذه الكلمات ، ثم انطلق مبتعدا عنها .

عاد « جيا ـ شن » فى ذلك اليوم فى وقت متأخر ، فالعثور على مسكن ليس أمرا سهلا، لكنه نجح فى نهاية الأمر، وجد مسكنا صغيرا مسكنا معتما رطب الجدران أرضيته من التراب . كانت أجرة المسكن رخيصة ، لكن « جيا ـ شن » لم يأخذ المسكن لهذا السبب ، لقد اهتم « جيا ـ شن» بأمرين فقط ... خارج المدينة ... وبعد أحد الجسور .. أما كون المسكن مريحا أو مناسبا فهذه أشياء تأتى فى المرتبة الثانية .

ذهبت السيدة « تشين » وعدد قليل من نساء العائلة ليفحصن المسكن قبل انتقال «روا ـ جيا» اليه ، فوجدنه مطابقا للمواصفات. ولم يعترضن عليه .

أصر «جيا ـ شن» على القيام بنفسه بحزم أمتعة «روا ـ جيا»، وجعلها تجلس على أحد الكراسى وتشرف عليه فى أثناء القيام بتلك المهمة ، دأب «جيا ـ شن» على الامساك بكل شىء قبل وضعه فى الحقيبة ويقول لها ...... ما رأيك فى هذا ؟ ... فتبتسم وتومىء برأسها موافقة سواء أكانت تريد هذا الشىء أم لا تريده ، وعندما انتهى من حزم الأمتعة أعلن فى فخر :

ـ هأنتذى ترين أننى أعرف كل ما تحبينه !

ابتسمت « روا ـ جيا » :

ـ أصبت .. عندما أرحل فى المرة القادمة ... أطلب منك القيام بحزم أمعتى .

لم تتعمد « روا ـ جيا » ابداء هـذا التعليق الأخير ، لكن الكلمات انزلقت من لسانها .

ـ المرة القادمة ؟ سأذهب معك طبعا فى المرة القادمة ، الى أين ستذهبين ؟

ـ كنت أفكر في زيارة والدتى ، لكننا سنذهب معا بطبيعة الحال ، فأنا لا أريد الافتراق عنك ثانية ٠

هرب الدم من وجه «جيا ـ شن» ، وحنى رأسه بسرعة ، لكنه رفعه ثانية وقال بابتسامة مفتعلة :

ـ نعم ، نعم ٠٠٠ سنذهب معا ٠٠

كان كلاهما يخدع الآخر وهما يعلمان ذلك جيدا ، ففى الفم بسمة وفى القلب لوعة ، لكنهما أخفيا مشاعرهما الحقيقية تحت قناع من الوجوه الباسمة ، فهما لم يرغبا فى أن تسيل دموعهما فى حضور الآخرين ٠

جاءت « شو ـ خوا » و « شو ـ انج » ، وجاء فى أثرهما « جيا ـ من » و « جيا ـ خوى » ٠٠٠ لم يشاهدوا سوى تلك التعبيرات السارة المرحة المرتسمة على وجه « جيا ـ شن » و « روا ـ جيا » ، ولم يدركوا شيئا من القلق الكامن فى قلبيهما ٠

لم يستطع « جيا ـ خوى » الامساك عن الكلام فسأل :

ـ أخى الكبير ، هل ستترك حقا زوجتك ترحل عن الدار ؟

سمع «جيا ـ خوى» من قبل بعض الأنباء تدور حول هذا الموضوع ، فظن المسألة مجرد مزاح ، لكنه عندما وصل اليوم الى الدار منذ بضع دقائق التقى هو وخادم «جيا ـ شن» العجوز « بيان ـ تشينج » أمام بوابة الفناء الداخلى حياه الخادم فى أدب واعزاز ، فتوقف « جيا ـ خوى » ليتجاذبا أطراف الحديث ، سأله الخادم وقد اسود وجهه ، وازداد تجهمه :

ـ سيدى الفتى الثالث ، أتؤمن بصواب فكرة ارسال السيدة « روا ـ جيا » الى خارج المدينة ؟

جفل « جيا ـ خوى » :

ـ بالطبع لا ، ولا أعتقد أنها ستذهب حقا ٠

ـ أنت لا تعلم حقيقة الأمر يا سيدى الفتى الثالث ، كلفنى الفتى الأول أنا والأخت « تشانج » رعايتها ، لقد استدعوا فعلا بناء ليبنى قبرا مصطنعا لنعش الشيخ الراحل ، أنا غير مقتنع بوجوب رحيلها يا سيدى الفتى الثالث ٠ اذا كان من المحتم رحيلها فلترحل الى مكان مناسب ، ان الأثرياء من الناس هم فقط الذين يفرضون على أنفسهم كل هذه القواعد والعادات ، لماذا لا يتكلم الفتى الأول ؟ نحن الخدم لانفهم الكثير ، لكننا نعتقد أن حياتها أهم بكثير من تلك التقاليد ، لماذا لا تفاتح الفتى الأول والسيدة « تشوو » فى هـــذا الأمر ؟

ترقرقت الدموع فى عينى « بيان تشينج » :

ـ يجب أن تهتم بمصير الشابة ، فكل من بالدار يتمنون لها الخير ! واذا حدث لها مكروه ٠٠٠

لم يستطع الخادم اكمال حديثه ٠

قال « جيا ـ خوى » فى قلق شديد وفى تصميم أشد :

ـ حسنا سأفاتح الفتى الأول فى هذا الأمر فورا ، لا تقلق لن تصاب السيدة الصغيرة بسوء ٠

قال الخادم « بيان ـ تشينج » فى صوت خفيض :

ـ شكرا لك يا سيدى الفتى الثالث ٠ أرجو ألا تدع انسانا يعلم أنى أخبرتك بذلك ٠

انصرف الخادم وخرج من البوابة ·

انطلق « جيا ــ خوى » يبحث عن أخيــه « جيا ــ شن » · وبالرغم من أن كل ما فى غرفة « جيا ــ شن » كان يؤكد حديث الخادم « بيان ــ تشـــينج » فان « جيا ــ خوى » طلب من أخيه أن يوضح : هل سيبعد « روا ــ جيا » عن الدار فعلا ؟

نظر « جيا ــ شن » الى أخيه نظرة غامضة ثم أومأ فى هدوء معلنا صحة النبأ ·

ــ هل أنت مجنون ؟ أتؤمن حقا بهذه الخرافات البالية ؟

صاح « جيا ــ شن » وهو يعصر يديه فى ألم :

ــ لن تغير معتقداتى من واقع الأمر شيئا ، هذه هى مشيئتهم جميعا ····

قال «جيا ــ خوى» فى غضب دون أن ينظر الى أخيه ، وشردت عيناه خارج النافذة ، ولمع فيهما حقد دفين :

ــ أنصحك بأن تقاوم هذا وترفضه ··· هذا آخر فصــول المهزلة ·

قال « جيا ــ من » :

ــ أخى الثالث على حق فيما يقول ، لاتتركها ترحل عن دارها· اذهب واشرح لهم حججك بالتفصيل وسيقدرون موقفك ، فهم أناس عقلاء ·

أجاب « جيا ــ شن » فى ضيق :

ــ عقــلاء ؟ حتى عمى الثالث الذى درس القانون فى جامعات

اليابان أرغم على الموافقة ، ما باليد حيلة ، أنا لا أحتمل أن أوصف بالعقوق ، يجب أن أفعل ما يريدون وان كانت « روا » ستتحمل الكثير ·

قالت « روا ــ جيا » في ابتسامة مفتعلة :

ــ لن أتحمل أى شيء ، سيكون الجو أكثر هدوءا خارج المدينة ··· وسأجد من يرعاني ويؤنس وحدتى ، أنا واثقة من أننى سأكون في راحة تامة ·

اندفع « جيا ــ خوى » فى حديثه :

ــ استسلمت مرة أخرى يا أخى الأول ··· أليس كذلك ؟ لماذا تستسلم دائما · كاد ضعفك يحطم سعادة « جيا ــ من » و « تشن » ، لكن لحسن الحظ كانت لديه الجرأة ليقاوم ، ولهذا انتصر ·

لم يستطع « جيا ــ من » مقاومة ابتسامة رضاء أفلتت منه ، انه يوافق على رأى «جيا ــ خوى» ··· لقد حقق انتصاره بعد نضال مشرف ·

كظم « جيا ــ شن » غيظه ، وبدا كأنه يسخر من نفسه :

ــ حقا ! ·· لقد انتصرتما · تحديتما كل شيء ، وازدريتما كل شيء ·· انتصرتما ! لكن انتصاركما عمق من هزيمتى ··· لقد صبوا فوق رأسى كل الحقد الكامن فى نفوسهم نحوكما · وهم يكرهوننى ويلعنوننى فى غيبتى ، يمكنكما المقاومة ··· يمكنكما الهرب ··· أيمكننى الهرب من الدار كما فعل الأخ الثانى ؟ هناك أشياء كثيرة لا تستطيعان ادراكها · تحملت الكثير من الاساءات بسبب مسألة الأخ الثانى · هذا غير المتاعب التى قاسيت منها بسبب عمل الأخ الثالث فى المجلة وعلاقاته بأصدقائه الجدد ·

تحملت كل هذا دون أن أنبس ببنت شفة · كنت أجتر آلامى ولا أحد يعرف عابى · فما يضيركما لو تحدثتما عن المقاومة والنضال ؟ ثم أمام من أتغنى أنا بتلك الكلمات الجميلة ؟

وشيئا فشيئا هدأت ثورة غضبه ، ومزقه احســـاس لايطاق بالاضطهاد والظلم ، فأسرع الى سريره ، وألقى نفسه فوقه ، وأخفى وجهه بين يديه ·

حطم تصرف « جيا ـ شن » آخر خطوط دفاع « روا ـ جيا »، سقطت ابتسامتها الزائفة ، ودفنت رأسها بين يديها فوق المائدة وبكت ·· حاولت « شو ـ خوا » و «شو ـ أنج» بأصوات باكية مواساتها ، واعتذر « جيا ـ من » عن تسرعه فى الحديث مع أخيه · لقد كان فظا مع أخيه ، حاول أن يقول شيئا لتهدئة الجو ·

أما موقف « جيا ـ خوى » فقد كان مختلفا للغاية : كان الحقد والكراهية يملآن قلبه ، ولم يتركا مكانا فيه لرحمة أو عطف على أخيه الكبير ··· فهو يرى أمامه بحيرة ··· نعشا ··· «منج ـ فونج» ··· «مى» ··· والآن ··· هـــذه وما يخبئه القدر ! جعلته تلك الأفكار يحترق بنار الغضب ·

استمتع « جيا ـ خوى » فى طفولته كمـــا استمتع شقيقاه برعاية أم مخلصة وحبها ، وبعد وفاتها حاول تنفيذ تعاليمها ·· أحب وساعد الآخرين ، احترم من هم أكبر منك وكن رحيما بمن هم أقل منك ·· لكن أى صورة أعطاها الكبار عن أنفسهم ؟ ما أقسى قوى الشر الكامنـــة فى عائلته وهى تخنق كل حب نام وكل أمل مشرق ! لقد أزهقوا روحا بريئة وحرموه الفتاة التى أحبها ، ودفعوا بفتاة أخرى فى بطء الى قبرها · كان عاجزا عن انقاذ الفتاتين · العطف ! ··· لقد انتزعوا العطف من قلبه ، ولم يبق لديه منه شىء كى يمنحه لأخيه الكبير ، بقى فى قلبه شىء واحد ·· اللعنات !

قال « جيا ــ خوى » لأخيه الكبير فى برود :

ــ ماتت فتاة بسببك ، واعتقد أن هذا فيه الكفاية !

ثم انطلق خارجا من الغرفة ٠٠٠ التقى عند خروجه والمربية، ومعها «خاى ــ تشين» ٠ حياه الطفل وضحك له ، فرد تحيته وتملكه احساس طاغ بالتعس ٠

عاد « جيا ــ خوى » الى غرفته ، اجتاحه احســاس قاس ــ بالوحدة لم يشعر بمثله من قبل ٠ أظلمت الدنيا فى عينيه ٠ ان العالم مكان كئيب ملىء بالدموع والألم ٠ الناس يعيشون فقط كى يدمروا أنفسهم أو ليدمروا الآخرين ٠ لامفر من الدمار مهما حاولوا الفكاك منه ٠ ان « جيا ــ خوى » يرى بوضوح المصير الذى ينتظر أخاه ، لكنه عاجز عن انقاذه ٠ وهذا المصير ليس مصير الاخ الكبير وحده ، بل مصير الكثيرين غيره ٠ وتساءل :

ــ لماذا يحتوى العالم على هذا القدر من التعس ؟

تراءت له صور لا حصر لها من الأحداث الحزينة ٠٠٠

ــ مهما حدث فسأمضى فى طريقى ، حتى لو سرت فوق جثثهم ٠٠ سأمضى فى طريقى ٠

غرق « جيا ــ خوى » فى بحر من المرارة والألم لا سبيل أمامه للخروج منه ، فأخذ يعزى نفسه ٠

ــ مهما حدث فسأمضى فى طريقى ، حتى لو سرت فوق جثثهم ٠٠٠ سأمضى فى طريقى ٠

غادر « جيا ــ خوى » داره ، وذهب الى مقر المجلة حيث انضم الى أصدقائه الجدد ٠

الفصل الثاني والثلاثون

داری « جیا ـ شن » جروحه وآلامه فی أثناء صحبته « لروا ـ جیا » فی طریقها الی مسکنها الجدید ، رافقهما فی هذه الرحلة السیدة « تشوو » و « شو ـ خوا » و « شو ـ انج » ، وذهب معهم أیضا الخادم «بیان ـ تشینج» والخادمة السمینة الأخت «تشانج» ، لتقیم مع « روا ـ جیا » ، وجاء بعدهم « جیا ـ من » و « تشن » ٠

کرهت « روا ـ جیا » مسکنها الجدید ، انها المرة الأولى التی تفترق فیها عن « جیا ـ شن » منذ زواجهما ، علیها الآن العیش بعیدة عنه قرابة شهر أو یزید فی مکان رطب مظلم کئیب ، حاولت عبثا مواساة نفسها بأی شیء ، لکنها لم تفلح فی ذلك ، شغل الآخرون عنها بترتیب الأثاث ، فبکت دون أن یلحظها أحد ، واذا حادثها أحدهم سیطرت علی نفسها وبدت سعیدة مرحة ٠٠ طمأن تصرفها هذا من کان یساورهم القلق خوفا علیها من الحزن ٠

حان وقت عودة الآخرین الی المدینة ، فتوسلت الیهم « روا ـ جیا » :

ـ أیجب أن تذهبوا جمیعا ؟ ألا تستطیع « تشن » و « شو ـ خوا » البقاء معی قلیلا ؟

أجابت « تشن » وهی تبتسم :

ـ الوقت متأخر ، وسیغلقون أبواب المدینة ، سأحضر لرؤیتك غدا ٠

« ... أبواب المدينة ! .... » .

رددت « روا ــ جيا » هذه العبارة كأنها لا تفهم معناها ... في الواقع كانت « روا ــ جيا » تعلم أنها في هذه الليلة ستفصل بينها وبين «جيا ــ شن» مسافات شاسعة ليس هذا فقط بل ستفصل بينهما أيضا مجموعة من البوابات الضخمة الثقيلة ... لن يعلم عنها هو شيئا ابتداء من مساء هذه الليلة حتى مشرق فجر الغد حتى لو ماتت ، لن يكون قادرا على الوصول اليها ... انها كمجرم نفى الى مكان بعيد . ولم تستطع « روا ــ جيا » السيطرة على دموعها ففاضت على خديها .

ــ أشعر بوحدة قاسية في هذا المكان ... أنا خائفة ....

قالت « شو ــ خوا » :

ــ لاتخافى يا زوجة أخي ، سأحضر اليك غدا .

وأضافت « شو ــ أنج » في تأثر :

ــ وأنا أيضا ، وسأفاتح والدتى في هذا الأمر .

قال « جيا ــ شن » :

ــ الصبر يا روا ، ستعتادين المكان خلال يوم أو يومين ، ويمكنك الاعتماد على الخادمين المقيمين معك ، ليس هناك ما يدعو لخوفك ، ستحضر الفتيات غدا ليؤنسن وحدتك ، وسأحاول أنا أيضا تدبير الوقت وأحضر اليك ، الصبر وسينتهى الشهر بسرعة .

برغم محاولة « جيا ــ شن » أن يبدو هادئا رزينا فان رغبة طاغية تملكته تدعوه الى أن يضم « روا » اليه ويبكى معها .

ألقت السيدة « تشور » بتعليماتها النهائية ، وأضاف الآخرون بضع ملاحظات ثم رحلوا جميعا ، ودعتهم « روا ــ جيا » حتى باب دارها الجديدة وشاهدتهم وهم يركبون المحفات .

ركب «جيا ـ شن» محفته ، لكنه نزل ، وعاد ليسأل « روا ـ جيا » : هل تريد أى شيء من البيت ؟ فأجابته بأن لديها كل ما تحتاج اليه ، وقالت له :

ـ أحضر « خاي ـ تشين » غدا ، فأنا أشعر بحنين اليه ... أرجو أن ترعاه بعناية ... ومهما كانت الظروف فلا تدع أمى تعلم شيئا عن تركى الدار ، لأنها ستقلق أشد القلق .

أجاب « جيا ـ شن » :

ـ كتبت لها خطابا منذ يومين ، ولم أخبرها بشيء ، فأنا أعلم أنك لا تريدين اخبارها بذلك .

ـ لماذا فعلت هذا ؟ اذا علمت والدتى أنى ....

توقفت « روا ـ جيا » عن الكلام فجأة خشية أن تجرحه . اجتر «جيا ـ شن» ألمه ولم يجرؤ على التفكير بيما أمتنعت عن قوله صراحة ، وقال لها :

ـ كان من الواجب أن أدعها تعلم ، لو كان فى مقدورها الحضور الى « تشينج ـ تو » لتمكنت من رعايتك .

تبادلا النظرات فى صمت وكأنه لبس لديهما ما يقولانه برغم قلوبهما المثقلة التى تود قول الكثير .

ـ أنا ذاهب الآن ، استريحى قليلا .

ذهب « جيا ـ شن » الى محفته ، تلفت وأدار رأسه نحوها عدة مرات ، نادته « روا ـ جيا » وهى واقفة على البوابة :

ـ لا تتأخر غدا .

وأخذت تلوح بيدها حتى اختفت محفته فى أحد المنحنيات ،

ثم تحاملت على نفسها بحملها الثقيل الكامن فى أحشائها ، ودخلت الى مسكنها الجديد •

حاولت « روا ـ جيا » أخذ بعض الأشياء من حاجاتها ، لكن أطرافها لم تسعفها في ذلك • كانت أعصابها متوترة أيضا ••• حاولت في انكسار السير نحو سريرها حتى وصلت اليه ، وجلست على حافته ، وفجأة خيل اليها أن الجنين يتحرك فى رحمها ، وبدا لها أنها تسمع صراخه••• أخذت تضرب بطنها فى ضعف وقد اجتاحتها نوبة من الغضب الجنونى وصرخت :

ـ لقد حطمتنى !

أخذت تبكى فى هدوء الى أن سمعتها الخادمة الأخت «تشانج»، فأسرعت اليها وواستها •

فى صباح اليوم التالى وصل « جيا ـ شن » فى وقت مبكر ، وأحضر معه « خاى ـ تشين » ، وانتقلت « شو ـ خوا » لتقيم معها على حسب وعدها لها ، كذلك حضرت « شـو ـ أنج » ، لكنها لم تنجح فى الحصول على موافقة والدتها بالاقامة خارج المدينة ، ثم حضرت « تشـن » بعدهم ، وامتلأت الدار للحظات بحديث عذب وضحكات مرحة سعيدة •

مرت الساعات مسرعة ••• وحان موعد الرحيل ، بكى « خاى ـ تشين » ، وأراد البقاء مع أمه ، وبطبيعة الحال لم يكن هذا ممكنا ، بذلت « روا ـ جيا » محاولات كثيرة لاقناعه ، وأخيرا تمكنت من ترويضه ، واستسلم لها ، وأعادت الابتسامة الى وجهه ، ووافق على الذهاب الى الدار مع والده •

شيعت مرة أخرى « روا ـ جيا » زوجها حتى البوابة ، قالت له والدموع على خديها :

ـ أرجو أن تحضر غدا فى وقت مبكر ٠

قال « جيا ـ شن » فى اكتئاب :

ـ أخشى ألا أستطيع الحضور غدا ، سيأتى البناءون غدا ليبنوا لجدى قبراً مصطنعا ، وتريد منى العائلة الاشراف على هذا العمل ٠

لاحظ « جيا ـ شن » الدموع على خديها ، فتدارك نفسه بسرعة :

ـ لكن سأحاول تدبير الوقت للحضور اليك ، يجب ألا تنفعلى هكذا بسهولة ٠ اعتنى بصحتك ، فانك لو مرضت ٠٠٠٠٠٠

ابتلع « جيا ـ شن » بقية حديثه ، خشى أن يغلبه البكاء هو أيضا ٠

قالت « روا ـ جيا » بابتسامة حزينة ، وركزت عينيها على وجهه وهى تربت خدى « خاى ـ تشين » :

ـ لا أدرى ماذا حدث لى ؟ كل مرة ترحل فيها أخشى ألا أراك مرة ثانية ٠٠ أنا خائفة ٠٠ ولا أدرى سببا لخوفى ٠

ثم مسحت عينيها ٠

انتزع « جيا ـ شن » ابتسامة ، ولم يجرؤ على التفكير فيما تقول ٠

ـ يجب ألا تفعلى ذلك ، كلانا يعيش بالقرب من الآخر ، وأنا أحضر لرؤيتك كل يوم ، وتقيم معك « شو ـ خوا » ٠

أشارت « روا ـ جيا » فجأة الى مبنى ذى سقف حجرى جهة اليمين :

ـ أليس هذا هو المعبد ؟ ٠٠٠ هناك نعش « مى » ٠٠٠ يجب أن أذهب لزيارتها فى أحد الأيام ٠

هربت الدماء من وجه « جيا ـ شن » ، وشحب لونه ، وأشاح بوجهه ، انتابته أفكار مخيفة ··· أمسك بيدها الدافئة الناعمة ، وضغط عليها وكأنه يخشى أن تختطف منه ·· فحذرها قائلا :

ـ روا ، لا تذهبى الى هناك ·

تأثرت « روا ـ جيا » بالحزن البادى فى صوته ، برغم أنها لم تدرك سبب اعتراضه على ذهابها ·

لم يضف « جيا ـ شن » الى حديثه شيئا والتزم الصمت ·· وترك يدها فجأة · حيا « خاى ـ تشين » أمه مرة أخرى ··· الى اللقاء يا ماما ··· ثم اتجه « جيا ـ شن » الى محفته ، وبعد أن رفع الحمالان المحفة فوق كتفيهمـــا أطل « خاى ـ تشين » من النافذة ونادى :

ـ ماما ··· ماما ···· ماما ····

ذهب « جيا ـ شن » بعد عودته الى قاعة العائلة حيث يرقد جثمان الشيخ الراحل فى نعشه ··· التقى هو والسيدة « تشين » وهى خارجة ، فحيته بابتسامة :

ـ كيف حال « روا ـ جيا » ؟ أرجو أن تكون على ما يرام ·

اغتصب « جيا ـ شن » ابتسامة وأجاب :

ـ على ما يرام ، شكرا لك ·

ـ هل ستلد قريبا ؟

ـ أخشى أنها ستنتظر يومين آخرين ·

قالت السيدة « تشين » فى صوت جاف :

– لاتنسى أيها الفتى ، لاتدخل غرفة المناولة ·

ثم انصرفت ·

حذر « جيا ـ شن » من دخول تلك الغرفة مرات كثيرة ، لكنه اليوم تلقى هذا الأمر من شخص فى مكانة السـيدة « تشين » وبطريقة جافة ، أخرسه الغضب ···· نظر « جيا ـ شن » اليها وهى تنصرف ··· وعندما رفع « خاى ـ تشين » الذى كان ممسكا بيد أبيه رأسه ونادى أباه ··· بابا ، بابا ··· لم يسمع « جيا ـ شن » أى شىء ·

الفصل الثالث والثلاثون

بعد أربعة أيام قام « جيا ــ شن » بزيارته العادية « لروا ــ جيا » • لم يصل فى ذلك اليوم الا بعد الثالثة ، اذ عاقته بعض الأعمال فى الدار •

اندفع « جيا ــ شن » نحو غرفة زوجته وهو ينادى باسمها ، غير أنه قبل أن يعبر عتبة الغـــرفة أوقفته الخادمة السمينة الأخت « تشانج » وقالت فى صراحة :

ــ سيدى الفتى الأول ، لا يمكنك الدخول •

فهم « جيا ــ شن » حقيقة الأمر ، انسحب فى وداعـــة الى الحديقة الصغيرة بجوار نافذة « روا ــ جيا » • كان الباب مغلقا ، سمع فى الداخل أصوات أقدام وصوت امرأة لا يعرفها •

نظر « جيا ــ شن » فى شرود الى الحشيش الأخضر والورود فى الحديقة الصغيرة • اختلط عليه الأمر فلم يعرف حقيقة مشاعره •• السعادة •• والحزن •• والغضب •• والرضا • بدا له أنه يشعر بجميع هذه الانفعالات فى نفس الوقت ، وبدا له أيضا أنه كان فى نفس هذه الحالة الذهنية منذ سنوات مضت الا أن شعوره فى ذلك الحين لم يكن بهذا القدر من العنف ، لاشك أن هناك اختلافا بينا بين الحالتين •

كم تألم فى ذلك الحين لنضالها وصراعها ! كم كان شاكرا لها صنيعها عندما قدمت له تلك الهدية الغالية •• ولدها الأول ، كان واقفا الى جوارها عندما حققت انتصارها •• زالت عنه عصبيته ،

وانقلب قلقه الى سعادة قدمت له القابلة الطفل · قبل وجهـــه الحبيب الصغير الأحمر ، وأقسم لنفسه أنه سيحب هذا الطفل ويقدم له كل تضحية ممكنة ؛ ان حياته كلها معلقة بجسد هذا الطفل · تقدم نحو سرير زوجته ونظر الى وجهها الشاحب المنهك نظرة حب وشكر تعجز عنها الكلمات ، بادلنه نظرته بنظرة انتصار وحب ، ثم نظرت الى الطفل وقالت « لجيا ـ شن » في سعادة :

ـ أنا بخير الآن ، ياله من طفل جميل ! يجب أن تختار له اسما بسرعة ·

ثم أشرق وجهها بنور الأمومة السعيدة ·

واليوم تستلقى مرة أخرى في سريرها ·· بدأت تئن وتتألم ، سمع صوت أقدام مسرعة داخل الغرفة تختلط هى وأصوات خفيضة حادة متوترة ·· نفس الأشياء ، لكنها اليوم فى مكان خلوى ويفصل بينهما باب · انه عاجز عن رؤيتهـــا وتشجيعهـــا ، عن مواساتها ومشاركتها في آلامها ·· انه ينتظر اليوم دون أن يشعر برضا أو سعادة ·· وكل مايشعر به هو الخوف ·· والعـــار ·· والندم ، سيطرت عليه فكرة واحدة : لقد آذيتها ·

سمع « جيا ـ شن » الأخت « تشانج » وهى تسأل :

ـ سيدتى الصغيرة ، كيف الحال ؟

ساد صمت طويل مرير · وفجأة دوت في أذنه صرخة ألم ·· ارتعد « جيـــا ـ شن » وعض على نواجذه ، وضغط على قبضته وتساءل :

ـ أهذا صوتها ؟ انهـــا لم تصرخ طوال حيـــاتها مثل هذا الصراخ ، لكن من غيرها يصرخ هكذا ولم ؟ انها هى ، انها حبيبتى « روا » ·

ترددت مرة أخرى تلك الصرخات المرعبة ، صرخات لا يمكن أن تكون صرخات انســـان ٠٠ وقع أقدام ٠٠ أصوات ٠٠ قعقعة الأواني مع تلك الصرخات ٠ ضغط « جيا ـ شن » بيديه على أذنيه ٠ لا يمكن أن تكون هذه صرخات « روا » ٠٠ ليست حبيبتي «روا» ٠٠ لا يمكن أن تصرخ هكذا ، أفقده القلق صوابه ، حاول النظر من خلال النافذة ، لكن شمسية الشباك كانت مغلقة ٠٠ انه يسمع ، لكنه لم يستطع رؤية شيء ، فرجع من حيث جاء خائب الرجاء ٠

قالت المرأة المجهولة :

ـ إصبري ياسيدي الصغيرة، سيكون كل شيء على مايرام بعد دقائق ٠

قالت « شو ـ خوا » :

ـ فات الكثير وما بقي الا القليل ٠٠ اصبري !

وشيئا فشيئا تحولت الصرخات الى أنين خافت ٠

وفجأة فتح الباب ٠٠ خرجت الأخت « تشـــانج » مسرعة ، ودخلت غرفة أخرى ، ثم قفلت راجعة الى غرفة « روا ـ جيا » ٠ نظر « جيا ـ شن » من خلال الباب نصف المفتوح ، تردد « جيا ـ شن » : هل يدخل أو يبقى حيث هو ؟ ٠٠ وعندما اتخذ قراره أغلق الباب في وجهه ، دفع « جيا ـ شن » الباب عدة مرات ، لكن لم يجبه أحد ٠ وعندما هم بالانصراف يائسا دوت في الغرفة صرخة مؤلمة ، أخذ « جيا ـ شن » يدفع الباب في عنف ويضربه بقبضته ، صاحت الأخت « تشانج » :

ـ من هناك ؟

قال في صوت خائف غاضب يشوبه الألم :

ـ دعيني أدخل !

لم يجبه انســان وبقى الباب مغلقـــا ، استمرت زوجته فى صراخها •

دق الباب فى جنون :

ـ دعينى أدخل ! أتسمعين ما أقول ؟

صاحت الأخت « تشانج » من خلف الباب :

ـ سيدى الفتى الأول ، غير مسموح لك بالدخول ، هناك أوامر مشددة من السيدة « تشور » والسيد الكبير « كا ـ منج » والسيدة « تشين » تقضى بمنعك من الدخول •

خانته شجاعته •• تذكر ماقالوه •• وقف فى صمت أمام الباب ولم يجد مايقوله •

تسلل الى سمعه صوت « روا » وقد مزقه الألم :

ـ هو أنت ! •• « جيا ـ شن » ؟ لماذا لا تدخل ؟ الأخت « تشانج » ، دعى الفتى الأول يدخل ! آه •• ! الألم •• ! الألم ••!

سرت قشعريرة فى جسد « جيا ـ شن » ، وأخذ يدق دقات وحشية على الباب وهو يصرخ :

ـ أنا قادم يا « روا » ! •• أنا قادم ! افتحوا الباب ! انها تحتاج الى ! دعونى أدخل !

ـ •• ش •• ن •• انه يؤلم ! •• أين أنت ؟ لماذا لا تدعونه يدخل •• آه •• !

ـ سأحبك يا « روا » ! لن أتخلى عنك ! دعونى أدخل ! ألا ترون كم تتعذب ؟ أليس فى قلوبكم رحمة !

سمع « جيا ــ شن » صوت انتفاضة عنيفة ، توقف الصراخ داخل الغرفة ·· تبعه سكون الموت ، وفجأة خرق السكون المؤلم بكاء واضح متألق لمولود جديد !

سقط عبء ثقيل كان يجثم على صدر « جيا ــ شن » ، وتنفس الصعداء ·

ــ شكرا للسماء ! ·· شكرا للأرض !

انتهى الألم انتهى الخوف ·· وشعر مرة أخرى بسعادة غامرة ·· وامتلأت عيناه بالدموع ، وقال لنفسه :··

ــ سأحبها وأدللها أكثر وأكثر · وسأحب طفلنا الثانى ·

ابتسم والدموع تجرى على خديه ·

دوى صوت « شو ــ خوا » صارخا :

ــ زوجة أخى ·· يداها باردتان !

هبطت هذه العبارة على « جيا ــ شن » كالصاعقة ·

صرخت الأخت « تشانج » :

ــ سيدتى الصغيرة !

دوت فى الغرفة صرخات الحزن والندم ، صرخات القابلة والأخريات ممن كانوا داخل الغرفة ·

أدرك « جيا ــ شن » الكارثة التى حلت به ، لم يجرؤ على التفكير فى شىء · استمر فى طرقه الباب وصراخه ·· لم ينتبه له انسان ·· حال الباب بينه وبينها بلا رحمة ·· لن يدعه يمر منه لينقذها ·· أو يلقى عليها نظرة وداع أخيرة ·· ضاعت آماله ·· وأصوات بكاء النسوة تحوم حول « روا » فى غرفتها المغلقة ·

·· « روا » ·· أنا أناديك « روا » ·· ألا تسمعين ؟

صرخة مجنونة تسللت من أعماق قلبه تحمل كل حبه ·· حب روا ·· صرخة تعيدها من العالم الآخر ·· صرخة تعيد الحياة « لروا » وله ، فهو يعلم نوع الحياة التي سيحياها بدونها ·

لكن الموت جاء ··

اقترب وقع أقدام من الباب · ظن « جيا ـ شن » أن الباب سيفتح ، لكن هذا لم يحدث ·· وقفت القابلة وعلى ذراعيها طفل ، وتحدثت اليه من خلال فتحة من الباب ·

ـ أهنئك ياسيدي الفتى الأول ، انه ولد ·

عادت القابلة وهي تردد كلمات مخيفة ·

ـ لكن لسوء الحظ ، سيكون طفلا يتيم الأم !

غار هذا النبأ كنصل سكين حاد في قلب « جيا ـ شن » ، انه لم يعد يحمل في قلبه عاطفة أبوية نحو هذا الطفل ، فالطفل عدوه الذي سلبه حياة « روا » ·

تملكه احساس طاغ بالحقد والحزن ، فأخذ يدق بوحشية على الباب ·· انه يريد الركوع الى جوار سرير زوجته ، ويلتمس منها الصفح والغفران ، لكنه تأخر كثيرا ·· فذلك الباب العنيد حرمهما همسة حب أخيرة، من وداع لا لقاء بعده ، انه حرمه حتى مجرد البكاء أمام جثتها الملقاة خلف هذا الباب ·

وفجأة وضح أمامه كل شيء ·· ان هذا الباب لا حول ولا قوة له ·· ان ماحرمه زوجته شيء آخر ·· انه النظام الاجتماعي بأكمله وشرائعه الأخلاقية وخرافاته · تحمل هذه الأشياء جميعا سنوات وهي تسرق منه شبابه ·· سعادته ·· مستقبله ·· المرأتين اللتين

أحبهما أكثر من أى شىء فى العالم ٠٠ ان هذا النظام عبء ثقيل أراد التخلص منه ، أراد أن يقاومه ٠٠ لكنه أدرك أن هذا محال ٠٠ لا حول ولا قوة له ٠٠ انسان مستضعف ٠ انهار « جيا ــ شن » وخر راكعا على ركبتيه أمام الباب ينزف دمعا مريرا ٠٠ بكاها ٠٠ بكى نفسه ، اختلط نواحه وأصوات البكاء المنبعثة من داخل الغرفة ، لكن شتان مابين نواحه المرير وأصواتهن الباكية !

توقفت محفتان أمام بوابة الدار ، نزلت منهما السيدة «تشوو» زوجة أبيه وسيدة أخرى ، سمعت السيدة « تشوو » الأصوات الباكية عندما دخلت من البوابة ، فتغيرت ملامح وجهها ، قالت المرأة الأخرى فى اضطراب :

ــ لقد تأخرنا كثيرا !

ثم اندفعت الى داخل المنزل ٠

سألت السيدة « تشوو » فى دهشة « جيا ــ شن » عندما رآنه راكعا أمام الباب عما حدث ٠

نهض « جيا ــ شن » بسرعة ومد يديه وبكى ٠٠ روا ٠٠ روا ٠٠ !

عرف « جيا ــ شن » المرأة الأخرى وحياها فى خزى ، ثم انخرط فى بكاء بصوت مرتفع ، وفى نفس الوقت بكى الطفل فى داخل الغرفة ٠

وجففت المرأة دموعها بمنديلها فى صمت ٠

أخيرا فتح الباب ، وقالت السيدة « تشوو » :

ــ فلتتفضل السيدة « لى » بالدخول ، عائلتنا غير مسموح لها بدخول غرفة التسعين ٠

دخلت السيدة « لى » ، وزاد صوتها المؤثر من مرارة حزن الأصوات الباكية ٠

ـ روا ، لماذا لم تنتظريني ؟ جاءت أمك لتراك ، اذا كان لديك ماتريدين قوله فقوليه الآن ! تكلمى « روا » ! عودى يا « روا » ٠ ألم تستطيعى الانتظار يوما آخر ، مت ميتة بشعة ياطفلتى الصغيرة المسكينة ! وحيدة فى هذا المكان المهجور ٠ لقد أبعدوك وتركوك وحيدة ، آه لو أتيت لك قبل ذلك ! ربما كنت الآن حية ترزقين ، طفلتى المسكينة ! لماذا تركتك تتزوجين فى عائلة كهذه ؟ ٠٠ دمرت أمك حياتك ٠

سمعت السيدة « تشوو » و « جيا ـ شن » كل هذا الحديث فى وضوح كانت كل كلمة كنصل سكين يغور فى أعماق قلبيهما٠

الفصل الرابع والثلاثون

ـ أخى الكبير ، لا أستطيع العيش وسط هذه العائلة بعد ذلك ، اننى راحل عنها ٠

جلس « جيا ــ شن » فى عرفته وظلام الليل يزحف حوله عندما بدأه « جيا ـ خوى » بهذا الحديث ، كان « جيا ـ شن » مستغرقا فى النظر الى صورته هو و « روا » يوم زفافها ، وبالرغم من عدم استطاعته الرؤية بوضوح فى هذا الضوء الضعيف فان جميع ملامحها كانت محفورة فى قلبه ٠٠ وجهها الناضر الجميل ٠٠ عيناها الكبيرتان الجميلتان ٠٠ ابتسامتها الخجول وغمازتا خديها الرقيقتين ٠٠ بدت هذه الأشياء جميعـا تنبض بالحيـــاة فى تلك الصورة ، كان يحملق فيها والدموع فى عينيه عندما أعاده حديث « جيا ــخوى » الى الواقع ، استدار نحو أخيه فوجده يرمقه بعينين تلمعان كالبرق ، سأله « جيا ـ شن » فى فزع :

ـ سترحل ؟ وأين ستذهب ؟

ـ شنغهاى أو بكين ٠٠ أو أى مكان بعيد عن هذه العائلة !

لم يجب « جيا ـ شن » وآلمه قلبه ، فأخذ يدلك صدره بيده ٠

ـ سأرحل ٠ لن أبالى مايقولون ، سأرحل !

ثم وضع يديه فى جيبه ، وأخذ يخطو على أرض الغرفة فى حماس وغضب ، لم يكن مدركا أن كل خطوة يخطوها تنزل ثقيلة قاسية على قلب أخيه ٠

سأله « جيا ــ شن » :

ــ وماذا عن الأخ الثانى ؟

أجاب « جيا ــ خوى » فى انفعاله :

ــ فى بعض الأحيان يقول : انه سيرحل ، وأحيانا يقول : انه لن يرحل . أنا أعتقد أنه لن يتخلى عن « تشن » ، ويذهب بمفرده .

ثم أضاف فى تصميم :

ــ وعلى أية حال : لقد عقدت العزم على الرحيل .

قال « جيا ــ شن » وهو يكاد يبكى :

ــ حسنا يمكنك الرحيل اذا أردت ذلك ، يمكنك الذهاب الى شنغهاى أو بكين أو أى مكان تريد .

ظل « جيا ــ خوى » صامتا ، فهو يفهم مايرمى اليه أخوه .

وفجأة دفن « جيا ــ شن » رأسه بين يديه وبكى :

ــ لكن مامصيرى ؟ الى أين يمكننى الرحيل ؟

استمر « جيا ــ خوى » يقطع الغرفة جيئة وذهابا ، ويصوب بين الحين والآخر نظرات تعسة نحو أخيه .

توقف « جيا ــ شن » عن البكاء ، ورفع يديه عن وجهه ورجا أخاه :

ــ لن تذهب ، مهما حدث ، لا ترحل عنا .

توقف « جيا ــ خوى » ونظر نحو أخيه فى حزن .. فقال « جيا ــ شن » فى الحاح :

ـ لن يسمحوا لك بالرحيل • لن يدعوك تذهب •

ضحك « جيا ـ خوى » فى كبرياء :

ـ أعلم جيدا أنهم لن يوافقـــوا على رحيلى ، ولكنى سأرحل نكاية فيهم •

ـ كيف يمكنك ذلك ؟ •• نديهم الكثير من الحجج ، لا يمكنك انكارها ! فجثمان جدنا لايزال بالدار ، لم تقم له بعد أى صلوات تذكارية ولم يدفن بعد ••

بدا « جيا ـ شن » وكأنه يتحدث بلسانهم •

ـ وما شأنى بهذا كله ؟ كيف يمكنهم الوقوف فى طريقى ؟•• لن يجرءوا على قتلى كما قتلوا زوجتك !

أطلق « جيا ـ خوى » هذه العبـــارة القاسية وقد جن من الغضب ، فلم يبال وقعها على أخيه •

توسل « جيا ـ شن » :

ـ لا تتحدث عنها ! أرجو ألا تتحدث عنها ! •• لن يعيدها شيء الى الحياة •

قال « جيا ـ خوى » وهو يبتسم فى برود :

ـ لماذا تنزعج هكذا ؟ بعد انتهاء فترة الحداد على جدنا يمكنك الزواج مرة أخرى ، عليك بالانتظار ثلاث سنوات على أكثر تقدير !

رد « جيا ـ شن » فى ضعف ، وبدا صوته كصوت كهل عجوز :

ـ لن تكون لى زوجة أخرى •• لن يحدث هذا أبدا • ولهذا السبب أعطيت أم « روا » المولود الجديد •

ـ لماذا تركتها تأخذ « خاى ـ تشن » أيضا ؟

ـ سأبقيه هناك مدة شهرين أو ثلاثة فقط ، ما أقسى الظروف التى يمر بها طفل فقد أمه ! انه يصرخ ويناديها طوال اليوم ·· ليس هنا انسان يهتم بأمره ويرعاه ، سأعيده الى الدار بعد دفن جدنا ، سأهتم بتعليمه ·· انه أملى الوحيد ، ولن أتخلى عنه ، لن أسلمه لامرأة أخرى ·

أجابه « جيا ـ خوى » وقد ارتسمت على وجهه نفس الابتسامة الباردة :

ـ هذا ماتقوله الآن ، بعد فترة ستغير رأيك ، فأنتم جميعا من طينة واحدة ، شاهدت هذا يحدث مرات كثيرة ، والدنا مثل حى على ذلك · تقول : انك لا تريد الزواج ، سيقولون لك : انك مازلت صغيرا وان « خاى ـ تشن » يحتاج الى أم ، وستوافق على ذلك ، واذا لم توافق فسيرغمونك على الموافقة ·

أجاب « جيا ـ شن » فى يأس :

ـ قد يجبروننى على عمل أشياء أخرى ، أما هذا فلا ، حتى لو كان من أجل « خاى ـ تشين » ·

أفلتت من فم « جيا ـ خوى » ضحكة :

ـ هذا هو نفس شعورى بالنسبة لمسألة الرحيل ، انهم لا يستطيعون اجبارى على البقاء ·

التزم « جيا ـ شن » الصمت بضع دقائق ، وأخيرا قال فى ضيق :

ـ لن أساعدك · وسنرى : هل فى مقدورك الرحيل !

تساعدنى أو لا تساعدنى ، هذا أمر يرجع لك وحدك ..
اسمع جيدا ماسأقوله لك .. عندما تبحث عنى فى المرة القادمة لن تجدنى أبدا !

ـ ليس لديك نقود .

ـ هذه ليست مشكلة . اذا لم تعطنى العائلة نقودا أستطيع الاقتراض من أى مكان ، سأرحل مهما كانت الظروف ، لدى أصدقاء كثيرون يمكنهم مساعدتى !

ـ ألا يمكنك الانتظار قليلا ؟

ـ كم ؟

ـ عامين ، وفى ذلك الحـــين تكون قد تخرجت فى مدرسة اللغات الأجنبية .

ظن « جيا ـ شن » أن أخاه بدأ يلين ، فاستأنفت حديثه فى صوت هامس :

ـيمكنك حين ذاك الحصول على عمل فى الخارج أو تستمر فى دراستك ، ستكون فى مركز أفضل مما أنت عليه الآن .

صاح « جيا ـ خوى » فى دهشة :

ـ عامين ؟ أنا لا أطيق الانتظار خمس عشرة دقيقة ! ان أغلى أمنية عندى هى الرحيل عن مدينتنا فورا !

ـ (عامين) ليس بالوقت الطويل ، أنت مندفع متهور ، يجب أن تتدبر الأمر بروية .

لا تكن متسرعا .. ثم ماذا يضيرك لو انتظرت عامين ؟ لقد عشت هنا ثمانية عشر عاما ويمكنك فى منتهى اليسر العيش عامين آخرين !

ـ كنت أعمى لا أدرك الأشـــياء على حقيقتها فى السنوات الماضية ، ولم تكن لدى الشجاعة الكافية ٠٠ كان فى عائلتنا أفراد قلائل أحبهم وأحترمهم ٠ لم يبق لى الآن فى العائلة سوى الأعداء ٠٠ !

التزم « جيا ــ شن » الصمت فترة طويلة ٠٠ وأخيرا سأل أخاه فى صوت حزين :

ــ هل تعتبرنى عدوا لك ؟

رق قلب « جيا ــ خوى » ، وأشفق على أخيه الكبير ، وقال فى هدوء :

حبى لك ليس موضع شك ، كنا فى الماضى متقاربين ، يفهم كل منا أخاه ٠٠ أما الآن فقد اتسعت الهوة بيننا ، كنت تحب زوجتك و « مى » أكثر مما أحبهما ، وبرغم ذلك تركت النـاس يعبثون بمصيرهما كما يحلو لهم وساعدتهم فى غيهم ٠ لو كنت تتحلى بقدر من الشجاعة لأمكنك انقاذ زوجتك من مصيرها المشئوم ، فات أوان كل هذا ٠٠ كيف تحدثنى عن الطاعة ؟ هل تريدنى حقا أن أصبح مثلك أدمر الآخرين وأدمر نفسى ؟ أخى الكبير ، اننى أحبك وان كنت لا أستطيع تفسير احساسى نحوك ٠ الا اننى أرجوك ألا تقدم لى مثل هذه النصائح ، وان فعلت فسأكرهك ٠

هم « جيا ــ خوى » بالرحيل ، لكن صيحة « جيا ــ شن » الحزينة جعلته يتجمد فى مكانه :

ــ انتظر ! سيفهم كل منا أخاه ٠٠ لدى مشاكلى ، لكننى لن أتحدث عنها الآن ٠ لن أقف فى طريقك وسأساعدك ، سأفاتحهم فى الأمر ، واذا لم يوافقوا فسأجد حلا آخر ، أنا أريد مساعدتك بأية وسيلة ٠

وفجأة أضيئت الأنوار الكهربية ٠ شـــاهد كلاهما الدموع

تترقرق في عيني أخيه · تبادل الفتيان نظرات صفح وغفران ، فهما أخوان متحابان مخلصـــان برغم كل شيء ·· وبالرغم من اعتقادهما أن كليهما قد فهم أخاه حق الفهم فان هذه المسألة لم تكن تمثل جوهر المشكلة ·

غادر « جيا ــ خوى » غرفة أخيه فرحا بقرب رحيله بعيدا عن عائلته ، أما « جيا ــ شن » فقد بكى بحرارة بعد انصراف أخيه·· فهو يدرك أنه سيفقد قريبا انسانا آخر يحبه ·· سيكون حوله أناس كثيرون بعد رحيل « جيا ــ خوى » ، غير أنه سيشعر بينهم بالوحدة والعزلة ·

حافظ « جيا ــ شن » على وعده ، فبعد يومين ذهب الى غرفة أخيه الصغير وأجرى معه حديثا خاصا : قال بصوت خفيض وقد جلسا وجها لوجه حول مائدة مربعة :

ــ فشلت ·· لم أســـتطع اقناعهم ، فاتحت زوجة أبينا فى الأمر ، فلم توافق على رحيلك لـــكنها لم تعترض عليه كلية ، انها تتمنى لنا السعادة ، وهى حزينة نادمة على وفاة زوجتى · لقـــد قامت مع والدة « روا » بالاشراف على ترتيبات الجنازة ، ولم أضطر الى القيام بأى شيء ·· اهتممت بأمر «مى» أكثر من اهتمامى بزوجتى الراحلة ، فعلى الأقل شاهدتها قبل وضعها فى النعش ، وساهمت فى الاعداد لجنازتها ·

ــ ثم غلبه البكاء ··

ــ مسكينة « روا » · ماتت منذ ثلاثة أســابيع ، ولم يذهب واحد من الكبار لزيارتها ، ولم تسمح عمتى الخامسة ل « شو ــ تشين » بالـذهاب الى المعبد حيث يرقد جثمـــان « روا » · انهم يتجنبونها كما كانت روحا شريرة ! لا أعتقد أن فتاة مثل « روا »

تنقلب الى شيء بشع كهذا ·· كل مرة التقى فيها ووالدة « روا » أشعر بنصل سكين يغور في قلبي ·· ان السيدة « لي » لا تتحدث صراحة في هذا الموضوع ، لكن كلماتها مملوءة بالتلميح والتوبيخ الموجه الى · أنت لا تدرك مدى احساسي بالذنب !

استمع « حيا ــ خوى » الى حديث أخيه وهو يعض شفتيه ، ويضغط قبضته في عصبية ، نسى «جيا ــ خوى» مشاكله ·· فهو لا يرى أمامه سوى وجه ناضر جميل ·· وجه « روا » زوجة أخيه ·· ونعش ·· وشيا فشيئا أصبح النعش نعشين ·· ثلاثة نعوش ·· وظهـرت وجوه ثلاث فتيات جميلات ·· أحـدها ناضر جميل ·· والثاني باك حزين · ·والثالث برىء متفتح طاهر ·· تضاعف عدد الوجوه ·· أربعة ·· خمسة ·· انه يعرفها جميعا ·· تزايد عددها، وفجأة اختفت جميعا ، ولم يبق أمامه سـوى وجه أخيـه المخضب بالدموع ·

قال « جيا ــ شن » وهو يضغط بقبضته على المائدة :

ــ لن أبكى بعد الآن ·

وجفت دموعه ·

ساد الغرفة صمت مزعج ·· سمع الشقيقان صوت الرهبان وهم يرتلون الصلوات ، ويدقون الأجراس والصاجات في القـاعة الضخمة ·

تنهد « جيا ــ شن » ، ومسح دموعه بمنديله :

ــ بدأت الحديث في مشـــكلتك ، وأخشى أننى خرجت عن الموضوع ·

حاول « جيا ــ شن » الضحك ، لكنه لم ينجح في ذلك ·

ـ قالت زوجة ابينا : انها لا تستطيع أن تتخذ قرارا فى هذا الموضوع ؛ وطلبت منى مفاتحة العم « كا ـ منج » فى هذا الأمر .. فعلت ما أشارت به ، فوبخني عمي بشدة لعدم فهمى قواعد الاحتفالات الرسمية وقال لى : انه يجب عليـك على الأقل الانتظار حتى يدفن جدنا ثم ترحل ، ووافقه الآخرون على ذلك . ألقت السيدة « تشين » ببعض التعليقات الساخرة ، وألمحت أيضا الى أن تدخلك فى مسألة طرد الأرواح من أحد أسباب وفاة جدنا، وبطبيعة الحال لم تجرؤ على قول ذلك بطريقة مباشرة ، ولم يوافقها أحد فيما رمت اليه .

قال « جيا ـ خوى » فى غضب :

ـ يحتمل أن يوافقوها فيما ترمى اليه ؛ فهذا يؤدى الى فضيحة جديدة فى العائلة .

انهم جميعا يكرهوننى على أية حال ، حسنا ، أنا فى انتظار حملتهم القادمة !

ـ لا أعتقد أنهم سيفعلون أى شىء ضدك ، انهم يعترضون على رحيلك لمجرد رغبتهم فى توجيه ضربة أخرى الى .

أخذ «جيا ـشن» يعبث فى شعره بضيق ، ثم استأنف حديثه.

ـ يقولون : ان شنغهاى مدينة كبيرة فاسدة ، وانك ستفسد اذا التحقت باحدى المدارس هناك . واحتجوا بأن جدنا كان يعارض التحاقنا بمدارس عامة: قالوا : ان مدارس شنغهاى تخرج مشاغبين، ولا تقدم للمجتمع رجالا مهذبين ! وتشعب بنا الحديث ، فهذا العم يدلى برأى ، وتلك العمة تفتى برأى آخر ..

خلاصـــة القول أنهم لا يوافقون على رحيلك وهم لا يريدون تأخيرك فقط الى ما بعد دفن جدنا ، بل انهم يأملون منعك نهائيا من الرحيل .

نهض « جيا ــ خوى » فجأة وضرب بقبضته على المائدة :

ــ حسنا ، سأرحل ٠٠ سأريهم من أكون ؟ انى متمرد !

وأخذ يقطع الغـرفة ويردد ٠٠ متمـرد ٠٠ متمرد ٠٠ وكأنه لا يفهم تماما ما تعنيه تلك الكلمة ، وفجأة التفت نحو أخيه وسأله :

ــ ومارأيك ؟

رفع « جيا ــ شن » رأسه ، وأشرقت عيناه بتصـــميم ٠٠

ــ والتصميم ليس من شيم « جيا ــ شن » ــ وقال :

ــ وعدت بمســاعدتك ، وســأكون وفيا بوعدى ٠٠ يجب أن نعمل فى سرية ، ألم تقل ان لك أصدقاء يمكنهم اقراضك نقودا ؟ لا بأس بذلك ، ويمكننى أيضا اعطاؤك بعض النقود ٠ من الأفضل أن تأخذ معك نقودا زيادة عن حاجتك ٠ أما ما يحدث بعد ذلك فأنا له بالمرصاد ، لن تكون هناك متاعب بعد رحيلك ٠

صاح « جيا ــ خوى » فرحا ، وأمسك بذراع أخيه :

ــ ستساعدنى حقا ؟

ــ اخفض صوتك ولا تصح هكذا ، اننا لانريدهم أن يسمعوا ذلك ، مهما فعلت لا تخبر انسانا بما تفعل ٠ سأدعى أننى لا أعرف شيئا عن هذا الموضوع ٠ يمكنك ترك رسالة توجه فيها الى اللوم ، وعندئذ لن يشكوا فى اطلاقا ٠ نستطيع ترتيب التفاصيل بعد ذلك ٠ يحسن أن نلتقى فى الحديقة ؛ فالحديث هنا فيه خطورة ٠

كانت تصرفات « جيا ــ شن » عامرة بالمرح ، ولــكن الدموع ظلت تترقرق فى عينيه ٠

انساب الى الغرفة صوت واضح قوى :

ـ أصبت ؛ فهذا المكان غير صالح لاجراء أحاديث خاصة !

دخل الغرفة « جيا ـ من » وهو يبتسم وفى رفقته « تشن » وضحك قائلا :

ـ خطتك ليست رديئة ٠

فلامهما « جيا ـ شن » قائلا :

ـ لماذا تقفان بالخارج ، وتسترقان السمع ؟ لماذا لم تدخلا ؟

ـ عرفنا أنكما تناقشان بعض الأمور الخاصة ؛ لذا اتخذنا مواقع حراسة أمام الباب ٠

هذه فكرة « تشن » ٠٠ انها ذكية ٠٠ أليس كذلك ؟

ثم نظر الى « تشن » ضاحكا ، فابتسمت فى دلال ، ثم استأنف « جيا ـ من » حديثه :

ـ نأمل أن نحظى نحن بمساعدتك أيضا ـ وافقت والدة « تشن » على زواجنا ولن تعترض زوجة أبينا ، نحن فى انتظار انتهاء فترة الحداد على جدنا لتحديد موعد الزواج ، لكننا نريد احتفالا عصريا على أحدث طراز ٠

تجهم وجه « جيا ـ شن » ٠٠ هاهى ذى مشكلة جديدة ٠٠

ـ هذا سابق لأوانه ، سنتحدث فى هذا الموضوع فى الوقت المناسب ، سنستطيع تدبير الأمر بطبيعة الحال ٠

قال « جيا ـ شن » ، الجملة الأخيرة ليهدىء «جيا ـ من» وان كان فى الواقع ليس لديه أدنى قدر من الثقة فى امكان نجاح هذه المسألة ٠

صاح « جيا ـ خوى » فى حيوية :

ـ يجب أن تأتى الى شنغهاى ، سأكون هناك للترحيب بك .

ـ هذا بعيد الاحتمال . اذا لم توافق والدة « تشن » على الذهاب معنا فاننا لن نستطيع تركها هنا ، وعلى أية حال سنضطر الى الانتظار عامين أو ثلاثة قبل أن نستطيع الرحيل معا .

سأل « جيا ـ خوى » :

ـ ومدرسة « تشن » ؟

ـ ستتخرج فى العام القادم ، وربما تسمح مدرسة اللغات الأجنبية فى ذلك الحين بدخول الفتيات . واذا لم يحدث هذا تستطيع أن تدرس من البيت عاما أو عامين وحين ترحل عن المدينة سيكون فى مقدروها أن تتقدم لدخول الجامعة .

ثم التفت « جيا ـ من » الى « تشن » وسألها :

ـ ما رأيك ؟

ابتسمت « تشن » ، ولم تنبس ببنت شفة ، انهـا تثق فى « جيا ـ من » وهى تعلم أنه يحاول تدبير شئونها .

نظر « جيا ـ خوى » نحوها فى صمت ، حسد « جيا ـ من » على ما ينعم به من سعادة ، لكنه وجد عزاء لنفسه فى أنه ليس هناك ما يقيده للبقاء فى هذه الدار ويعوقه عن الرحيل بعيدا عن هـذه العائلة التى يحتقرها .. فهناك فى شنغهاى تنتظره حياة جديدة .. شنغهاى بجماهيرها الضخمة وحركتها الثقافية الجديدة . ان له فى شنغهاى بعض الأصدقاء الشبان ظل يراسلهم فترة طويلة ، لكنه لم يلاقهم وجها لوجه .

قال « جيا ـ شن » :

ـ يحسن أن نستأنف هذا الحديث فى الحديقة يا أخى الثانى ، اذهب أنت و « تشن » أولا ٠

ثم سمع صوت خادم ينادى :

سيدى الفتى الأول ! ٠٠

تذكر « جيا ـ شن » أن عليه القيام بعمل ما ، فقال « لجيا ـ خوى » فى عجلة :

ـ اذهب أنت أيضا يا أخى الثالث ، انتظرنى فى مبنى عبير المساء وسألحق بكم فورا ٠

ثم اندفع خارجا من الغرفة ٠

خرج « جيا ـ من » فى رفقة « تشن » بعد بضع دقائق ، ولحق بهما « جيا ـ خوى » بعد فترة قصيرة ٠٠ وعندما خرج من غرفته شاهد أخاه الكبير يتأمل ورقتى عزاء تسلمهما منذ لحظات ٠ أمسك الخادم بحافة ورقة منهما ٠٠ اقترب « جيا ـ خوى » من أخيه وقـرأ :

ـ العائلة جميعها تبكى وتودع انسانة حبيبة غالية ٠٠ عذاب الزوج يزداد مرارة وقسوة ؛ اذ ان المـولود الجديد سيحرم رعاية الأم وحنانها !

كانت الورقة تحمل توقيع شقيق « روا ـ جيا » المقيم خارج المدينة ٠ ذهب « جيا ـ خوى » الى الحديقة كسير الخاطر ليبحث عن « جيا ـ من » و « تشن » ٠

وظل « جيا ـ شن » واقفا ينظر الى تلك الكلمات المكتوبة ،

وفجأة طوى الورقة وطلب من الخادم الذهاب بها الى جناحه واتجه نحو الحديقة . جال بخاطره :

ـ هذه العـائلة تحتاج الى ثورة .. يجب أن أسـاعد الأخ الثالث ، سينتقم لى منهم ، سنرد لهم الصـاع صاعين .. فليس جميع أفراد العائلة ضعافا مثلى !

الفصـــل الخـــامس والثلاثـون

غادر « جيا ـ خوى » وأصدقاؤه مقر المجلة بعد أن أرخى الليل سدوله · لفحت وجوههم الناضرة نسمة خريف باردة · وقف الفتية فى ستر أحد المبانى غير راغبين فى الافتراق ، وأخذوا يرقبون الناس وهم يهرولون فى الطريق ·

قال أحد الفتية :

ـ سنفترق هنا ، لن أتمكن من توديعك غدا · أتمنى لك رحلة موفقة ·

قال « جيا ـ خوى » :

ـ شكرا لك ··· تصافحت الأيدى ··· وتمنى له الآخرون حظا سعيدا ··· ثم افترقوا ·

قال « خوى ـ رو » :

ـ سنسير معك حتى تصل الى دارك ·

وتألقت عيناه الصغيرتان وسط وجهه الأحمر المثلث الشكل·

أومأ « جيا ـ خوى » برأسه واندفع هو ورفاقه الثـــلاثة الذين آثروا البقاء معه فى الطريق المزدحم ، وبعد مسافة قصيرة ودعه صديق آخر وافترق عنه ·

دخل الفتية عطفة هادئة ··· بدت مصابيح الطريق شاحبة فى ضوء القمر ، وبدت مداخل الدور المتفرقة من الطريق الرئيسى

كالكهوف مظلمة ، وارتفعت الأشجار بين الجدران ، فحفرت لها ظلالا على الأشجار الفضية الرخوة ، واســـتقرت ظلال الأوراق والأغصان سوداء جامدة ، وكأن يدا ماهرة قد أبدعت رسمها ٠

تساءل « جيا ـ خوى » ٠

ـ كم تبدو المدينة هادئة ؟

كاد « جيا ـ خوى » ينسى المتاعب والاضطرابات الجاثمة على صدر هذه المدينة ٠ نظر الى القمر المكتمل وهو يسبح فى صمت فى سماء الليل اللانهائية ٠

تنهد « خوى ـ زو » فى اعجاب :

ـ ما أجمل القمر !

وسأل « جيا ـ خوى » :

ـ ألن تفتقد هذا المكان بعد رحيلك ولو قليلا ؟

فالتزم « جيا ـ خوى » الصمت ٠

تساءل « تسون ـ رن » :

ـ ومامیزة هذه المدينة عن غيرها ؟ عندما يذهب عبر النهر سيجد أماكن أجمل منها ٠

قال « جيا ـ خوى » فى اضطراب :

ـ طبعا سأفتقد « تشينج ـ تو » ٠٠٠ فكل أصدقائى الأعزاء هنـــا !

ثم ودع « جيا ـ خوى » أصدقاءه أمام باب داره ، وتوجه مباشرة الى غرفة « جيا ـ شن » ، فوجد أخاه الكبير و « جيا ـ من » منهمكين فى الحديث ٠ فتردد قليلا قبل أن يعلن ٠٠٠٠

ـ أخي الكبير ، سأرحل صباح الغد ٠

شحب وجه « جيا ـ شن » ، ونهض من فوق مقعده ٠

ـ غدا ؟ أظن أنك قلت لى : انك سترحل بعد ثلاثة أيام٠٠٠٠

قال « جيا ـ خوى » فى اكتئاب :

ـ أجر السفينة أحد أقرباء « تسون ـ رن »٠، وقرر الابحار غدا ، لم أعلم بهذا سوى مساء اليوم ٠

حاول « جيا ـ شن » تمالك نفسه واستند بيده على المكتب حتى لاينهار ، وقال فى حسرة :

ـ هكذا ترحل عنا بسرعة ! ٠٠٠ لن تبقى معنا سوى ليلة واحدة ٠٠٠

قال « جيا ـ خوى » فى حزن :

ـ أخي الكبير ! ٠٠٠

والتفت « جيا ـ شن » نحوه ونظر اليه بعينين دامعتين ٠٠

ـ ٠٠٠ كنت أريد الحضور فى وقت مبكر لأتناول العشاء معكما ، لكن أصدقائى أصروا على الاحتفال بتوديعى ٠ هذا ما عاقنى عن الحضور فى وقت مبكر ٠٠ وابتلع « جيا ـ خوى » بقية الكلمات ٠

قال « جيا ـ من » :

ـ سأستدعى « تشن » ، انها تريد الحديث معك ، غدا لن يكون هناك وقت لذلك ٠

قاطعه « جيا ـ خوى » :

ـ ألا تعلم فى أى وقت نحن الآن ؟ ستضطر الى الدق على البوابة وتقلق الجميع ، وستسترعى الأنظار بتصرفك هذا •

ـ وعلى هذا لن تتمكن من وداعك قبل رحيلك ، سيؤلمهـــا هذا كثيرا ، لقد طلبت منى مرات كثيرة ابلاغها بموعد رحيلك •

لاحظ « جيا ـ خوى » شرود « جيا ـ من » فقال له :

ـ يمكننا زيارتها فى الصباح قبل القيـــام بأى شيء •• أنا واثق من ذلك ، سيكون لدينا وقت كاف لذلك •

لكنه لم يكن واثقا تماما فى الواقع من امكان لقاء «تشن» •

سأل « جيا ـ شن » بصوت أجش :

ـ هل حزمت أمتعتك ؟

ـ أرسلتها الى الميــــاء ، وهى ليست كثيرة : لفة للوازم السرير ، وسلة وحقيبة صغيرة •

ـ لم تأخذ ما يكفيك من الطعام ، ولدى بعض علب اللحوم المحفوظة أرسلها لى أحد الأصدقاء ••• سأحضرها لك •

توجه « جيا ـ شن » الى الغرفة المجاورة دون انتظار اجابة أخيه ، وأحضر معه أربع علب •

قال « جيا ـ خوى » عندما رأى أخاه يلف العلب :

ـ لن أحتاج الى هذا كله ، سأشترى ما أحتاج اليه فى أثناء سفرى •

وضع « جيا ـ شن » اللفافة أمام « جيا ـ خوى » :

ـ من الأفضل دائما أن يكون معك أشياء احتياطية ، وعلى

أية حال فأنا لست فى حاجة اليها • سأرسل لك نقودا بالطريقة التى اتفقنا عليها فى المرة الأخيرة • ستكون النقود فى انتظارك فى مكاتب بريد « تشينج ـ كنج » ، و «خان ـ كو»و «شنغهاى»• خذ الشيكات البريدية واصرفها ، واذا لم تكن النقود التى أعطيتك اياها بالأمس كافية يمكنك أخذ المزيد اذا رغبت •

ـ فى هذا الكفاية • ليس من الصواب حمـــل الكثير من العملات الفضية ، ولحسن الحظ الطرق آمنة هذه الأيام •

ردد « جيا ـ شن » بطريقة آلية :

ـ نعم ، الطرق آمنة هذه الأيام •

تبادل « جيا ـ خوى » و « جيا ـ من » بضع كلمات ثم حثه « جيا ـ شن » :

ـ أخى الثالث ، يجب أن تذهب الى فراشـــك ، فعليك الاستيقاظ غدا فى وقت مبكر • ستعيش فى سفينة خشـــبية قذرة أياما طويلة • ويحسن بك أن ترتاح قليلا •

أبدى « جيا ـ خوى » موافقته •

ـ ومنذ الغد ستعتمد على نفسك ، احرص على ارتداء ثياب تقيك شر البرد ، واهتم بطعامك ، أنت دائما مهمل فى هـــذه الأمور ، الأمر سيختلف عن البيت•اذا مرضت فلن تجد من يرعاك•

أومأ « جيا ـ خوى » موافقا ، قال «جيا ـ شن » فى صوت باك حزين :

ـ لاتنس الكتابة الينا فى أثناء رحلتك ، سأرسل لك كتبك عندما تصل الى شنغهاى • لا تقلق نفسك بشأن النقود ، سأدفع مصروفات أية مدرسة تلتحق بها ، ولاتهتم بالعائلة ، مادمت أنا حى

أرزق هنا فلن أسمح لأحدهم بالتدخل فى شئونك • بذل « جيا ـ خوى » جهدا خارقا ليسيطر على مشاعره •

ـ أنت محظوظ ، لقد استطعت النجاة من بحر المرارة والندم أما نحن ••••

ولم يستطع « جيا ـ شن » الاستمرار فى حديثه ••• لم تقو قدماه على حمله ، فالقى بنفسه فوق أحد المقاعد ، ودفن رأسه بين يديه وبكى فى هدوء •

ناداه « جيا ـ خوى » فى ألم :

ـ أخى الكبير !

لم يجب « جيا ـ شن » •

اقترب « جيا ـ خوى » منه ، وهتف بأسمه مرة أخرى ، ورفع يديه من فوق وجهه • نظر « جيا ـ شن » الى أخيه وهز رأسه :

ـ أنا بخير ، لست أشكو من شىء ، اذهبا وناما •

تركه الشقيقان ومضيا فى سبيلهما •

لاحظ « جيا ـ خوى » بعد خروجه النور يتلألأ فى نافذة السيدة « تشوو » ، فقال لأخيه :

ـ أود رؤية زوجة أبى •

سأله « جيا ـ من » فى دهشة :

ـ هل ستخبرها بأنك راحل ؟

ابتسم « جيا ـ خوى » :

ـ لا ، وأريد فقط رؤيتها ، فربما يكون هذا آخر عهدى بها٠

قال « جيا ـ من » فى صوت خفيض :

ـ حسنا ، اذهب اليها ، لكن عليك أن تلتزم جانب الحرص، لاتترك نفسك على سجيتها ٠

ثم انصرف الى غرفته على حين اتجه « جيا ـ خوى » الى شقة زوجة أبيه ٠

جلست السيدة « تشوو » فى أحد المقاعد ، وأخذت تتحدث مع « شو ـ خوا » ، وابتسمت معاتبة عندما شـــاهدته يدخل غرفتها :

ـ لم تحضر لتناول العشاء هذه الليلة ؟

ابتسم « جيا ـ خوى » وقال :

ـ أصبت ٠

وقف « جيا ـ خوى » بعيدا عن الســيدة « تشوو » ٠٠٠ قالت فى قلق :

ـ أنت دائما تجول خارج الدار ٠ لتفعل ماتشاء ، لكن يجب أن تهتم بصحتك ٠

ضحك « جيا ـ خوى » :

ـ صحتى على مايرام ٠٠٠ الجولان خارج الدار أفضل بكثير من الجلوس والشجار بالمنزل ٠

لامته السيدة « تشوو » وهى تبتسم :

ـ كم أنت مغرم بالجدل! لاعجب فى شكوى أعمامك وعماتك منك اليوم ٠ والحق يقال ٠ ان لك ميولا عدوانية ، أنت لا تخاف أى

انسان حتى أنا لا أستطيع السيطرة عليك •• يا للغرابة ! •••
أنت وأخوك الكبير أنجبتكما أم واحدة ، لكن طبـــاعكما مختلفة تماما ، وكلاكما يختلف عنها تماما ، الأخ الكبير لين وســـــهل للغاية ، أما أنت فعنيد شرس !

ثم ضحكت السيدة « تشوو » ••• ونظرت « شو ــ خوا » اليه وابتسمت • هم « جيا ــ خوى » بالدفاع عن نفسه ، لكنه تدبر الأمر ••• وفجأة تاقت نفسه الى أن يلمح لزوجة أبيه ببعض كلمات يودعها فيها ، والأمل يداعبه فى أنها ستفهم ما يرمى اليه بعد رحيله ، فاقترب منها •

لا حظت السيدة « تشوو » أن هناك ما يشغل باله ، فسألته فى رقة :

ــ ماذا بك يا « جيا ــ خوى » ؟ أتريد الحديث فى مسألة سفرك الى شنغهاى للدراسة ؟

ذكرته كلماتها بتحذير « جيا ــ من » له ، فقرر التزام جانب الحرص ، وأجاب بابتسامة مفتعلة :

ــ لاشيء اطلاقا ، سأذهب الى فراشى •

ثم نظر « جيا ــ خوى » الى وجه السيدة « تشوو » المستدير، وانتقلت نظراته الى شـــــقيقته « شو ــ خوا » ، ثم اســـتدار وانصرف ••• وفى أثناء انصرافه خيل اليه أن « شو ــ خوا » علقت على طباعه الغريبة •

فكر « جيا ــ خوى » فى أسى :

ــ ربما لا نلتقى أبدا بعد ذلك ••• عندما أرحل سأكون كالطير الذى يطلق سراحه •••

يطير عاليـا ••••

ولا يعود أبدا ••••

الفصـــل السادس والثلاثون

فى تلك الليلة نام « جيا ـ خوى » ساعات قليلة ، وبالرغم من استيقاظه قبل الفجر فانـــه ظل راقدا فى سريره يفكر حتى أشرق ضوء النهار •

البداية ••• لكن عليه أن يذهب مع « جيا ـ من » لرؤية « تشن » ، يجب مغادرة الدار فورا ، رافقه « جيا ـ شـــــن » و « جيا ـ من » حتى بوابة الدار •

الساعات الأولى من صباح يوم جديد ، الشـــوارع باردة هادئة ، وعلى الطريق سار الطهاة حاملين ســـــلالهم متجهين الى الأسواق • وفلاح قادم من ضواحى المدينة ليلتقط ما تجمع من سماد فى أثناء الليل ، وواحد أو اثنان من الباعة الجائلين يحملون وجبات افطار خفيفة •• السماء صافية •• والشمس دافئة تتألق على جدران الدور المواجهة لدار عائلة « جاو » ، والعصافير تنتقل وتغرد فوق الأشجار ترحب بمولد يوم جديد •

أمسك « جيا ـ خوى » بذراع أخيه بقوة ، وفاض صوته بالبشر فى نسيم الفجر المشرق •

ـ أخى الكبير ••• أنا راحل •

تنهد « جيا ـ شن » فى حسرة :

ـ آسف لعدم استطاعتى الذهاب معك الى أبعد من هـذا المكان • اهتم بنفسك وأكتب لنا دائما •

ضغط « جيا ـ خوى » على يد أخيه مرة أخرى وأخذ يردد :

ـ أنا راحل . لا تبتئس الى هذا الحد ، سنلتقى حتما مرة أخرى .

ثم ترك يد « جيا ـ شن » ومضى فى طريقه بسرعة حاملا فى يده المعلبات التى لفها له أخوه .

التفت « جيا ـ خوى » الى الخلف مرات كثيرة ... وأخذ « جيا ـ شن » يلوح له بيديه وهو واقف أمام البوابة ... اختفى « جيا ـ خوى » عن ناظرى أخيه ، لكن « جيا ـ شن » ظل فى مكانه فاقدا وعيه ملوحا بيديه تحية ووداعا لأخيه الراحل .

وصل الشقيقان الى منزل « تشن » ، طرق « جيا ـ من » بخفة نافذتها .. ثم سمعا سعالها ووقع أقدامها ، فتحت الستارة وظهر وجه « تشن » الناعس خلف زجاج النافذة بشعرها المشعث.

وابتسمت « تشن » لهما ... وفجـــأة لا حظت التعبير المرتسم على وجه « جيا ـ خوى » . اضطربت وسألته بصـــوت خفيض :

ـ اليوم ؟

فأومأ « جيا ـ خوى » :

ـ الآن .

شحب وجه « تشن » :

ـ هكذا بسرعة ؟

اقترب « جيا ـ خوى » من النافذة ، وحياها فى ود .

ـ أختى « تشن » !

لقد استطاع « جيا ـ خوى » رؤية وجهها فقط ... وكان يفصل بينهما لوح من زجاج .

تفرست وجهه بعينيها الرقيقتين ، وسألته بابتسامة حزينة:

ـ لن تنسانى ، أليس كذلك ؟

هز «جيا ـ خوى» رأسه ٠

ـ بلى ٠٠٠ وأنت تعلمين ذلك ٠٠٠

ـ انتظر قليلا ، لا تذهب ٠

اختفت من النافذة

وعادت وفتحت النافذة قليلا ، ثم ابتسمت ، وقدمت له صورة حديثة لها :

ـ هذا شيء وعدت باعطائه لك ذات يوم ٠

رفع « جيا ـ خوى » عينيه نحوها فى ابتهاج وشكر ٠٠٠ فرأى الستائر قد أغلقت ٠

نادى بصوت رقيق :

ـ الأخت « تشن » ٠

لم يتلق اجابة ، وحثه أخوه على الاسراع ٠ تبع «جيا ـ خوى» أخاه على مضض وخرجا من الدار ٠

اندفع الشقيقان فى الطريق مسرعى الخطا وهما يتجاذبان أطراف الحديث ٠ وعندما وصلا الميناء وجدا « تســـون ـ رن » و « خوى ـ رو » فى انتظارهما ٠

ضغط « خوى ـ رو » على يد « جيا ـ خوى » فى فرح :

ـ لقد انتظرناكما هنا زمنا طويلا ، لماذا تأخرتما الى هذا الحد ؟ كان من المحتمل رحيل السفينة بدونك ٠

تدخل فى الحديث السيد « وانج » قريب « تسون ــ رن » وهو تاجر متوسط العمر كان واقفا بجوارهم وابتسم قائلا :

ــ كلا ، كنا سننتظر بطبيعة الحال مقدم السيد « جاو » ٠

كان « جيا ــ خو » قد التقى من قبل والسيد « وانج » ، فقدمه الى أخيه « جيا ــ من » ٠

قال « تسون ــ رن » :

ــ « جيا ــ خوى » ٠ تعال لترى أمتعتك ٠

ثم قاده الى المركب ودله على قمرته ، وتبعهما « جيا ــ من »٠٠

وأضاف « تسون ــ رن » :

ــ أخذت حاجات سريرك وفرشتها لك ٠٠٠ وهذه اللفــة بها بعض الطعام والفطائر لتأكلها في رحلتك ٠ انهـــا هدية من « خوى ــ رو » ومنى ٠

أومأ « جيا ــ خوى » برأسه ٠

استأنف « تسون ــ رن » حديثه :

ــ سيرعى السيد « وانج » جميع شئونك ، لن يضايقك أى شيء ٠ انه سيوصلك حتى « تشينج ــ كنج » ، وهناك سيكون كل شيء سهلا ٠ لاتنس البحث عن ابن عمى عندما تصل الى هناك. فهو يستطيع مساعدتك ٠

سوف يستأجر المركب فى الميناء التـــالى بعض الموظفين الأثرياء ، وستكون هناك حراسة مسلحة على القارب ٠٠٠ كان على المركب مودعون كثيرون ، ودوى صوت فى الميناء معلنا قرب ابحار المركب ٠

دخل « خوى ـ رو » القمرة ، وربت كتف « جيا ـ خوى »:

ـ لاتنس الخطابات · اكتب لنا دائما ·

ضحك « جيا ـ خوى » :

ـ أوصوا أنتم أنفسكم يارفاق بالكتابة الى ·

جاء السيد « وانج » وأعلن :

ـ نحن على وشك الرحيل ، تفضلوا بالذهاب الى الشاطىء !

وكان مودعو السيد « وانج » قد انصرفوا ·

ذهب « جيا ـ خوى » مع شقيقه وزميليه فى الدراسة حتى السقالة ، وتصافحت الأيدى ·· حثه « جيا ـ من » بقوله :

ـ اعتن بنفسك ·

ثم عبر السقالة مع رفيقيه ·

وقفوا على الشاطىء ، ووقف « جيا ـ خوى » فى مقـــدمة السفينة ·

ولوحت الأيدى بتحية الوداع ····

انزلق المركب على صفحة الماء فى بطء ، بدأت الوجوه التى على الشاطىء تتلاشى رويدا رويدا الى أن اختفت · ظل«جيا ـ خوى» واقفا على المقدمة ينظر نحوهم ·· بدا له أنه مازال يراهم يلوحون له بأيديهم ، ثم رفع « جيا ـ خوى » يده ليمسح شيئا علق بعينيه، وعندما أنزل يده اختفت أيديهم الملوحة له من أمام عينيه ، وضاعت من خياله ·

بدا الماضى وكأنه حلم ، لم يعد أمامه سوى امتداد لميـــاه

خضراء عميقة ينعكس على صفحتها ظلال أشجار وجبال ··· وعلى سطح القارب عدد من البحارة يشدون بأيديهم مجاديف طويلة، وتشدو شفاههم بالغناء ·

تملك « جيا ـ خوى » احساس جديد ، لم يعرف أهو الفرح أم الندم ··· ؟ وان كان هناك حقيقة واحدة ثابتة ···· انه يرحل بعيدا عن عائلته ···· وأمامه مياه تمتد بلا حدود تحمله الى مدينة غريبة عنه ···· هناك كل شيء جديد ومتطور ···· مجالات جديدة ·· أناس جدد ··· أصدقاء جدد ·

هذا النهر ··· هذا النهر المبارك يحمله بعيدا عن الدار التى عاش فيها ثمانية عشر عاما ، ويدفع به الى مدينة جديدة وأناس لم يرهم من قبل · بهره الأمل ، لا وقت عنده ليندم على الحياة التى خلفها وراءه ··· وللمرة الأخيرة نظر خلفه وقال فى هدوء :

ـ وداعا ···

ثم نظر أمامه ، وتأمل النهر المندفع ومياهه الخضراء التى لم تتوقف لحظة على مر السنين عن سريانها واندفاعها الى الأمام ·

المطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧١/٤٦٧٢

وزارة الثقافة

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

المركز الرئيسى ١١١٧ شارع كورنيش النيل — القاهرة — ج.ع.م
تليفون ٧١٠٠٥٥ /٧١٠٠٥٨ تلغرافياً ياشرو

الادارة العامة للتوزيع . ١٧ شارع قصر النيل — القاهرة — ج ع م .
تليفون ٤٥٥٨٩ /٤٧٤٣٦

مكتبات القومية للتوزيع فى ج . ع . م .

القاهرة

٣٦ شارع شريف	ت . ٤٠٠١٢	١٩ شارع ٢٦ يوليو	ت ٥٥٠٣٢
٥ ميدان عرابى	ت . ٤٦٣٨٣	٢٢ شارع الجمهورية	ت . ٩١٤٢٢٣
١٣ شارع المبتديان	ت ٢١١٨٧	الباب الأخضر بالحسين	ت ٩١٣٤٤٧

الاسكندرية	. ٤٩ شارع سعد زغلول ٢٢٩٢٥	الجيزة	١ ميدان الجيزة ت ٨٩٨٣١١
دمنهور	شارع عبد السلام الشاذلى ٢٦٠٥	المنيا	شارع ابن خصيب ت ٤٤٥٤
طنطا	ميدان الساعة ٢٥٩٤	أسيوط	. شارع الجمهورية ت. ٢٠٣٢
المحلة الكبرى	ميدان المحطة ٤٢٧٧	أسوان	. السوق السياحى ت ٢٩٣٠
المنصورة	أول شارع الثورة ٣٨٦٤		

مراكز التوزيع خارج ج . ع . م

لبنان الشركة القومية للتوزيع — بيروت — شارع سوريا بناية أماه صمدى وصالحة
العراق: الشركة القومية للتوزيع — بغداد — ميدان التحرير — عمارة فاطمة

توكيلات وعملاء دائمين خارج ج . ع . م

الكويت وكالة المطبوعات ٢٧ شارع فهد السالم بالكويت
الاردن مكتبة المحتسب — عمان
ليبيا محمود عارف الشويهدى — طرابلس
اندونيسيا . عبد الله محمد العيدروس — جاكرتا
تونس : الشركة التونسية للتوزيع ٥ شارع قرطاج — تونس
الجزائر . ٩٢ شارع ديدوش مراد بالجزائر العاصمة
المغرب . المركز الثقافى العربى للنشر والتوزيع ٤٢ — ٤٤ الشارع الملكى — الأحباس —
الدار البيضاء
هولندا مكتبة بريل — ليدن

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
فى خدمة القارئ العربى

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر